السلسلة آداب وحضارة

الأزهر الزنّاد

اللغة والجسد



مركز النشر الجامعي

السلسلة
آداب وحضارة

الأزهر الزنّاد

اللغة والجسد



مركز النشر الجامعي

اللغــة والجســد

الأزهر الزنّــاد

اللّغــة والجســد

مركز النشر الجامعي
2017

المركب الجامعي – منوبة – ر.ب. 2010.

الهاتف: 025 600 71 (216) الفاكس: 266 601 71(216)

البريد الالكتروني: cpu@cpu.rnu.tn

كلمات مفاتيح:

الجسد – العرفنة – اللسانيّات العرفنيّة – المزج – التّلطيف – الاستعارة – النّحو الكونيّ – الأيقونيّة – الذّهن – الدّماغ – علم الأعصاب

Mots clés:

corps - cognition - gesticulation - intégration conceptuelle - euphémisme – métaphore - grammaire universelle - iconicité - esprit - cerveau - neurologie

Key words:

body - cognition - gesture - conceptual blending - euphemism - metaphor - universal grammar - iconicity - mind - brain - neuroscience

إلى ل.

وقد سكنتْ منّي وسكنتُ منها الجسد،

فكانت منّي وكنت منها كونا لا يمحوه الأبد.

(18 مارس 2012، 22:30)

اللّغة والجسد على غير المقدّمات

بقلم: الأستاذ المنصف عاشور (جامعة منّوبة، تونس)

ا. اللّغة والجسد، أيّهما مركز المراكز؟ مركز الكون؟ مركز المعرفة؟ كينونة مثلى منظومية قصوى، تكراريّة غير متناهية. احتماليّة راسخة منعقدة بالذّهن/الدّماغ، سابحة، بيولوجيّة، في قضاء الشّكل في أنماط عناصر جذريّة متراسلة تراسُلَ الصّوت والمعنى. جسد اللّغة لغة الجسد. يصّاعد صاحب الرّؤية يبلغ أرقى مدارجها اللّسانيّة الطّبيعيّة، فإذا بالتّماهي بينهما يطّرح أسبقيّة الواحد على الآخر وتساوقهما. فيقذف قذفا تُراسلَ العلامات والإشارات.

2. اللّغة والجسد رباعيّة الأبواب يخترقها اختراقا، يكرّر الحركة الإشارةَ. تفاعل الأشكال الإشارات النّحويّة. طبقات تأليفيّة. صفحة من مرآة، تعكس حركةُ الذّهن طبيعيّةَ البنية اللّغويّة ومنظوميّتها. صفحة من حوسبة نفسيّة متنقّلة طورا طورا. تدرك بنيةً سيميائيّة مجرّدة تجرّد تصميم اللّغة: جسد اللّغة، لغة الجسد.

2. 1 الباب الأوّل لوحة تقديم وتمثيل: تقديم فيزيولوجيّ نحويّ في نطاق نحو كونيّ وملكة لغويّة بيولوجيّة ثقافيّة. محاولة وجوه من رصد حيّز اللّغة في الجسد وتمثيله فيها على نهج رسم اللّوحة وتشكيلها. وسلاسل الرّباعيّة لوحة تشكيليّة مفردة.

2. 2 في الباب الثّاني يتجلّى الجسد في اللّغة: ترتيب مواضع من ترسيمة واحدة؛ يتوجّه الجسد إلى إجراءات إنحائيّة وصور متعدّدة في مظاهر التّلطيف ونضد الجسد والجسم في مستوى المعجم. فروح الجسد في اللّغة، حركة جوهر، جوهر وعرَض، وعرض وعرض في أبعاد لغويّة محضة.

2. 3 الباب الثّالث في جسد اللّغة: جسد مركّب من بنية مفردة تتوالى فيه الظّواهر والإشارة. فإذا بالإنسان محلّ المركزيّة، عامل التّوقّع. وتصريف جسد اللّغة في نماذج تمثيليّة ظاهرة في الكميّة والإيقونيّة فإيقاعيّة الجسد وعمل القول. والباب رحب مفتوح موصول بغيره، غيريّة متكرّرة منظوميّة.

2. 4 الباب الرّابع في لغة الجسد: ختم رباعيّة فضائيّة إضافيّة وصفيّة. إذ اللّغة في الجسد والجسد في اللّغة ظرفيّة مطلقة. وجسد اللّغة ولغة الجسد. جسد لغويّ ولغة جسديّة. إضافة وصفيّة. وإذا بالشّيء والرّمز والإيمائيّة والإشاريّة والحركة ضرب من النّحو، من العلاقات الذّهنيّة الاجتماعيّة الثّقافيّة، يجري في هندسة. الهندسة مستعارة من بنية اللّغة، النّحو. فتطرح الرّؤية المزجيّة التّأليفيّة التّحليليّة من شجرة واحدة. وإذا بالصّورة الجسديّة تجري وشما شعارا في ثورة علاميّة ثابتها اللّغة والجسد.

3. تعود اللّغة والجسد. جزء من كلّ. كلّ من جزء. يتساوقان يتعالقان. عطف مطلق. مطلق العطف الاسميّ. وقد تتواصل الأبعاد في أكثر من رباعيّة. وتعود بنية اللّغة تشتغل في قيودها النّحويّة ونحو قيودها. ذاكرة اللّغة ذاكرة الجسد أو العكس بالعكس. جسم وجسم في فضاء. أسرار عناصره مطّردة منتظمة متزاوجة غير متناهية، تراود المعنى بالشّكل. يولّد الشّكل شكل الجسد. هي اللّغة، شكل الأشكال. تتعامل بها في تكراريّة دالّة حدودها غير محدودة. هي اللّغة تجري، صورة جسديّة دالّة متواصلة.

3. 1 وإذا بالرّأس وأسرار خلاياه وذرّات خلاياه يكرّر لولبيّا مرايا الحركة المائيّة الطّبيعيّة، صورة مضمرة داخليّة تحول صورة مضمرة داخليّة تحول صورة مظهرة خارجيّة؛ فلا تفاصل بينهما. تحوّلات فتحوّلات في فضاء بيولوجيّ لغويّ لا يفيض عن تصميمه وهندسته يولّد وينشئ، يهدم ويسقط، فيبني ويعيد الإنشاء والتّوليد.

وإذا بالدّماغ/الذّهن يتوجّه إلى الاستئناف والحركة الاحتماليّة غير المتناهية يعيّن في نحو الفطريّة والكونيّة، العامّ والخاصّ، التّامّ والنّاقص. وقديما، كلّ أجسام في الرّواقيّة، تتحرّك حركات فضائيّة علاقات غير جوهريّة. شكل وشكل.

3. 2 ويشارك مركز الرّأس في توزيع الحركة التّوليديّة في سائر الأجهزة والشّبكات المتراسلة المتعاقدة في وجوه اشتغال نواة مركز المراكز: الجسد. مجمع العلاقات تتّصل وتنفصل: تتّصل منجذبة إلى مركّبه وتشتقّ مشتقّات وتنفصل متجابذة لتوليد سلاسل هي أيضا تشتقّ مشتقّات. والكلّ برنامج نحويّ كلّيّ قوامه تمازجّ وتجاذب وتناقل وتناظم وتعامل وتوافق وتشاجر وتواجه. عمليّات تجري لفظيّة معنويّة حركيّة قصديّة. والجسد طبقات عمليّات عقد وربط ونظم تختلف وتتكامل. أدوار وأدوار. كينونته في تخالفه عن الكينونات الأخرى الجارية في جسد الكون.

3. 3 ولكنّ الجسد غير الآلة الدّيكارتيّة، إذ هو من غير مادّة متصلّبة فحسب. هو صورة ومعنى؛ أسرارهما في نحويّة الأوّل ونحويّة الثّاني وإنشاء نحويّة قصوى أو سيميائيّة عليا تؤلّف بينهما. أسرارهما في سمات تمييزيّة بشريّة يحقّقها الإنسان -جنسا فريدا بعقله- فجسده مركز الكون. ونحويّته نحويّة سماته المتناقلة الجارية المتواجهة على وجه الطّبيعة.

3. 4 وفي نهاية السّمات غير المتناهية أشكال تتعامل طبقات متخالفة مترامية متمازجة، كينونة سيميائيّة. رأس الجسد علاقات. الإنسان. الإنسان علامة ظاهرة تولّد عضوا ذهنيّا، تولّد مركزا توليديّا تحويليّا لم يُكشف إلى حدّ الطّور الرّاهن سوى عن مراتب ناقصة جزئيّة من علامة تامّة مثلى. وكلّ ذلك جسد ولا جسد. لغة.

3. 5 هكذا تراءى الجسد في اللّغة في شكل من أشكال الرّؤية اللّسانيّة في زمن ثراء التّجربة التّواصليّة والنّفسيّة وتعاقد الفنون والعلوم والمساءلات

والمشاكلات بفضل حركات مختلفة ومقاربات مختلفة، واسطتها تفهّم اشتغال الإنسان الجسد العلامة، مركز المراكز، الكون النّحويّ، في اللّغة والجسد.

منّوبة، 05 جوان 2013

مدخــل
مسـائل إطـاريـّة

نجول بأجسادنا في العالم ولا يحدث أن نعي بها إلاّ في ما يندر لأنّنا نلبسها من حيث مثّلت القوقعة التي تحملنا ونحملها، ونجري آلاف الخطابات في اليوم الواحد، باللّغة حادثة بأجسادنا، ولا يحدث أن نعي بها إلاّ في ما يندر لأنّنا نجريها وبها نعيش أجسادا، ونأتي من الإشارات والحركات المعبّرة، بقصد أو بغير قصد، بأجسادنا؛ ولا يحدث أن نعي بها إلاّ لماما، لأنّها من عمل أجسادنا الّتي لا نعي بها إلاّ في ما يندر، نحن لا نعي بجميع ذلك تماما كما لا نعي بأنّنا نتنفّس، وبأنّ القلب ينبض منّا. وإن يحدث أن نعي بالواحد منها أو قل يعود الوعي به إلينا لسبب من الأسباب، فقلّما نعي بها معا وعيا واحدا والحال أنّها شيء واحد: نحن أجساد تنتج اللّغة والحركة والعمل والفكر، ونحن أجساد تتمثّل الجسد ونتصوّره في أذهاننا باللّغة، ونحن أجساد تبني الرّمز والثّقافة فتقيم الحضارة، ونحن أجساد متفلسفة، ولعلّ قراءة هذه الجمل، في هذه اللّحظة بالتّحديد، سبب في "عودة" الوعي بها جميعا عند القارئ، وذاك ما له وبه كان هذا الكتاب. هو محاولة في تبيّن ما يغيب، وفي رتق الفجوة بين ما تقاسمته دراسات متباعدة فتشتّت وتباعد، وفي العود بجميع ذلك إلى خيط ناظم منطلقه الجسد كائنا منتجا للمعنى بأدوات هي منه أعضاء (الدّماغ والجوارح) وبوسائط هي منه نشاط لتلك الأعضاء (اللّغة والإشارة).

الجسد كتلة منتظمة مكوّناتها أعضاء، ذو حدود مستقلّ بذاته ماديّا، يحتلّ حيّزا في الفضاء، وذو وجود مستقلّ بذاته ويتصوّر كذلك. فتصوّره يقوم أساسا على البعد المادّيّ الفيزيائيّ: بنية عضويّة ذات وجود موضوعيّ يستمرّ زمنا. فهذا هو "الجسد"[1]، من حيث هو وحدة أو شيء بيولوجيّ مادّيّ حقيقيّ أو بعبارة أوضح كتلة لحم حيّة. وإذ كانت هذه الكتلة حيّة فارقت هذا المفهوم المادّيّ ونزعته عن نفسها في الأذهان – وإن كان التّخلّص منها مستحيلا- لتلبس لبوس الرّمز والثّقافة.

والجسد كذلك كائن [يعيش] في مجموعة من الأجساد، فردا من بني جنسه، ولذلك يكون له مظهر تفاعليّ يمنحه بعدا آخر تجريديّا يتضمّن الاجتماعيّ والرّمزيّ والخياليّ بما في الواحد منها من تصوّرات ثقافيّة وجماليّة وعقائديّة وقدسيّة وما إلى ذلك. وجملة هذه التّصوّرات تمثّل الأجسادية[2]. وفي هذا التّصوّر يكون الجسد غير ذي أعضاء[3] (على حدّ عبارة دولوز وغطّاري[4] 1947) أو هو ذو أعضاء قد تفكّكت وانتشرت خارجه لتستقلّ منه أو تنفصل عنه في الوظيفة وفي التّصوّر وفي الرّمز (جولي بيران[5] 2006).

يستوي بهذا المفهوم للجسد بعدان: مادّيّ وثقافيّ رمزيّ. وهما بعدان متلازمان في وجوده واشتغاله في الكون، وإن كانا مفترقين في العناية به مفهوما وموضوعا خلال ما مضى من العصور. كانا مفترقين في ما مضى حيث غاب البعد المادّيّ وغلب البعد العقليّ، فكان الفضل للعقل وللرّوح

---

[1] body, corps
[2] corporéité
[3] Corps sans organes (CsO)
[4] Gilles Deleuze, Félix Guattari 1980.
[5] Perrin 2006

وللفكر نورا وطهرا وكمالا وحرّيّة ودواما، مقابل الجسد أو البدن طينا ودنسا ونقصا وقيودا وفناء، فهذا خادم لذاك في جميع الأحوال من حيث مثّل قوقعة تقيّد ملكة العقل وتحبسها. لقد كان الجسد إطارا جامدا ثابتا محدودا، والعقل إطارا حركيّا ديناميّا. ذاك، باختصار، ما كانت تتجاوب أصداءه الفلسفات بأنواعها والدّيانات على اختلافها والمشارب الفكريّة الأدبيّة بأصنافها، وبعض تلك الأصداء حيّ لم يمت في أيّامنا.

ولكن عاد الجسد في مظاهر متنوّعة فعادت العناية به في جميع المجالات تتراكم فيها الحقائق في شأنه آلةً بيولوجيّة طبيعيّة (علم الأعصاب، علم التّشريح، إلخ.)، وآلةً تحاكى في صنع الآلات الذّكيّة الاصطناعيّة، وما إلى ذلك ممّا يطول ذكره. وعاد الوعي بموقعه الطّبيعيّ أساسا ينبع منه كلّ شيء. فالجسد، على عبارة ميرلوبونتي (1945: 273)، 'ليس مجرّد شيء من جملة جميع الأشياء الأخرى ولا مركّبا من الصّفات المحسوسة من جملة صفات أخرى. إنّما هو شيء يحسّ به جميع النّاس الآخرين، يردّد صدى جميع الأصوات، يرتعش لجميع الألوان، ويعطي للكلمات دلالتها الأوّليّة عن طريق الوجه الّذي بها يستقبلها.'

وفي جميعها يمثّل الجسد مدخلا في تنظيم العالم والواقع ببعديهما المادّي الفيزيائيّ والعرفنيّ الرّمزيّ، وجميع ذلك أساس لتطوّر الملكات بأنواعها. وإذ كان كذلك كان حاضرا في جميع المباحث المنتمية إلى علوم العرفنة عامّة وإلى اللّسانيّات العرفنيّة على وجه الخصوص، والمنطلق فيها جميعا أنّ الجسد كائن في الفضاء وفي الزّمان وفي العالم، وعلى هذا المدار تتوزّع فروع القضايا. وذاك ما اجتمع في العرفنة المجسدنة[6].

---

[6] embodied cognition

العرفنة: التصوّر الخوارزميّ والتصوّر الجسدنيّ

تبحث الأبحاث العرفنيّة خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي على تصوّرين متعاقبين متقابلين هما التّصوّر الخوارزميّ الّذي تقوم عليه العرفنة الكلاسيكيّة أو النّموذجيّة؛ والتّصوّر الجسدنيّ الّذي تقوم عليه العرفنة المجسدنة، وهي مقابلة بين العرفنة جملةً من العمليّات الحوسبيّة تشتغل على التّمثيلات في الذّهن لا تتجاوزه، من جهة، والعرفنة عملا مجسدنا، من جهة أخرى.

وقوام التّصوّر الخوارزميّ رباعيّ من الأسس المترابطة بوجه يؤدّي به الواحد منها إلى قرينه (شابيرو[7] 2011: 49-50): أوّلها فقر المثير في العمليّات النّفسيّة، وهذا مدخل التّصور فيها عن تفسير المعلومات الّتي يحتاج إليها الكائن للتّفاعل تفاعلا ناجحا مع محيطه؛ وثانيها من تبعات الأول إذ يفترض في هذا التّصوّر أنّ العمليّات النّفسيّة يجب أن تتضمّن الاستدلال والتّكهّنات المرتبطة بالتّجربة والتّربية في شأن العالم على أساس معلومات ناقصة، وهذه العمليّات الاستدلاليّة قد تتضمّن افتراضات حول المحيط في سبيل استخراج النّتائج المناسبة من المعطيات المتاحة. وثالث الأسس أنّ العمليّات الاستدلالية ذات الطبيعة النّفسيّة الصّرف تهمّ جملةً من العمليّات الخوارزميّة المشتغلة في مجال التّمثيلات الرّمزيّة، فالعرفنة، في هذا المنظور، تشتغل بتشفير المنبهات في شكل رمزيّ وتعالج تلك الرّموز وفق ما تقتضيه القواعد الخوارزميّة الذّهنيّة لتنتج عندئذ سلسلة جديدة من الرّموز الّتي تمثّل خاتمة للعمليّة الخوارزميّة. ويتعلّق رابع الأسس بمجال الأبحاث النّفسيّة: فبما أنّ غاية علم النّفس تتمثّل في وصف الخوارزمات الذّهنيّة وبما أنّ هذه الخوارزمات تتحقّق في الدّماغ، يمكن للأبحاث النّفسيّة أن تحدّد

---

[7] Shapiro 2011

مجالها بالعمليّات الجارية داخل الدّماغ ليس غير. وهي تصوّرات لا تفسّر النّشاط العرفنيّ في جملته وشموليّته، بله أن تصمد أمام النّقود المختلفة.

العرفنة عملا مجسدنا

العرفنة المجسدنة برنامج بحث وليست نظريّة متكاملة المعالم، قوامها تصوّر العرفنة عملا مجسدنا أساسه تفاعل الذّات المعرفنة مع محيطها بتوسّط الجسد، وهي إطار نظريّ يبنى شيئا فشيئا وبتسارع وتنام في الموضوعات والمسائل وتزايد الكتابات فيها. ولعلّ ما كتب لايكوف (1987) وجونسون (1987) ومن لفّ لفّهما في العقد الثّامن من القرن الماضي يمثّل المعالم الأولى، ولعلّ كتاب فاريلا وطمسون وروش[8] (1991) ["علم العرفنة: الذّهن المجسدن والتّجربة البشريّة"]، يمثّل أبرز المعالم في تبلور نظريّة العرفنة المجسدنة مقابل العرفنة حوسبةً على تمثيلات. فقد كتبه ثالوث من الباحثين يتكامل أعضاؤه في تخصّصاتهم، فمنهم المختصّ في علم الحياة وفي علم الأعصاب (فاريلا) ومنهم الفيلسوف (طمسون) ومنهم عالمة النّفس العرفنيّ (روش)، ومن أبرز ما سطّر فيه:

نقض التّصوّر التّقليديّ القائم على اعتبار العرفنة جملة من العمليّات الحوسبيّة جارية على تمثيلات، والاستعاضة عن ذلك بجعلها "عملا مجسدنا". وفي هذا التّصوّر تكون العرفنة قائمة على أنواع التّجارب الفيزيائيّة الّتي تكون لنا بحكم امتلاكنا لأجساد ذات قدرات حسّيّة حركيّة متنوّعة. وتتجذّر الواحدة من هذه القدرات الحسّيّة الحركيّة، بدورها، في إطار عامّ جامع هو السّياق البيولوجيّ والنّفسيّ والثّقافيّ. والمقصود بالعرفنة "عملا"، أنّ العمليّات الحسّيّة والحركيّة أي الإدراك والعمل، لا ينفكّ الواحد منهما عن الآخر في العرفنة المعيشة. وعدم الفكاك بينهما قائم على أنّ الواحد منهما يتحدّد

[8] Varela, Thompson, and Rosch (1991)

بالآخر، فالأجساد في اشتغالها في المحيط تعيش تناوبا مستمرًا بين الإدراك والعمل، فتنقّلها في الفضاء مثلا يجعلها تدرك أشياء مختلفة ينجرّ عن الواحد منها عمل مختلف والعمل الواحد ينجرّ عنه إدراك ما وهكذا دواليك (فاريلا وطمسون وروش 1991: 173).

ويقع تصوّر العرفنة مجسدنة – في منظور فاريلا وطمسون وروش- ما بين التّصوّر المثاليّ (المثاليّة) والتّصوّر الواقعيّ (الواقعيّة)، من حيث كان الواقعيّ قائما على جعل العالم مستقلاّ في وجوده عن الوعي الحسّيّ به وهو عالم لا يتمكّن الجسد من الوعي به إلاّ من خلال تمثيلاته الّتي يختزنها، ومن حيث كان المثاليّ رفضا لوجود ذلك الواقع خارج ذهن الذّات المعرفنة[9].

فالعرفنة ترتبط عندهم بالقدرات الحسّيّة الحركيّة الّتي تعكس طبيعة الخصائص الحسّيّة والإدراكيّة للكائن. وفي جميع ذلك تبطل فكرة كون العالم سابقا في الوجود أو معطى سلفا ويصير -عندئذ- قائما على الذّات المدركة، ويبطل كذلك كون العالم شيئا ظاهريّا بمعنى بنية ينتجها العمل الذّهنيّ أو العرفنيّ. وإذ كانت الأعمال الحسّيّة الحركيّة متجذّرة في إطار عامّ جامع هو السّياق البيولوجيّ والنّفسيّ والثّقافيّ، يكون للفرد ولبني جنسه تصوّر واحد للعالم مشترك بينهم بحكم اشتراكهم في أدوات إدراكيّة وجسديّة واحدة، وهو أمر يتأكّد بتدخّل عوامل التّطوّر المشتركة، بيولوجيّها وثقافيّها، خلال التّاريخ المديد في نحت تصوّر مشترك للعالم.

---

[9] cognizer

الجسد نقطة التصافح بين الكائن والعالم

اعتمدت ثيلان وجماعتها[10] (2001) نظريّة النُّظُم الحركيّة[11] في دراسة الظّواهر العرفنيّة. ومن أهمّ النّتائج في تصوّر العرفنة أنّها مجسدنة بمعنى أنّها تنشأ في تفاعلات الجسد مع العالم. والعرفنة بهذا التّصوّر ترتبط بنوع التّجارب الّتي تكون للكائن المعرفن من حيث كان ذا جسد ذي قدرات حسّيّة حركيّة مخصوصة متّصل بعضها ببعض اتّصالا متينا، وجميع هذه القدرات تكوّن الحاضنة الّتي تتشابك فيها جملة الأنشطة العرفنيّة من قبيل التّفكير والذّاكرة والشّعور واللّغة وسائر الأنشطة الذّهنيّة وتتناغم. وتنقض هذه الفكرة التّصوّرات التّقليديّة للعرفنة في قيامها على تصوّر الذّهن أداة في معالجة الرّموز فيكون تبعا لذلك نشاطه مقتصرا على العناية بالقواعد والعمليّات الشّكليّة الّتي بها تجري تلك الرّموز في تمثيل العالم الواقعيّ تمثيلا مناسبا وتقترح مقابل ذلك أن تكون العرفنة مجسدنة من حيث تنشأ من تفاعل حركيّ نشيط بين ثالوث عناصره الجسد والإدراك والعالم، لا من برنامج عرفنيّ معقّد ينكشف شيئا فشيئا (ثيلان وجماعتها 2001: 1).

العرفنة بين الدّماغ والجسد

غلب على الدّرس العرفنيّ، في البدايات، تصوّر الدّماغ على أنّه العضو الوحيد المسؤول عن العمليّات الحوسبيّة الجارية على التّمثيلات وعن إنتاج العرفنة بالاستتباع. وبتطوّر الجسدنة تحوّلت بعض المواقف وتبدّلت:

فقد تخلّص الباحثون من اعتبار الجسد مجرّد حاوية للدّماغ أو مجرّد مساعد مساهم في أنشطة الدّماغ، ليستقرّ الأمر على أنّ الجسد شريك ملازم للدّماغ في إنتاج العرفنة. فالجسد يتضمّن منظومات بها يكون تحديد العرفنة بحكم ما له من حركيّة فاعلة أو منفعلة (التّنقّل في الفضاء، حركات

---

[10] Thelen, Schöner, Scherer, and Smith, 2001

[11] dynamical systems theory

الأعضاء، مواقعه في الفضاء، إلخ.)، وبها يكون تنظيم المعلومات، وبها يكون تحديد الخصائص الحسّيّة المتفرّدة الّتي تنشأ بها التّجربة الإدراكيّة المخصوصة.

فبعد أن كان الجسد والدّماغ منفصلين في التّصوّر الكلاسيكيّ صارا يتقاسمان مهمّة العرفنة ويتشاركان في العمليّات الّتي لا تكون من الواحد منهما منفصلا عن الآخر. ومن أبرز من سعى إلى إثبات هذا الأمر كلارك[12](1997، 2008) بتأسيس تصوّر للعرفنة وللمعالجة العرفنيّة قائم على التّفاعل بين ثالوث يضمّ الدّماغ والجسد والعالم بوجه متداخل مندمج تغيب فيه الحدود بينها، وما الفصل بينها إلاّ فصل مصطنع لا يفي بجوهر العمليّة العرفنيّة. فالجسد مكوّن حقيقيّ في المعالجة العرفنيّة وليس مجرّد مشارك في العمليّات العرفنيّة الجارية في الدّماغ دون موضع آخر. ولعلّ كلارك يمثّل علما من أبرز المؤسّسين المجذّرين للعرفنة المجسدنة الّتي يشبّهها بعض الباحثين بالثّورة الكوبيرنيكيّة (شابيرو 2011).

ويبقى السّؤال قائما في ما يذهب إليه وورف[13] (1956: 212-214) من أنّنا نقطّع الواقع -أو نشرّح الطّبيعة (على حدّ عبارته)- وفق خطوط تسطّرها لنا لغاتنا الّتي نتكلّمها بالأمومة، وأنّ جميع من يشاهد الكون والتّجربة لا ينقادون، بالضّرورة، بالواقع المادّي الواحد للوصول إلى تصوّر واحد للكون إلاّ إذا ما كانت خلفيّاتهم اللّغويّة متشابهة. فاللّغة- في تصوّره- تحدّد تصوّراتنا للكون من حيث تحدّد الطّريقة الّتي بها نفكّر وتحدّد ما نفكّر فيه. وهو ما يطلق عليه النّسبيّة اللّغويّة. وقد عادت هذه الفكرة إلى حيّز البحث والانبعاث من جديد في العقود المتأخّرة، ومثّلت الفكرة المحرّكة في

[12] Andy Clark (1997, 2008)
[13] Whorf 1956

وجهة في البحث قوامها الحتميّة اللّغويّة نافذةً على الحتميّة العرفنيّة.

ملاحظات في تصوّر هذا الكتاب

نحن كائنات نفهم اللّغة بجسدنا ونفهم جسدنا باللّغة، فهي هو، وهو هي، شيء واحد أو شيئان لا ينفكّ الواحد منهما عن الآخر. ولذلك كان التّوليف الرّباعيّ بين [الجسد] و[اللّغة] في هذا الكتاب تصوّرا وإنجازا: ثنائيّ يتوسّطه حرف الحلول (في) رابطا بين الجسد واللّغة: [اللّغة في الجسد] و[الجسد في اللّغة]، وثنائيّ آخر -كان لحرف الجمع المطلق (و) أن يتوسّطه لولا ضبابيّة في معناه- يتوسّطه رابط الإضافة أو النّسبة بينهما: [لغة الجسد] و[جسد اللّغة]. وعلى هذا ينقسم هذا الكتاب إلى أبواب أربعة بما في الواحد من جميعها من أفنان وأغصان. ومن المعلوم أنّ الفنّ الواحد منها يشغل العمر كلّه ولا يُستوفى في دقائقه وأغواره.

كذب الحكماء منذ القديم إذ قالوا: الإنسان حيوان ناطق، وكذب منهم من أضاف إلى جميع ذلك: ضاحك. فالإنسان إنسان بجسده وبلغته وبنطقه وبضحكه. هو الحيوان بجسده، والنّاطق بجسده والضّاحك بجسده، هو ذاك الحيوان الفريد بذكائه، هو جسد ذكيّ ليس غير، وذكاؤه من دماغه ليس غير، ونطقه من دماغه ليس غير، وضحكه من دماغه ليس غير، هو إنسان بدماغه، وإذ كان الدّماغ جزءا من جسده، كان إنسانا بجسده ليس غير. ولذلك وجب البحث في العلاقة بين الرّكيزتين اللّتين يتفرّد بهما في الكائنات: بين جسده ودماغه من جهة، وبين لغته وذكائه من أخرى، وبين جسده ولغته من جهة ثالثة تعمّهما. فهذا الكتاب سعي إلى البحث في بعض المظاهر من ذلك.

البــــاب الأوَل

اللَغـــة فـــي الجســـد

مقدّمة الباب

عندما يأتي جزء ممّا ندرك من خلال حواسنا، من الشيء الماثل أمامنا، إنّما يأتي جزء آخر (وقد يكون الجزء الأعظم) من رؤوسنا.

(ويليام جايمس 1890: 103)

تنقسم علوم الدماغ أو علوم الأعصاب قسمة كبيرة إلى فرعين هما مجموعتان من العلوم: مجموعة تدرس مكوّنات النّظام العصبيّ وعناصره الصّغرى في أدقّ تفاصيلها من قبيل الخلايا العصبيّة والأغشية والهباءات والموصّلات وذلك من حيث تكوينها وتعاملها الكهربيّ الكيمياويّ، دون أيّ اعتبار لمظاهر السّلوك الّذي يكون للكائن المزوّد بنظام عصبيّ. ومجموعة أخرى (علوم الأعصاب العرفنيّة) على خلاف المجموعة الأولى متركّزة أساسا على السّلوك بجميع معانيه لذلك تكون العناية فيها بالميكانيزمات الظّاهرة الّتي توجّه السّلوك وتحكمه في العموم، وعلى الوظائف الذّهنيّة الرّمزيّة العليا بوجه خاصّ. وبينهما فروق في المنهج والغاية فالمجموعة الأولى تسعى إلى ضبط الميكانيزمات الأساسيّة الّتي ينبني بها الجهاز العصبيّ ويشتغل في أبسط أنشطته والثّانية تسعى إلى تبيّن ميكانيزمات السّلوك بأنواعه، ومن هذه المظاهر السّلوكيّة تكون العرفنة أبرزها، فالعرفنة نشاط وكلّ نشاط ذو متغيّرات سلوكيّة يتجلّى فيها. وليتجلّى الفارق ومجال التّقاطع بين الفرعين يمكن اعتماد مثال من الحياة اليوميّة وليكن القطّ في حال جوعه. فللجوع مظهر فيزيولوجيّ عامّ يتمثّل في انخفاض نسبة السّكّر في الخلايا العضليّة وما إليها من سائر الأعضاء وهو أمر من أصله خارج عن علوم الأعصاب، ولكنّ التّغيّرات الّتي تحدث في مستوى النّظام العصبيّ من

مجال علوم الأعصاب، أي كلّ ما له صلة بالسّلوك الّذي يكون من القطّ في حال الجوع باحثا عن الطّعام. فالبحث عن الطّعام قائم على تخطيط وسعي إلى الحصول عليه وفق الظّروف، حيث يمكن للقطّ أن يقصد موضع الطّعام المعهود أو يدخل المطبخ باحثا عن الطّعام أو يوسّع دائرة بحثه شيئا فشيئا إن لم يجد، فيكون منه القفز على الطّاولة وتناول ما يجد فوقها إن توفّر، أو التّفتيش في أكياس القمامة في المطبخ أو خارجه على مسافة قد تقصر أو تطول، أو في نهاية المطاف اللّجوء إلى الصّيد. وفي جميع هذه الاحتمالات يعتمد القطّ على خرائط للمكان وعلى ما له من تمثيلات للمحيط بأنواعه داخل البيت أو خارجه، وعلى تخطيط أو إستراتيجيّة وفق النّشاط المتاح؛ فالقفز على حاوية القمامة في الشّارع مختلف عن فتح كيس القمامة في البيت مثلا، وأمّا الصّيد أو القنص فله ما هو معلوم من الأطوار والتّقنيات. والمهمّ أنّ جميع هذه الأنشطة قائم على توازٍ بين مجموعتين كبريين من الأنشطة العصبيّة: مجموعة الأنشطة العصبيّة الصّرف تشمل العمليّات العصبيّة الدّنيا من قبيل نقل الإحساس بنزول السّكّر إلى الدّماغ أو نقل الإحساس بالشّبع بعد الأكل أو رائحة الطّعام الكائن في موضع خفيّ أو تبيّن العصفور على الشّجرة من بين الأوراق وما إلى ذلك، والمنعكسات المختلفة الّتي تضمن التّوازن في التّنقّل أو القفز وعمل القبض على الشّيء أو المضغ وما شابه، وهذا هو مجال العلوم العصبيّة الصّرف، وأمّا المجموعة الأخرى فتتضمّن كلّ ما به تتفاعل جميع الآليّات المذكورة منذ حين في ما بينها وتتناغم وتتكامل وتتناسق من جهة وفي ضوء ما يتوفّر في المحيط والمنبّهات الخارجيّة، من جهة أخرى، فيكون السّلوك المعلوم من تجول في الفضاء مثلا وتخطيط لمستوى القفزة واتّجاهها وتقدير علوّها وفق ارتفاع الحاجز، وتبيّن لموقع النّافذة وما إلى ذلك حيث يكون للتّجربة السّابقة دور كبير من خلال ما سُجل من تمثيلات مختلفة.

وقياسا على هذا يمكن تناول السلوك اللّغويّ عند البشر من زاويتين وهما القسمان الأساسيّان لهذا الباب بحكمان توزيع فصوله وفقراته: الكلام ذو مظهرين عصبيّين: مظهر عصبيّ نطقيّ عضليّ ومظهر سلوكيّ عصبيّ عرفانيّ يهمّ الأنشطة العليا.

ولعلّ السّعي إلى إثبات الأسس العصبيّة في قيام الملكة اللّغويّة مطمح كبير محفوف بالمزالق النّظريّة وبالصّعوبات العمليّة لضيق التّقنيات ومحدوديّتها واتّساع كلفتها المادّيّة والبشريّة، مقابل ما قد يثبت بها من كون اللّغة مركوزة في الدّماغ، هي هناك وكفى عند بعض النّاس، بل قد يكون هذا المسعى مثارا لتساؤلات من يكتفون بإثبات اللّغة ملكة منقطعة عن الجسد المنتج لها أو الّذي تحلّ فيه. ولكنّ البحث من حيث كان سبيلا إلى الكشف عن المجهول وتركيزا للمعلوم ذي الرّكيزة المجهولة بحكم حال المعرفة في عصر من العصور، عليه أن يثبت الثّابت على أساس ثابت. فجميع النّاس يتّفقون في كون اللّغة مركوزة في الدّماغ، ولكنّ المشكل في كيفيّة ذلك، فيكفي علوم الأعصاب واللّسانيّات خاصّة وعلوم العرفنة بصورة عامّة، أن تثبت وجوه ذلك لتكون قد حقّقت شيئا مهمّا في حياة الكائن البشريّ من حيث هو ناطق مفكّر. وإذا كان ذلك كانت من العلوم المفيدة للإنسان مطلقا فهي تحقّق خطوة نهائيّة أساسيّة في فهم ما به الإنسان إنسان، لا بتحقيق فهم للّغة أو للعقل بل بإثبات الوجوه الّتي بها يكون إنتاجهما في الدّماغ ذلك العضو الطّبيعيّ المعقّد.

فاللّغة مهما كان المظهر الّذي تتجلّى فيه على مستوى الفرد أو على مستوى النّوع البشريّ، ليست مجرّد أصوات أو خطابات تتوالف الأولى لإنتاج الثّانية أو تتكون الثّانية من الأولى، وليست الأصوات فيها محاكاة لما في الطّبيعة منها، وليست مجرّد إيماءات أو إشارات، وليست وليست...

ولنفترض أنّها كذلك أو لنسلّم بكونها مجرّد أصوات مع المسلّمين بذلك، ولكن يبقى السّؤال المطروح كيف تتوالف تلك الأصوات؟ وكيف تخزّن أو تحفظ؟ وكيف تفهم أو تؤول؟ وكيف تكتسب في ذواتها و/أو في توليفاتها؟ وكيف يبدع الأفراد أبنية جديدة منها بتوليفات مستحدثة؟ إلخ. وجميع ذلك ذو أساس عصبيّ يتلخّص في أعمال علميّة كثيرة لعلّ من أبرزها أعمال ليبرمان وجماعته (ليبرمان[14] وجماعته 1965، 1985، 2000، إلخ):

تميّز اللّغة، بصورة عامّة، وتميّز الأصوات اللّغويّة، بصورة خاصّة، بالخصائص المعلومة، إنّما يقترن بما يحدثه الصّوت اللّغويّ من إنشاط التّمثيلات الذّهنيّة بأنواعها الحركيّة وغير الحركيّة لتلك الأصوات في دماغ من يسمعها، وبما يحدثه الصّوت اللّغويّ المسموع من إنشاط للتّمثيلات الصّوتيّة الحركيّة بأنواعها في الدّماغ حيث تنشط الخلايا العصبيّة المختصّة فيها إنجازا وتأويلا على أساس وظيفيّ عصبيّ، وجميع ذلك يمثّل الأرضيّة العصبيّة الحاضنة للّغة. وهذا ما يكون من موضوعات الفصل الأوّل من هذا الباب.

وإذا كانت اللّغة في جميع مظاهرها ظاهرة ذهنيّة وكانت جزءا من العرفنة أو الذّكاء في مفهومه العامّ، وكانت جميعها من إنتاج الدّماغ عضوا طبيعيًا ماديًا، كيف يمكن العود بالتّجريديّ الرّمزيّ إلى أرضيّته المادّيّة الفيزيائيّة؟ يظلّ هذا المبحث مطروحا وإن أمكن الكشف عن تجلّيات الذّهن المادّيّة في شكل أنشطة أو إثارات متموقعة في مواضع مخصوصة من الدّماغ يمكن ملاحظتها وتصويرها وقيسها، فإنّ المظهر الذّهنيّ الرّمزيّ يظلّ عصيًا، ولكن إلى حين.

---

[14] Lieberman & alee, 1967, 1985, 2000

نعول في هذا الباب على ما ثبت من حقائق في علوم الأعصاب نسعى إلى تقديم ما يخدم توجّه الكتاب، ولكنّ التّأويل موارده شتّى قد نعتمد فيه على الثّابت في التّظريّة النّفسيّة العرفنيّة أو اللّسانيّة العرفنيّة. وجميعها يصبّ في اتّجاه واحد موحّد: هو الرّبط بين النّحو والدّماغ بالإجابة عن سؤال بسيط في طرحه وصوغه ولكنّه برنامج بحث متكامل مترامي الأطراف: كيف تتحقّق الملكة اللّغويّة في الدّماغ أو كيف يتضمّن الدماغ الملكة اللّغويّة ويحقّقها؟ وذاك معنى تسمية هذا الباب باللّغة في الجسد.

الفصل الأوّل
الأرضيّة العصبيّة للملكة اللّغويّة

"ولكن إذا ما وجدت غريزة لغويّة، وجب أن تكون مجسّدة في موضع ما من الدّماغ، ووجب أن تكون تلك الشّبكات العصبيّة قد أعدّت سلفا لأداء أدوارها من قبل الجينات الّتي بنتها."

(بنكر 1994: 299)

مقدّمـة

يأخذ العرض في هذا الفصل منحى من العامّ فالخاصّ جريا على ما نتصوّره من بنية تكوينيّة في الدّماغ: فالدّماغ عضوا، ذو هندسة تحكمه على درجات حيث يجري تقسيمه إلى مناطق أو مراكز ثمّ الخلايا العصبيّة المكوّنة لها والمؤدّية لوظائفها ثمّ الجينات اللّغويّة أو جينات النّحو. يكون المعوّل في هذا الفصل، على ما ثبت من النّتائج والمبادئ والحقائق، أو ما بدا لنا منها كذلك، في حدود ما أمكننا الاطّلاع عليه من الدّراسات، ولجميعها آفاق منيرة للدّرس اللّغويّ بفضل ما ساهمت به فيها تقنيات التّصوير العصبيّة الحديثة، من مثل اكتشاف النّورون المرآة عند القردة وعند الإنسان وفي تدقيق مواطنه في الدّماغ ووصف منظوماته وتشعّب وظائفها وتنوّعها. ومن هذه التّقنيات الإثارة المغنطيسيّة عبر الجمجمة[15] وتقنيات تصوير الدّماغ[16] والرّسم الكهربيّ للدّماغ[17] وتقنيات أخرى كثيرة. وقد جعلنا هذا الفصل فقرات بعضها في بنية الدّماغ وهندسته من حيث طبيعة الخلايا المكوّنة له وترابطها في مراكز دماغيّة ذات أنشطة متمايزة متداخلة في آن يحكمها التّتابع والتّوازي

---

[15] transcranial magnetic stimulation (TMS)
[16] brain imaging technique
[17] electroencephalograph (EEG)

تتوزّعها مواطن محلّيّة وأخرى موزّعة، وجميعها كائن في فضاء الدّماغ من حيث هو خارطة تحدّد بقاعها مواطنَ لعدد من الأنشطة بأنواعها ومنها اللّغة، ثمّ يكون التّركيز في "النّورون المرآة" موقعا ووظيفة تشمل ما في حياة الكائن من أنشطة اللّغة والتّفاعل والمحاكاة والتّعلّم أو الاكتساب، وما إلى ذلك، ثمّ يكون النّزول إلى ما دون الخليّة بحثا في المسلك الجينيّ الممكن (فوكس ب2)، سبيلا إلى توصيف الملكة اللّغويّة واحدا من سبل يقود الواحد منها إلى إنشاء فرضيّة ممكنة قد يكون لها باب على فكّ مغالق الجمجمة، وفي جميع ذلك يتلازم المظهر العرفنيّ العامّ والمظهر النّحويّ اللّغويّ.

هندسة الدّماغ

الدّماغ أو المخّ عضو مقرّه قحفة الرّأس يتكوّن من الخلايا العصبيّة المترابطة بأنواع من الأربطة، ولتقريب الصّورة يمكن تشبيه الخلايا بالآجرّ والتّرابطات بالإسمنت الّذي يربط بين الآجرّ ليكوّن هيكلا عمرانيا ما (دماسيو، 2010: 365)[18].

يتكوّن النّورون من ثالوث من العناصر الأساسيّة: (1)- الجسم الخلويّ[19]، وهو بمثابة المولّد الكهربائيّ في الخليّة، يضمّ مكوّنات الخليّة المعتادة من نواة وحبيبات خيطيّة[20]، وفي النّواة يكمن الجينوم[21]. (2)- المحور العصبيّ[22] وهو السّلك المركزيّ الّذي يخرج من الجسم الخلويّ، (3)-التّغصّنات[23] وهي أسلاك أو ألياف داخلة في الجسم الخلويّ ملتصقة به مكوّنة ما يشبه الأغصان الدّقيقة. وتترابط النّورونات في ما بينها بواسطة

---

[18] Damasio, 2010
[19] corps cellulaire(s)
[20] mitochondrie(s)
[21] génome(s)
[22] axone(s)
[23] dendrite(s)

المشتبك العصبي[24]. حيث تكون الوصلة كيمياوية بين محور نورون ما وتغصنات نورون آخر. ويمكن أن يكون للنورون الواحد أكثر من خمسين ألف تشابك مع نورونات أخرى، من خلال التّغصنات والجسم الخلويّ. وهذا العدد كاف لنتصور طاقة التّرابطات الهائلة الّتي يتكوّن منها الدّماغ وطاقة الحوسبة الّتي تنجزها تلك التّرابطات.

وللنّورون حالتان: حالة النّشاط أو الإثارة، وحالة الخمود أو انعدام الإثارة؛ أو بعبارة متداولة يكون مشعلا أو مطفأ (دماسيو 2010: 365). ويتمثّل النّشاط في حدوث إشارة إلكتروكيمياوية تنتقل عبر المحور وتخترق غشاء نورون آخر من خلال المشتبك العصبيّ فتُنشطه. يجري جميع ذلك بسرعة فائقة لا تتجاوز بعض الملّيثواني (ألف جزء من ثانية)، وهذا ما يفسّر ما للعمليّات العصبيّة والذّهنيّة الّتي تكون في الدّماغ من سرعة متناهية وتعقّد كبير. وعندما تصل الشّحنة الكهربائيّة مستوى المشتبك تتحرّر موادّ كيمياويّة تسمّى النّواقل العصبيّة في الفضاء ما بين الخليّتين تنشط لها الخليّة القابلة أو لا تنشط وفق ما تستقبله منها، وهكذا دواليك.

وتكون المشتبكات العصبيّة قويّة أو ضعيفة، وبهذه القوّة يتحدّد استمرار الشّحنات أو عدم استمرارها عبر الخلايا الموالية وكذلك الكيفيّة الّتي يكون بها ذلك. فقوّة المشتبك تسهّل المرور بينما يتعطّل أو يعرقل في حال ضعفه. ويمثّل رسوخ مشتبك ما وقوّته أساسَ التّعلّم[25] والذّاكرة، يسهل به انتشار الشّحنات العصبيّة عبر شبكة متتالية من النّورونات لسهولة إنشاطها.

---

[24] synapse(s)
[25] learning, apprentissage

وتنتظم النّورونات في شبكات متفاوتة في الحجم والامتداد، فمنها ما يكون شبكة صغرى[26] محلّية تتحدّد أنشطتها في موقع صغير للغاية، ومنها ما يكون شبكة كبرى تضمّ الكثير من الشّبكات الصّغرى فتكوّن جهة[27] أو منطقة، تقوم على هندسة محدّدة.

وهذه الهندسة من نوعين: نوع "النّواة[28]" ونوع "حزام القشرة الدّماغيّة[29]"، والفرق بينهما كائن في توزيع النّورونات ونمط تجميعها. ففي "حزام القشرة الدّماغيّة" تتجمّع النّورونات في ألياف ثنائيّة الأبعاد تتكوّن من طبقات يتراصف بعضها فوق بعض كما تتراصف الطّبقات في كعكة الحلوى، وتكون في مستوى القشرة الدّماغيّة. وأمّا في النّوع "النّواة" فتتجمّع النّورونات، في الأغلب، على شكل عنقوديّ ذاهبة في جسم الدّماغ في جميع الأبعاد، وتكون في مستوى ما تحت القشرة من الدّماغ. وبين الجهات المختلفة المكوّنة من أحزمة القشرة الدّماغيّة أو من التّجمّعات العنقوديّة تحت القشريّة، ترابطات متبادلة تنشأ لها منها شبكات ذات اتّساع هائل، وتترابط أحزمة القشرة الدّماغيّة في ما بينها ترابطا تفاعليّا، وكلّ حزام منها مترابط بتجمّع عنقوديّ أو أكثر. وتجتمع التّرابطات بين أحزمة القشرة الدّماغيّة والتّجمّعات العنقوديّة في ألياف كبرى من المحاور العصبيّة يطلق عليها "إسقاطات[30]"، على وجهين تكوّن بالأوّل منهما نظاما[31] وبالثّاني منهما في حال التّعدّد والتّعقّد نظاما من الأنظمة[32] (للمزيد من التّفصيل انظر: دماسيو 2010: 368 وما بعدها).

---

[26] microcircuit(s)
[27] region(s)
[28] noyau
[29] bande de cortex cerebral
[30] projection(s) axonale(s)
[31] système
[32] système de sytèmes

وليكتمل العرض وجب الحديث عن الإسمنت الّذي يمثّل السّدى و البيئة الّتي تضمن اشتغال النّورونات وقيام التّرابطات بينها. يؤدّي ذلك نوع آخر من الخلايا هي الغراء أو الخلايا الغرائيّة[33]. ويتمثّل دورها في تغطية النّورونات لضمان الانتقال النّاجع للشّحنات العصبيّة دون ضياع أو تشتّت، وفي تغذيتها وفي حمايتها بل منها ما يكون حاملا لما يكون بين النّورونات من تبادل كيمياويّ لا ينتقل بالضّرورة عبر المسلك التّقليديّ في ذلك أو عبر المحور العصبيّ (دولاكور[34] 1998: 58-59).

المراكز الدّماغيّة

يجري تحديد الجهات المختلفة في الدّماغ أو ضبط خارطته وفق أسس عديدة منها أسس تكوينيّة وأسس وظيفيّة وأسس ترقيميّة. وبين الثّالوث تناسب، فتكون الإشارة برقم من الأرقام - في نظام برودمان[35]- إلى جهة أو موقع في الدّماغ باعتماد طبيعة التّركّب المخصوص بها من حيث النّورونات المترابطة (الهندسة التّكتونيّة الخلويّة[36]) لأداء وظيفة من الوظائف. فالوظيفة في المراكز أو الجهات الدّماغيّة تتحدّد بالبنية الخلويّة التّشريحيّة كما تتحدّد بموقع المركز في فضاء الدّماغ بأبعاده الثّلاثيّة؛ وتتحدّد كذلك وفق السّلّم التّطوّريّ في تكوّن الدّماغ. فالتّجمّعات العنقوديّة أقدم في الزّمن التّطوّريّ من الأغشية القشريّة ولذلك تميل إلى التّموقع في داخل الدّماغ على عكس القشرة الّتي تتموقع في الطّبقة الخارجيّة. وتتحدّد الوظيفة المقترنة بمركز أو بجهة مخصوصة في إطار الوظيفة الكبرى للدّماغ بالمراكز المشاركة لها في نشاطها أو بتلك المراكز الّتي يكون لها معها ترابط عصبيّ وتبادل كيمياويّ ما، ينتج عنهما تفاعل ما بينهما، أو بكلام آخر تتحدّد وظيفة مركز عصبيّ ما

---

[33] glia, glie, cellule(s) gliale(s)
[34] Delacour, 1998
[35] Brodmann
[36] cyto-architectonique

بالمركز الّذي يرسل إليه نوروناته لترتبط به أو يستقبل منه نوروناته بأن يرتبط بها (داماسيو 2010: 369 وما بعدها).

ومن الأمثلة الّتي تثبت بها الجغرافية الدّماغيّة في توزّع المراكز في فضائه بأبعاده الثّلاثة وفي تعدّد المراكز واختلافها في الوظائف، أنّ الدّماغ يمكنه بمختلف مراكزه أو جهاته أن يؤدّي عملين متزامنين مختلفين أو أكثر، في العموم الأغلب. ولكنّ ذلك يكون أيسر وأكثر ضمانا في نجاعة العمليّات عندما تكون المراكز المسؤولة عن كلّ واحدة من تلك الأعمال متباعدة ومختلفة، وذلك من قبيل اليسر في الحديث في الهاتف، والرّسم بالقلم، أو التّخطيط على ورق، في آن، فهما نشاطان متوازيان متزامنان لا يضير الواحد منهما الآخر لاختلاف المركزين المنجزين لكليهما. ولكنّ الجمع بين الحديث مثلا وكتابة ملاحظة أو تدوين كلام قد يجهد الدّماغ أو يشوّشه لما بين النّشاطين من اشتراك في المركز المسؤول عن كليهما (ريستاك 2010: 72).

النّورون: طبيعته ونشاطه

تتجاذب طبيعة النّشاط العصبيّ وجهتان أو بُعدان: المحلّيّة[37] أو التّوزّع[38] من حيث الموقع في النّظام العصبيّ، والتّتابع[39] أو التّوازي[40] من حيث طبيعة العمليّات العصبيّة جارية في نشاط الدّماغ. ويندرج في النّوذج الواحد توجّه يجمع بين الأركان الأربعة واحدا بواحد فيكون النّشاط محلّيّا موزّعا أو تتابعيّا متوازيا، كما نبيّن لاحقا.

---

[37] local, local(ized)
[38] distribué, distributed
[39] sériel, serial
[40] parallèle, parallel

ولعلّه من المفيد التّمييز بين الوظيفة والمركز، لما بينهما من التّلازم في الأذهان من غير ذوي الاختصاص أو الاطّلاع الكافي، حيث يذهب الظّنّ إلى أنّ الوظيفة الواحدة مقترنة بمركز واحد وأنّ المركز الواحد ذو وظيفة واحدة. ولكنّ الأمر على خلاف ذلك، إذ يكون المركز مشاركا في وظائف مختلفة وتكون الوظيفة الواحدة مشتركة بين مراكز مختلفة، فالمركز ليس شيئا ثابتا والوظيفة ليست ثابتة في الموقع، كما أنّ تركيبة النّورونات قد تتبدّل وفق توليفات متعدّدة بعضها ثابت حاصل بيولوجيّا وبعضها وليد التّعلّم والتّجربة، وما إلى ذلك. وهذا ممّا به يستعيض الكائن الحيّ عن الأجزاء التّالفة في أداء الوظيفة الواحدة، بتركيبة نورونيّة جديدة تنوب عنها في أداء الوظيفة.

لا جدال في كون الأنشطة الحسّيّة والأنشطة الحركيّة محلّيّة بمعنى محدّدة في المكان من فضاء الدّماغ. فهذه الأنشطة تهمّ أبنية نورونيّة وترابطات ثابتة في مواقعها من النُّظام العصبيّ، وهذا أمر يثبته الوصف التّشريحيّ كما تثبته الأعراض المرَضيّة، حيث تتعطّل الوظيفة الحسّيّة من قبيل الإبصار أو السّماع أو غيرهما بتعطّل قسم من منطقة الإبصار أو منطقة السّماع، أو تتعطّل الوظيفة الحركيّة المخصوصة بتعطّل قسم من المنطقة الحركيّة المعنيّة بها. ولكنّ كون المركز المسؤول عن تلك الوظيفة بعينها محلّيّا بمعنى محدودا ثابتا في فضاء الدّماغ، محلّ جدل ونقاش. فمجموع النّورونات الّتي تؤدّي تلك الوظيفة تكوّن نظاما من الأبنية المترابطة ليست متمركزة في نقطة بعينها محدودة في الدّماغ، فهي لا تمثّل مركزا بعينه وإنّما هي منتهى لجملة من الأبنية النّورونيّة المتظافرة الموزّعة على نقاط أو مراكز متباعدة ولكن مترابطة في الدّماغ.

فالمحلّيّة أو التوزّع أمر مشكل يصعب البتّ فيه في حدود المعارف الرّاهنة. ذلك أنّ للواحد منهما من الدّلائل والمعطيات ما يدعمه وله منها ما ينقضه في آن. فالوظيفة محلّيّة إذا كان حاملها العصبيّ وحيدا في النّظام العصبيّ بمعنى تؤدّيها عناصر تنتمي إلى مجموعة مخصوصة بأداء تلك الوظيفة انتماء واحدا. والوظيفة موزّعة إذا كان حاملها العصبيّ موزّعا بمعنى يتشارك في أدائها مجموعة من العناصر المنتمية إلى أبنية مختلفة للواحدة منها وظيفة أخرى تؤدّيها، ومشاركتها في الوظيفة المعنيّة عرضيّ أو حاجيّ. ولكنّ الأمر يزداد تداخلا حسب درجة التّركّب والتّعقّد في الوظائف، فقد تكون محلّيّة في مستوياتها الدّنيا أو الأساسيّة وموزّعة في مستوياتها العليا. فللوظائف الحسّيّة مثلا (الإبصار، السّمع...) ميل إلى المحلّيّة في نسبة منها من حيث تموقع حاملها العصبيّ في موضع محدّد في الدّماغ، ولكنّها موزّعة كذلك من حيث الحاجة فيها إلى مشاركة أبنية عصبيّة أخرى في تحليل المعطيات. فإبصار الشّيء مثلا يقوم على تحليل الكثير من المعطيات الفضائيّة والتّشكّلات الهندسيّة وما إليها ممّا تنهض بتحليله مراكز أخرى من خارج منطقة الإبصار، ولذلك يكون تمثيل الأشياء في الفضاء، مثلا، عملا مشتركا بين نظام الإبصار الظّهريّ[41] ونظام الحركيّة الإراديّة[42]؛ ففي هذه الوظيفة بالتّحديد يكون الأوّل جزءا من الثّاني (دولاكور 1998: 68).

وكذا الأمر في مستوى النّورونات من حيث اختصاص الواحد منها بوظيفة محدّدة (أي المحلّيّة) أو تشارك مجموعة منها في وظيفة بالتّكامل بينها (أي التّوزّع). فقد ساد في علوم الأعصاب المعتقد في كون النّورون الواحد مختصّا في وظيفة جزئيّة لا يقوم بها إلاّ هو، هو تخصّص في أداء وظيفة محدودة بسيطة مفردة كأن يحلّل سمة بعينها دون غيرها، وهذه

41 Système visuel dorsal
42 Système de la motricité volontaire

تضاف إلى ما تؤدّيه نورونات أخرى من المركز نفسه لتؤلّف في نهاية المطاف وظيفة كبرى متجانسة. وهي فرضيّة ضعيفة لم تصمد أمام فرضيّة التوزّع في اشتغال النّورونات.

وفي هذه الفرضيّة، يُتصوّر أنّ مجموعة من النّورونات تشترك في أداء وظيفة كبرى واحدة اشتراكا واحدا تعمل وفق تكامل بأن ينهض الواحد منها بجزء منها محدود ويكمله النّورون أو النّورونات الأخرى على أساس التّناوب أو التّعاقب. وحسب تشكّل نشاط النّورون الواحد يكون تشكّل النّشاط الجماعيّ فتكون الوظيفة محصّلة تلك التّشكّلات وفق ما يكون في نشاط التّجميعة النّورونيّة من تناسق وانتظام وتوزيع للمهامّ.

وتكتمل أبعاد النّشاط العصبيّ ببعديه النّورونيّ والعرفنيّ ببعد يحكم العمليّات جارية في الزّمان من حيث انتظامها وتبلورها واكتمالها، وهي إمّا متتابعة أو متوازية. والتّوازي نمط في الاشتغال قائم على عدد من العمليّات العصبيّة المتزامنة تؤدّيها مجموعات من النّورونات المختلفة في زمن واحد، تنجز الواحدة منها عمليّة واحدة منها. والتّتابع نمط في الاشتغال قائم على عدد من العمليّات العصبيّة المتعاقبة يؤدّيها نورون أو مجموعة من النّورونات الواحدة بعد الأخرى بمعنى أنّها تؤدّي عملا واحدا في زمن واحد على ترتيب أو تدرّج.

والبعدان كلاهما ثابتان في اشتغال الدّماغ ولكنّهما متداخلان متعاظلان. فالاشتغال التّتابعيّ ثابت في المستوى الأساسيّ في الكثير من الوظائف الحسّيّة والحركيّة، من قبيل الإبصار حيث تنتقل المعطيات البصريّة من خلال محطّات متتابعة حتّى تبلغ مواطن التّحليل والتّمثيل البصريّين على مسافة بعيدة من عدسة العين إذا ما أخذناها منطلقا للسّلسلة. والاشتغال المتوازي ثابت كذلك في مستوى النّورونات المفردة وكذلك في مستوى

التّجميعات منها، من ذلك ما تثبته حقائق التّصوير الدّماغيّ من توازٍ بينها في تحليل اتّجاه الحركة مثلا أو غير ذلك من الأنشطة. وكذلك نمط الاشتغال المختلط بين المحلّيّة والتّوزّع من جهة والتّوازي والتّتابع من أخرى، فكلّ نظام يشتغل على أساس التّوازي يكون ذا هندسة موزّعة. وكلّ نظام يشتغل على أساس التّتابع يكون ذا هندسة محلّيّة. وجميع هذه الوجوه متوفّر في اشتغال الدّماغ، ولذلك يمكن اعتبار النّظام العصبيّ نظاما "هجينا"[43] على حدّ عبارة دو لاكور[44] (1998: 70).

خارطة الدّماغ

تتحدّد "خارطة الدّماغ" على أساس "هندسة الدّماغ" بمعنى الوجه الّذي به يكون التّجمّع بين الخلايا والألياف الميلينيّة[45]، ولذلك تسمّى الخارطة "خارطة الدّماغ الهندسيّة الخلويّة التّكتونيّة"[46]. ومن أشهر الخرائط تلك الّتي وضعها برودمان[47] في مطلع القرن العشرين (1908، 1909) وعدد آخر من علماء الأعصاب (انظر غليزرمان وبلكوسكي 2002: 12 وما بعدها[48]).

ومن المقاييس الّتي تعتمد في التّمييز بين منطقة وأخرى: نوعيّة التّراصف في طبقات القشرة الدّماغيّة والخصائص النّوعيّة والكمّيّة في الخلايا المكوّنة لكلّ طبقة وتوزّعها الفضائيّ فيها وانتظامها وترابطها. وقد بات من المسلّمات في علوم الأعصاب أنّ الخصائص الخلويّة الّتي تميّز بين المناطق كما حدّدتها الأدوات التّشريحيّة تعكس فوارق في الوظائف بينها، أو اختصاص المنطقة الواحدة بوظيفة بعينها. ويبدو أنّ اللّغة قائمة على الأجزاء الحديثة من الدّماغ وهي أجزاء خاصّة بالدّماغ البشريّ دون غيره، حيث

---

43 hybride
44 Delacour, 1998
45 myelinated fiber(s)
46 cytoarchitectonic map
47 Brodmann (1908, 1909)
48 Glezerman, Tatyana & Balkoski, 2002

تتجذر الوظائف الرّمزيّة.

وتجري قسمة المناطق في القشرة الدّماغيّة عند البشر إلى ثلاثة أنواع باعتماد الاختلاف في خصائص الطّبقات المكوّنة لها من زاوية قطع عموديّ أي من زاوية تكوينيّة[49] فيكون أقربها إلى مركز الدّماغ أقدمها في السّلّم التّكوينيّ ويكون أبعدها منه أحدثها:

- المناطق الأوّليّة[50] (أو الإسقاطيّة[51]): هي مناطق مختصّة في تحليل المعلومات المتّصلة بالنّظام الحسّيّ الحركيّ، وينجرّ عن التّلف فيها تعطّل الوظائف الحسّيّة الحركيّة عامّة ومنها وظيفة التّقطيع أو النّطق في ما يهمّ النّشاط اللّغويّ. (هي ما يشار إليها بالمفتاح A من التّمثيل (1)).

- المناطق الثّانويّة[52] (التّرابطيّة[53]): تكوّنت هذه المناطق فوق المناطق الأوّليّة، وهي مختصّة في معالجة المعلومات الآتية من المناطق الأوّليّة بأن تحلّل المعطيات النّمطيّة[54] الواردة عليها من المناطق الأوّليّة وتدمجها على شاكلة مخصوصة. وتنهض بالوظائف الغنوصيّة-العمليّة[55]. وينجرّ عن التّلف فيها في مستوى المناطق منها في النّصف الأيسر أعراض الحبسة الحركيّة[56] عامّة (فقدان القدرة على أداء الحركات القصديّة) وأعراض الحبسة الكلاميّة[57]

---

[49] phylogenetic perspective
[50] primary
[51] projective
[52] secondary
[53] associative

[54] أي المعطيات المسجّلة حسب نمط الإدراك البصريّ أو السّمعيّ أو اللّمسيّ، إلخ.، وفق الموارد الحسّيّة لكلّ منها.

[55] gnostic-praxic (function(s))

تهمّ الوظائف الغنوصيّة أو المعرفيّة تمييز الأحاسيس اللّمسيّة الخفيفة الّتي تنبّه جملة المستقبلات الجلديّة، والوظائف العمليّة تهمّ الأعمال والحركات القصديّة المتتابعة المنظّمة أي المعطيات المسجّلة حسب نمط الإدراك البصريّ أو السّمعيّ أو اللّمسيّ، إلخ.، وفق الموارد الحسّيّة لكلّ منها.

[56] apraxia
[57] speech apraxia(s)

(فقدان القدرة على أداء الحركات النطقية) وأعراض الأجنوزيا[58] عامة (فقدان القدرة على التعرف البصري على الأشياء والموضوعات) وأعراض الأجنوزيا اللغوية[59] بفقدان القدرة على التعرف على الكلمات والاهتداء إلى معانيها. (يشار إليها بالمفتاح B من التمثيل (1)).

المناطق الثلاثية[60]: تمثل أحدث المناطق في الظهور على الشجر التكويني ولا وجود لها إلاّ عند البشر (غليزرمان وبلكوسكي 2002: 13-14)، وهي مختصة في الوظائف الرمزية العليا. ويفترض بحكم موقعها وطبيعتها أنها تستقبل المعلومات الصادرة عن المناطق الثانوية في شكل متغيرات أو خصائص فيزيائية معممة تتعلق بالمنبهات ذات النمط الإدراكي المحدد، وتعتمدها مادة لتكوين الرموز ومعالجتها معالجة ذهنية. وتمثل المناطق الثلاثية من حيث المساحة قسما كبيرا من قشرة الدماغ المخية. حيث تمتد على المساحات الجبهية الصدغية الجدارية[61] وهي بالتحديد مساحات اللغة من الدماغ. تضم المناطق الثلاثية المقاسم 9، 10، 11، 21، 37، 39، 40، 45، 46، 47 من الخارطة كما تعرض في التمثيل (1) حيث يشار إليها بالمفتاح C.

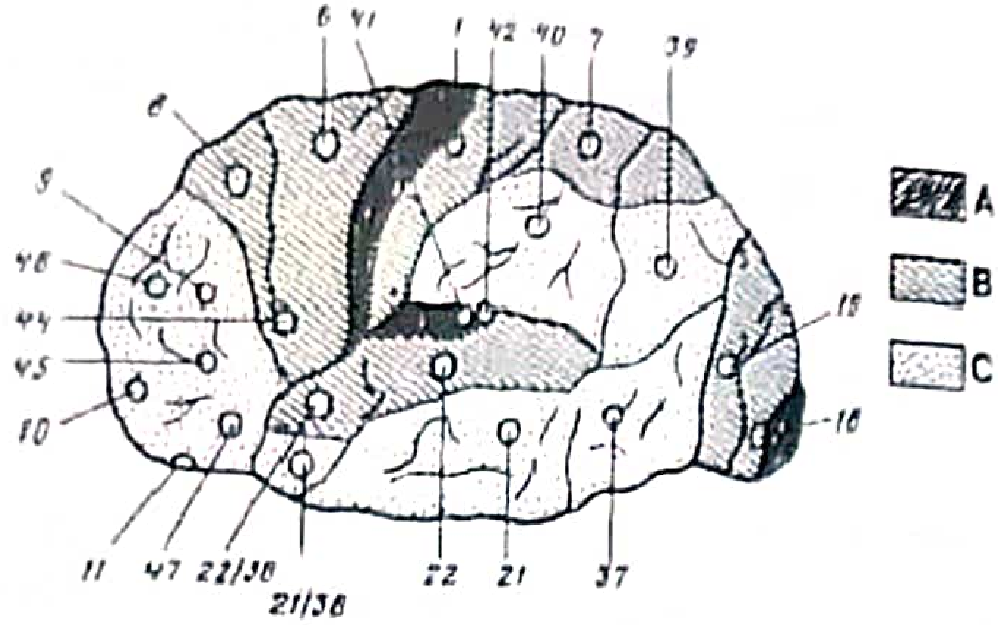
مواقع اللغة في الدماغ

لقد استقرّ في المعارف العصبية منذ القرن التاسع عشر، اختصاص بعض الأجزاء من الدماغ في النشاط اللغوي بعبارة عامة أو بالمعالجة اللغوية، بعبارة أدق. وهو تخصص بمعنى غلبة ذلك النشاط في ذلك المركز بعينه ولا يعني أنه لا يؤدي إلاّ تلك الوظيفة أو أنّ تلك الوظيفة لا تكون إلا فيه. وفي العموم تجري معالجة اللغة في النصف الأيسر من الدماغ، حيث

58 agnosia
59 speech agnosia(s)
60 tertiary
61 fronto-temporal-parietal region

تنهض منطقة بروكا[62] بإنتاج الكلام وتنهض منطقة فرنيكي[63] بفهم الكلام.

(1)- خارطة الدماغ (ترقيم برودمان)



(منقول من: غليزرمان وبلكوسكي 2002: 15)

يتضمّن النّشاط اللّغويّ عددا من المظاهر تنقسم إلى فهم وإنتاج، وكلاهما يهمّ الكلمات المنطوقة المسموعة، والكلمات المكتوبة المرئيّة، والعلامات الإشاريّة المرئيّة في لغة الإشارة، وكذلك الكلمات الملموسة (في خطوط براي) وما يتألّف من جميعها من جمل وخطابات ونصوص وقصص وما إلى ذلك. فاللّغة بهذا نشاط عصبيّ ذو مظاهر كثيرة مختلفة في طبائعها يمكن للواحد منها أن يكون وظيفة مخصوصة تنهض بها مراكز دون أخرى تختصّ بها، ولكنّها في النّهاية لنشاط واحد مجمل متكامل. فهي أنشطة جزئيّة يكمن الواحد منها في موطن مخصوص به في مناطق متباعدة منفصلة. وعلى هذا الأمر دلائل كثيرة أهمّها أنّ العاهات اللّغويّة متعدّدة تمسّ مظهرا دون آخر. فإذا ما ارتبطت العاهة الواحدة بتلف في بعض الأجزاء من منطقة

---

[62] Broca's area
[63] Wernicke's area

واحدة في الدّماغ، وإذا ما ارتبطت العاهة الواحدة بفقدان وظيفة لغويّة مخصوصة، دلّ جميع ذلك على توزّع الوظائف اللّغويّة في مناطق مختلفة وذلك من قبيل فقدان القدرة على إنتاج الكلمات أو القدرة على فهمها، أو القدرة على كتابتها أو على قراءتها، وهلمّ جرّا. فيكون كلّ نشاط محدّدا بمنطقة معيّنة ولكنّ اللّغة نفسها في شمولها وظيفة موزّعة على مجال واسع من فضاء الدّماغ، ويتعطّل أو يصعب اكتساب اللّغة في شمولها أو اكتساب مظهر من مظاهرها بما يكون في المناطق اللّغويّة بعضها أو جلّها أو كلّها من تشوّهات خلقيّة أو ناتجة عن حوادث الحياة.

وتمثّل فكرة التّخصّص في وظيفة اللّغة من مراكز أو جهات أو مناطق بعينها في الدّماغ، حجّة يقيم عليها بعض اللّسانيّين فرضيّة القول بأنّ الإنسان يملك استعدادا بيولوجيّا للكلام أو اللّغة. وهي فرضيّة لا جدال فيها بينهم بصرف النّظر عن اتّجاهاتهم، في العموم، أو بين التّوليديّة والعرفنيّة بالخصوص. فالخلاف بينهما كائن في طبيعة تلك المراكز أو النّظم من حيث كونها مقترنة بوظائف عامّة وما الوظيفة اللّغويّة إلاّ واحدة منها مخصوصة، أو من حيث كونها مقترنة بوظيفة مخصوصة هي اللّغة ليس غير. وتظلّ هذه القضيّة محلّ جدال لا يجد في علوم الأعصاب الجواب القاطع، فلئن كان تحديد المواقع في الدّماغ ثابتا لا جدال فيه، فإنّ تجلّي الوظيفة في الواحد ظاهرة تهمّ نشاط الذّهن ولا تفيد كثيرا في إثبات نوعها أو أصلها.

ويتعلّق الأمر كذلك بارتباط بين تكوين التّجمّعات النّورونيّة والوظيفة اللّغويّة المحدودة الّتي تؤدّيها تلك التّجمّعات، فقد أثبت غشويند وغالابوردا[64] (1985) أنّ عاهة عسر القراءة[65] الخلقيّة أكثر انتشارا عند الصّبيان منها عند

[64] Geshwind and Galaburda, 1985
[65] dyslexia

البنات، وربطا ذلك، لتفسيره، بطبيعة الهرمون الذكريّ (التّيستوستيرون) الذي يحدث السّمات الذكوريّة عند الصّبيان في بداية العمر، حيث يكون إنتاجه زائدا على الحدّ فيسبّب تكوّنا غير طبيعيّ أو تشوّها في بعض المراكز اللّغويّة في الدّماغ، ولإثبات الفرضيّة شرّحا بعض الأدمغة إثر الوفاة لمن كان يشكو من عسر القراءة، فوجدا تجمّعات من النّورونات غير طبيعيّة (الثّآليل)[66] في بعض مناطق اللّغة من النّصف الأيسر من الدّماغ.

ولئن كان من الثّابت في المعارف العصبيّة، منذ زمن، أنّ الفصّ الصّدغيّ الأيسر[67] مركز إدراك الأصوات عامّة والأصوات اللّغويّة، بالخصوص، فإنّ الوظائف الخصوصيّة بمختلف الجهات الصّدغيّة في تحليل الإشارات اللّغويّة غير معروفة على وجه التّحديد. فلقد تبيّن من خلال تجارب أجرتها ليبنثال وجماعتها (2005)[68] تتعلّق بالأرضيّات العصبيّة في الإدراك الصّوتميّ أنّ منطقة تمتدّ على طول النّصف الأيسر والأماميّ من الأخدود الصّدغيّ العلويّ[69] (وهي منطقة من الدّماغ مرتبطة بالإحساس السّمعيّ) تستجيب للمقاطع (الحرفيّة الحركيّة) المألوفة المعهودة خلال مهمّة التّمييز السّمعيّ أكثر من استجابتها للأشكال السّمعيّة ذات التّعقيد المشابه الّتي لا ترتبط بأنماط صوتميّة مكتسبة أو متعلّمة. ومقابل ذلك تنشط المناطق الكائنة في التّلفيفة الصّدغيّة العليا[70] وهي القريبة من اللّحاء السّمعيّ الأوّليّ (أو الأصليّ)[71] بنفس القدر من الإنشاط للأصوات الوظيفيّة اللّغويّة وللأصوات غير اللّغويّة. فيكون على هذا للأخدود الصّدغيّ العلويّ دور في الإدراك الصّوتميّ. وتستنتج ليبنثال وجماعتها أنّ التّمييز بين المعلومات الصّوتميّة

---

[66] warts
[67] left temporal lobe
[68] Liebenthal, Binder, Spitzer, Possing, and Medler, 2005
[69] superior temporal sulcus (STS)
[70] superior temporal gyrus
[71] primary auditory cortex

اللّغويّة وغير اللّغويّة في الأصوات يتمّ في شكل تيّار سهميّ منقاريّ[72] في الفصّ الصّدغيّ الأيسر قبل أن تبلغ الإشارات الصّوتيّة المنطقة الوسطى من الأخدود الصّدغيّ العلويّ الأيسر. فتكون هذه المنطقة محطّة وظيفيّة وسيطة في سلسلة المعالجة على مسلك رابط بين المناطق الكائنة في التّلفيفة الصّدغيّة الظّهريّة العليا حيث يكون تحليل السّمات الفيزيائيّة للصّوت اللّغويّ وسمات سائر الأصوات غير اللّغويّة، من جهة، ومناطق كائنة في الأخدود الصّدغيّ العلويّ الأماميّ الأيسر وفي الفصّ الصّدغيّ الجوفيّ[73] موطن عمليّات المعالجة اللّغويّة العليا حيث يستخلص المعنى من خلال البنية المعجميّة الدّلاليّة الإعرابيّة، من جهة أخرى.

الخلايا العصبيّة اللّغويّة: النّورون المرآة

تجري تسمية "النّورون المرآة" على قسم من النّورونات الّتي تنشط عندما ينجز الفرد عملا أو فعلا حركيّا معيّنا وعندما يشاهد ذلك العمل نفسه ينجزه أفراد آخرون. وتتمثّل آليّة النّورون المرآة أساسا في تحويل معلومات حسّيّة من نوع ما إلى صياغة ذات شكل حركيّ[74].

وقد اكتشف النّورون المرآة في الغشاء الحركيّ ما قبل الأماميّ وفي الفصيّص الصّدغيّ السّفليّ[75] عند بعض الأنواع من الرّئيسات بما فيها الإنسان، وعند الطّيور في مقدّمة الدّماغ. وتتنوّع الوظائف الّتي تتوسّط فيها النّورونات المرآة وفق الموقع الّذي يكون لها في شبكات الدّماغ حيث تتشكّل في منظومات متعدّدة يطلق على الواحدة منها "المنظومة المرآة"[76]. ومن الخصائص المحدّدة للمنظومة المرآة الّتي تتكوّن من النّورونات ما قبل

---

[72] rostral stream
[73] ventral temporal lobe
[74] motor format
[75] inferior parietal lobule
[76] mirror system(s)

إنجازها وفي الاستجابة للأعمال الحركيّة البصريّة عند إدراكها. أو بعبارة أخرى تنشط بالوجه نفسه عند إنجاز عمل ما وعند مشاهدة ذلك العمل نفسه ينجزه فرد آخر، كما يبين من التّمثيل الوارد في (2) حيث يعرض إلى يساره مشهدان أول وثان من العمل خلال التّجربة وتسجيل النّشاط العصبيّ (المسؤول عن التّجربة، القرد، عمل المسك، مدّ اليد من القرد للمسك) وإلى يمينه استجابة النّورونات المرآة لكليهما، والملاحظ أنّ نشاطها متشابه في كليهما أي بين مشاهدة المسك وإنجاز المسك (التّمثيل (2)).

وتنقسم النّورونات إلى نوعين: نورونات اعتياديّة[77] ونورونات مرآة، فالأولى نورونات تنشط أو تتقدح عند إبصار شيء من الأشياء ذات الأبعاد الثّلاثيّة ولا تقتضي العملَ على ذلك الشّيء لتنشط، وأمّا النّورون المرآة فهو نورون ينشط عند إبصار عمل ما أو إنجاز ذلك العمل نفسه (فابري-دسترو وريترولاتي[78] 2008: 171).

ويجري تقسيم النّورون المرآة وفق معيار التّطابق[79] بين العمل الحركيّ الحقيقيّ المنجز والعمل الحركيّ الحقيقيّ المبصَر اللّذين يقدحانهما، إلى نوعين: نوع المطابق الضّيّق[80] ونوع المطابق الواسع[81]: النّورونات ذات المطابقة الضّيّقة هي تلك الّتي تتقدح عندما يكون العمل الحركيّ المبصَر والمنجز متطابقين في الغاية (مثل المسك باليد) وفي الطّريقة الّتي بها تتحقّق تلك الغاية (مثل الدّقّة في إحاطة الأصابع بموضوع المسك). والنّورونات ذات المطابقة الواسعة هي تلك الّتي تتقدح لمجرّد التّشابه الواسع بين العمل

[77] canonical neuron
[78] Fabbri-Destro and Rizzolatti, 2008
[79] congruence
[80] strictly congruent
[81] broadly congruent

الحركيّ المنجز والعمل الحركيّ المبصَر (غاليزي وجماعته[82] 1996، فابري-دسترو وريتزولاتي 2008: 171).

(2)- استجابة النورون المرآة عند القرد في مشاهدة عمل المسك (A) وإنجاز عمل المسك (B).



منقول من:
http://www.scholarpedia.org/w/images/b/b7/Mirror_Neurons_f1.gif

دور النورون المرآة في اللغة والتفاعل والمحاكاة

تتمثّل الوظيفة الّتي تتوسّط فيها المنظومة المرآة المتكوّنة من التّلفيفة الصّدغيّة السّفلى ومن القشرة ما قبل الحركيّة الجوفيّة[83]، في تحويل التّمثيلات الحسّيّة المتعلّقة بالأعمال الحركيّة المرئيّة أو المسموعة، إلى تمثيلات حركيّة لتلك الأعمال نفسها (فابري-دسترو وريتزولاتي[84] 2008: 171). ومن المنظومات المرآة-ما يكون وسيطا في تشفير الحركات غير المتعدّية[85]. وتتوفّر منظومة مرآة أخرى هي المرآة العاطفيّة[86] الواقعة في الجزيرة[87]

[82] Gallese V, Fadiga L, Fogassi L, Rizzolatti G, 1996
[83] ventral premotor cortex
[84] Fabbri-Destro and Rizzolatti, 2008
[85] intransitive movement(s)
[86] emotional mirror system
[87] insula

والحزام المنقاري[88] وفيها يجري تحويل الوضعيّات العاطفيّة إلى استجابات حشويّة حركيّة[89] مماثلة للاستجابات الّتي يشعر بها الفرد الّذي يعيش تلك المشاعر حقيقة. وتعطي هذه المنظومة الفردَ إحساسا مباشرا بما يشعر به الأفراد الأخرون وليس من المفروض أن يعيش ما يعيشون من التّجارب. من ذلك أنّك إذا كنت في قاعة ما، وكنت تشاهد من خلال النّافذة عبر الزّجاج، شخصا يتلوّى ويتمرّغ على التّراب، تشعر مباشرة بما يكون عندك لألم عنده، وقد تختلف ردود أفعالنا في هذا الوضعيّة فمنّا من يدير (من النّساء خاصّة) وجهه اجتنابا للمنظر مدّعيا أنّه لا يحتمل رؤية الألم الشّديد، والمهمّ أنّ رؤية ذلك المشهد تثير بتوسّط النّظام المرآة نفس المواطن العصبيّة الّتي أثيرت عند الشّخص المشاهَد في وضعيّته تلك فتستجيب بالشّعور نفسه عندك وعنده. ونماذج هذا كثيرة في حياتنا اليوميّة.

ومن النّورونات المرآة في منطقة بروكا، وهي منطقة مركزيّة في الأصوات، ما يتخصّص في الأصوات اللّغويّة. فقد ثبت أنّ بعضها ينشط إنشاطا واحدا عند سماع الصّوت نفسه من حيث النّوع بأن يكون حادثا بسببه الطّبيعيّ، مثلا، أو مسموعا في ذاته: فقد لاحظ كوهلر وجماعته[90] (2002) أنّ بعض النّورونات المرآة نفسها تنشط في دماغ القرد عندما يشاهد حبّة البندق تُكسر كسرا مباشرا أو يسمع القرد صوت ذلك الكسر. ويبدو أنّ النّورونات المرآة تعمل على هذه الشّاكلة في الأصوات اللّغويّة عند البشر. فهي وسيط في تحويل الصّواتم المسموعة إلى أعمال حركيّة قادرة على توليدها (إنجازها نطقا أو تقطيعا)، يكون ذلك في إنشاط العضلات النّطقيّة الّتي تحرّك عضلات اللّسان عند سماع الأصوات اللّغويّة (فاديغا وجماعته[91]،

[88] rostral cingulate
[89] visceromotor response(s)
[90] Kohler et al., 2002
[91] Fadiga et al., 2002

2002). فقد أجرى فاديغا وجماعته تجربة تعتمد تقنية الإثارة المغنطيسية عبر الجمجمة. تمثّلت التّجربة في إثارة مراكز اللّغة الحركيّة عند عدد من المتطوّعين بأن يستمعوا بانتباه إلى مادّة صوتيّة بعضها لغويّ وبعضها غير لغوي. وتتضمّن الكلمات صوتين مضاعفين هما إمّا الفاء [f] أو الرّاء [r]. وكان الخيار على صوت الفاء لأنّه لا يستدعي حركة من عضلات اللّسان، وعلى صوت الرّاء لقيام إنجازه أساسا على حركة تلك العضلات. وكانت النّتيجة أنّ سماع الكلمات المحتوية على صوت الرّاء يقترن بازدياد كبير في مخطّط الإمكان الحركيّ المثار[92] الّذي تسجّله عضلات اللّسان مقارنة بما يكون عند سماع الأصوات غير اللّغويّة أو الكلمات المحتوية على صوت الفاء.

وأجرى واتكينس وجماعته[93] (2003) تجربة في نفس الاتّجاه حيث سجّلوا الإمكان الحركيّ المثار من عضلة من عضلات الشّفتين ومن عضلة من عضلات اليد في رباعيّ من الأحوال: سماع نصّ نثريّ مسترسل، وإبصار حركات الشّفتين أثناء الكلام، وسماع أصوات غير لغويّة، وإبصار حركات العين والحاجب أثناء الكلام. فكان الإمكان الحركيّ المثار الّذي تسجّله عضلات الشّفة، أنشط عند سماع الخطاب ومشاهدة حركات الشّفة المرتبطة بالكلام، منه عند إبصار حركة العين والحاجب.

وبناء على هاتين التّجربتين وغيرهما يفترض بعض الباحثين في علوم الأعصاب أنّ لبني البشر نظاما مرآة يحوّل الصّوتم المسموع إلى التّمثيل الحركيّ المناسب لذلك الصّوتم نفسه، أي إلى المخطّط الحركيّ الّذي يقود العضلات عند إنجاز ذلك الصّوتم. وما من شكّ في أنّ هذا النّظام ذو دور

---

[92] motor-evoked potential(s) (MEP(s))
[93] Watkins; Strafella & Paus, 2003

أساسيّ في تعلّم اللّغة (فابري-دسترو وريتزولاتي[94] 2008: 176).

دور النّورون المرآة في الاكتساب اللغوي

ممّا تقوم عليه "النّظريّة الحركيّة في إدراك الكلام"[95] - كما تبلورت في أعمال ليبرمان (1985، مثلا)- أنّ المثيرات الأكوستيّة الّتي تطرق الأذن تتحوّل في الدّماغ إلى تمثيلات للحركات النّطقيّة التّقطيعيّة الّتي يقتضيها إنجاز تلك الأصوات. وقد وجدت هذه النّظريّة بعض ما تتأسّس عليه مبادئها وتتدعّم باكتشاف النّورون المرآة؛

من ذلك أنّ تحويل الدّماغ للإشارات الأكوستيّة إلى معلومات نطقيّة تقطيعيّة يمكن أن يفسّر قدرة الأطفال العجيبة على اكتساب الأصوات اللّغويّة عن طريق المحاكاة. فالمحاكاة قوامها ثنائيّة العمل-الإدراك في المطلق وهي كذلك في الاكتساب اللّغويّ، إذ يسمع الطّفل كلمةً جديدةً يحاول بصفة آليّة محاكاتها فيتكوّن بذلك عنده ارتباط مباشر بين الحسّ (سماع الكلمة) والعمل (النّطق بها)، يجري ذلك بتوسّط النّورونات المرآة الكائنة في منطقة بروكا. ويتجلّى الارتباط المباشر بين إدراك الأصوات اللّغويّة وإنجازها على أساس محاكاتها كذلك عند البالغين من النّاس عندما يلوّن الواحد منهم خطابه من حيث بنيته الإعرابيّة وخصائصه النّطقيّة والنّغميّة وهو يتوجّه بالكلام إلى الأطفال أو إلى غيرهم وفق الظّروف والعلاقات الّتي توجّه التّفاعل معهم (نيشيتاني[96] وجماعته 2005). ومن فرضيّات التّعلّم على أساس المحاكاة أنّ اكتساب الأنماط الحركيّة الجديدة يكون بتقسيم الأعمال المشاهَدة إلى أفعال حركيّة جزئيّة بسيطة يُنشط الواحد منها آليّا القسم الّذي يناسبه من الخرائط الحركيّة، ثمّ تعيد القشرة الماقبل الجبهيّة توليف الخرائط الحركيّة المنشّطة

---

[94] Fabbri-Destro and Rizzolatti, 2008
[95] motor theory of speech perception
[96] Nishitani, Schürmann, Amunts, and Hari, 2005

حسب المنوال المشاهد (بوتشينو وجماعته 2004).

وقد اعتُمدت معرفة النّورون المرآة في العرفنة المجسدنة، دليلا على وجود شفرة واحدة للإدراك وللعمل. فيكون على ذلك تصورّنا للأشياء وتمثّلها قائما على أساس ما يكون لأجسادنا من تعامل معها (شابيرو[97] 2011: 109-111). ويمثّل النّورون المرآة والنّظم المرآة أساسا يقوم عليه العيش في المجموعة بأنواعها لما يتمكّن بها الفرد، عنصرا من المجموعة، من تبيّن المقاصد والنّوايا بناء على المشاهدات من العلامات ومظاهر السّلوك بأنواعه، ومن تصوّر المشاعر وتعلّم التّجارب الجديدة عن طريق المحاكاة. وجميع ذلك يمكّن الفرد من تعديل عمله أو ردّ فعله وفق ما يتوقّعه من قرينه من تعاون أو عداء أو غير ذلك من الأعمال (غاليّزي[98] 2009).

الجينات اللغويّة

ما انفكّت الأبحاث الجينيّة الهبائيّة تكشف عن حقائق بيولوجيّة كثيرة تجد صداها في عدد متزايد من حقول العلوم الطّبيعيّة بتفريعاتها الدّقيقة المتنوّعة. وفي ذلك لا تمثّل العرفنة مبحثا شاذّا؛ فقد شهد العقدان الأخيران تزايدا لافتا للمخابر وفرق البحث في مختلف البلدان، تنصبّ في أعمالها العناية باعتماد هذه التّقنيات الهبائيّة في دراسة الدّماغ البشريّ. ويندرج جميع ذلك في مشروع الجينوم البشريّ[99].

وقوام هذا المشروع أنّ المعلومات الجينيّة مشفّرة في سلاسل النّوائيد[100] في هباءة[101] تعرف باسم الحمض الدّيوكسيريبونووي[102] (ح.د.ن).

[97] Shapiro, 2011
[98] Gallese, Vittorio. 2009
[99] Human Genome Project
[100] nucleotide(s)
[101] molecule
[102] Deoxyribonucleic acid (DNA)

والجينوم يمثّل كامل سلسلة الح.د.ن بالنّسبة إلى كلّ كائن مخصوص أي مجموعة "الأوامر"[103] الّتي يكون بها بناء ذلك الكائن واستمراره. وتتوفّر في كلّ خليّة من ذلك الجسم متعدّد الخلايا[104] نسخة من الجينوم هي مرجع تلك الخليّة في جميع مظاهر حياتها ونشاطها، وتنتظم هباءات الح.د.ن وفق تجميع محكم في ما يعرف بالكروموزومات[105].

ومن الحقائق الثّابتة في الأبحاث الجينيّة أنّ الجينوم شيء مشترك بين الأفراد المنتمين إلى نوع أو جنس واحد، وأنّه قارّ لا يتغيّر في الواحد منها وأنّ الجينوم البشريّ محدود من حيث الكمّ مقارنة بسائر الأجناس (25000 جينة في بعض التّقديرات الحديثة) وأنّ الجينوم البشريّ مشترك بنسبة 98.5 بالمائة مع جينوم الشّيمبانزي وأنّ هذا الجينوم لم ينشأ من الفراغ وإنّما منطلقه مشترك عند عدد من الأنواع البدنيّة تشترك في نفس الوظائف والتّكوين، ولكنّ السّؤال المطروح يتمثّل في ما به كان الإنسان إنسانا والحال هذه أو بعبارة أخرى لمَ كان الإنسان ناطقا معرفنا مقارنة بالرّئيسات[106] وبينهما نسبة من الاشتراك في الجينوم تكاد تكون كاملة؟

فمن الأمور الثّابتة أنّ بعض مظاهر الاضطراب النّفسيّ السّلوكيّ ذات أرضيّة وراثيّة، بمعنى أنّ مصدرها تأثيرات جينيّة موروثة أو متوارثة. ولكنّ فكرة الوراثة تمثّل سعيا إلى ربط المظاهر السّلوكيّة (المضطربة أساسا) بالأرضيّة الجينيّة غير أنّها لا تبيّن الوجوه الّتي يجري بها ذلك على وجه التّحديد، ومن نماذج ذلك الفُصام[107] (الانفصام النّفسيّ) والانطوائيّة[108]

---

[103] instructions
[104] multi-cellular organism
[105] chromosome(s)
[106] الرئيسات (Primate) تطلق على أعلى مرتبة من الثّدييات تضمّ ثلاث رتب فرعيّة: ليموروِيدي (Lemuroidea)، تارسيويدي (Tarsioidea)، أنثروبويدي (Anthropoidea) وإليها ينتمي الإنسان.
[107] schizophrenia
[108] autism

(الانطواء النّفسي).

ولكنّ السّؤال المطروح هنا مداره كيف يكون ذلك أي بعبارة أدقّ ما دور الجينات في ذلك وما هي تلك الجينات بالتّحديد؟ وإذا ما توسّع الإطار للنّشاط العرفنيّ العامّ، في مظاهره السّويّة المشتركة، تكون صياغة المبحث قائمةً على ما به يكون تأثير الجينات على العرفنة مطلقا.

وبين المستوى الجينيّ البسيط والمستوى العرفنيّ رحلة ذات اتّجاهين -على حدّ عبارة راموس[109] (2006: 248)- أوّلهما اتّجاه ينطلق من العرفنة نشاطا ليبحث في الجينات أساسا لذلك النّشاط، وثانيهما اتّجاه ينطلق من الجينات ليبحث في وظائفها الّتي تؤسّس الأرضيّة العرفنيّة وليفسّر التّرابط الكائن بين السّمات الجينيّة، ما كان منها معهودا وما كان متغيّرا، من جهة؛ ومظاهر النّشاط العرفنيّ، ما كان منه سويّا عاديّا وما كان مضطربا أعراضيّا أو مرضيّا، من جهة أخرى. وبين الأبنية الجينيّة البسطى والعرفنة يتوسّط الدّماغ عضوا محكوما بخصوصيّات الحوامض الأمينيّة الّتي تشكّلها الجينات:

> "يتمثّل المبحث في فهم سلسلة الأحداث كاملة، بدءا بالتّغيّرات الهيائيّة في سلسلة أ.د.ن فتخليق[110] البروتينات المضطرب فالأحداث اللاّمعدودة الّتي يتضمّنها بناء الدّماغ ونموّه واشتغاله واضطراب وظائفه، فنظم الدّماغ والوظائف العرفنيّة حيث يكون الطّور الّذي يكون فيه مشكل التّناسب بين الدّماغ والعرفنة مطروحا" (راموس، 2006: 248).

وينهض بالرّحلة الواحدة برنامج متكامل في كلّ من مجالين مصيرهما الانصهار والتّكامل بعد أن اشتغلا ردحا من الزّمن منفصلين بل منعزلين،

[109] Ramus, 2006
[110] synthesis (Fr : synthèse)

هما علم الأعصاب الجينيّ أو علم الجينات العصبيّة[111] من جهة وعلم العرفنة من جهة ثانية.

ولكنّ المبحث المطروح في هذا المستوى يظلّ قائما على الرّبط بين مظهرين: مظهر بيولوجيّ هبائيّ مجاله الخليّة مطلقا والخليّة العصبيّة أساسا؛ ومظهر عرفنيّ مجاله الدّماغ بترابطاته ومراكزه. فالمظهر الأوّل عناصره جينات، وهي لا تشفّر السّلوك بمعنى أنّ مظاهر السّلوك ليست مسجّلة فيها تسجيلا كيمياويّا، ولا هي تشفّر الوظائف العرفنيّة بمختلف أنواعها ودرجاتها. فكلّ ما تشفّره إنّما هو تحليل البروتينات. ولذلك قد يكون من الوهم أن نثبت كون جينة بعينها مسؤولة عن نشاط عرفنيّ بعينه (فيشر 2006).

وباعتماد الجينات تطرح أسئلة معظلة من قبيل:

(1)- إذا كانت الجينات مبرمجة لتحليل البروتينات فقط، كيف يكون هناك نحو كونيّ؟

(2)- إذا كانت الجينات مشتركة بين جميع الأنواع فكيف تكون محدّدة للنّوع البشريّ ناطقا؟

(3)- إذا كانت الأعراض اللّغويّة المخصوصة (عسر القراءة[112] وغيرها) مرتبطة بأعراض جينيّة مخصوصة، كيف يمكن أن نتصوّر أنّ الجينات ليست محدّدة لقدرات لغويّة مخصوصة بالأصوات أو بالكلمات أو بالأبنية الإعرابيّة وما إليها؟

تأكّدت خصوصيّة بعض الجينات بالبشر دون الرّئيسات رغم التّشابه الكبير المشار إليه قبل هذا. فقد بيّنت المقارنة بين الكروموزوم 21 عند

---

[111] Neurogenetics
[112] dyslexia

البشر والكروموزوم 21 عند القرد الشيمبانزي أنّ ما بين 150 و250 جينة من الجينوم بأكمله مخصوصة بالبشر دون الرّئيسات، أي ممّا لم يتوفّر في السّلف. فهي حادثة عند النّوع البشريّ. وبيّنت كذلك أنّ هذه الجينات مرتبطة بوظائف مخصوصة بالبشر تستوجب الدّرس والتّحديد؛ ويغلب الظنّ أن تجلّياتها مخصوصة بالدّماغ (بايلاي[113] وجماعته 2002). وينتج عن هذه الحقيقة كون الشّبه المسطّر في الجينوم بين البشر والرّئيسات بنسبة تقارب التّمام، إنّما هو شبه غالط؛ وذاك ما أثبتته المباحث الجينيّة الحاليّة.

ومن الثّابت في الأبحاث الجينيّة أنّ بنية الدّماغ بمراكزها المتخصّصة بالوظائف الأساسيّة العامّة من قبيل الإبصار والسّمع والشّمّ وما إليها، إنّما هي محدّدة جينيًا في الطّور الجنينيّ أي قبل التّعرّض لأيّ من المنبّهات الحسّيّة الخارجيّة (من محيط العيش). فبنية الدّماغ محدّدة بما يعرف بالتّشبيك الجينيّ الماقبليّ[114]، ولكنّ ذلك لا ينفي دور المنبّهات الحسّيّة في تكييف الأبنية العصبيّة القائمة في مرحلة ما قبل الولادة (أو الاكتمال الجنيني). ولذلك كان الدّماغ ذا بنية مطاطيّة.

ومن القضايا المطروحة في مستوى التّشكّل العصبيّ بين المطاطيّة من جهة والحتميّة الجينيّة من جهة ثانية، أنّ التّحقّقات الجينيّة وتجلّياتها إنّما تكون بفعل التّعامل مع عناصر المحيط وأن لا أثر للبرمجة الجينيّة في ذلك مطلقا. وهذه فكرة مغرية إن أخذت في ذاتها وإن اعتبرنا الكائن صفحة بيضاء ترتسم فيها آثار المحيط دون وسيط. ولكنّ الواقع ليس كذلك: فالتّجربة (أي المنبّهات الحسّيّة الصّادرة من المحيط) إنّما تتلقّاها أعضاء الحسّ (الإبصار، السّماع، الشّمّ، اللّمس، إلخ.) عبر مجسّات عصبيّة تنقلها إلى مراكز تجميعها

---

[113] Bailey et al. 2002

[114] gentic pre-wiring

أو تحليلها في الدّماغ. فهي قبل حلولها فيه أو تأثيرها فيه، إنّما تُنقل عبر مسالك عصبيّة خلويّة ذات تصميم جينيّ، وهي تمثّل مصفاة أوّليّة لتلك التّجربة. فالمنبّهات الخارجيّة عندما تشفّر في النّواقل العصبيّة تصبح منبّهات داخليّة أي "خاضعة لجميع القيود الّتي تفرضها البنية العصبيّة في الدّماغ" (راموس 2006: 257). وبعبارة أخرى يكون التّغيّر الّذي تحدثه تلك المنبّهات في مستوى الخلايا أو التّجميعات العصبيّة الدّماغيّة (سواء كان من قبيل تكوّن ترابطات جديدة أو تقوية لبعضها أو اعتبرناه تعلّما أو تكوّنا أو مطاطيّة) إنّما هو نتيجة لميكانيزمات هبائيّة تشتغل في المستوى الخلويّ محكومةً بالبرنامج الجينيّ.

وعند التّعميم يمكن القول إنّ للمحيط دورا في اشتغال البرنامج الجينيّ من حيث يعدّله ويطوّعه ولكن دون أن يفلت من قانون الحتميّة الجينيّة المسجّلة سلفا. فللمحيط أثر في الكائن بتوسّط برنامجه الجينيّ. وهذه فكرة تدعم ما يذهب إليه الكثير من اللّسانيّين في الاكتساب اللّغويّ وفي حلول الملكة اللّغويّة في الدّماغ، من قبيل فقر المثير، على حدّ عبارة شومسكي أو النّحو الكونيّ، وما إلى ذلك. فلا يمكن أن ندّعي أنّ كلّ شيء مكتسب من المحيط ومن البيئة. فالبرنامج الجينيّ يحدّد جملةَ ما يمكن تعلّمه في إطار تحديده لجملة الاستجابات الممكنة الّتي يوفّرها للكائن إزاء المؤثّرات الخارجيّة الصّادرة من محيطه (راموس 2006: 257).

ومن نماذج ذلك أنّ للطّفل قدرات عجيبة تيسّر له اكتساب اللّغة بما يكتنفها من تعقيد وتداخل دون أن تكون سائر مهاراته العرفنيّة قد نضجت (شومسكي 1980، بنكر 1984). ومن الثّابت كذلك أنّ اكتساب اللّغة لا يكون، دون أن يتعرّض الطّفل (الدّماغ) للتّجربة بمعنى التّفاعل مع المعطيات اللّغويّة في محيط عيشه تفاعلا مستمرّا كثيفا.

ومن الأمثلة الجارية كذلك في نموّ المهارات المختلفة على أساس التّفاعل بين البرنامج الجينيّ والتّجربة، نجد المواهب المختلفة من قبيل الموسيقى والغناء ولعب الشّطرنج. فجميعها في حاجة إلى تدريب كبير - مقصود أو إراديّ في الأغلب- هي التّجربة الّتي تنمو بها تلك المهارة أو تلك الموهبة ذات الأرضيّة الجينيّة لا محالة. ويجري تفسير ذلك بأنّ المهارات الحادثة من قبيل الكتابة والقراءة أو لعب الشّطرنج إنّما تكتسب بما يكون للتّجربة من تطويع لأبنية النّورونات الدّاخليّة المنشأ[115] الّتي كانت مصمّمة - في الأصل- لأداء وظائف أخرى (ماك كاندليس وكوهين ودبهايني[116] 2003).

وقياسا على التّساؤل المطروح في اللّسانيّات عموما، في شأن الجينات المخصوصة المسؤولة عن الملكة اللّغويّة، يمكن أن نطرح في العرفنيّات عامّة، في تحديد الجينات المخصوصة المسؤولة عن الوظائف العرفنيّة المختلفة واحدة واحدة. وهو تساؤل قد لا يكون الجواب عنه في مستوى الوظائف المعزولة كلاًّ بجينة أو بجينات معيّنة وإنّما يحسن البحث في اتّحاد تكامل أو تفاعل أو تراكب بين عدد منها قد يقلّ وقد يكثر. والمهمّ في جميع ذلك أن يبين ما به تنمو البنية العصبيّة والعرفنيّة من خلال التّفاعل ما بين الجينات والتّجربة. فإذا ما كانت الأبنية العصبيّة والعرفنيّة عند الكهل منظوميّة، فهي تعكس آثار كلّ من الجينات والتّجربة" (ماركوس 2006: 445). فالبرنامج الجينيّ بمثابة فرقة موسيقيّة (أوركسترا): أعضاؤها بالانتم يعزفون موسيقى (تكوين الكائن وحيّته ونشاطه) كلاًّ وفق توزيع معيّن: تنشط جميعها أو ينشط بعضها مدّة لأداء مهمّة محدودة ثمّ تتوقّف وهكذا دواليك. هناك جينات ذات مظهرين: بيولوجيّ أساسيّ في نموّ بعض

[115] endogenous neural structures
[116] McCandliss, Cohen & Dehaene, 2003

الأعضاء ولكنّها مسؤولة عن نشاط رمزيّ (لغويّ، عرفنيّ) مثل فوكس ب2 والنورون المرآة وما إلى ذلك.

فالجينات لا تحدّد مظاهر السّلوك أو العمليّات العرفنيّة تحديدا مباشرا أي بوجه يمكن القول فيه إنّ جينة بعينها مسؤولة عن عمليّة بعينها، وإنّما يكمن دورها في تكوين العوامل المعدّلة والمنظّمة وفي تكوين الهباءات العاملة والمتقبّلات والإنزيمات وما إليها وجميعها متفاعل في شكل شبكات على غاية من التّعقيد تتعدّل وفق مؤثّرات المحيط، يكون جميع ذلك سبيلاً إلى بناء الدّماغ وتكوّنه وإلى ضمان اشتغاله واستمرار نشاطه (فيشر 2006).

الجينة اللغويّة: فوكس ب2

من تبعات الأبحاث الجينيّة أنّ العرفنة عامّة والملكة اللّغويّة بوجه خاصّ قد تكون مرتبطة بجينة أو بعدد من الجينات مخصوصة بها بوجه يكون فيه الاقتران الرّأسيّ بين جينات بعينها واللّغة أو النّحو، على أساس أنّها 'جينات لنّحو'[117]. وقد وازى هذا الموقف نظريّة متكاملة في النّحو الكونيّ (شومسكي) دون اعتماد أسس الانتظام الجينيّ من زاوية عضويّة عصبيّة هبائيّة ولكنّها مثّلت مشغلا للعرفنيّين في سعيهم إلى إثبات الأرضيّة الجينيّة للملكة اللّغويّة.

وقد اكتُشفت البروتينة فوكس ب2[118] في مجموعة من الأفراد ينتمون إلى عائلة كبيرة واحدة من عائلة ك. أ (KE) على امتداد ثلاثة أجيال، يشكو كثير منهم من عاهة لغويّة متوارثة جعلت الباحثين يتوقّعون اقترانها بجينة بعينها. وقد لاحظ غوبنيك (1990، 1991) أنّ الأفراد المصابين من هذه العائلة عاجزون عن استخلاص القواعد العامّة المتحكّمة في العلامات الدّالّة

[117] Grammar gene(s)
[118] Fox P2 (Forkhead box protein P2)

على السّمات النّحويّة[119] ولذلك سمّيت العاهة بـ "عمى السّمات"[120]. وتتجلّى هذه العاهة في الكلام العفويّ العاديّ وفي الكتابة وفي التّقييم النّحويّ وفي الإعادة والتّكرار. وقد ذهب غوبنيك إلى أنّها عاهة متّصلة بالنّحو الكامن[121] (بالمفهوم التّوليديّ) وإلى أنّها قد تكون مرتبطة بجينة واحدة بحكم نمط المخطّط الوراثيّ في شأنها في العائلة المعنيّة. ولكنّه لم يحدّد جينة بعينها ورغم ذلك قامت على أساس ما لاحظه موجة فكريّة كاملة تقرّر أنّ جينة النّحو قد اكتشفت واعتبر ذلك الأساسَ الجينيّ للنّحو الكونيّ.

ومن مظاهر العاهات اللّغويّة المرتبطة بفوكس ب2، عاهات الاكتساب اللّغويّ وعاهات الكلام مرتبطة بعوامل وراثيّة متعدّدة ومعقّدة (فيشر ولاي وموناكو[122] 2003). فمن الأولى، الصّعوبات في تعلّم الحركات النّطقيّة وفي أدائها وما ينتج عن ذلك من عسر التّناسق الحركيّ النّطقيّ[123]، وصعوبات (كلّيّة أو جزئيّة، متفاوتة في النّشاط الكلاميّ تقبّلا وإنتاجا تتضمّن صعوبات في فهم النّحو وفي إنتاجه. وقد لاحظ لاي وجماعته[124] (2001، 2003) أنّ الأفراد المصابين من عائلة ك. أ (KE) يحملون طفرة[125] تغيّر حمضا[126] (حامضا أمينيّا) في نقطة محدّدة في مجال الرّبط في الحمض من بروتينة فوكس ب2. ولهؤلاء نسختان من بروتينة فوكس ب2، واحدة عاديّة سليمة وأخرى طافرة، بوجه يرى فيه الباحثون في حالتهم أنّ العاهة لا تعود إلى انعدام البروتينة فوكس ب2، وإنّما هي عائدة إلى تدنّي المستويات الوظيفيّة لبروتينة فوكس ب 2. ويفسّر بعض العلماء الآخرين (ماك درموت

[119] grammatical feature(s)
[120] feature blindness
[121] underlying Grammar
[122] Fisher, Lai & Monaco (2003)
[123] developmental verbal dyspraxia
[124] Lai et al. (2001, 2003)
[125] mutation
[126] amino acid

وجماعته[127] 2005) هذا النّقص لوظيفيّ، في نماذج أخرى من العائلات ذات العاهة نفسها، بأنّ الطّفرة الجارية في فوكس ب2، تحدث في مواضع أخرى من فوكس ب2، ونتيجتها أن يحدث قطع للإشارة في منتصف البروتينة بوجه يقلّص من تركيبتها ومن وظيفتها بالاستتباع.

والمهمّ، في رأي فيشر (2006: 287)، أنّ الأبحاث الجينيّة قد تقود إلى تبيّن وظيفة فوكس ب2 العاديّة في النّظام العصبيّ المركزيّ وبذلك يمكن الكشف عن المسالك الهيائيّة الّتي تنشط في تيسير الاكتساب اللّغويّ والتّكلّم، وهو أمر لا يقود بالضّرورة إلى القول بأنّ فوكس بـ2 هي "جينة الكلام" أو "جينة اللّغة"، فدور فوكس ب2 إنّما يتمثّل في تجهيز بني البشر بقدرات لغويّة خطابيّة لا في تمكينهم من اللّغة في ذاتها.

ولا يمكن أن تعتبر فوكس ب2 جينة اللّغة دون سائر الوظائف لأسباب أخرى عديدة منها كون الجينة مشتركة بين جميع الأجناس من الثّدييّات وإن كانت متباينة في ما بينها من حيث تركيبتها الأمينيّة، وهي كذلك وظيفيّة في تسطير مخطّط النّموّ في عدد آخر من الأعضاء في المستوى الجنينيّ عند البشر، ومنها نموّ الرّئتين، ولذلك يتأكّد - عند فيشر (2006: 288)- أنّ القرن الأحاديّ بين فوكس ب2 واللّغة على أساس أنّ تلك جينة هذه، غير وارد إذ تكون وقتها فوكس ب2 جينة الرّئتين أيضا، وهو أمر غير ثابت ولا معقول.

ولكنّ الرّأي السّائد يتّجه في هذا الأمر إلى افتراض طفرة حدث بها الانفصال بين الأجناس (الرّئيسات والبشر)، وتطوّر خطّ عند البشر في وظيفة فوكس بـ2 في النّظام العصبيّ المركزيّ منذ 200.000 عام أو يقلّ، ثمّ كان له ظهور اللّغة منذ 50.000-100.000 عام. فوظيفة فوكس بـ2

---

[127] MacDermot et al. (2005)

متمثّلة في المساهمة في إقامة الشّبكات العصبيّة المعقّدة المسؤولة عن التّحكّم الحركيّ في الدّماغ، وهي شبكات وظيفيّة في إنجاز الحركات والأعمال الدّقيقة عند البشر خاصّة. ولعلّ ستيفن بنكر (1994) من أبرز الباحثين الّذين ركّزوا هذه الفكرة.

ففوكس ب2، بروتين تشفّره الجينة المسمّاة بالاسم نفسه وهي كائنة في الكروموزوم 7 من الجينوم البشريّ. وهي جينة مشتركة بين أنواع كثيرة متباعدة من الثّدييات، في ما يبدو من خلال البرامج الجينيّة المعلومة إلى حدّ الآن. ويُعتقد أنّ الوظيفة الأساسيّة الّتي تؤدّيها هذه الجينة، متمثّلة في التّحكّم في التّعبيرة الجينيّة[128] أي تحديد مدى نشاط الجينة وتوقيته وموضعه ومدّته في مختلف الأنسجة من مختلف الأعضاء. ومن الثّابت أنّ فوكس ب2 مسؤولة عن تحديد مطاطيّة الشّبكات العصبيّة وعن تعديلها في الدّماغ (فيشر وشارف[129] 2009)، وهي فاعلة كذلك في بعض الأعضاء الأخرى مثل الرّئتين والمعيّ.

ويبدو أنّ الطّفرة الّتي تطرأ على فوكس ب2 تسبّب عددا من عاهات الكلام متنوّعة ومتباعدة في الظّاهر لما لها من تدخّل في نموّ القشرة الدّماغيّة عند البشر (فرناس وجماعته[130] 2008). ويذهب فرناس وجماعته، بناء على ذلك، إلى أنّ فوكس ب2 ليس المسؤول المباشر عن العاهات اللّغويّة الّتي قد ترتبط به في ظاهر الأمر وإنّما هي تلك الجينات الّتي يتولّى فوكس ب2 تعديلها أو يتحكّم فيها -بعبارة أخرى- بأن ترتبط العاهات اللّغويّة بما في تلك الجينات من تحقّقات ظاهريّة[131]. ولعلّ أبرز ما تقرّر في هذا البحث أنّ

---

[128] gene expression
[129] Fisher & Sharf (2009)
[130] Vernes & alee (2008)
[131] phenotype(s)

العاهات اللّغويّة المختلفة قائمة على أساس مسلك عصبيّ جينيّ مشترك يختل في أنواع العاهات اللّغويّة المتباينة. ويبدو أنّ العاهات اللّغويّة المذكورة غير مرتبطة بسائر الأنشطة العرفنيّة ولا هي متأسّسة على ما قد تكون طفرة فوكس بـ2 مسؤولة عنه من حيث عاهات التّحكّم الحركيّ. ذلك أنّ "الجينات لا تحدّد (ولا يمكنها أن تحدّد) مخرجات سلوكيّة أو عرفنيّة معيّنة، إلاّ بطريقة غير مباشرة (فيشر 2006: 279).

خاتمة

لعلّ أبرز ما نسجّله في هذا المستوى هي المبادئ الّتي تبيّنّاها في هذا الفصل بمباحثه المتداخلة المتشعّبة في موضوع لسنا منه ولكنّنا اضطررنا إليه، لمسنا فيه ما يشكو منه أهله من العنت ولطافة الأشياء وتشابكها تشابك البنية العصبيّة ولطافة أنشطتها. يتمثّل أوّلها في كون الأرضيّة العصبيّة للملكة اللّغويّة شيئا مسلّما به لا جدال فيه، وإنّما الطّريق إلى الوقوف عليه لم يُقطع منها إلاّ شوط يسير أو قل لم يبق منها إلاّ أيسرها. وذاك هو البرنامج المستقبليّ للأبحاث العرفنيّة العصبيّة أوّلا وللأبحاث اللّغويّة ثانيا. ويتمثّل الثّاني فرعا عن الأوّل في كون هذه الأرضيّة تذهب منحسرة متقلّصة بل مختصرة في النّشاط الخلويّ محكوما ببرنامج جينيّ عامّ به يتحدّد نشاطها في مختلف مظاهره. وهو برنامج الجينيّات العصبيّة أوّلا والجينيّات العرفنيّة ثانيا فالجينيّات اللّسانيّة ثالثا على التّرتيب، ترتيب الاندراج لا ترتيب التّتابع. وثالث المبادئ المتحكّمة في ما مضى أنّ الجسر أو الصّلة المباشرة بين الجينات والعرفنة تقوم على معرفة كاملة شاملة للنّظم البيولوجيّة المتحكّمة في نموّ الدّماغ وفي اشتغاله، كما يقرّر ذلك غرانت (2003)، وهذا ما نفرد لبعض مسالكه الفصل الثّالث بعد هذا.

الفصل الثّاني
الأرضيّة اللسانيّة للملكة اللغويّة

"إذا كان بنو البشر جزءا من العالم الطّبيعيّ، لا كائنات خارقة للطبيعة، يكون حينئذ للذكاء البشريّ مدى وحدود تضبطها هندسته البدنيّة."
(شومسكي 2000: 107)

مقدمـة

المقصود بالأرضيّة اللّسانيّة هنا جملة المباحث المطروحة في تشكّل اللّغة ملكةً في الدّماغ من زاوية لسانيّة نظريّة محض. فلتكن الأرضيّة هنا أرضيّة فكريّة لا بالمعنى العضويّ أو الموضعيّ المعلوم. ويمكن أن تثار في شأن هذا الفصل مسألة أخرى تتعلّق بإمكانيّة البحث عن جواب لمشغل عامّ المطلوب فيه هو حلول الملكة في الدّماغ جزءا من الجسد، وهذا مبحثنا في هذا الكتاب بصورة عامّة، في مجال لا يتوفّر فيه بحكم طبيعته الإبستيمولوجيّة، ذلك الجواب. والجواب عن هذه المسألة قد يخرج بنا عمّا نحن فيه إن أطلنا، ولكنّ ما قد يطفئ الظّمأ دون أن يشفيه، أنّ من أبرز النّظريّات الّتي التزمت في بنائها وتحليلها ووجهتها واحتكمت في جميع ذلك إلى العلوم بأنواعها بما فيها البيولوجيّة العصبيّة والنّفسيّة وما إليها، إنّما هي النّظريّة التّوليديّة، وقد كان ذلك ظاهرا صريحا منذ بداياتها، إلى حدّ أنّ نظريّها (شومسكي ومن معه) قد لا يُعدّون من اللّسانيّين لو التزمنا في تلك التّسمية بما هو متعارف عند العموم في إطلاقها، ولأنّ ما يكتب فيها ليس من اللّسانيّات إن التزمنا بالشّيء نفسه، أو لم يدع شومسكي في كتابات كثيرة وبحجج متنوّعة إلى أن تكون اللّسانيّات قسما من علم النّفس بل قسما من البيولوجيا، فعاد بذلك النّشاط (اللّغة) مقترنا بالعضو المحقّق له (الدّماغ)

واجتمع به جميع ما افترق بين الاختصاصات المتباعدة، في ما ظهر، متعلّقا باللّغة منذ قرن أو يزيد. ولذلك كان نشوء اللّسانيّات البيولوجيّة برنامجا مشتركا بين علمين في الجملة ولكنّه مستقلّ عن كليهما مضمونا وغاية كما يبين في هذا الفصل. ليكن هذا شيئا من جواب مطوّل قد يكون في ما يأتي بعض منه ولكن من أسسه الكافية الشّافية ما يغيب. نقيم هذا الفصل على ثالوث من الأفكار نطرح في أولها القضيّة الأساسيّة في النّظريّة اللّسانيّة عامّة والتّوليديّة على وجه الخصوص، وهي النّحو الكونيّ في ما به يتّصل بحلول الملكة في الجسد، وهو برنامج اللّسانيّات البيولوجيّة الّذي يكون عرض ملامحه الكبرى بعيد ذلك، وتكون ثالثة الأفكار منصبّة على التّوليفيّة والمنظوميّة مفهومين أو آليّتين من صميم الملكات العرفنيّة العامّة واللّغويّة بالاستتباع وفي صلتهما بالمباحث العصبيّة العامّة.

النّحو الكونيّ

كانت العناية منذ الخمسينيّات من القرن الماضي منصبّة على ما به يكون إنتاج العبارات اللّغويّة وما به يكون فيهما. والإنتاج والفهم عمليّتان ذهنيّتان تستدعيان جهازا يحقّقهما هو الدّماغ عضوا في مظهره المادّيّ الفيزيائيّ وهو الذّهن عضوا (على حدّ عبارة تشومسكي) في مظهره العرفنيّ المجرّد يتجسّد في أنشطة الدّماغ الاستقلابيّة. وجميع ذلك يمكن اختصاره في السّؤال التّالي: كيف يفهم بنو البشر اللّغة وكيف يستعملونها؟ ويرتبط بهذا السّؤال سؤال آخر يتعلّق بما به يكون حلول تلك الملكة في الذّهن/الدّماغ أي كيف يمكن للبشر أن يكتسب اللّغة من حيث هو نوع أو جنس، ومن حيث هو فرد أو شخص؟

فهو مأخوذا من زاوية كونه نوعا بشريّا متكلّما بأيّ من اللّغات، يكون ذا مهارات تمكّنه من استعمال اللّغة إنتاجا وفهما وهذه المهارات فاتحة الباب

على البحث في أصول تلك المهارات وفي انبثاقها وفي تأصلها فنموّها ونضجها واستوائها ملكة على شاكلة لغة مخصوصة من اللّغات المعلومة في التّاريخ، وهذا ما يُعرَف بالبحث في النّحو الكونيّ.

وهو مأخوذا من حيث هو فرد بعينه متكلّما بلغة مخصوصة بعينها يكون ذا مهارة تمكّنه من استعمال لغة ما إنتاجا وفهما، وهذه المهارة فاتحة الباب على البحث في كيفيّة حصولها في ذهنه طفلا فمكتملة موازية للاكتمال وللنّضج العصبيّين النّفسيّين، وهذا ما يعرف بالبحث في الاكتساب اللّغويّ. والسّؤالان كلاهما عائد إلى مبحث جامع مداره انغراس هذه الملكة في الدّماغ أو بعبارة أخرى تجسدن اللّغة في الدّماغ أو حلولها فيه. وهو سؤال برنامج قد لا يفي حال البحوث الرّاهن بجواب متين شاف في شأنه. وليكن هذا السّؤال مترجَما في العموم ودون الالتزام بنهج نظريّ لسانيّ بعينه دون آخر، إلى صياغة من قبيل ما يلي: كيف تتجسّد الملكة اللّغويّة في الأرضيّة العصبيّة أي في الدّماغ؟

اللسانيّات البيولوجيّة

تمثّل اللّسانيّات البيولوجيّة برنامج بحث غايته الوقوف على مظاهر الصّلة بين اللّغة والحياة أو بين اللّسانيّات وعلوم الحياة. ولمفهوم اللّسانيّات البيولوجيّة مظهران متداولان في اللّسانيّات عامّة وفي التّوليديّة على وجه الخصوص: أوّلهما مفهوم غانم عامّ هو مفهوم توليديّ معهود مداره عمل اللّسانيّين (التّوليديّين) في العناية بخصائص الأنحاء المختلفة، مواصلة لبرنامج البحث التّوليديّ الّذي سطّره شومسكي منذ البدايات في كتابه "الأبنية الإعرابيّة"[132] (1957) وما قبل ذلك في "البنية المنطقيّة في النّظريّة اللّسانيّة"[133] (1955)؛ وقد زادت العناية به في البرنامج الأدنويّ. وثانيهما

---

[132] Chomsky, 1957
[133] Chomsky, 1975

مفهوم دقيق محدّد يضمّ جملة من الاختصاصات المتظافرة قوامها السّعي إلى صهر المعارف الثّابتة في الكثير من العلوم المترابطة من قبيل اللّسانيّات والبيولوجيا التّطوّريّة[134] والبيولوجيا الجينيّة[135] وعلوم الوراثة[136] وعلوم الأعصاب[137] وعلم النّفس، وعلم الإناسة (الأنتروبولوجيا)، وعلوم العاهات اللّغويّة، والحاسوبيّة، إلخ، صهرا يمكّن من فهم أعمق للظّاهرة اللّغويّة.

تتّفق الكثير من المصادر (شومسكي[138] 2007: 9؛ دي شيولّو وجماعتها[139] 2009: 2) في العود بظهور مصطلح "اللّسانيّات البيولوجيّة" إلى سنة 1974، أوّل مرّة موضوعا اقترحه ماسّيمو بياتلّي- بالماريني لندوة عالميّة جمعت بين علماء الحياة التّطوّريّة وعلماء الأعصاب واللّسانيّين وكلّ من له عناية بالموضوع (بياتلّي-بالماريني[140] 1974، 1980). ولكنّ بوكس وغروهمنّ (2007: 2) يذهبان إلى أنّ ظهور المصطلح كان أوّل مرّة، جزءا من عنوان كتاب "مختصر في اللّسانيّات البيولوجيّة" صدر سنة 1950 لميدر وميسكانس[141]. وفي هذا الكتاب دعوة صريحة إلى اعتبار علم اللّغة علما طبيعيّا، فتكون اللّغة، حينئذ، مجموعة من العمليّات البيولوجيّة المندمجة في نظام الحياة يجري تفسيرها من زاوية وظيفيّة بيولوجيّة قوامها أنّ جميع الظّواهر اللّغويّة مظهر من مظاهر الاندماج الوظيفيّ بين الكائن الحيّ والمحيط. ولكن برنامج اللّسانيّات البيولوجيّة تبلور في نهاية السّنوات 1950 وبداية السّنوات 1960، من خلال التّعاون بين بعض اللّسانيّين وبعض علماء

[134] evolutionary biology
[135] molecular biology
[136] genetics
[137] neurology
[138] Chomsky, 2007
[139] Di Sciullo et al., 2009
[140] Piattelli-Palmarini, 1974, 1980
[141] Meader & Muyskens: *Handbook of Biolinguistics*, 1950

الحياة، كان المنطلق بين شومسكي ولانبارغ[142] ولوريا[143]، ومثّل ظهور كتاب لانبارغ سنة 1967 [الأسس البيولوجيّة في اللّغة][144]، المعلم المنطلق لتأسيس البرنامج البيولوجيّ في اللّسانيات.

تمثّل اللّسانيّات البيولوجيّة تبلورا لمشغل أساسيّ أصليّ في النّحو التّوليديّ كان يسعى أصحابه، وشومسكي على رأسهم، إلى جعل اللّسانيّات فرعا من علم الحياة (البيولوجيا) أو بعبارة أخرى إلى أن تدرس اللّغة باعتبارها خصيصة ملازمة للبشر، ولمَ لا باعتبارها عضوا يختصّ به ممّا يطلق عليه شومسكي "الذّهن/الدّماغ"[145]. وتمثّل القضايا المطروحة برنامجا للّسانيات البيولوجيّة تفصيلا لما قام عليه النّحو التّوليديّ في مختلف أطواره وفي مختلف صياغاته ولما ورد مجملا في كتاب "معرفة اللّغة: طبيعتها وأصلها واستعمالها" (شومسكي[146] 1986) أو بصياغة أخرى هي البحث في طبيعة اللّغة البيولوجيّة.

وللّسانيّات البيولوجيّة مهامّ كثيرة من زاوية توليديّة تتصوّر النّحو على الشّاكلة المعهودة فيها أي النّحو المضمر أو الدّاخليّ[147] (شومسكي 2007: 14)؛ وما يتّصل بهذا المفهوم من قضايا تطرح في مستوى قابليّة التّعلّم وقابليّة الاكتساب، أو بعبارة أخرى: كيف ينغرس النّحو في الذّهن، إذ ينشأ الطّفل في مجموعة بشريّة ما فتكون له لغتها. ومن المعلوم أنّ تعرّضه للمعطيات اللّغويّة شرط ضروريّ في حصول تلك اللّغة عنده، ومعنى ذلك أنّ في الذّهن قابليّة للاكتساب سابقة على المعطيات، هي استعداد ما قبليّ فطريّ

---

142 Lenneberg
143 Luria
144 Lenneberg: *Biological foundations of language*, 1967
145 mind/brain
146 Chomsky, 1986
147 internal(ized) Grammar

ينقدح بفعل تلك المعطيات، وعلى هذا الاستعداد تجري عبارة "النّحو الكونيّ" بما يتضمّن من آليّة الاكتساب اللّغويّ.

ومن هذه المهامّ أن يُقام، لكلّ لغة مخصوصة، نحو توليديّ يفسّر كلّ ما يكون فيها من انتظام بين الصّوت والمعنى. وتناول اللّغة من زاوية بيولوجيّة يفرض أن يكون البحث في آليّات فهم اللّغة في الدّماغ. ومنها تفسير الاكتساب اللّغويّ، ومن زاوية بيولوجيّة يعني ذلك الكشف عن الآليّات الّتي يكون بها التّعامل مع المعطيات اللّغويّة الجارية في محيط الطّفل من جهة، والملكة في ذهنه ليبلغ مرحلة النّضج والاكتمال في تحقّقها بأن يستوي النّحو المضمر بشكل من الأشكال في دماغه. ومنها الكشف عن العوامل والوجوه الّتي كان بها تطوّر الملكة اللّغويّة عبر الزّمان في مستوى النّوع البشريّ. ومنها مهمّة جامعة للجميع تتمثّل في بيان الوجوه الّتي بها يكون الاقتران بين جميع المظاهر اللّغويّة والذّهنيّة والأرضيّة العصبيّة في الدّماغ على مستويين: فرديّ عينيّ وجماعيّ نوعيّ.

وبين القضايا المطروحة في اللّسانيّات البيولوجيّة والقضايا المطروحة في البيولوجيا، ترابط من حيث مثّلت هذه حاضنة لتلك. فمدار المسائل في برنامج اللّسانيّات البيولوجيّة كائن في الأسئلة الموالية:

(أ)- ما هي الأسس البيولوجيّة للملكة اللّغويّة من حيث عواملها الجينيّة الوراثيّة ومن حيث ميكانيزماتها العصبيّة العرفنيّة؟ أو بعبارة أخرى: ما هي العمليّات التّطوّريّة الّتي أدّت إلى ظهور اللّغة ونشوئها؟؛

(ب)- ما هي الخصائص الوراثيّة في النّمط الظّاهر[148] للّغة؟؛

(ج)- ما حظّ الطّبيعة والتّربية[149] في حصول الملكة وتطوّرها؟؛

[148] النّمط الظّاهر، في علوم الوراثة، هو كلّ الملامح والخصائص الصّريحة أو language phenotype الظّاهرة للكائن الحيّ خاصّة ما تعلّق بمظهره الذي يتغيّر مقابل خصائصه الوراثيّة الكامنة (نمط أصلي).

(د)-كيف تنمو الملكة اللّغويّة وتكتمل أو تنضج عند الأفراد من بني البشر؟ أو بعبارة أخرى: كيف تتحقّق اللّغة في الدّماغ؟ وكيف تستعمل؟

وهي قضايا يمكن العود بها في مظهرها اللّسانيّ إلى القضايا الّتي تطرح منذ زمن في البيولوجيا، كما صاغها تينبورغن[150] (1963) في إطار سلوكيّ يهمّ الحيوان مطلقا (بوكس وغروهمن[151] 2007: 1-2). ومدارها رباعيّ من الأسئلة، أولها: ما هي العوامل الّتي تثير الحيوان ليستجيب بالسّلوك الّذي يصدر منه وما هي آليّات تلك الاستجابة؟ وثانيها: كيف ينمو الكائن بنضج الفرد؟ وثالثها: لمَ كان السّلوك ضروريًا لنجاح الحيوان في الحياة (العيش، التّنقّل، التّناسل، إلخ)، وكيف يؤثّر التّطوّر في ذلك السّلوك؟ ورابعها: كيف تطوّر مظهر سلوكيّ بعينه خلال الزّمان؟ وهل يمكن العود بالسّلوك المشترك بين نوعين متقاربين من الحيوان إلى سلوك موحّد عند النّوع الأصليّ المشترك الّذي ينحدران منه؟

وتُتناول القضيّة الواحدة ممّا مضى من القضايا على مستويين: واحد تجريديّ عامّ شامل وآخر مجهريّ دقيق يكون في مستوى النّورونات العصبيّة. فمعرفة اللّغة، مثلا، يمكن تناولها في مستوى عامّ هو مستوى الملكة اللّغويّة أو النّحو الكونيّ بما يتضمّنانه من "نحو توليديّ" وما يندرج فيه من الخصائص المتنوّعة من قبيل التّكراريّة[152] والمبادئ والبرامترات وما إلى ذلك، وكذلك في مستوى خلويّ يتمثّل في النّورونات العصبيّة كما ورد ذلك في الفصل الأوّل من هذا الباب.

---

[149] nature and nurture
[150] Tinbergen, 1963
[151] Boeckx & Grohmann, 2007
[152] recursion, recursivity

ويبدو أنّ النّهج البيولوجيّ في اللّسانيّات قد قام على خلفيّة الانتصار لنظريّة أو لأخرى في مستوى خاصّ في ضوء ما تثبته الأبحاث العصبيّة من حقائق نظريّة لسانيّة توصّلت إليها نظريّة لسانيّة بعينها دون أخرى، من ذلك أنّ إنشاط مركز أو موقع بعينه في الدّماغ لمعالجة الأسماء ومركز آخر مثلا لمعالجة الأفعال، يمثّل أساسا بيولوجيّا تثبت له القسمة بين الأسماء والأفعال في نظريّة تقوم عليه، ويبطل له من النّظريّات ما لا يرى الفصل بينهما، أو العكس؟ ومن السّبل المؤدّية إلى إرساء الملكة اللّغويّة في أرضيّة عصبيّة في المستويات الجينيّة، البحث في تطوّر مخطّطات النّموّ العصبيّ عند الأطفال خلال تبلور الملكة اللّغويّة عندهم وفي التّرابط بين العاهات اللّغويّة بمختلف أنواعها بالتّحوّلات الجينيّة أو الأعراض الجينيّة الكائنة في مستوى الدّماغ عند بعض الأفراد (فوكس ب2 مثلا). هذه السّبيل وما شاكلها دائرة في إطار ما سطّره شومسكي[153] (2000: 107)، إذ قال: "إذا كان بنو البشر جزءا من العالم الطّبيعيّ، لا كائنات خارقة للطّبيعة، يكون حينئذ للذّكاء البشريّ مدى وحدود تضبطها هندسته البدنيّة".

التّوليفيّة

ممّا يطرح في البرنامج التّوليديّ، نواة لبرنامج اللّسانيات البيولوجيّة، ذاك المتعلّق بحصول الملكة في الدّماغ. ويمكن صوغه بطرق عديدة منها: إذا كانت اللّغة مكتسبة، هل يحصل النّحو الكونيّ بحصول القواعد المخصوصة أو بالآليّات الكبرى المولّدة للنّحو في المطلق؟ والجواب في ذلك قائم على ركيزتين هما مفهوم التّوليفيّة[154] والمنظوميّة.

أمّا التّوليفيّة فهي طاقة في النّحو الذّهنيّ بها يكون توليديّا أو ذا قدرة عجيبة على التّوليد من حيث هو قادر على إنتاج عدد لاتناهيّ من الأقوال

---

[153] Chomsky, 2000
[154] combinatoriality

وعلى فهمها، وذلك انطلاقا من عدد محدود من العناصر يجري توليفها وفق مبادئ التوليف الإعرابيّة المعلومة.

يذهب شومسكي إلى أنّ الطّفل مطلقا، يفوق في طاقته النّحويّة جميع الباحثين في اللّغة منذ كان البحث فيها مؤسّسا. فهو قادر على أن يقيم نحوا في ذهنه يجرّده من المعطيات دون إعانة من معين، ودون عناء، ويحصل عنده حصولا واحدا مكتملا عند الفرد اكتماله عند سائر الأفراد من بني مجموعته. وأمّا اللّسانيّون فيسبرون جرّاها ويختصمون فتختلف مشاربهم وتتضارب. ولعلّ في هذا الاختلاف رحمةً وموردا للرّزق يقتات به اللّسانيّون ويتشغل به طلبة العلوم النّحويّة سبيلا إلى الرّزق (!). ولكنّ الأساس النّاتج عن جميع ذلك إنّما هو كائن في أنّ جميع اللّسانيّين يخطئون في البحث أو في الاهتداء إلى تشخيص النّحو الذّهنيّ.

فالأطفال واللّسانيّون كلاهما يتلقّون المعطيات الجارية في الاستعمال، يجرّد كلّ منهما جهازا يُطلق عليه نحو اللّغة المعنيّة، ولكنّ الأطفال يجرّدونه ويجرونه دون وعي ولا قصد بل لا يفكّرون في كونه نحوا وكلّ ما يفعلون أن يعتمدوه في التّواصل بالعبارات اللّغويّة إنتاجا وفهما، وأمّا اللّسانيّون فيفترضون جملةً من المبادئ والقواعد والآليّات يرونها كائنةً في ذهن المتكلّم ويعتقدون أنّها توجّهه وتحكم استعماله ذاك إنتاجا وفهما. ولئن اختلفا في المنطلق وفي المآل فيهما متّفقان في كون النّحو معضلة، هو ما يطلق عليه جاكندوف (1997: 5) "معضلة الاكتساب اللّغوي[155]".

المنظوميّة

تمثّل فكرة المنظوميّة في اشتغال الذّهن وفي اشتغال النّظم البيولوجيّة أساسا عصبيّا وعرفنيّا، ولغويّا بالاستتباع. وقد كان لفودور (1983) فضل

[155] Paradox of Language Acquisition

كبير في فتح آفاق واسعة للمباحث العرفنيّة بتأسيسه لفكرة المنظوميّة. هي وظيفة مخصوصة في معالجة المعلومات، مقترنة بأرضيّتها العصبيّة المتمثّلة في بنية مختصّة في الدّماغ.' (راموس 2006: 258). وهي محلّ للكثير من المطارحات النّظريّة في مجالي العرفنيّات وعلوم الدّماغ. فمن المطارحات الجارية في شأنها ما يكون من كيفيّات اشتغالها في الأنشطة العرفنيّة المختلفة في المظهرين الذّهنيّ والعصبيّ، ومنها ما يكون في نشوء المنظوميّة في ذينك المظهرين بين تحدّدها جينيّا و/أو باعتماد التّجربة والعيش (ماركوس 2006: 444).

وقد سطّر فودور (1983: 36-37) خماسيّا من التّساؤلات يكون بها تبيّن الاشتغال المنظوميّ في العرفنة أو بعبارة أخرى متى يكون نظام من الأنظمة منظوميّا، وقد تبلورت هذه المسائل في شكل مباحث بعد ذلك في علوم الأعصاب وفي العرفنة بصورة عامّة:

فأوّلها، هل النّظام مختصّ بمجال واحد دون غيره أو تتقاطع في عمليّاته مجالات متعدّدة؟ يتعلّق ذلك بتصنيف النّظام ضمن الانتظام العرفنيّ أفقيّا وعموديّا (فودور 1983: 36).

وثانيها، هل يتحدّد النّظام الحوسبيّ تحديدا فطريّا أو تتكوّن بنيته بفعل التّعلّم؟ (فودور 1983: 37).

وثالثها، هل يجري تركيب[156] مكوّنات النّظام الحوسبيّ[157] بمعنى تجميعها بأخذها من خزّان موجود سلفا عناصره عمليّات حوسبيّة صغرى؟ أو هل تتشكّل هندسته مباشرة في بنيته العصبيّة؟ (فودور 1983: 37).

---

[156] assembling
[157] computational system

ورابعها، هل يقترن هذا النّظام الحوسبيّ ببنية عصبيّة قائمة سلفا فيكون فيها وليس في غيرها وفق برنامج محدّد سلفا؟ أو يكون ذلك وفق آليّات نورونيّة مخصوصة؟ (فودرو 1983: 37).

وخامسها، هل يستقلّ هذا النّظام بنفسه في عمليّاته الحوسبيّة؟ أو يشارك جملةً من النّظم العرفنيّة الأخرى مواردها من قبيل الذّاكرة أو الانتباه وما إليهما؟ (فودور 1983: 37).

وتبلورت تلك التّساؤلات في رباعيّ من المباحث:

منها مبحث التّفرّد[158]، حيث يتعلّق التّفرّد بمدى تخصّص المنظومة الواحدة بوظيفة واحدة، وبمدى اقتصار الوظيفة الواحدة على منظومة واحدة. وفي ذلك تطرح جملة من الأسئلة، من أهمّها: إلى أيّ حدّ ترتبط تلك المنظومة بالتّشبيك الجينيّ الماقبليّ في اختصاصها بوظيفتها؟ وهل يمكن لمنطقة أخرى من الدّماغ ذات تشبيك جينيّ ما قبليّ آخر، أن تؤدّي تلك الوظيفة نفسها بفعل عوامل التّجربة والمحيط؟ وإذا ما أمكن ذلك، إلى أيّ مدى يبلغ الاختلاف بين التّشبيكين الجينيّين الماقبليّين والحال أنّهما يؤدّيان الوظيفة نفسها؟ وإذا ما تعلّق الأمر بأداء تلك الوظيفة، أيّ التّشبيكين يؤدّيها بوجه أفضل؟ (راموس 2006: 258).

ومنها مبحث التّحديد الماقبليّ[159]؛ فإذا ما أخذت منظومة بعينها يكون السّؤال في المدى الّذي به يحدّد فيها التّشبيك الجينيّ الماقبليّ وظيفة تلك المنظومة. ويكون في البنية الّتي يفرضها ذلك التّشبيك الجينيّ الماقبليّ من حيث نوعها ومن حيث نمط اشتغالها في معالجة المعلومات الّتي تختصّ بها (راموس 2006: 258).

---

[158] Unicity
[159] pre-specification

ومنها مبحث "الالتزام"[160]، ومداره المدى الّذي به يفرض التّشبيك الجينيّ الماقبليّ قيودا على المنظومة في قيامها بوظيفة بعينها مخصوصة دون سائر الوظائف، والمدى الّذي به يحدث تغيّر على ذلك التّشبيك الجينيّ الماقبليّ، بفعل التّجربة لينهض بوظيفة أخرى. وبعبارة أخرى إذا ما أخذنا منظومة بعينها يكون السّؤال في مدى خلوصها لوظيفة بعينها في ضوء ما هو محدّد سلفا في البرنامج الجينيّ أو خلافا لذلك يمكن أن تكون لها وظيفة أخرى بتأثير من التّفاعل مع المحيط (راموس 2006: 258).

ورابعها مبحث التّعديل[161] بمعنى البحث في تفاعل المنظومة والمحيط مصدر التّجربة خلال نموّها: لتبلغ المنظومة مرحلة النّضج أو الاكتمال الوظيفيّ يكون البحث في ما يقتضيه ذلك من عوامل التّجربة الّتي تساهم في تعديل التّشبيك الجينيّ الماقبليّ من حيث طبيعتها وكمّيّتها، ومن حيث ما به يكون التّغيير في البنية العصبيّة وفي نمط معالجة المعلومات (راموس 2006: 258).

وتبلورت فكرة المنظوميّة في مجالات عديدة من أهمّها علوم الحياة وعلوم الإعلاميّة (الحاسوبيّة)، ذلك أنّ النّظم المعقّدة، في تصوّرها النّظريّ والعمليّ، إنّما هي مشتغلة على أساس عدد من المكوّنات الفرعيّة يختصّ كلّ واحد منها بوظيفة يكون قد صُمّم لأدائها سلفا. فالحواسيب الحديثة مصمّمة من عدد من النّظم تتضمّن وحدة المعالجة المركزيّة وعددا من المكوّنات الفرعيّة هي منظومات تختصّ الواحدة منها بوظيفة محدودة من قبيل وحدة معالجة الرّسومات ووحدة معالجة الأصوات وما إلى ذلك. وكذا الأمر في النّظم البيولوجيّة من زاويتين تطوّريّة وتكوينيّة وفي مظهرين فيزيولوجيّ

---

[160] Commitment
[161] Tuning

وخلويّ جينيّ (شلوسّار وفاغنار[162] 2004، شوارتز وأولسون[163] 1993).

ولعلّ أبرز دليل على منظوميّة الاشتغال في الجسد البشريّ وغيره من الثّدييّات- مثلاً- ما يختصّ به الجهاز الواحد فيه من وظيفة هي التنفّس مثلا أو الدّورة الدّمويّة أو التّناسل وما إلى ذلك فجميعها منظومات مشتغلة بوجهين: هي – من وجه – مستقلّة بنفسها من حيث مكوّناتها واختصاص كلّ واحد منها بوظيفة جزئيّة يؤدّيها في إطار المنظومة، وهي – من وجه آخر- تؤدّي وظيفة متكاملة في إطار الجسم بأكمله، كأن يختصّ القلب بضخّ الدّم والشّرايين والأوردة كلاًّ بوظيفته ثمّ الرّئتان في تصفية الدّم فالكلى والكبد بما لهما من دور في تنقية الدّم أو تزويده بالضّروريّ من الموادّ الفيزيولوجيّة. ولكلّ واحدة من تلك المنظومات وظيفة جامعة هي من تخصّصه في إطار الجسم كاملا، فيكون جهاز الدّورة الدّمويّة -مثلا- متخصّصا في وظيفة الدّورة الدّمويّة بما يكوّنه من أعضاء متعدّدة كلاًّ بوظيفته فيها.

ومن الثّابت كذلك أنّ بنية الدّماغ العصبيّة (القشرة الجديدة[164]) منظوميّة في تكوّنها وبنائها؛ وكذا الذّهن والعرفنة (لانيارغ[165] 1967؛ فودور[166] 1983، مار[167] 1982). فالدّماغ ينقسم إلى مناطق تبلغ في بعض الإحصائيّات 52 منطقة (في إحصاء برودمانّ)، للواحدة منها خصوصيّتها،

---

[162] Schlosser & Wagner, 2004

[163] Schwartz & Olson, 1999

[164] تطلق القشرة الجديدة (neocortex) على قسم من الدّماغ عند الثّدييّات، وهي الطّبقة الخارجيّة في الدّماغ الّذي يتكوّن من طبقتين واحدة قديمة بمعنى مشتركة بين جميع الثّدييّات والكائنات ذات الجهاز العصبيّ المركزيّ، هي الطبقة الدّاخليّة، وأخرى جديدة يطلق عليها القشرة الجديدة بمعنى حادثة بفعل التّطوّر وهي على ستّ طبقات أو مستويات ترقّم من 1 إلى 6 حيث تكون 6 أعمق الطّبقات والطبقة 1 أعلاها وأحدثها. وتمثّل القشرة الجديدة موطن الوظائف العرفنيّة العليا من قبيل التّذكّر والتّفكير واللّغة والحركات الإراديّة وموطن الوعي وما شاكلها من الوظائف الرّمزيّة.

[165] Lenneberg 1967

[166] Fodor 1983

[167] Marr 1982

من حيث تشكيلها البنيويّ ومن حيث أنماط التّرابطات فيها وتوزيع أنواع الخلايا، تتميّز بها من سائر المناطق، ولها وظيفة مخصوصة بها.

خاتمة

يلمس المطّلع على ما كتب في اللّسانيّات البيولوجيّة، في مظهريها العامّ أو الدّقيق، وفي ما كتب فيها من لسانيّين يهتمّون بالأعصاب، أو من علماء في الأعصاب يهتمّون بالنّشاط اللّغويّ، توافقا في الاتّجاه العامّ. فبعضهم سواء أكان من الشّقّ الأوّل أم كان من الثّاني يثبت بعض الحقائق التّوليديّة: "ورغم أنّنا نفحص المكوّن الشّكليّ في توليد الجملة من زاوية انتظامها العصبيّ، أي الآليّة العرفنيّة في الشّقّ الأيسر من الدّماغ، فإنّ هذه الأفكار لا تعارض النّظريّات اللّسانيّة في توليد الجملة." (غليزرمان وبلكوسكي 2002: 217).

ولئن كانت التّوليديّة إطارا عامّا نشأت فيه فكرة اللّسانيّات البيولوجيّة بحكم ما طرح فيها من قضايا تهمّ هندسة اللّغة في ضوء ما تؤدّيه من وظائف عرفنيّة، وهو أمر تبلور وتعمّق بصفة أوضح في ما يعاد طرحه من تلك القضايا في البرنامج الأدنويّ، لئن كان جميع ذلك فإنّ اللّسانيّات البيولوجيّة مبحث مستقلّ عن التّوليديّة قائم المعالم، ولعلّ تخصيص مجلّة فصليّة (إلكترونيّة) تحمل عنوان اللّسانيّات البيولوجيّة[168] منذ 2007 دليل على ذلك وإن كانت أغلب الدّراسات المنشورة فيها توليديّة المنزع، فالمهتمّون باللّسانيّات البيولوجيّة أو باللّسانيّات العصبيّة لا تفارقهم أبدا المسحة التّوليديّة.

---

[168] *Biolinguistics*: http://w ww.biolinguistics.eu

الفصل الثّالث
الأرضيّة البيولوجيّة والثقافيّة للملكة اللغويّة

مقدّمة

يكون البحث في هذا الفصل في مستوى عامّ تجريديّ حيث تمثّل الأرضيّة البيولوجيّة إطارا وأساسا لفرضيّات تعود بالملكة اللّغويّة (النّحو الكونيّ) إلى تطوّر في الجهاز العصبيّ عند الكائنات عموما وعند النّوع البشريّ على وجه الخصوص. ويكون المعوّل في هذا الفصل على عدد من الفرضيّات هي في الواقع أطر عمل وبحث ولا تقدّم نتائج دقيقة تمثّل محلّ اتّفاق مطلق في ما بينها، وهذا طبيعيّ، وفي ما والاها من الأطر والعلوم. وفي العموم يمكن أن نرصد عددا من المناحي تركّز الفرضيّة الواحدة على الواحد منها ويخفت في فرضيّة أخرى تركّز على واحد آخر منها ولكنّها لا تهمله إهمالا مطلقا. وهذه المناحي رباعيّ من الأبنية المتفاعلة المتكاملة: البنية التّشريحيّة، والبنية العصبيّة والبنية اللّغويّة والبنية الثّقافيّة؛ ولذلك أنت واجدها مشتركة بين جميع النّظريّات المتعلّقة باللّغة رأسا أو بما جاوزها إلى الحاضنة الرّمزيّة والثّقافيّة المطلقة.

وفي العموم، كان المدخل في دراسة تطوّر اللّغة ونشوئها خاصّة وتطوّر الذّهن البشريّ ونشوئه من مدخلين اثنين: مدخل ذي رؤية من تحت[169] (أو صاعدة) ومدخل ذي رؤية من فوق[170] (أو نازلة). فالأوّل يعتمد المقارنة بين الإنسان وسائر الأجناس القريبة منه في شجرة التّصنيف

---

[169] from below
[170] from above

(الذّبيّات ثمّ الرئيسات) وينطلق من درجة بدئيّة مفترضة تتلوها فترات أو درجات من التّطوّر على محور تزداد المسافة فيه بين الأنواع على درجات تذهب متّسعة حتّى يكون الإنسان الحديث بجميع ميزاته العليا: العرفنيّة والرّمزيّة واللّغويّة. ويسلك الثّاني الاتّجاه المقابل للأوّل بأن ينطلق من الأحوال الرّاهنة في العرفنة البشريّة العليا عودا إلى ما يُتصوّر أصلا لها على مراحل أو محطّات على محور الزّمن التّكوينيّ، متّخذا في جميع ذلك ما قارب الإنسان من الأنواع القرديّة معلما تتحدّد في ضوئه خصائص العرفنة البشريّة.

ومن زاوية أخرى تنقسم المقاربات بأنواعها في ضوء ما تعتمده من إستراتيجيّة في دراسة ما عرض في الفقرة السّابقة من مداخل أو توجّه أو قضايا، إلى نوعين كبيرين: مقاربات جُمليّة متكاملة شاملة[171] ومقاربات تجزيئيّة منظوميّة[172]. فالمقاربات المنظوميّة قوامها اختصاص كلّ منظومة عصبيّة عرفنيّة بمنظومة من الوظائف الذّهنيّة العليا المترابطة الّتي لا فكاك بين مكوّناتها ومنها المنظومة اللّغويّة بما يمكن أن تتفرّع إليه من منظومات جزئيّة (راجع المنظوميّة (الفصل الثّاني من هذا الباب))، والمقاربات الجمليّة الشّاملة قوامها صبر جميع المنظومات أو الوظائف العرفنيّة العليا في نمط تطوّريّ واحد للدّماغ من حيث حجمه ومكوّناته وشبكاته، يتمكّن به الدّماغ بفضل المطاطيّة الوظيفيّة فيه، من توفير الإطار لجميع الوظائف دون أن يكون التّفريق بين مكوّناته واحدا واحدا في شكل منظومات متعاملة متفاعلة. فيكون أساس نشوء اللّغة غير منفصل عن نشوء سائر الملكات العرفنيّة بحكم ارتباطها جميعا بتاريخ المطاطيّة في بنية الدّماغ.

---

[171] unitary approach
[172] modular approach

فإذا تصورنا ثالوثا من العناصر يقوم عليه المبحث الكبير في هذا الفصل، أولها اللّغة موضوعا للّسانيات، وثانيها الدّماغ عضوا منتجا للّغة جزءا من نشاط عرفنيّ عامّ، وثالثها البيئة الحاضنة لكليهما في بعديها الاجتماعيّ والثّقافيّ، أمكن لنا أن نخوض في قضايا تهمّ اللّسانيات البيولوجيّة من مدخل لسانيّ عامّ وتوليديّ مخصوص ذي صلة بالبرنامج الأدنويّ، وفي قضايا أخرى تهمّ النّشوئيّة في مظاهرها العامّة من قبيل مطاطيّة الدّماغ، وفي عرض لملامح بعض النّظريّات الّتي تعتمد الأرضيّة البيولوجيّة التّطوّريّة العامّة سبيلا إلى تفسير نشوء الملكات العرفنيّة من زاوية بنيويّة جسديّة وأخرى عصبيّة دماغيّة وأخرى بيئيّة ثقافيّة.

النّشوئيّة: بحث في نشوء اللغة

النّشوئيّة[173] بحث في أصول الملكة اللّغويّة غايته الجواب عن تساؤلين ممكنين من كثير، هما: متى؟ وكيف؟ وقد طرحا منذ فجر التّاريخ بمعنى منذ تهيّأت الظّروف للإنسان ليطرحهما في إطار فلسفيّ مطلق أو لغويّ نحويّ محدود، أو في إطار دينيّ عقائديّ مطلق أو في ديانة بعينها. ولتبسيط العرض يمكن قسمة التّوجّهات في الفرضيّات إلى أنواع وفق ما تجيب به الواحدة عن المبحث من حيث زمانه (متى؟) ومن حيث موقعه في السّلّم التّكوينيّ (أين؟)، ومن حيث الوجوه الّتي بها كان (كيف؟). وهي أجوبة مترابطة متكاملة:

ففي مجرى المتى، تندرج فرضيّات جينيّة وأخرى إحالئيّة تستنتج من الأحداث الكبرى وجود نظم تواصليّة تقتضيها تلك الأحداث الثّقافيّة أو الطّقوسيّة أو التّاريخيّة وما إلى ذلك. وقوام الفرضيّة الجينيّة أنّ النّوع البشريّ عندما نشأ واكتمل من ناحية تشريحيّة جسمانيّة كان مهيّأ جينيّا للملكة

---

173 emergentism

اللّغويّة، كان ذلك منذ 160 ألف عام على الأقلّ وفق ما توحي به أقدم الإحالات أو ما اكتُشف من بقايا البشر المتحجّرة. وفي هذا فرضيّة أخرى تجعل من ذلك جاريا منذ 40-50 ألف عام حيث كان الانتشار الأول للبشر على وجه الأرض (كافالّي سفورزا 1997)[174] رافقه الانفجار الثّقافيّ كما يتجلّى في رسوم الكهوف وطقوس الدّفن وما إليها (كلاين 1999)[175]، وما إلى ذلك وهو يوافق أيضا تعمير الجزر والقارّات بعبور البحار من آسيا إلى أستراليا (دافيدسن ونوبل 1992)[176].

وفي مجرى الأين، بمعنى موقع ذلك في السلّم التّكوينيّ، تتدرج الفرضيّات القائمة على الدّراسات المقارنيّة بين النّظم التّواصليّة عند الأنواع المختلفة من الحيوان. فقد تبيّن أنّ عددا من الخصائص التّشريحيّة مشترك بين الإنسان وبعض الأنواع من الحيوان وإن بدرجات متفاوتة: فنزول الحلق في فضاء الفم واتّساع التّجويف الفمويّ يعتبران شرطا أساسيّا للقدرة على التّصويت لما يتوفّر في التّجويف من رنين يزيد من مدى بلوغ الصّوت. وهو أمر لا يقتصر على الإنسان دون غيره وإنّما هو متوفّر كذلك عند الرّئيسات من قبيل الشّيمبانزي وعند الذّكور (الفحول) من أنواع من الحيوانات كثيرة (هوزر وفيتش 2003)[177]. ويبطل في هذه الفرضيّة الاعتقادُ بأنّ اللّغة وليدة طفرة جينيّة مخصوصة بالنّوع البشريّ دون غيره، ويثبت فيها الاسترسال في الخصائص والمكوّنات بين لغة البشر وسائر النّظم التّواصليّة عند الحيوان. ولهذه النّتائج رافد جينيّ نظفر به في الدّراسات المقارنيّة بين النّظم الجينيّة (الجينوم) عند البشر وعند الرّئيسات حيث تبيّن أنّ بينهما تشابها في التّركيبة كبيرا وكذلك في أنماط السّلوك وفي الملكات العرفنيّة.

---

[174] Cavalli-Sforza, 1997
[175] Klein, 1999
[176] Davidson and Noble, 1992
[177] Hauser and Fitch, 2003

وفي مجرى الكيف، بمعنى حدوث اللّغات خلال التّاريخ نشأة و/أو تطوّرا، تتدرج فرضيّات قائمة على دراسة ظواهر لغويّة حديثة على سلّم التّكوين. وذلك باعتماد ما نشأ في عصور متأخّرة من لغات مثل البيدجينات[178] والكروليّات[179] (انظر مثلا حجاج 2010: الفصل الرّابع: حضور بناة اللّغة في التّكوّن الكروليّ)، وكذلك نشوء اللّغات الإشاريّة في المجموعات المعزولة (سنغاس وجماعته[180] 2004). ولعلّ من أبرز المناهج في هذا، الدّراسات الإنحائيّة[181]؛ وفيها يثبت أنّ اللّغات الأصليّة كانت غير ذات أدوات نحويّة، وهو نقص يعوّضُ بإنحاء الوحدات المعجميّة المليئة إلى وحدات معبّرة عن القيم والعلاقات النّحويّة من خلال عدد من التّغيّرات في النظام اللّغويّ على مرّ الزّمن (هيني وكلاودي وهونّماير 1991[182]؛ هابّر وتروغوت[183] 1993؛ حجاج 2010 الفصل السّابع: الإنحاء؛ وانظر كذلك: الفصل الأوّل من الباب الثّاني من هذا الكتاب: إنحاء أعضاء الجسد).

وتمثّل النّشوئيّة استعاضة عن المقابلة الكلاسيكيّة بين الفطريّة[184] والإجرائيّة[185] أو بين الطّبيعيّة[186] والتّنشئة[187] بإطار نظريّ جديد يوصّف نشوء اللّغة وتبلورها على أسس آليّة تحكم التّفاعل بين البيولوجيّ والبيئيّ بما في كليهما من عمليّات عضويّة واجتماعيّة رمزيّة. ولعلّ من أبرز الفرضيّات فيها كون اللّغة ناشئة في مستوى الأفراد (بالاكتساب أو بالتّعلّم) بتوسّط آليّات في التّعلّم بسيطة تشتغل في جميع النّظم الإدراكيّة منها والحركيّة العمليّة

[178] Pidgin(s)
[179] Creole(s)
[180] Senghas et al., 2004
[181] Grammaticalization
[182] Heine, Claudi, and Hünnemeyer, 1991
[183] Hopper and Traugott, 1993
[184] nativism
[185] empiricism
[186] nature
[187] nurture

والعرفنيّة عند البشر، وذلك من خلال التّعرّض للمعطيات اللّغويّة في خضمّ التّفاعل الاجتماعيّ في جميع أبعاده ومظاهره، يكون ذلك من الإنسان فردا يعيش تلك التّفاعلات ويسعى جهده إلى التّمكّن من الأداة اللّغويّة وإلى توظيفها أحسن توظيف فيها (إلّيس[188] 1998: 657).

وفي العموم، يتظافر في المباحث النّشوئيّة اللّغويّة، عدد كبير من الأطر النّظريّة والعمليّة منها اللّسانيّات التّاريخيّة بمعنى دراسة اللّغات في صيرورتها خلال الزّمان وتطوّرها، وعلم النّفس النّمائيّ[189] والعلوم العرفنيّة وعلوم الأعصاب، ومنها النّمذجة الحاسوبيّة[190] الّتي تعتمد برمجيّات مصوغة في ضوء الحقائق العلميّة المتوفّرة في إطار نظريّ أو فرضيّة في تطوّر اللّغة واكتسابها وتشغيل البرمجيّة للنّظر في استقامتها وسبرها من ناحية، ولاستشراف ما قد يكون من مسارات في التّطوّر لم توصف بعد أو لم تكن في المطلق. وتكون النّمذجة على أساس المحاكاة الحاسوبيّة في الاشتغال، ومن ذلك إقامة نموذج يحاكي تطوّر اللّغات (كانغيلوزي وباريزي[191] 2001؛ وانغ وجماعته[192] 2004) أو نموذج في نشوئيّة التّواصل عامّة ونشوئيّة اللّغة على وجه مخصوص (فاغنار وجماعته[193] 2003) أو نماذج في تبيّن اشتغال اللّغة بالانطلاق من الاشتغال الاصطناعيّ (كيربي[194] 2002).

والمنطلق في النّشوئيّة ركيزتان هما: توفّر شروط أو أدوات عصبيّة تجعل البشر قابلا لتعلّم اللّغة، وتوفّر بيئة اجتماعيّة ثقافيّة تشتغل فيها ولها تلك الأدوات، ولذلك تقوم المقاربة النّشوئيّة في تفسير أصل الملكة اللّغويّة

---

188 Ellis, 1998
189 developmental psychology
190 computer modeling
191 Cangelosi and Parisi, 2001
192 Wang and Minett, 2004
193 Wagner et al., 2003
194 Kirby, 2002

على اتّجاهين كبيرين جامعين: اتّجاه موسوم بالمقاربة البيولوجيّة واتّجاه موسوم بالمقاربة الثّقافيّة.

أمّا المقاربة البيولوجيّة فعمادها البحث في الآليّات الفيزيولوجيّة عامّة والعصبيّة خاصّة والعرفنيّة الكامنة في حصول الملكة اللّغويّة وفي إجرائها. ويطرح في هذا الإطار النّظر في ما هو مخصوص منها بالبشر وما هو عامّ مشترك منها بين أنواع كثيرة، من جهة، وما هو عامّ مشترك في المطلق وما هو مخصوص بالملكة اللّغويّة عند النّوع البشريّ، من جهة أخرى. ومن أسس هذا التّوجّه أو حججه الّتي يدافع عنها أنّ البشر يولد مزوّدا بالملكة اللّغويّة، في شكل ما يطلق عليه "النّحو الكونيّ"، هي ملكة تحصل عند النّوع بحكم التّكيّف البيولوجيّ، وهو تكيّف مخصوص بالنّوع البشريّ بملكاته المختلفة وباللّغة على وجه التّحديد (بنكر وبلوم[195] 1990). وقد مرّ البحث في النّحو الكونيّ من حيث مكوّناته، بمرحلتين:

مرحلة أولى كان فيها التّعويل على كون المنظومة الإعرابيّة المكوّن الأساسيّ أو النّوويّ في النّحو الكونيّ، وما يتفرّع ذلك من المبادئ الكونيّة والبرامترات في المفهوم التّوليديّ.

ومرحلة ثانية تواصلت فيها تلك المطارحات الأصليّة وتوسّعت دائرة النّظر لتشمل مكوّنات من النّحو الكونيّ ذات صلة أقرب بالتّحقّق اللّغويّ على مستوى النّوع أو مستوى الفرد، من حيث آليّات معالجة الكلام إدراكا وإنتاجا، وعلاقة المكوّن اللّغويّ بالنّظام المفهوميّ من حيث تخزين الكمّ الهائل من الرّموز أو الوحدات المعجميّة وإجراؤها في الاستعمال.

---

[195] Pinker and Bloom , 1990

ومن النّتائج الّتي استقرت وثبتت رغم طبيعتها الافتراضيّة الجداليّة أن السّمة الكونيّة الوحيدة المستقرّة في النّحو الكونيّ هي سمة التّكراريّة الّتي قامت على أساسها النّظريّة التّوليديّة.

وأمّا المقاربة الثّقافيّة فتكون العناية فيها بالمظاهر الاجتماعيّة والثّقافيّة الكامنة أساسا لنشأة الملكة اللّغويّة، من حيث العوامل المختلفة الّتي تميّز الحياة في مجموعة يتفاعل أفرادها في ما بينهم ويتفاعلون مع محيطهم وبيئتهم، من قبيل أنماط التّفاعل بين الأفراد والمجموعات وأنماط الأبنية الاجتماعيّة وأنماط التّناقل الثّقافيّ عبر الزّمان، وما إلى ذلك ممّا كان ذا أثر في تطوير اللّغة من جهاز تواصليّ بسيط إلى نظام تواصليّ معقّد. يكون ذلك خلال تعاقب الأجيال ممّن يتعلّمون شكلا لغويّا ما ثمّ يضيفون إليه أشكالا أخرى من المستجدّ فيندثر لها القديم من الأشكال أو بعضه ممّا لم تثبت نجاعته، وما يصاحب جميع ذلك من أشكال التّناقل والتّفاعل الثّقافيّين على مرّ الأجيال، يجري جميع ذلك دون الحاجة إلى أن تحدث طفرة جينيّة بالضّرورة. فاللّغة، كما هو معلوم، لا تبقى في شكل أحفوريّات. ولكن يمكن الوصول إلى علاماتها باعتماد مظاهر من الحياة أخرى أي جملة الأنشطة الّتي تستوجب أداة تواصل في المطلق أو اللّغة على وجه التّحديد، وذلك من قبيل الصّيد وتقاسمه والحفاظ عليه والعيش في مجموعات يترابط أفرادها أنواعا من التّرابط يصارعون ويحاربون ويدافعون في إستراتيجيّات للحفاظ على موارد الغذاء أو على مجال العيش، إلخ. وجميعها مقتض للتّواصل لما في تلك الأنشطة من تعقيد ومن ضرورة تبادل للمعلومات المفيدة بين الأفراد في المجموعة الواحدة، ثمّ هي أنشطة على درجة عالية من التّخصّص العرفنيّ وهي درجة توازي بالضّرورة النّشاط اللّغويّ من حيث تقتضيه. فوجود اللّغة أمر لازم مستلزم.

ومن الفرضيات الوسيطة بين الفرضيّة القائلة بتطوّر بيولوجيّ مكّن الإنسان من تحصيل الملكة اللّغويّة (الطّفرة الجينيّة)، من جهة، والفرضيّة القائلة بالتّطوّر اللّغويّ الثّقافيّ معزولا عن التّطوّر البيولوجيّ، فرضيّة قائلة بكون النّوع البشريّ قد تطوّر ليصير قادرا على تعلّم اللّغة وإجرائها وبكون اللّغة قد تطوّرت بذاتها لتصير قابلة لأن يتعلّمها بنو البشر ويجروها، في آن، ولعلّ المظهر الثّاني أهمّ من الأوّل (كريستيانسان 1994؛ ديكون 1997)[196].

مطاطيّة الدّماغ

يجري مصطلح مطاطيّة الدّماغ[197] على مفهوم التّعلّم[198] في معناه الواسع. وقوام هذه الفكرة أنّ الفرد عندما يتعلّم شيئا جديدا أو مهارة لم تكن له إنّما يتغيّر شيء في دماغه، وهذا ما يُعتمد في اعتبار الدّماغ مطاطيّا بمعنى أنّه يتكيّف ويتطوّع وفق المعطى الجديد (راموس 2006). وقامت عليها مواقف "نظريّة" عديدة اتّخذت مطاطيّة الدّماغ على أنّها مطلقة وكلّيّة ولكنّها في الواقع ليست كذلك بل هي محدودة في الزّمان وفي المكان ومشروطة بظروف خاصّة (راموس 2006: 256). وقد اعتمدت مطاطيّة الدّماغ كذلك في المطارحات النّظريّة المتعلّقة بفكرة الطّبيعة والتّنشئة[199]؛ ذلك أنّ اعتبار البنية الدّماغيّة متأثّرة في تكوّنها بالمحيط يمثّل أساسا لاعتبارها حادثة بفعل ذلك المحيط في البدء، فهي على هذا الأساس ذات أصول مرتبطة بالمحيط ثمّ تسجّل كذلك في الوراثة الجينيّة، ومن أبرز أنصار هذه الفكرة بنكر[200] (1994؛ 2002).

---

[196] Christiansen 1994; Deacon 1997
[197] brain plasticity
[198] learning
[199] nature/nurture debate
[200] Pinker (1994, 2002)

ولكنّ الغالب من أذهان المدافعين عن المطاطيّة وأذهان المناهضين لها كون المطاطيّة نفسها محكومة بالتّشبيك الجينيّ الماقبليّ أي بالبنية الجينيّة الوراثيّة من حيث تضبط هذه البنية حدود تلك المطاطيّة نفسها ووجوه حدوثها ومواطن ذلك الحدوث. فيكون، على هذا، العود إلى موقف فيه الجمع بين مطاطيّة ثابتة من حيث هي فكرة أو مبدأ، ولكن عوض أن تعتبر محكومة بالمحيط حكما مطلقا تكون محكومة بأسس جينيّة مبرمجة مسبقا. فالدّماغ بعبارة بسيطة مطاطيّ، ومطاطيّته تلك جزء من بنيته الجينيّة ومحكومة بها.

فقد أثبت كلايتن[201] (2000) أنّ اشتغال الذّاكرة والتّعلّم محكومان جينيّا. فإثارة الخليّة العصبيّة، في المراحل المبكّرة من تشكّل الدّماغ عند الفرد، بمنبّه خارجيّ ينقدح له، بصفة مباشرة، اشتغال جينات مبكّرة ينتج عنه تغيّر في البنية التّرابطيّة بين الخلايا العصبيّة وتغيّر في وظيفتها؛ أو ينقدح له، بصفة غير مباشرة على أساس التّراكب والتّعاقب، اشتغال جينات أخرى لها مشاركة في عمليّات التّعلّم والمطاطيّة. فليست المطاطيّة، حينئذ، بديلا عن الجينوم وإنّما هي محكومة به (راموس 2006: 257).

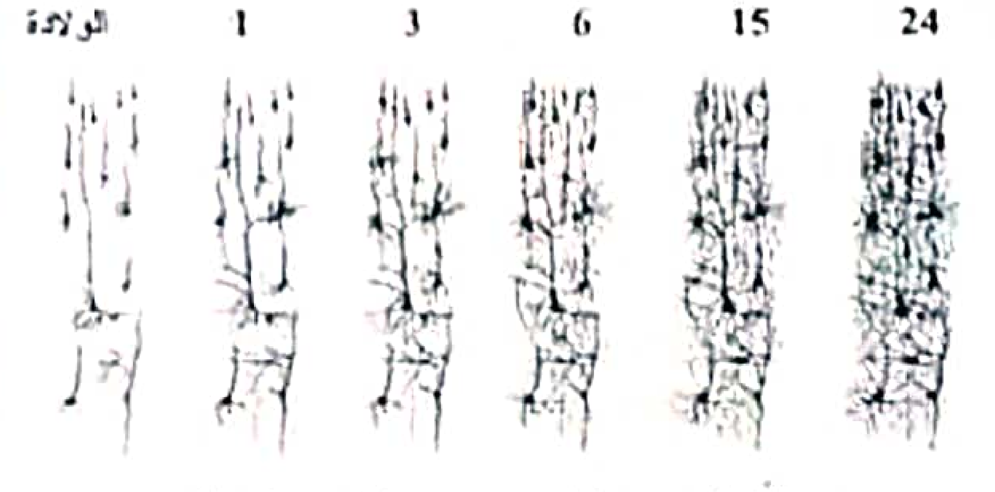
ومن حجج الأرضيّة العصبيّة في مطاطيّة الدّماغ أنّ الطّفل لا يتكلّم عند الولادة وفي ما بعدها من أشهر، لأنّ الأبنية العصبيّة القادرة على أداء تلك الوظيفة لم تبن أو لم تتمّ بعد، فهي تتشكّل ثمّ تنضج على مراحل تساير مراحل الاكتساب اللّغويّ. فيكون التّوازي في الأبنية العصبيّة بين تشكّلها ونشاطها فنضجها، من جهة، ووظائفها، من جهة أخرى، وجميع ذلك قائم حتّى مرحلة الاكتمال. يبين ذلك من خلال صور متعاقبة للتّشابكات العصبيّة الجارية في دماغ الطّفل على امتداد السّنتين الأوليين بعد الولادة وفيها يظهر تزايد الكثافة في التّشبيكات في منطقة بروكا؛ حيث يبدأ التّشابك بسيطا فقيرا

---

[201] Clayton 2000

ثمّ يزداد كثافة وتعقدا بازدياد القدرة على الكلام فيكون نضج ذلك في المظهر العصبيّ من نضج هذه في المظهر السلوكيّ اللّغويّ. بيان ذلك في ما يلي (نقلا من لانبارغ 1967: 160-161)[202]:

ولكنّ نشوء التّشبيك أو نضجه سواء أتمّ في مستوى دماغ الفرد أم في مستوى النّوع كاملا يمثّل تهيئة لأرضيّة عصبيّة وظيفيّة تتضّد في شكل منظومات تنبض بوظائف متنوّعة، غير أنّ بعض المنظومات لا موضع له في الأبنية العصبيّة من تلك الأرضيّة أو لا أثر ملموس له فيها، فيكون حينئذ تطوّر البنية العرفنيّة العامّة في قسم كبير منها مواصلة وتوسيعا لما توقّف عنده التّطوّر الفيزيائيّ الجينيّ. فتطوّر الدّماغ أو مطاطيّته في المعنى الفيزيولوجيّ لا تضع العوائق والحدود أمام التّطوّر العرفنيّ، كما يُعتقد في المنحى العصبيّ الصّرف، فللثّقافة أثر كبير في التّطوّر العرفنيّ، من حيث يمكنها أن "تعيد تشكيل أبنية الدّماغ من حيث استعمالها، مستغلّة بذلك مطاطيّة الدّماغ أو محدثة لها." (دونالد[203] 1993: 14).



نضج التّشبك العصبيّ في منطقة بروكا في دماغ الرّضيع

[202] Lenneberg, E. 1967
[203] Donald, 1993

فرضيات في النشوئية

للفرضيات النشوئية أرضيات مشتركة ثابتة وما الفرق بين الفرضيّة الواحدة والأخرى إلاّ في درجة التعويل على أرضيّة إزاء أخرى. ولنا في العموم ثالوث من الأرضيات: أرضيّة تشريحيّة تهمّ تكوين بنية الجسد أو الأعضاء المعنيّة باللّغة عند الإنسان (هيأة الانتصاب، سعة الجمجمة، تجويف الحلق، العظم الهيويديّ، إلخ.) وأرضيّة تشريحيّة عصبيّة تهمّ التّشكّل القديم للدماغ (أخدود القمر، التكوّن القشريّ، إلخ)، وأرضيّة تواصليّة تهمّ الإشارة بأنواعها الحركيّة واللّغويّة، وأرضيّة ثقافيّة رمزيّة عرفنيّة. نورد في ما يلي نماذج منها بأعلامها ومبادئها ومنطقها وفق ما قد يكون مفيدا في تقييمها.

الأرضيّة التشريحيّة

تتمثّل الأرضيّة التّشريحيّة في تشكّل المواقع العضويّة الّتي يتحقّق بها التّصويت اللّغويّ، عند الإنسان على امتداد تطوّره في العصور القديمة. والمنطلق في جميع ذلك عند علماء الأنتروبولوجيا ما يطلق عليه "التّشكّل الحنجريّ والمانحت الجُمجميّ"[204]. والأساس في ذلك رصد بنية الحلق وموقع الفكّ السّفليّ نزولا وارتفاعا وما يحدثه ذلك من اتّساع أو ضيق في فضاء النّطق، وتكوّن العظم الهيويديّ، في مستوى أوّل مباشر به تهيّأت النّواطق لأداء أدوارها المعلومة، ورصد هيأة الانتصاب وما لها من أثر على تشكّل النّماغ ونموّه خارج الحوض بعد الحمل وما إلى ذلك من تشكّل النّماغ عضوا في الفضاء الجمجميّ يمكن أن يكون سبيلا إلى معرفة أنماط التّشكّل الّتي مرّ بها النّماغ في ذاته. وجميع هذا في مستوى ثان ذي صلة باللّغة من حيث كانت ملكة من جملة ملكات مترابطة متزامنة متوازية متكاملة.

[204] laryngeal/basicranial morphology

تثبت بعض الدراسات المقارنيّة بين شكل الجمجمة عند النّياندرتال وعند الإنسان العارف أنّ شكلها عند الأول يظلّ هو هو منذ الولادة وأنّ شكلها عند الثّاني متبدّل وفق مراحل النّموّ، فالإنسان العارف يولد بجمجمة بيضويّة ثمّ تميل إلى التّكوّر وتأخذ شكلها النّهائيّ عند البلوغ، وأمّا شكل الجمجمة عند النّياندرتال فيظلّ كما هو عند الولادة. ومثّلت هذه الملاحظة أساسا لافتراض أنّ الدّماغ يمرّ بفترات تكوّن عديدة منها ما يكون قبل الولادة ومنها ما يتواصل على امتداد فترات النّموّ الأولى بعدها، فدماغ النّياندرتال يولد مكتملا ولذلك كانت ملكاته العرفنيّة محدودة وأمّا دماغ الإنسان العارف فيولد منقوصا ثمّ يكتمل بعد الولادة حيث يتوسّع حجمه وتزداد تشبيكاته العصبيّة كثافة حتّى تبلغ مرحلة النّضج (هوبلان وجماعته[205] 2010).

يذهب جان جاك هوبلان إلى أنّ الإنسان يولد بدماغ منقوص من حيث حجمه ووزنه بالقياس إلى الفرد البالغ؛ ثمّ ينمو خلال الأطوار الأولى من العمر بنشوء مختلف التّشبيكات العصبيّة فيه ونضجها واكتمالها. ولكنّ الأمر على خلاف ذلك عند الحيوانات. ويفسّر ذلك بأنّ هيأة الانتصاب فرضت مثل هذه القيود على التّطوّر، فالفضاء المخصّص للجنين محدود بحكم ضيق الحوض عند المرأة الّذي تفرضه هيأة الانتصاب. ولذلك يكون نموّ الدّماغ خارج بطن الأمّ بعد الحمل؛ وهذا يعرّض الدّماغ النّامي للمحيط بتفاعلاته الاجتماعيّة والبيئيّة المختلفة وخلال ذلك تتشكّل الشّبكات العصبيّة المتنوّعة. وهذا ما قاد إلى اللّغة. فاللّغة في نهاية المطاف ليست نتيجة مباشرة للتّشبيك العصبيّ في الدّماغ ولا هي غاية مباشرة له، وإنّما هي متولّدة، بصفة غير مباشرة، من ضرورة بيولوجيّة مرتبطة بهيأة الانتصاب كما يلي:

[205] Hublin, Jean-J.; Gunz, Philipp; Neubauer, Simon; and Maureille, Bruno, 2010

هياة الانتصاب ← ضيق الحوض (اكتمال الجنين + ميلاد)← نموّ الدّماغ خارج الحوض (تفاعل بيئي) ← نموّ الدماغ واكتماله وتشبيكه ← نشاط رمزيّ (لغويّ).

العظم الهيويديّ: الموقع والوظيفة

يقع العظم الهيويديّ[206] في مستوى الحنجرة تحت جذع اللّسان مباشرة، يشارك في وظائف كثيرة منها البلع والتّصويت. يتوفّر عند الكثير من أنواع الحيوان ويبدو أنّه يحدّد قدرتها على إحداث الأصوات المخصوصة بها نوعا نوعا. ولكنّ هيأته ومرونته المخصوصتين عند الإنسان تجعلان منه تطوّرا فيزيولوجيّا مهمّا عنده وإليه ترجع القدرة اللّغويّة. ويتوفّر من العظم الهيويديّ نماذج أحفوريّة من أشهرها واحد من ديكيكا بأثيوبيا[207] يعود إلى الإنسان الأوسترالوبتيكيّ الأفاريّ[208]. وواحد من جبل كباره[209] بفلسطين يعود إلى إنسان النّياندرتال، والآخر من كاستال دو غويدو[210] بروما (إيطاليا) من هيكل عظميّ غير مكتمل للإنسان المنتصب، وتتوفّر كذلك نماذج أخرى من عظام هويديّة في إسبانيا لأناس ممّا قبل النّياندرتال، يعود أغلبها إلى حدود 400 ألف عام. وتتمثّل الفرضيّة القائمة على موقع العظم الهيويديّ وشكله ووظائفه في كونه حاملا لعضيلات مهمّتها تحريك الجزء العلويّ من الحنجرة والفصل بين ما فوق الحنجرة وما تحتها، وهي مهارة مكّنت الإنسان من التّصويت ومن إنشاء اللّغة المقطّعة بالاستتباع. ولعلّ أهمّ دور للعظم الهيويديّ يتمثّل في كونه أساس التّصويت إذ يحدّد المسافة بين الأنف والحلق ويعطي إمكانيّة التّجويف الصّوتيّ لارتباطه بالفكّ السّفليّ (كاباسو

[206] Hyoid bone, os Hyoïde
[207] Dikika, Ethiopia
[208] *Australopithecus afarensis*
[209] Kebara
[210] Castel di Guido

وجماعته[211] 2008).

التجويف الفموي: سعة الحلق

قوام هذه الفرضية أنّ امتلاك أعضاء التّصويت والنّطق شرط للتّصويت ولامتلاك اللّغة، هي فرضيّة تقول بأنّ القرد غير قادر على الكلام لأنّ له تجويفا فمويا في مجرى الهواء صغيرا ضيّقا جدّا. ولئن كان البشر والرّئيسات يولدون بنفس التّجويف الفمويّ ونفس الاتّساع في مجرى الهواء، فإنّ سعته تزداد عند البشر خلال نموّه فيصير قادرا على التّصويت بأن يتشكّل الحلق ويستقرّ في مكانه فيصير قادرا على اللّعب بالأصوات كما لو كان مخصّصا للتّصويت وللكلام. ومن الأفكار المناقضة لهذه الفرضيّة أنّ الشّيمبانزي غير قادر على الكلام، لا لضيق مجرى الهواء عنده فهو نظريّا قادر على إنجاز جميع الأصوات المتوفّرة في لغات العالم، وإنّما لأنّه لا يملك القدرة العصبيّة على التّحكّم في عضلات التّصويت تحكّما دقيقا وهو عاجز عن الرّبط بين الكلمات أو الأصوات والمعنى عموما. فتكون على هذا فرضيّة وجود أعضاء النّطق شرطا لإنتاج الأصوات اللّغويّة فرضيّة باطلة.

أخدود القمر

لئن كان الاشتغال على جماجم متحجّرة لا يفيد شيئا من حيث وجود اللّغة أو أيّ نشاط رمزيّ آخر لأنّ ما يبقى هو مجرّد تجويف عظميّ كان الدّماغ يشغله، فإنّ بعض الأمارات المقارنيّة يمكن أن تقود إلى نتيجة مهمّة في إثبات اللّغة مقترنة بقدرة رمزيّة من خلال تشريح تكوينيّ للدّماغ. فقد انتهت دراسات مخبريّة تشريحيّة مقارنيّة عديدة باعتماد موقع أخدود القمر وتكوينه إلى أنّ دماغ البشر قد ازداد حجما بالقياس إلى سائر الأدمغة فازداد لذلك وظائف عرفنيّة عليا تجعله قادرا على أداء وظائف تواصليّة كثيرة منها

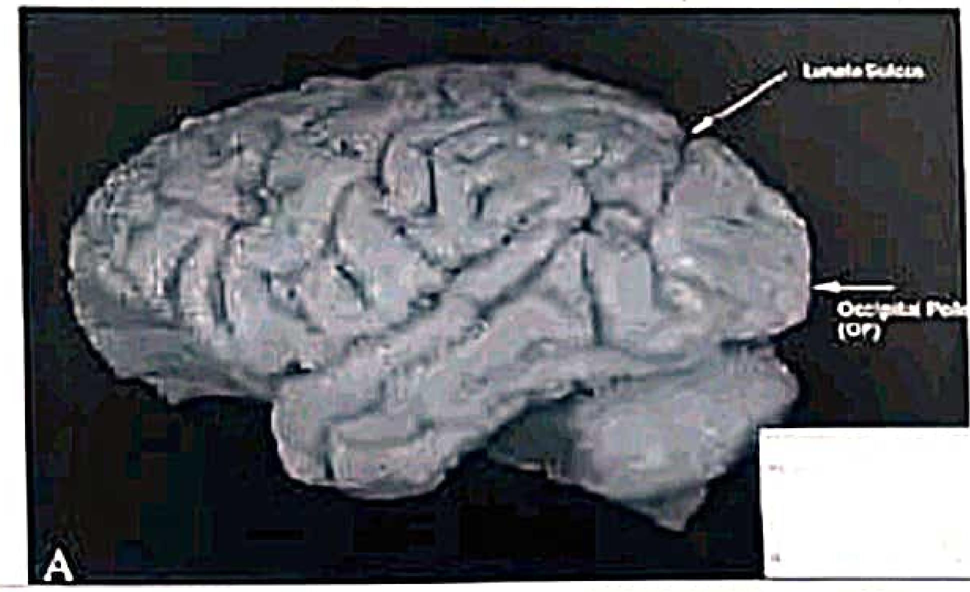
---

[211] Capasso, Michetti, and D'Anastasio, 2008

اللّغة (هالّواي وجماعته[212] 2004، دي سوسا وجماعتها[213] 2010). يقع أخدود القمر[214] عند مؤخّرة الدّماغ، (وهو أخدود يشبه حذوة الدّواب أو الهلال أو نصف القمر)، وهو عند الرّئيسات كائن في موقع متقدّم بالقياس إلى غلاف الجمجمة العظميّ وهذا يعنى أنّ الموطن الموجود خلف أخدود القمر والّذي يستقبل المعلومات البصريّة أكبر عند الرّئيسات.

ولكنّ أخدود القمر عند الإنسان (الأوسترالوبتاك، مثلا) موجود في موقع أبعد إلى الخلف أي أقرب من الغلاف الجمجميّ، ومباشرة أمامه نجد منطقة تجميعيّة كبيرة جدّا عند الإنسان ولكنّها صغيرة جدّا عند الرّئيسات. يبدو إذن أنّ هذه المنطقة قد توسّعت وكبرت خلال التّطوّر الجمجميّ عند الإنسان فتأخّر أخدود القمر ويعني ذلك أنّ تطوّر هذا المركز مرتبط بأنّ النّوع البشريّ أخذ في أطوار قديمة (منذ 4 ملايين سنة) يسجّل الكثير من الدّقائق والمعلومات المتعلّقة بمحيطه أكثر ممّا تفعله الرّئيسات ولهما نفس الجمجمة.

أخدود القمر (منقول من: هالّواي وجماعته (2004: 288)).



[212] Holloway et al. 2004
[213] de Sousa et al. 2010
[214] lunate sulcus, Affenspalte, simian sulcus

الأرضيّة الإشاريّة

من المعلوم أنّ الإشارة واللّغة متلازمتان في جميع الثّقافات. ولكنّهما في بعض الفرضيّات النّشوئيّة مفترقتان على أساس التّعاقب و/أو التّكامل والتّقوية. ومن الفرضيّات ما قام على كون الإشارة سابقة واللّغة تالية لها مقوّية إيّاها (مايكل كورباليس[215] (2002))، ومنها ما قام على ربط التّجنيب الدّماغيّ في اللّغة به جاريا في الإشارة اليدويّة (جاك فوكلار (2004، 2005)).

فرضيّة الإشارة أوّلا

يتصوّر كورباليس (2002: 99) أنّ جهاز التّصويت والنّطق عند الرّئيسات الأوائل لم يكن قادرا على إحداث الأصوات بحكم امتناع التّحكّم العصبيّ الدّقيق في عضلات أعضائه، وذلك مقابل لمهارات الثّابتة في حركات اليدين والذّراعين في الإشارة بأنواعها التّعيينيّة أو الأيقونيّة واستعمال الأدوات وما إليها، لذلك كانت اللّغة الأوّليّة البدنيّة إشاريّة. وقد بدأت الأصوات في الظّهور أداة لتقوية الإشارة، وبمرور الزّمن حلّت الأصوات اللّغويّة محلّ الإشارات وعوّضتها، ولذلك تجري اللّغة أو الإشارة لتقوية الآخر وهما متلازمان. فتكون اللّغة قد ظهرت بالانزلاق من إشارات اليد إلى إشارات الوجه فإشارات جهاز النّطق. فالنّطق نفسه بعمليّاته المختلفة ليس إلاّ إشارة أو حركات لعضلات تماما مثل إشارات اليد، ولكنّ بعضها يُرى مثل إشارات الوجه الظّاهرة وحركات الشّفتين، وبعضها لا يُرى، وما لا يرى يُجعل مرئيا بالأثر الّذي يحدثه بمعنى يصدر عنه وهو الصّوت. وأمّا الإعراب أو القدرة على توليف الكلمات في جمل فتعود إلى طور الإنسان المنتصب[216] حيث يفترض أنّ "مجموعة من الأناسيّ، قد تكون نجحت في

---

[215] Corballis, 2002
[216] bipedalism

إقامة شكل من اللّغة ذي جهاز نحويّ متكامل وذي قدرة تعبيريّة وافية تضاهي ما للُغات الإشارة عند الصمّ، اليوم" (2002: 108)؛ ولكنّ اللّغة بأشكالها المعلومة لم تكتمل إلاّ عند الإنسان العارف في فترة حديثة قد تعود إلى 50 ألف عام. ويعتبر كورباليس أنّ اللّغة المنطوقة وقد اختصّ بها جهاز النّطق، قد جعلت اليدين تتفرّغان للصّناعة وللعمل والتّقنية، فنتج عن ذلك ما نعرف من انفجار المنتوجات الثّقافيّة والصّناعيّة الّتي تعود إلى العصر الباليوليتي العلوي[217].

فرضيّة الإشارة والتّجنيب الدّماغيّ

تندرج فرضيّة الإشارة في مبحث أوسع يتعلّق بالتّجنيب الدّماغيّ عند الرّئيسات من قبيل البونوبو والشّيمبانزي والغوريلاّ (الحبيسة والطّليقة) على أساس الملاحظة التّجريبيّة المخبريّة، من خلال حركات الجارحة عامّة وتوزّعها على اليمين أو اليسار (التّجنيب) بصفة خاصّة والتّجنيب في الإشارات التّواصليّة العفويّة بصفة أخصّ (هوبكينس ودووال[218] 1995؛ شايفر[219] 1997؛ هوبكينس وجماعته[220] 2005؛ شايفر 1993؛ فوكلار[221] 2004؛ فوكلار وجماعته 2005، ميغيرديتشيان[222] 2009). فقد تبيّن فوكلار أثناء ملاحظته لسلوك بعض الأنواع من القردة (البابوان والشّيمبانزي) في حديقة الحيوان، أنّها تستعمل اليد اليمنى للتّواصل: ضرب الأرض بكفّ اليمنى مبسوطة. فهي تعتمد التّواصل بحركات الجارحة، أي اليد اليمنى الّتي يتحكّم فيها النّصف الأيسر من الدّماغ ويثبت بذلك أنّ التّواصل بالإشارة مجنّب ونفس الأمر ثابت في التّواصل اللّغويّ وإن بدرجة أقلّ. ويمثّل هذا

---

[217] Upper Paleolithic
[218] Hopkins & De Waal, 1995
[219] Shafer, 1997
[220] Hopkins *et al.*, 2005
[221] Vauclair, 2004
[222] Meguerditchian, 2009

أساسا لإثبات كون التّواصل بالجارحة أو بالإشارة حادثا في طور مبكّر مقارنة بالتّواصل اللّغويّ عند الإنسان نوعا، ونفس الأمر ثابت عند الطّفل فردا. وإذ يثبت أنّ الأبنية العصبيّة المتحكّمة في الإشارة وفي اللّغة عند البشر موطّنة، في الغالب، في النّصف الأيسر من الدّماغ حيث القسم الكبير من مناطق النّشاط اللّغويّ، يثبت كون التّواصل (بما في ذلك اللّغة) مجنّبا[223]. ويمثّل ثبات استعمال اليد اليمنى في التّواصل تفسيرا لغلبة النّصف الأيسر من الدّماغ على النّشاط اللّغويّ. فقيام النّشاط الإشاريّ فيه يمهّد الأرضيّة العصبيّة لنشوء اللّغة في نفس المناطق فتكون اللّغة قد تبلورت على أساس إشاريّ. ويدعم ذلك كونْ مراكز التّأويل والفهم واحدة مشتركة بين تأويل العلامة الصّوتيّة اللّغويّة، والعلامة الإشاريّة وإن اختلفت مراكز إدراك الواحدة منهما. ويتّخذ جاك فوكلار هذه الحقيقة أساسا يدعم القول بتطوّر اللّغة من الإشارة باعتبار الإشارة سابقة على التّصويت اللّغويّ، فالدّماغ في مجمل تاريخه جهاز إنشاء وتفكيك للعلامات بأنواعها منذ أربعة ملايين سنة.

تمثّل هذه الأرضيّة الإشاريّة أساسا لنظريّة قوامها ازدواجيّة النّمط التّواصليّ، يوجزها ميغيرديتشيان[224] (2009: 94) كما يلي: يعود اختصاص النّصف الأيسر من الدّماغ بالتّواصل اللّغويّ إلى اختصاصه بالتّواصل الإشاريّ اليدويّ عند السّلف المشترك بين البابوان والشّيمبانزي والإنسان منذ 30-40 مليون سنة تقريبا. ثمّ صار هذا النّظام الإشاريّ الأحاديّ مزدوج النّمط بأن اندمجت على التّدريج خلال التّطوّر، الإشارات الصّوتيّة وتعابير الوجه القصديّة في النّظام الإشاريّ عند ظهور السّلف المشترك بين الشّيمبانزي والإنسان منذ 5-7 ملايين عام تقريبا. ثمّ غلب النّمط التّواصليّ اللّغويّ أو الصّوتيّ لما فيه من مزايا يكون بها أفضل من الإشارات اليدويّة

---

[223] latéralisé (lateralized)
[224] Meguerditchian, 2009

(كالتّواصل ليلا أو عند انعدام الرّؤية أو لطول المسافات، إلخ) ثمّ تبلور وتعقّد عند الفروع الموالية من أسلاف البشر ليؤول في النّهاية إلى اللّغة المقطعة الحديثة. فيكون التّقارن الّذي نعرفه اليوم بين الكلام والإشارة البدوية في جميع الثّقافات من بقايا تلك الحقبة القائمة على ازدواجيّة النّمط التّواصليّ ووريثا له.

الأرضيّة الثّقافيّة

لئن مثّلت الأسس التّشريحيّة أساسا بيولوجيّا متينا في بعض مظاهرها على الأقلّ، فهي غير كافية لتفسير نشأة الملكة اللّغويّة. ولذلك وجب النّظر، في رأي الجمهور من النّشوئيّين، في البقايا الثّقافيّة التّاريخيّة، من قبيل الأدوات المتمثّلة (الّتي تستعمل وتصنع وفق قواعد وكيفيّات معلومة متوارثة معبودة) وما تقتضيه من استعمال شكل لغويّ ما للتّواصل. فالتّكنولوجيا معرفة وقواعد صناعة (نحت الصّوّان، حكّاكة تستعمل للجلد والحزازة، إلخ.). والصّناعة تقتضي البحث عن المادّة الأوليّة، كإحضار حجر الصّوّان من مقاطعه الّتي توجد أحيانا بعيدا عن موطن العيش، أو رمي الأداة المهترئة وتعويضها بأداة جديدة، واختيار المادّة المناسبة للصّناعة، والتّفكير في شكل الأداة أو تمثّله قبل صناعتها، وجميعها دليل على تحقّق لملكة تمثيل الشّيء قبل وجوده وبها يرتبط تصوّر لمستقبل وتصوير المناظر والأشكال على جدران الكهوف، إلخ. ولا يمكن أن يقوم النّشاط الرّمزيّ إلاّ بقيام ملكة رمزيّة عقليّة، وهذا الأمر مقتض لأداة تواصل رمزيّة. فالتّكنولوجيا صناعة معقّدة تقتضي تناقلا للمعرفة وللتّجربة، وجميعها مقتض للتّواصل وللّغة، وقد بدأت منذ مليوني عام تقريبا. فالبحث عن أصول اللّغة كامن في البحث عن بقايا الفكر والنّشاط الرّمزيّ، يكون ذلك في بعض الأحيان بالنّظر في مظاهر لا تتجلّى صلتها باللّغة في المستوى الأوّل ولكنّها مقتضية إيّاها مستلزمة لها.

نطواقم الزينة أو الحليّ البدائيّ مثلا، من قبيل الطّواقم المتّخذة من القوقعات البحريّة وما إلى ذلك منذ ما يزيد على مائة ألف عام في شمال أفريقيا وفي جنوبها وفي الشّرق الأوسط، تستوجب البحث عن القوقعات البحريّة وتجميعها وربطها أو تنضيدها على شاكلة ما فوضعها في المواضع المعلومة من الجسد لتحقيق غرض الإعجاب أو الإغراء وما إليهما. وتقتضي هذه العمليّة المعقّدة ملكة رمزيّة، ولا وجود لهذه الملكة الرّمزيّة إلاّ بوجود أداة تواصل لغويّة، فمجرّد جمع المادّة وتنضيدها وتلوينها ولبسها دليل على وجود قصد إلى الزّينة وهو قصد مصحوب بإرادة تغيير المظهر وتغيير الجسد؛ وجميعها مقتض لأداة تواصل ودليل على وجود لغة ما بالاستتباع لإبلاغ رسائل مختلفة متنوّعة لأفراد المجموعة القريبة أو البعيدة الواسعة.

ولعلّ أفضل الفرضيّات في هذا الإطار تلك الّتي يقيمها مرلين دونالد[225] (1993) وفيها ينطلق من بيان الخلل الّذي تقوم عليه بعض الفرضيّات في نشوء الذّهن واللّغة عند البشر. يتمثّل ذلك في اعتماد الذّهن كما هو معروف اليوم -أو اللّغة كما هي اليوم- أي ذهن الإنسان الحديث الّذي يحسن الكتابة والقراءة ويعيش في مجتمع ما بعد الصّناعي[226]، وفي اعتماد الحاسوب نموذجا في ذلك. وهو أساس مغلّط لا اعتبار فيه لقيود التّطوّر وقيود الانتقاء وضغط الحاجة والتّكيّف مع البيئة ولا استرسال فيه ما بين الأطوار أو الأحوال المتعاقبة أو المتزامنة (دونالد 1993: 5). ولذلك كانت فرضيّة دونالد شاملة للتّطوّر البيولوجيّ الجسديّ العصبيّ والذّهنيّ العرفنيّ بجميع أبعاده، وإن كان المكوّن اللّغويّ من أهمّ عناصرها وركائزها. وتتمثّل الفكرة الأساسيّة في نظريّته الثّلاثيّة الأطوار في أنّ "الذّهن البشريّ الحديث تطوّر من حال الذّهن عند الرّئيسات خلال سلسلة من التّكيّفات

[225] Donald, 1993

[226] postindustrial society

الكبرى، قادت الواحدة منها إلى نشوء نظام تمثيليّ جديد. وقد ظلّ كلّ نظام تمثيليّ منها كاملا كما هو في صلب الهندسة الذهنيّة الحاليّة. فالذّهن الحديث، حينئذ، ذو بنية فسيفسائيّة تتكوّن من بقايا عرفنيّة تعود إلى العصور المبكّرة من نشوء البشر" (دونالد 1993: 2). والمفهوم المفتاح في فرضيّة دونالد إنّما هو "التّمثيل"، فالبشر لم يتطوّر دماغهم، ببساطة، ليصبح أكبر ممّا كان عليه في طور سابق ولا هم توسّعت طاقة الذّاكرة عندهم، ببساطة، ولا هم وسّعوا في رصيدهم المعجميّ في تسمية الأشياء والأحداث ولا هم طوّعوا، ببساطة، أجهزة بيولوجيّة من أجهزتهم لوظيفة التّصويت أو اللّغة، وإنّما طوّروا نظما جديدة في تمثيل الواقع.

ولفرضيّة دونالد ثالوث من المفاهيم العاملة المترابطة على أساس التّتابع في الزّمان وعلى أساس التّفاعل والتّكامل في عمليّة التّطوّر، هي الذّاكرة (الحدثيّة والعمليّاتيّة) والمحاكاة والثّقافة:

(1)-عامل الذّاكرة

يفترض دونالد (1993: 149) أنّ السّلوك البدنيّ (ذاك المتوفّر عند الرّئيسات) سلوك حدثيّ فوريّ راهن بمعنى مرتبط بالحاضر وبالوضعيّة اللّحظيّة ليس غير، يكون ردّ فعل مباشرا قصير المدى؛ وإن بدت فيه بعض المظاهر الرّمزيّة إنّما هي مرتبطة بالمظهر الماديّ من الوضعيّة. ويوازي ذلك شكل من الذّاكرة آخر أقدم منه هو الذّاكرة العمليّاتيّة الّتي تخزّن كيفيّة إنجاز الأعمال خلال الفترات المتكرّرة. فكلاهما مستوى من التّمثيل لا يتجاوز مستوى الأحداث لذلك تغلب السّمة الحدثيّة عليه، يمثّل ذلك عائقا يحدّ من بناء التّمثيلات واستحضار الأشياء في غيابها واتّخاذها موضوع تفكير. وفي هذا المستوى تحدث النّقلة الأولى بتطوّر ملكة المحاكاة.

(2)- عامل المحاكاة

الأساس في النّقلة الأولى عصبيّ منطلقه المحاكاة[227]؛ فأولى الخطوات في اتّجاه اللّغة قائمة على قدرة الدّماغ على قصّ الأحداث وروايتها؛ بمعنى أنّ الأحداث أو الوقائع تدرك ويعاد بناؤها في الدّماغ. ولتبليغها أو روايتها وجبت محاكاتها. ولكنّ وظيفة الدّماغ الأساسيّة تتمثّل في التّحكّم في العضلات؛ وفي هذه الحال يمكن محاكاة ما نتصوّره في أدمغتنا من أحداث أو وقائع بالحركات والإشارات. فهذه خطوة أولى. وإذ يمتنع التّعبير عن التّفاصيل بالعضلات يكون اللّجوء إلى حركات من نوع آخر لتبليغ تلك الحركات إلى فرد آخر، هي حركات أساسها محاكاة الحدث أو الواقعة المدركة. فالأساس في نشأة اللّغة إنّما هو قائم على المحاكاة على مرحلتين: محاكاة بالحركات والإشارات ثمّ محاكاة بواسطة اللّغة من حيث تثير الكلمات في دماغ المتكلّم التّمثيلات الحركيّة الممثّلة للحدث أو الواقعة، وهي التّمثيلات نفسها الّتي تثيرها تلك الكلمات في دماغ السّامع عندما يسمعها. فالكلمات أو اللّغة طريقة أنجع في المحاكاة لأنّها نظام توليف بين المظاهر المخصوصة والمظاهر العامّة في العمل.

(3)- عامل الثّقافة

درجت مختلف المناويل الواصفة للتّطوّر العرفنيّ عامّة ونشوء اللّغة على وجه الخصوص، على إيجاد الأرضيّة العصبيّة لكلّ منظومة عرفنيّة أو ذهنيّة، بأن يقرن ذلك النّشاط ببنية عصبيّة عينيّة قد تختصّ في ذلك النّشاط أو تساهم فيه مع سائر الأبنية. ولكن من المنظومات ما لا تُعرف له أرضيّة عصبيّة بعينها لسبب أو لآخر، وهذا ما يعتمده دونالد ليبيّن دور الثّقافة في تفسير تلك الفجوات. ووجب- في تصوّره- أن يكون في كلّ نظريّة تطوّريّة

---

[227] mimesis

للحجة الثّقافيّة دور مهمّ في التّفسير؛ ذلك أنّه من الخطل أن نتوقّع حضور كلّ منظومة من المنظومات العرفنيّة العليا حضورا وظيفيّا في كلّ دماغ بشريّ ذي تكوين عصبيّ سليم عاديّ. فالبنية العرفنيّة الكائنة في أيّ من الأذهان الفرديّة إنّما هي متأثّرة بالثّقافة أيّما تأثّر. فالثّقافة بمعنى التّجربة والتّفاعل والصّناعة والصّيد وما إلى ذلك، من العوامل المهمّة في استمرار التّطوّر العرفنيّ في ما جاوز الحدود الّتي بلغها التّطوّر (أو التّكيّف) العصبيّ فتوقّف عندها (دونالد 1993: 11-14).

وعلى ما مضى من الأسس يقدّم دونالد نظريّة أو فرضيّة في نشوء اللّغة والذّهن ثلاثيّة المراحل، فيفترض أنّ الذّهن الحديث، انطلاقا من الإدراك الحدثيّ وهي مرحلة مشتركة بين البشر والرّئيسات والحيوانات عموما، مرّ في تكوّنه بثالوث من النّقلات:

1- النّقلة الأولى: نقلة من الثّقافة الحدثيّة[228] إلى ثقافة المحاكاة[229].

2- النّقلة الثّانية: من ثقافة المحاكاة إلى الثّقافة الأسطوريّة[230].

3- النّقلة الثّالثة: تتمثّل في التّخزين الرّمزيّ الخارجيّ والثّقافة الرّمزيّة[231]. وهي أحدث النّقلات على سلّم الزّمان. هي نقلة غير ذات أساس بيولوجيّ لأنّها من طبيعة ذهنيّة صرف، والأساس فيها نشوء الرّمزيّة البصريّة[232] والذّاكرة الخارجيّة[233] - "بئر المعرفة"[234] (دونالد 1993: 356)- عاملين كبيرين مهمّين في تشكيل الهندسة العرفنيّة. فالتّخزين

[228] Episodic Culture
[229] Mimetic Culture
[230] Mythic Culture
[231] Symbolic Culture
[232] visual symbolism
[233] external memory
[234] well of knowledge

الرّمزيّ الخارجيّ مكّن الذّهن البشريّ من زيادة في طاقة التّخزين ومن الارتباط بشبكة لامتناهية من الموارد الرّمزيّة أتاحت له إمكانيّات في الاشتغال لا نهائيّة. وفي ذلك يشبّه دونالد ما حدث للذّهن البشريّ بالحاسوب الّذي ينضاف إليه مكوّن تخزين خارجيّ (ذاكرة خارجيّة) أو يربط بشبكة معلوماتيّة واسعة بوجه تصير به الآلة قادرة على أداء ما لا يمكن أداؤه لو اكتفت ببنيتها الدّاخليّة المحدودة (دونالد 1993: 17). وفي هذا النّقلة الأخيرة شهدت اللّغة اكتمالها بنية وانتظاما في شكلها المنطوق وازداد جميع ذلك نوعا وكمّا بظهور الكتابة فالطّباعة. فاللّغة تكميل للإشارة لما فيها من محدوديّة، واللّغة بهذا التّصوّر ضرورة وحتميّة وظيفيّة. والإنسان يتميّز بخاصيّة بناء بيئة رمزيّة وتكنولوجيّة معقّدة تقتضي منه مهارات متجدّدة تمثّل جميعها الثّقافة في معناها الواسع، والثّقافة باب على استغلال إمكانات الدّماغ على وجه جديد لم يكن له في تركيبته البيولوجيّة الأصليّة أو لم يكن أن جرى توظيفه فيها من قبل.

خـاتمـة

الأرضيّة البيولوجيّة إطار عامّ حاضن لجملة من الفرضيّات أو النّظريّات في نشوء الملكات العرفنيّة عامّة ونشوء الملكة اللّغويّة جزءا منها، بوجه مخصوص. هي إطار للّسانيات البيولوجيّة برنامجا توليديّ المنزع آيلا إلى الانفصال عنه شاملا لمشاغل تتوزّعها اللّسانيّات والبيولوجيا. وهي إطار لفرضيّات كثيرة مشغلها الكشف عن الملكة اللّغويّة نشأة وتطوّرا، في مستوى النّوع النّاطق وفي مستوى الكائن الفرد. وجميعها يطرق مبحث الحال من مدخل مخصوص دون أن ينسى ما لسائر المداخل من صلة به، وذاك سبيل إلى تبلور مدخل بيولوجيّ عامّ ينصهر فيه العصبيّ بالعضليّ، والبيولوجيّ بالبيئيّ الثّقافيّ، مدخل ذي ملامح تتسارع وتيرة تبيّنها بتنامي التّقنيات الكاشفة

عن تركيبة الجهاز العصبيّ وعن أنماط اشتغاله، تتّخذ أساسا ينبني عليه فهم النّشاط الذّهنيّ في أبعاده المختلفة، وفي ضوئه تراجع الحقائق فيثبت بعضها ويلغي بعضها الآخر. وما بين حال المعرفة اليوم في الأعصاب وما تيسّر من النّظريّات اللّسانيّة والفلسفيّة وما إليها في مبحث الحال، فجوة ترتق شيئا فشيئا.

وفي انتظار أن يجري ذلك الرّتق وجب التّعويل على المتوفّر منها أداة للجواب والبحث في أصل ما به الإنسان إنسان: اللّغة والذّكاء. فممّا يمكن التّسليم به أنّهما ليسا وليدي طفرة أو صدفة في تاريخ النّوع البشريّ، وإنّما هما نتاج لظواهر متوازية متزامنة متفاعلة متكاملة يستدعي بعضها بعضا فيكون هذا لكون ذاك، ويكون في هذا وظيفة أو مهارة لكونها في ذاك دون أن تتطابقا بالضّرورة. فلتكون اللّغة وجب أن يتطوّع الدّماغ لها ويتطوّع لها الجسد كاملا في أدائها العضليّ من عظم هيويديّ وسعة في فضاء للتّجويف الفمويّ وما إلى ذلك من مظاهر التّطوّع المتظافرة المتعاونة. ولذلك عرضنا جملة من العوامل في نشوء اللّغة يمكن قسمتها في ضوء التّوجه الغالب عليها إلى مقاربة بيولوجيّة وأخرى ثقافيّة. أمّا البيولوجيّة فذات أساسين: عصبيّ قوامه فرضيّة مطاطيّة الدّماغ، وتشريحيّ قوامه تشكّل الأعضاء لوظيفة التّصويت اللّغويّ من قبيل ميلاد الدّماغ المنتوص والعظم الهيويديّ في الحنجرة والتّجويف الفمويّ ولخدود القمر، إلخ. وأمّا الثّقافيّة فأساسها الإشارة والاجتماع والحضارة في علاقتها جميعا بوظائف عرفنيّة عصبيّة عليا أو دنيا من قبيل الذّاكرة بأنواعها والمحاكاة وما إليها.

خاتمة الباب الأوّل

تتوزّع الوظائف العرفنيّة على الأنواع لحيّة نوعين من التوزّع: وظائف عرفنيّة مشتركة ووظائف عرفنيّة خاصّة بالإنسان، من الأولى يكون الإبصار والسّمع وما إلى ذلك وفي دراستها مظاهر يسر عديدة تجعل البتّ ممكنا في أمور كثيرة في شأنها من ذلك التّجريب على الحيوان دون الإنسان لدواع عديدة منها القيود الأخلاقيّة ومحدوديّة التّقنيات المخبريّة وإن شهدت العقود الأخيرة تطوّرا كبيرا في أجهزة التّصوير الدّماغيّ. وفي الوظائف العرفنيّة عند الإنسان ما يكون بسيطا من درجة دنيا هي تلك لمشتركة بينه وبين سائر الأنواع الحيّة الذّكيّة، ومنها العليا ويختصّ بها اختصاصه بدماغ ذي تكوين مخصوص فيه ما يشارك به تلك الأنواع وفيه ما به يتميّز تركيبا ووظيفة. وإذ كانت اللّغة في الحالين متّصلة بوظيفة عرفنيّة عليا لقيامها على بنية عصبيّة متطوّرة جدّا وجب البحث في ذلك التّقارن من مداخل عديدة. ويمكن أن يجتمع ثالوث من المداخل في مبحث للّغة في الجسد أو في الدّماغ، أوّلها وجهة لسانيّة صرف مدارها النّحو الكونيّ وكيف يتشكّل في الذّهن/الدّماغ؛ وثانيها وجهة عصبيّة صرف مدارها كيف يشتغل الدّماغ وتتشكّل العرفنة العامّة ومنها اللّغة؛ وثالثها وجهة عصبيّة بيولوجيّة باحثة في نشوء الملكة بنشوء الأرضيّة بعواملها البيولوجيّة والثّقافيّة الاجتماعيّة. ولعلّ الخلاصة في الجمع بين المداخل جميعا لمن يريد الحصول على فكرة تأليفيّة في الموضوع يتوفّر له فيها الجواب وإن مؤقّتا، ولمن يريد الكشف عن سرّ الاشتغال في المستويات العصبيّة والبيولوجيّة والرّمزيّة العرفنيّة. وهي طريق واحدة.

البـــاب الثَّـــانِي

الجســـد فـــِي اللّغــة

مقدّمة الباب

> كلّما كبر عدد أفراد الجمهور كان إهمال الإنسان (الفرد) أكبر. لكن إذا شعر الإنسان، الّذي يطغى عليه شعوره بالضآلة والعجز، أنّ حياته قد فقدت معناها - وهذا المعنى، بعد كلّ شيء، ليس بالرّفاه العامّ ومستويات المعيشة الرّفيعة - عندئذ يكون في طريقه إلى عبوديّة الدّولة، ويصبح تابعا لها بدون أن يدري ذلك. (يونغ: التّنقيب في أغوار النّفس، ص 20)

يحدث أن يقابل الواحد منّا جسده وقد استوى موضوعا للإدراك مستقلاّ عن وعيه، وشيئا ماثلا في عقله، أنواعا من المقابلة، لعلّ أبسطها صورته في المرآة حيث يتمثّل له ذلك الشّيء المحدود طولا وعرضا، بتقاسيمه المعلومة. ويحدث أن يقرأ ما كتب الأطبّاء فيه آلةً وجبت معرفة اشتغالها سبيلا إلى إصلاحها في حال العطب، أو يقرأ ما كتب الفلاسفة ورجال الدّين ومن لفّ لفّهم فيه، ولكنّه يراه ماثلا في جميع ذلك باللّغة وفي اللّغة. فقد يقرأ، عند ميرلوبونتي (1945: 114-116) أنّ الجسد ماثل في تلك الحدود القائمة في المكان لا تخترقها العلاقات الجارية في الفضاء المعهود، وأنّ أبعاضه متماسكة بشكل لا مثيل له في سائر الأشياء في الكون من حيث كان بعضها مشتملا على بعض، وهو ليس مجرّد ترصيف لجملة من الأعضاء وإنّما هو كلّ متكامل لا يقبل القسمة ولا الانقسام، هو بالجملة تلك الخطاطة الجسديّة الّتي في منظورها نتمثّله شيئا في الكون ومفهوما ماثلا في الأذهان، وتلك لحظة الوعي به. وقد يقرأ، عند أونفراي (2007: 47)، في ما به نحت الخطاب المسيحيّ على امتداد ألفيّتين أو يزيد، الجسدَ الّذي نسكن مادّة ومفهوما، من خلال ما كتب فيها متعلّقا به في التّشريح وفي الطّبّ وفي

الفلسفة وما إليها. ويقرأ عنده ما به توارثنا منذ البدايات المناويل الفلسفيّة الأفلاطونيّة المسيحيّة الّتي نتمثّل الجسد من خلال عدستها ومن خلالها تكون الرّمزيّة الّتي لأعضائه ولمختلف مواقعها في السّلّميّة المعلومة من حيث وظائفها: فالقلب والعقل أفضل ما فيه وهما رمز النّقاء والفوز ومدخل النّور وموطن الإيمان وأمّا سائرها مثل الأحشاء وأعضاء الجنس فمن الأدران تُجتنَب فلا تقرَب، والمهمّ أنّ جميع ذلك نحت للجسد ولمفهومه أيّما نحت. فيتوارى الجسد خلف ما سكننا من الأفكار. وقريب من هذا، وإن لم يرثه كلّه، ما يكون له من صورة في الإسلام. وقد يقرأ كذلك صورة للجسد من خلال ما كتب في الأدب شعرا ورواية، على اختلاف المدارس، ومن خلال ما كتب المتصوّفة على اختلاف مشاربهم، صدى لذلك التّصوّر الدّينيّ (اليهوديّ المسيحيّ الإسلاميّ وما شابه)، فترسخ عنده دائما طهارة الرّوح والعقل والقلب ودنس سائر الأعضاء من البدن.

ولكنّ للجسد تصوّرا آخر غاب بغياب الجسد في الاعتبار الفكريّ والفلسفيّ، وعاد بعودته فكان في حاجة إلى نبش يستخرَج به فتصاغ صورة له أخرى من خلال ما ظلّ مخفيّا خافتا باهتا في ثنايا اللّغة "حافظة" الفكر. وفيه يطرح السّؤال: كيف السّبيل إلى الغوص على جذور الذّهن من خلال التّرسّبات الكامنة في النّشاط اللّغويّ يكون منها النّتوء والتّجلّي أحيانا ويكون في الأغلب منها التّخفّي فالضّمور، وفي بعض تلك الجذور يكمن تصوّر للجسد يكفي أن ننفض عنه بعض الغبار ليستوي صرحا بيّن المعالم والتّضاريس. هو مبحث ذاهب في جميع الاتّجاهات، برز منها في مباحث اللّسانيّات العرفنيّة ما برز بمسمّيات متنوّعة اجتمعت جميعا في مباحث الجسدنة ما كان منها منتسبا إلى الاستعارة التّصوّريّة (لايكوف 1987، جونسون1987) وما لم يكن. وبرز منها ما كان ذا صلة بالإنسان بانيا للّغة

(كلود حجاج (2010)) وما إلى ذلك في اتّجاه لسانيّ يربط النّشاط اللّغويّ بحياة الإنسان وعيشه جسدا فاعلا ومنفعلا بالمحيط الطّبيعيّ والاجتماعيّ الثّقافيّ.

وأمّا المبحث التّصوّريّ الاستعاريّ و/أو الجسدنيّ فقد أشبع درسا ولذلك خيّرنا أن نرجئ الخوض في ما يمكن أن يتوفّر له الإطار فيه ممّا نحن فيه من تصوّر للجسد. وذلك من قبيل الخوض في تصوّر الجسد مطلقا أو بعض الأعضاء فيه، مثلا، في اللّغة العربيّة على أساس استعاريّ أو مزجيّ أو خطاطيّ يكون المعوّل فيه على المعطيات بأنواعها القديم منها والحديث. وآثرنا التّوسّل بسبيل أخرى مدارها ثالوث من القضايا تهمّ صورة للجسد يتشكّل بها في النّحو وفي الخطاب وفي المعجم أو من خلالها تباعا، نموذجا من مثول "الجسد في اللّغة"، مشغلنا في هذا الباب.

فصورة الجسد في النّحو نستقيها من خلال أبسط العمليّات الّتي بدأنا بها تعلّم الحساب وهي العدّ بالأصابع خلال سنيّ الطّفولة الأولى نتلمّس الأنامل نعدّها هي ولا ندري أنّنا نعدّ الأشياء بها، بل من منّا كان يعلم أنّ أسلافنا من الأناسي العارفين كانوا يفعلون الشّيء نفسه أطفالا ولم ينفكّوا عن ذلك كبارا، وإن كنّا نستعيض عن ذلك، كبارا، بالأدوات الرّياضيّة أو بالحساب الذّهنيّ وما إلى ذلك من الأدوات والأساليب. ولهذا الأمر نحسب للحساب حسابا ومنطلقه أعضاء الجسد هي الأصابع وما والاها في ما نطلق عليه "إنحاء الجسد". ونستقيها كذلك من خلال ما به حالت أسماء الأعضاء من الجسد أدوات عابرة للعصور مخزونة في النّحو نعبّر بها عن الاتّجاهات والوجهات بها نوجّه أنفسنا ونوجّه بني جلدتنا كائنات في الأفضية الحسّيّة و/أو في الأفضية الذّهنيّة. وجميع ذلك إنحاء للجسد ونحت له في صورة نحويّة خطاطيّة ماثلة في مختلف الأنحاء الطّبيعيّة قد تكون ممّا به يتأسّس

النّحو الكونيّ. فبهذا المبحث الأوّل في الفصل الأوّل من هذا الباب.

وأمّا صورة الجسد في الخطاب فيمكن أن نستقيها بأشكال لا تحصى ولا تحدّ لما في الخطاب من تشعّب المسالك وتنوّع المتخاطبين، ويمكن أن نجد في بعضها احتفالا بالجسد لا يساويه احتفال وفي بعضها الآخر محوا له أيّما محو. فخيّرنا ظاهرة تهمّ الجسد موضوعا "محرّما" لا تذكر بعض الأعضاء منه في سياقات بعينها أو في المطلق، فينشئ النحو حيلا يتجاوز بها ذلك التّحريم دون أن يكسره، فيؤدّي بأدوات "التّلطيف" المطلوبَ دون أن تناله عقوبة السّلطان، سلطان الأخلاق وما إليها. وفي هذا الخيار حضور للجسد في الخطاب وقد أُلغيَ منه بأن حُرِّم ذكره، فغاب تصريحا ولكنّه حضر تلميحا. فبهذا المبحث الثّاني في الفصل الثّاني من هذا الباب.

وأمّا المعجم، فذو طبيعة أخرى من حيث كان رصيدا لتسمية الأشياء والأحداث والعلاقات، فيه للجسد حضور بأسمائه تعمّه فتجمله أو تخصّصه فتفصّله، فيه صورة للجسد كلاّ متكاملا وأبعاضا مجزّأة. فخيّرنا التّوسّل بالمدخل المفاهيميّ بابا على المفهوم، حقلا دلاليّا مترابط الأبعاض في "جسم/جسد"، متقيّدا بالمكوّن الصّوتيّ من الحروف الأصول في ضوء المنوال الاحتماليّ في انتظام المعجم العربيّ الّذي تبلور لنا في مناسبات كثيرة أخرى. يكون هذا المبحث مدار الفصل الثّالث خاتمة الفصول من هذا الباب.

الفصل الأوّل

الجسد في النّحو: إنحاء الجسد

مقدمــة

تكون العناية في هذا الفصل بمسألتين كبريين من كثير، يكون بهما حضور الجسد في النّحو؛ هما نظام العدّ ونظام الظّروف والأدوات المعبّرة عن الاتّجاه ومختلف العلاقات الفضائيّة. ويكون التّركيز في العناية بحضور أعضاء الجسد من خلال أسمائها جارية بمعناها الّذي لها في الأصل أو منحاة في نظام النّحو بمظهريه المذكورين. وجميع ذلك سبيل إلى المساهمة في تبيّن الملامح الّتي بها تتجلّى مركزيّة الجسد في المنظومات العرفنيّة الّتي يقيمها الإنسان في المطلق ويتوسّل باللّغة في صوغها صوغا رمزيّا بمظهر طبيعيّ يمثّله النّحو أو بمظهر شكليّ تجريديّ تمثّله النّظم الرّياضيّة الحوسبيّة بأنواعها، وإن كان الأوّل محطّ العناية والثّاني مطروحا من اهتمامنا في هذا السّياق.

أعضاء الجسد في نظام العدّ

نظام العدّ فرع من مقولة الكمّيّة، وهي واحدة من المقولات الأساسيّة في الفكر البشريّ، لذلك وسمت حياة البشر في مختلف مظاهرها منذ القديم الغابر ويزداد ذلك وضوحا في عصرنا الحاضر المحكوم بقوانين الاقتصاد الذي يمثّل المحرّك الأوّل في حياة الفرد والبلد والعالم بأسره. بل يتجاوز الأمر ذلك إلى أن يمثّل الفرد الواحد بصرف النّظر عن هويّته مجرّد رقم في جداول إحصائيّة تعتمدها المؤسّسات في تنظيم الحياة وتصريف شؤونها. وللأمر نفسه مثّل التّعبير عن الكمّيّة في اللّغة سدى من الأنسجة الضّاربة في

جميع الأنظمة المكوّنة لها. ولعلّ نظام العدّ يمثّل أداة فكريّة تيسّر للإنسان التّعامل مع الكائنات بالتّصرّف فيها وتحديد كمّياتها لغايات عمليّة بعضها يهمّ الملكيّة وبعضها يهمّ الاقتصاد والأنشطة الماليّة وما إليها. ونظام العدّ في العموم، نوعان كبيران: أوّلهما طبيعيّ نجد له مظاهر كثيرة في اللّغات يكون بها تعداد الأشياء وتحديد كمّيّتها تحديدا نسبيا كما يتجلّى في الإستراتيجيّات النّحويّة بأنواعها من قبيل الإفراد والتّثنية والجمع، أو في ما عبّر عن المبالغة والتّكرار أو الاستمرار وما إلى ذلك من الأوزان والصّيغ والأبنية الإعرابيّة والأصول الحرفيّة المعجميّة بأنواعها. وثانيهما صناعيّ أو شكليّ نجد له مظاهر كثيرة في النّظم الرّياضيّة والإحصائيّة بأدواتها وبياناتها وتمثيلاتها المعلومة. ويعنينا من كليهما في العموم، ومن الأوّل منهما في الخصوص، منزلة الجسد فيهما من حيث مثّل بأعضائه وبمكوّناته مصدرا للتّعبير عن الأعداد من خلال الإنحاء أو غير ذلك من العمليّات والظّواهر النّحويّة (انظر "التّعبير عن الكمّيّة في اللّغة العربيّة" في الزّنّاد (فصول 2010: 43-77)).

ومن الثّابت أنّ الأسس المفهوميّة الجارية في نظام العدّ مندرجة في ثلاث إستراتيجيّات كبرى تعمد إليها مختلف اللّغات بنسب متفاوتة (شميدت[235] 1926، نقلا عن هايني[236] 1997: 19):

أمّا الإستراتيجيّة الأولى فهي العدّ دون نظام بمعنى اعتماد منظومة من الأرقام الاعتباطيّة لا تترابط عناصرها ترابطا مفهوميّا؛ وذلك من قبيل الأعداد المعلومة المتداولة: "1" و"2" و"3". ولا لغة في العالم تعتمد هذا النّظام صرفا دون غيره، فجميع الأرقام فيها مترابطة بوجه من الوجوه.

---

[235] Schmidt 1926
[236] Heine 1997

وأمّا الإستراتيجيّة الثّانية فقائمة على نظام التّقارن الثّنائي[237] بين عددين يقوم العدد الأكبر منهما على عدد أصغر منه يُتّخذ منه أساسا له، والعكس صحيح؛ وذلك بتوسّط العمليّات الحسابيّة المعلومة من قبيل الضّرب أو القسمة أو الجمع وما إليها.

وثالث الإستراتيجيّات عمادها عدد الأصابع في اليدين أو القدمين. ومن اللّغات ما يعتمد إستراتيجيّات جامعة لكلّ ما مضى ينضاف إليها اعتماد أعضاء الجسد أدوات في العدّ، يطلق عليه منوال أعضاء الجسد[238].

ويتميّز منوال أعضاء الجسد بكونه مبرّرا (غير اعتباطيّ) من حيث قيامه على أعضاء الجسد، وإن كان هذا التّبرير لا يتجلّى بصفة مباشرة عند المتكلّم العاديّ ولا اللّسانيّ المؤرّخ (هايني 1997). ففي لغة المامفو[239]، وهي لغة نيليّة صحراويّة من أفريقيا الوسطى[240]، يعود القسم الأعظم من الأعداد إلى ثالوث من المصادر المفهوميّة: (1)- الأشياء المادّيّة المحسوسة، وهي في الأغلب أسماء لأعضاء الجسد، من قبيل: "يد"، "قدم"، "شخص"؛ (2)- الأعمال المقترنة باليد غالبا، من قبيل: "أمسك"، "ادّخر"؛ (3)- ظرف يحدّد الموضع من قبيل: "فوق". فيكون النّاتج في نظام العدّ كما يلي (هايني 1997: 20):

---

237 pairing
238 The body-part model
239 Mamvu
240 Central African Nilo-Saharan

العدد	العبارة	المعنى
6	*eli qodè reli*	تمسك اليد بواحد
7	*eli qodè juè*	تمسك اليد باثنين
8	*jetò, jetò*	أربعة، أربعة
9	*eli qoɓò reli*	تنخر اليد واحدا
10	*eli ɓòsi*	كلتا اليدين
11	*qarù qodè reli*	القدم تمسك بواحد
12	*qarù qodè juè*	القدم تمسك باثنين
15	*qarù qodè jimbu*	القدم تمسك بخمسة
16	*qarù qodè mádyà*	القدم تمسك بستة
20	*mùdo ngburù reli*	شخص بأكمله
21	*mùdo ngburù reli, ijuni qa reli*	شخص بأكمله وفوقه واحد
30	*mùdo ngburù reli, mùdo-nà-qiqà eli ɓòsi*	شخص بأكمله، شخص آخر، كلتا اليدين.
40	*mùdo ngburù juè*	شخصان بأكملهما
100	*mùdo ngburù jimbu*	خمسة أشخاص بأكملهم

يُبيّن مضمون الجدول أنّ الأعداد في لغة المامفو تنقسم إلى أقسام خماسيّة بحكم قيامها على عدد الأصابع في اليد البشريّة الّتي مثّلت واحدا من أبرز الموارد في نظام العدّ. ويمثّل كلّ قسم يتكوّن من خمسة، منطلقا لدورة جديدة في العدّ، ينضاف إليها أو ينقص منها ما هو دون الخمسة. ويتوفّر كذلك في لغة المامفو قسم عدديّ آخر أساسه مجموع الأصابع بين اليدين والقدمين، هو نظام عشرينيّ[241] يمثّل "عشرون" فيه أساسا عدديا أوّليا. يثبت بجميع ذلك أنّ اليد البشريّة، بحكم اشتمالها على خماسيّ من الأصابع، تمثّل مصدرا مشتركا بين لغات العالم في نظام العدّ. ولذلك كان العدد خمسة، أصغر وحدة عدديّة أساسيّة في نظام العدّ الطّبيعيّ على امتداد اللّغات، وإن لم يرد في بعضها استعمال صريح لكلمة "يد"، ولكن نلمس استعمالا لذلك هو

[241] vigesimal system

قريب من الكناية عن العدد خمسة في بعض الاستعمالات اللّهجيّة التونسيّة، مثلا، حيث نسمع من المتقدّمين في السّن: "عدّ ايدك." (كناية عن 5) أو "عدّ ايديك." (كناية عن 10). ولعلّه استعمال قديم آيل إلى الاندثار.

وتتوفّر في العربيّة استعمالات متواترة للتّعبير عن قلّة العدد حيث تتّخذ أصابع اليد وسيلة في ذلك كما في قولنا: "لفلان عدد قليل من الأشياء لا يتجاوز أصابع اليد"، أو "الكمّيّة الفلانيّة تعدّ على أطراف الأصابع". ولعلّ ذلك عائد إلى تضخّم الأعداد خلال التّاريخ إلى حدّ تنوسي فيه الأصل في عودتها إلى اليد، فاتّخذت هذه سبيلا إلى التّعبير عن العدد المحدود في المطلق. ومن ذلك تقسيم الأشهر إلى عشريّات (حزم من عشرة) وهو نظام العدّ العشاريّ فينقسم شهر رمضان، مثلا، إلى ثالوث من عشرة وإن كان جماع الأيّام فيه لا يساوي بالضّرورة ثلاثين فقد يقلّ عنها بيوم، وفقا للتّقويم القمريّ. ولعلّ لهذا صلة بوصف الملأى من الحيوان بالعدد "عشرة" تطلق على البقر والضّأن - في بعض أرياف تونس- فيقال: "البقرة عُشرة والنّعجة عُشرة".

وتختلف اللّغات الّتي تعتمد أعضاء الجسد في نظام العدّ، عموما، واليدين و/أو السّاقين خصوصا، في نمط التّوليف بين تلك الأعضاء فمنها ما يكتفي بالأصابع فقط ومنها ما يتجاوزها إلى مختلف المواطن من الذّراع وما والاها حيث تتضاف عمليّات حسابيّة من قبيل الضّرب والتّضعيف أو الطّرح:

من ذلك ما يلاحظه غرينبارغ (1978: 291-292)[242] في الكثير من بقاع غينيا الجديدة[243] حيث تمثّل حركات اليدين انطلاقا من الأصابع فالذّراع

[242] Greenberg, 1978
[243] New Guinea

فالإبط ومرورا إلى اليد الأخرى، وسائل للتّعبير عن العدد وتفاصيله إلى حدود العشرين (20)، بوجه يفوق كثيرا ما تعبّر عنه اللّغة المنطوقة حيث لا تتجاوز التّعبير عن الأعداد فيها ثلاثة (3) أو أربعة (4).

ومن نظم العدّ المنتشرة في لغات العالم تلك القائمة على عدد الأصابع (بين اليدين و/أو القدمين) منطلقا مفصّلا أو مجملا، ثمّ تجري اليد أو القدم وحدة عدديّة يجري عدّها بدورها للتّعبير عن الخمسة أو أضعافها من جهة، أو عن العدد المجمل مجموعها حيث يشار إلى العشرين، مثلا، بـــرجل كامل ومعناه مجموع الأصابع في اليدين وفي القدمين، هو ما يطلق عليه ستامبي[244] (1976: 596) 'نظام يد-واحدة، يدان- اثنتان، قدم-واحدة، بشر كامل'[245].

ويغلب في بعض اللّغات (الأزتيكيّة[246]، مثلا)، استعمال أعضاء الجسد (اليد والقدم، والأصابع وما إليها) في الأعداد الدّنيا وأمّا ما عداها فتجري فيه كلمات أخرى من قبيل 'شعر' الرّأس للتّعبير عن الكثرة مطلقا ويبدو أنّه يجري على المئات أساسا (هايني 1997: 28). ويتوفّر استعمال شبيه بذلك في بعض اللّهجات العربيّة (تونس مثلا)، حيث يكون التّعبير عن الكثرة المطلقة في الأشياء بمساواتها بعدد شعر الرّأس أو بعدد عظام الرّأس. وهو استعمال لم يبلغ درجة عالية من النّظاميّة بحكم محدوديّته في سياقات يمثّل تسطير الكثرة غاية في ذاته لا حصرا للعدد المعيّن، وهو استعمال قائم على الشّبه بين المعدود والشّعر أو العظام في الكثرة.

---

244 Stampe, 1976

245 'one-hand, two-hand, one-foot, whole-man variety.'

246 Aztec

ومنه ما يتوفر في بعض لغات بابوا غينيا الجديدة، من قبيل لغة الكيوا[247]، في شكل نظام للعدّ متطوّر دقيق يقوم على استعمال الكثير من المواقع والأجزاء أو النقاط من الذّراع وصفحة الوجه للتّعبير عن الأعداد ويشمل ذلك عددا كبيرا منها يصل إلى سبعة وأربعين موطنا من تلك المواطن (بوسوالّ 2006)[248].

ولكنّ اللّغات المشتركة في إجراء أعضاء الجسد في نظام العدّ، مختلفة في نسبة العمليّات الحسابيّة الجارية في التّعبير عنها. فمنها ما يعمد إلى الجمع (واحد وعشرون، مثلا) ومنها ما يعمد إلى الطّرح، كما هو الأمر في لغة الآينو اليابانيّة[249]، حيث يكون التّعبير عن ستّة، مثلا، بعشرة ناقص أربعة، ومنها ما يعمد إلى الضّرب. ومنها ما تكون فيه أصابع اليد عددا يجري تضعيفه للتّعبير عن الأعداد الّتي تتجاوزها فتكون ضعفا لها.

يبين من العرض الوارد قبل هذا أنّ الأصابع من اليد تمثّل الأساس الأوّل في نظم العدّ الطّبيعيّة ولعلّ ذلك مقترن بأمور كثيرة متظافرة منها طبيعة التّواصل الإشاريّ الأوّلي وفيه تجري اليد أساسا تواصليّا، فتكون الإشارة بها إلى العدد أمرا طبيعيّا في إطار ذلك النّمط الإشاريّ؛ ثمّ إنّ طبيعة الأصابع المتفاصلة المتعدّدة ترشّحها للجريان في الإشارة إلى الأشياء المتعدّدة على أساس الاقتران بين الأصبع والفرد من المعدود واحدا بواحد؛ ولذلك تجد الأصابع في الأعداد الأساسيّة أو الدّنيا. وإذا ما اعتمدنا التّواتر في أعضاء الجسد جارية في نظم العدّ وجدنا سلّميّة تحتلّ الأصابع أعلاها وسائر الأعضاء من الذّراع وما والاها درجاتها الدّنيا وأمكن، حينئذ، أن نتصوّر أنّ نظام العدّ البدنيّ قد انطلق من الأصابع من اليدين، وذهب مستقصيا ما

---

[247] Kewa
[248] Boswell, 2006
[249] Ainu

جاورها من الأعضاء (الذّراع، الإبط، إلخ) أو ما شابهها (القدم)، هو استقصاء ذو مظهرين متوازيين متزامنين: توسّع موضعيّ في الأعضاء وتوسّع ذهنيّ في منظومة العدّ التّجريديّة قد يمتدّ وصولا إلى الشّعر من الرّأس. فالإنسان يمسك بالعالم في العدّ ويمسك بالعالم باليد فكان العضو الممسك مادّيّا أداة نحويّة في الإمساك بالأشياء ذهنيّا عدديّا. فالجسد إمساك بالعالم وفعل فيه بتوسّط الأعضاء.

إنحاء أعضاء الجسد

مدار البحث في هذه الفقرة في ما به يكون الجسد مصدرا يستمدّ منه النّحو جملة من الأدوات به تحول الأسماء الجارية على أبعاض الجسد أدوات معبّرة عن العلاقات النّحويّة. يتنزّل ذلك في ظاهرة الإنحاء.

تعرّف ظاهرة الإنحاء[250] بكونها تحوّلا لوحدة معجميّة مليئة (دالّة على مفهوم) إلى وحدة نحويّة جارية في النّظام الاشتقاقيّ أو التّصريفيّ أو الإعرابيّ دالّة على معنى نحويّ (انظر للتّفصيل هابر وتروغوت[251] 1993، 2003؛ ليمان[252] 2004، مراجع من كثير). ولعلّ أبرز النّماذج في ذلك أن يتحوّل الفعل الدّالّ على حركة التّنقّل في المكان (مشى، مثلا) إلى أداة نحويّة معبّرة عن معنى الاستقبال الجاري على الحدث الرّئيسيّ في الجملة. ونماذج هذا متواترة في الكثير من اللّغات المعروفة.

وفي العموم، يقوم على أساس أعضاء الجسد، منوالان في التّعبير عن المقولات النّحويّة، هما: منوال الشّكل الحيوانيّ[253] ومنوال الشّكل البشريّ[254]. فالجسد البشريّ يمثّل أهمّ منوال للتّعبير عن مفاهيم الاتّجاه في الفضاء (هايني

[250] Grammaticalization
[251] Hopper and Traugott (1993, 2003)
[252] Lehmann 2004
[253] zoomorphic model
[254] anthropomorphic model

جاورها من الأعضاء (الذراع، الإبط، إلخ) أو ما شابهها (القدم)، هو استقصاء ذو مظهرين متوازيين متزامنين: توسّع موضعيّ في الأعضاء وتوسّع ذهنيّ في منظومة العدّ التّجريديّة قد يمتدّ وصولا إلى الشّعر من الرّأس. فالإنسان يمسك بالعالم في العدّ ويمسك بالعالم باليد فكان العضو الممسك مادّيّا أداة نحويّة في الإمساك بالأشياء ذهنيّا عدديّا. فالجسد إمساك بالعالم وفعل فيه بتوسّط الأعضاء.

إنحاء أعضاء الجسد

مدار البحث في هذه الفقرة في ما به يكون الجسد مصدرا يستمدّ منه النّحو جملة من الأدوات به تحول الأسماء الجارية على أبعاض الجسد أدوات معبّرة عن العلاقات النّحويّة. يتنزّل ذلك في ظاهرة الإنحاء.

تعرّف ظاهرة الإنحاء[250] بكونها تحوّلا لوحدة معجميّة مليئة (دالّة على مفهوم) إلى وحدة نحويّة جارية في النّظام الاشتقاقيّ أو التّصريفيّ أو الإعرابيّ دالّة على معنى نحويّ (انظر للتّفصيل هابّر وتروغوت[251] 1993، 2003؛ ليمان[252] 2004، مراجع من كثير). ولعلّ أبرز النّماذج في ذلك أن يتحوّل الفعل الدّالّ على حركة التّنقّل في المكان (مشى، مثلا) إلى أداة نحويّة معبّرة عن معنى الاستقبال الجاري على الحدث الرّئيسيّ في الجملة. ونماذج هذا متواترة في الكثير من اللّغات المعروفة.

وفي العموم، يقوم على أساس أعضاء الجسد، منوالان في التّعبير عن المقولات النّحويّة، هما: منوال الشّكل الحيوانيّ[253] ومنوال الشّكل البشريّ[254]. فالجسد البشريّ يمثّل أهمّ منوال للتّعبير عن مفاهيم الاتّجاه في الفضاء (هايني

[250] Grammaticalization
[251] Hopper and Traugott (1993, 2003)
[252] Lehmann 2004
[253] zoomorphic model
[254] anthropomorphic model

1997: 40)، ويتّخذ جسم الحيوان في بعض الثّقافات خطاطة بالاعتماد عليها يجري تنظيم الفضاء من حيث الاتّجاهات فيه أساسا.

وقد يجتمع في بعض اللّغات المنوالان كلاهما وذلك من قبيل لغة الباباغو[255] (سفورو 1994: 75)[256] حيث يجري التّعبير عن المفاهيم (أمام/ قدّام) و(جانب/إلى جانب) و(داخل/في) باعتماد منوال الشّكل الإنسانيّ وإزاء ذلك يجري التّعبير عن المفاهيم (وراء/خلف) من منوال الشّكل الحيوانيّ.

ويكون إنحاء الأسماء الجارية على أعضاء الجسد في أدوات ذات دلالات نحويّة متنوّعة تتوزّعها مقولات مختلفة، فمن أسماء الجسد (أسماء الأعضاء أو أسماء الجسد في عمومه) ما يُنحى في أداة للتّوكيد والتّفخيم من قبيل إنحاء "نفس" و"عين" و"ذات" في العربيّة الفصيحة وفي اللّهجات المتّصلة بها وإنحاء "يد" في العربيّة التّونسيّة حيث يجري: "فلان بيدُو كلمتّو." ("كلّمت فلانا نفسَه.")؛ ومنهم من يستعمل البنية "وجود ذات + ضمير" في مركّبات توكيديّة من قبيل "هو بجود ذاته" أو "هو بجود نفسه" ومعناهما الحرفيّ: "كلّمته هو بوجود ذاته" كما في: "كلّمتو هوّ بجود ذاته." (كلّمته هو بعينه).

ومن أسماء الجسد ما ينحى في أدوات معبّرة عن الانعكاس أو التّشارك حيث يُفرّغ الاسم من دلالته المعجميّة المليئة جاريا على العضو الحقيقيّ ليجري معبّرا عن حدوث الفعل أو قيام الحال قياما منعكسا أو تشاركيًا، كما في إنحاء "اليد" في العبارات الدّالّة على الانعكاس في الجملة الموالية حيث لا تفيد اليد الأداة المعلومة وإنّما تفيد الانعكاس: "فلان هلك روحو بيدو" (أهلك فلان نفسَه بنفسه).

---

[255] Papago
[256] Svorou, 1994

وباعتماد دراسة إحصائيّة في تواتر أعضاء الجسد (حيوانيًا كان أو إنسانيًا) في التّعبير عن مختلف الاتّجاهات في الفضاء، يثبت هايني (1997: 41) أنّ "الرّأس" و"الظّهر" جاريان للتّعبير عن اتّجاه (فوق، أعلى) وأنّ مؤخّرة الجسم جارية للتّعبير عن اتّجاه (خلف، وراء)، وأنّ "الرّأس" يجري كذلك للتّعبير عن اتّجاه (أمام، قدّام)، و"بطن" للتّعبير عن اتّجاه/موضع (تحت). والأمر نفسه مثبت ومؤكّد في ما شملته الدّراسات الإنحائيّة في لغات العالم بصفة عامّة وفي اللّغات الإفريقيّة على وجه الخصوص (انظر مثلا: هايني وره[257] 1984: 269-281).

ومن مظاهر الإنحاء في أعضاء الجسد ما يكون للتّعبير عن الاتّجاه والحلول (الظّرفيّة) وما إلى ذلك. يورد هايني (1997: 126-129) نماذج من الإنحاء الّذي يجري بمقتضاه عدد من أسماء الأعضاء للتّعبير عن معان نحويّة من قبيل إجراء اسم (المعدة/ البطن) للتّعبير عن معان فضائيّة مكانيّة، من مثل الحلول "في" الشّيء (داخل الشّيء). ومن الأفعال الدّالّة على (تجاوز) أو (هزم) أو (مرّ) ما ينحى للدّلالة على واسم للمقارنة أو المفاضلة بمعنى التّفوّق (هايني 1997: 42).

والإنحاء جاريا على أعضاء الجسد في التّعبير عن الاتّجاه رباعيُّ الأطوار(هايني 1997: 44):

- الطّور الأوّل: جهة أو موضع من مواضع الجسد البشريّ.
- الطّور الثّاني: جهة أو موضع من مواضع شيء (جماد).
- الطّور الثّالث: جهة متّصلة بشيء ما.
- الطّور الرّابع: جهة منفصلة عن شيء ما.

[257] Heine & Reh 1984

والأساس في إنحاء اسم لجزء بعينه من الجسد في العبارة عن مفهوم فضائيّ تجريديٍّ بعينه، أن يكون بينهما تناسب بوجه من الوجوه يقوم له ترابط مفهوميّ[258] بينهما (هايني 1997: 45). ومن نماذج ذلك ما بين (ظهر) و(وراء)؛ (رأس) و(فوق)؛ (وجه) و(أمام).

ويبدو أنّ القسم السّفليّ من الجسد يجري تصوّره على أساس القسم العُلويّ منه. فالعُلويّ إيجابيّ بالقياس إلى السّفليّ في الكثير من الثّقافات، وهو أرفع منه في السلّم القيميّ. ومن القسم العلويّ يُتّخذ مقدّمه (الجبهة، الجبين، صفحة الوجه، العين، الأنف...) أساسا بنيويّا لتحديد القسم السّفليّ. وإذ كان (فوق) و(أمام) يشملان الحيّز الفضائيّ الّذي يجري إدراكه على أحسن ما يكون، كانا اتّجاهين إيجابيّين (أندرسون[259] 1978: 343).

ويمثّل التّواتر في الاستعمال بتظافره مع ما سبق عرضه، قادحا أساسيّا لعمليّة الإنحاء في المطلق وفي إنحاء الأسماء الجارية على أعضاء الجسد بالخصوص. فالوحدات المعجميّة "الأكثر تواترا أكثر قابليّة للإنحاء"[260] (حجاج 2010: 364). ويتظافر هذا المبدأ - عند حجاج- مع مركزيّة "الأنا" ومركزيّة "جسد الأنا" في نظام الإحالة على الإنسان. وفي الجدول التّالي بعض ما جرى إنحاؤه من الأسماء الدّالّة على أعضاء الجسد في روابط نحويّة من قبيل الحروف أو الظّروف وما إليها (حجاج 2010: 366):

---

[258] conceptual association
[259] Anderson 1978
[260] More Frequent More Grammaticalizable (MFMG)

أجزاء الجسد

'على'	''on''	←	'رأس'	''head''
'تحت'، ('بسبب')	''under'', (''because of'')	←	'قدم' 'شرج'	''foot'' ''anus''
'قدّام'، 'حسب'، 'عوض'	''in front of''; ''according to''; ''instead of''	←	'وجه' 'عين' 'فم' 'جبهة'	''face'', ''eye'' ''mouth'', ''forehead''
'خلف'	''behind''	←	'ظهر' ('قفا')	''back'' (''nape'')
'بجانب'	''beside''	←	'أذن'، 'جانب'، 'جنب'	''ear'', ''side'', ''flank'
'في'، 'داخل'	''in , within''	←	'معدة'، 'بطن'، ('قلب')، ('كف')	''stomach'', ''belly'', (''heart''), (''palm'')
('في بيت فلان')	(''at...'s house')	←	('جسد')	(''body'')
('بـ')،('لكي')، ('في بيت فلان')	(''by''),(''for'') (''at...'s house')	←	('يد')	(''hand'')

يثبت في جميع ذلك أنّ ما يجري على أعضاء الجسد من الأسماء في اللّغات الطّبيعيّة يمثّل مصدرا للأدوات النّحويّة المعبّرة عن العلاقات الفضائيّة كالاتّجاه والاحتواء والتّجاور وما إلى ذلك. وباعتماد مسح للّغات المختلفة يبدو أنّ أعضاء الجسد في مختلف اللّغات تنحى للتّعبير عن العلاقات الفضائيّة تبعا للسّلّميّة التّالية (هايني وجماعته[261] 1991: 130، لوفينسون[262] 2003: 106): ظهر > وجه > جانب > رأس > أسفل[263]

ويذهب ألان[264] (1995) إلى أنّ تصوّر الذّهن البشريّ للكون والتّجربة مرتبط عرفنيا بموقع الجسد مركزا للكون، وأنّ كلمة 'ظهر'[265] في الإنجليزيّة

---

[261] Heine et al. 1991
[262] Levinson 2003
[263] BACK > FRONT > SIDE > TOP > BOTTOM
[264] Allan 1995
[265] back

تمثّل نموذجا لما به يكون التّوسع في إنحائها انطلاقا من جسد الإنسان - ممركزا- على التّدريج، إلى سائر الكائنات الحيّة من ذوات الهيكل العظميّ ومن الرّخويّات فالجماد فالتّموقع في المكان وفي الزّمان فالأعمال والحركات.

وممّا ينحى فيه اسم العضو من الجسد في بعض اللّغات ما يجري متمّما معبّرا عن هيأة المحدث أو طريقة حدوث الحدث، فيجري في العربيّة، مثلا، حالا أو مفعولا مطلقا معبّرا عن معنى نحويّ لا صلة له حرفيّا بالمعنى المعجميّ أي باسم العضو الجاري على التّعيين بالتّسمية، وذلك من قبيل "رأس" و"وجه" و"عقب" في العربيّة:

فمن العبارات الرّائجة في شأن "رأس" ما يفيد حدوث الحدث في خطّ مستقيم - بالمعنى الهندسيّ الرّياضيّ- يتّجه إلى نقطة هدف دون فاصل أو محطّة بينهما، كما يتجلّى في ما يلي:

- ذهب زيد رأسا إلى بغداد.

- يقودنا الحديث في الأدب رأسا إلى الحديث في الإبداع.

ومن العبارات الدّائرة في شأن "وجه" ما يكون ببيان الحال في غياب الفاصل وفيه محو للمواجهة الحسّيّة المتّصلة بالوجه من الجسد، حيث تنحى الوحدة "وجه" للتّعبير عن علاقة فضائيّة فيها تقابل بين ما يُعتبر في التّصوّر وجها للشّيء أو للمفهوم، جارية في عبارات من قبيل: "مارادونا وجها لوجه مع حارس المرمى."

ولعلّه من المفيد أن نشير إلى ضرورة التّمييز بين مظاهر الإنحاء في خصوص الأسماء الجارية على أعضاء الجسد، من جهة، ومظاهر التّلازم أو التّوارد اللّفظيّ الّتي يقترن فيها الاسم الواحد منها بقرين لفظيّ تقارنا مطلقا،

من جهة ثانية، وما تجري فيه أسماء الأعضاء على أساس استعاريّ يُتصوَّر فيه الشّيء على أساس العضو المعنيّ. فمن نماذج المتلازمات ما يلي:

-" قلبَ الشّيء رأسا على عقب."

- "فلان ركب رأسه ومشى." (بمعنى: عنيد لا يسمع نصحا).

ومن نماذج الاستعمالات المجازيّة والاستعاريّة:

- "رأسي يمور بطفولة شرّيرة" (الطيّب صالح)؛

- "زيد وخالد في المكتب راس راس." (من العاميّة التّونسيّة، ومعناها لا ثالث لهما)، حيث يجري "رأس" دالاً على كامل الجسد وفق العلاقة المجازيّة المعلومة.

ولعلّ الظّواهر الثّلاث متوفّرة في بعض الأحيان في العبارات اللّغويّة المتنوّعة ولا اختلاف بينها إلاّ في نسبة البروز أو في درجة حضور العلاقة الواحدة بالقياس إلى الأخرى من الثّالوث المشار إليه. وذلك من قبيل (ركب زيد رأسه ومشى) حيث يكون التّلازم والتّصوّر الاستعاريّ كلاًّ من مدخل.

ومن الظّواهر البارزة في اللّغات، وإن كانت لا تدخل في الإنحاء، ما يتحوّل بمقتضاه اسم العضو من الجسد إلى أصل اشتقاقيّ في العربيّة وفي بعض اللّغات كالفرنسيّة أو الإنجليزيّة، يكون منه الفعل بتصاريفه دالاً على معنى معجميّ أي وحدة مليئة ولا تتجلّى الصّلة بين هذا وذاك. وذلك من قبيل الفعل (واجه) في العربيّة دالاً على معناه المعلوم بين طرفين أو أكثر في المطلق نستعمله فيها دون تفكير في الأصل فيكون منه: "مواجهة برّيّة"، "مواجهة الصّعاب"، و"مواجهة المصير"، إلخ. وكذا الأمر في الفرنسيّة حيث يمثّل اسم الرّأس(*tête*) أصلا اشتقاقيّا لسلسلة (*s'entêter, têtu, entêtement*) دالّة على معنى العناد أو ركوب الرّأس أو لزوم الموقف الواحد والإصرار. وقريب من هذا، الفعل (*to head to...*)، في الإنجليزيّة

جاريا للتّعبير عن الاتّجاه رأسا إلى شيء ما.

وخلاصة الأمر أنّ الأسماء الجارية على أعضاء الجسد ذات دوران كبير في الإنحاء من حيث التّواتر والكثافة. يؤخذ التّواتر على مستوى تصنيفيّ مقارنيّ عامّ في مستوى اللّغات الطّبيعيّة وتؤخذ الكثافة على مستوى حضور أعضاء الجسد في الإنحاء مقارنة بسائر الحقول المفهوميّة.

خـاتمـة

فحصنا في هذا الفصل مظهرين من أبرز المظاهر الّتي يحضر فيها الجسد مفهوما، ولكن في شكل نحويّ، تتّخذه اللّغة واحدة من جملة أدوات للتّعبير عن معان نحويّة ليست له في الأصل. ذانك المظهران ملازمان للوجود البشريّ أجسادا تتصرّف في بيئة أو في محيط العيش والتّعامل بمعناه الواسع. هو محيط أو بيئة فيها الأشياء من المعدودات يسعى الجسد الذّكيّ المعرفن إلى الإمساك بها في منظومة عدديّة بها يسهل تصرّفه فيها واستحضارها وتمييزها وبيعها وشراؤها وما إلى ذلك من العمليّات الّتي تقتضيها المعاملات والمؤسّسات البشريّة على مرّ العصور، وهو كذلك يسعى إلى تحديد الوجهات ومختلف العلاقات الفضائيّة الّتي يقتضيها تصرّفه في المكان والزّمان كائنا جوّالا فيهما، كما هو معلوم.

وقد أثبتنا، بنماذج من لغات متنوّعة مختلفة، مركزيّةَ الجسد فيها جميعا في المطلق، ومركزيّة نوع مخصوص من الأعضاء، هي الأعضاء الوظيفيّة في ذلك التّصرّف، على وجه الخصوص. فاليد أداة للعمل والقدم أداة للسّير وكلاهما ملازم للوجود البشريّ جسدا جائلا في العالم أو فاعلا فيه، فكان أن ترشّح كلّ منهما ليمدّ منظومة العدّ ومنظومة النّحو بأدوات هي أسماء للأعداد وهي أسماء للعلاقات من قبيل الاتّجاه والحلول والهيآت بمختلف أنماطها. يبين جميع ذلك عن حضور من نوع مخصوص للجسد في اللّغة. فاللّغة

حادثة بالجسد من حيث كانت من أعماله، ولذلك كان أوّل مورد لها يمدّها بالأسماء وبالأدوات في التّعبير عن العلاقات، وهو تحوّل أوّل وأمضى عرفته أعضاء الجسد، في ما يبدو، بالقياس إلى سائر التّحوّلات الّتي عرفتها سائر الأقسام من الأسماء العامّة بأنواعها.

الفصل الثاني

الجسد في الخطاب: إستراتيجيّة التّلطيف نموذجا

مقدّمة

للجسد في الثّقافات البشريّة منزلة أو منازل عجيبة غريبة، فمن يتأمّل التّاريخ يجده آكلا ومأكولا في بعض الشّعوب من أكلة اللحوم البشريّة في ما مضى من الأزمان، ويجده شيئا مملوكا ذا مالك له أن يتصرّف فيه كما شاء بيعا وشراء وما إلى ذلك في النّظام العبوديّ القديم، ويجده مقدّسا تضمن له الشّرائع السّماويّة والقوانين الوضعيّة حرمته وحقّه في الحياة، ويجده شيئا متشيّئا في مختلف العصور كلاّ بنواميسه وأشكاله من تجارة الجنس حتّى بيع العمل الجسديّ مقابل أجر يضمن بقاء الجسد حيّا في دورة اقتصاديّة معلومة. وبعد هذا وذاك، يجده موضوعا للتّحريم في جميع أشكاله فمنه العورة، وقد استوجبت السّتر منذ فجر البشريّة في قصّة الخلق والنزول من الجنّة، ومنه ما ليس كذلك فيكشف بل يحمل من الزّينة أبهرها وأكثرها جذبا وإغراء. والسّتر لا يقتصر على الغشاء بأنواعه يغطّي العورة وإنّما يذهب درجة أمضى حتّى يبلغ التّسمية، فتتضاعف التّغطية والحجب بتراكم السّتر القماشيّ والسّتر اللّغويّ. وكلاهما ستر يكتسب الفرد آليّاته صغيرا ويستجيب لها كبيرا فيفرضها على نفسه ملتزما بها وعلى سائر بني جماعته ملزما إيّاهم بها، عند الاقتضاء. ومن هذا السّتر العامّ الذّاهب في جميع الاتّجاهات النّظريّة تخيّرنا نوعا من السّتر اللّغويّ مخصوصا هو الكناية عن الأعضاء المحرّمة تسميتها في ما يمكن أن يجتمع في مفهوم التّلطيف إستراتيجيّة لغويّة وعرفنيّة اجتماعيّة ونفسيّة في آن. يكون ذلك من حيث وسائطها والعلاقات الّتي

يتوسّل بها المتكلّمون في الستر اللّغويّ سماعا للمستور بالتّغطية رؤية وإبصارا. فما التّلطيف إلاّ موصول بالمحرّم اللّغويّ الّذي يندرج بدوره في المحرّم العامّ.

مفهوم التّلطيف

التّلطيف[266] عمليّة يعمد بها المتكلّم إلى الاستعاضة عن الاسم الأصليّ لمعنى أو مسمّى مكروه سماعه لأسباب عديدة باسم أو بعبارة ذات وقع أخفّ أو أقلّ إيلاما من ذلك الاسم الأصليّ. والأساس في هذه الظّاهرة عمليّة استبدال يعوّض بمقتضاها فراغ بحكم عدول جماعيّ أو فرديّ عن إجراء كلمة "مكروهة" بأن يجري كلمة أخرى مكانها (أولمان، 1962)[267]. فالتّلطيف إستراتيجيّة يتوفّر بها الحديث عن الشّيء الّذي يُمنع الحديث فيه أو يحرّم، بطريقة تقع ما بين التّصريح المطلق والتّلميح الملغز، وفيه يتوفّر بعض الأمان اللّغويّ والاجتماعيّ (آشير وسمبسون (1994))[268] أو بعض الرّاحة فيهما.

ويندرج مفهوم التّلطيف في الكناية (أو الكنية) أسلوبا في الكلام منتشرا في جميع الثّقافات على مرّ الأزمان. يندرج التّلطيف في الكناية من حيث كانت حديثا عن الشّيء بلفظ غيره، أو هي الحديث بشيء وإرادة غيره، فيكون بين المنطوق المسموع والمعنى المقصود حلقة ترتق عن طريق الاستدلال بوجه من الوجوه. وقد جعلها اللّغويّون العرب جارية لغايات ثلاث منها ما يكون تعظيما ووقارا ومنها ما يكون لمجرّد التّسمية فتعوّض فيه الكنية الاسم. فهذا من الكناية الصّرف ومنها ما به يُجتنب ذكر ما يستفحش ذكره، وهو التّلطيف. ومن ألفاظ الكناية ما يكون لاجتناب المستفحش في

---

[266] euphemism
[267] Ullmann 1962
[268] Asher & Simpson 1994

البداية ثمّ يتناسى ذلك فيستقرّ في الاستعمال قرينا مباشرا للمعنى المراد، وذلك من قبيل "الرّفث" وما إليه.

التّلطيف اجتناب للمحرّم اللّغويّ

التّحريم[269] أمر تفرضه سلطة ما على الأفراد يمتنع به مسّ لشّيء أو فعله. وهو في المجتمعات عبارة عن دليل من الممنوعات، يعود به فرويد[270] إلى مفهوم قرين له هو الطّوطم[271]. فالتّحريم أساس في قيام الطّوطميّة وفيه عنصران: منع يهمّ الحيوان الطوطم فلا يقتل ولا يؤكل لحمه ولا يلحق به الأذى (فرويد 1912: 7) واجتناب الاتّصال الجنسيّ بالمنتمين إلى نفس الطّوطم من الجنس الآخر(فرويد 1912: 8). ومقابل ذلك يُسمح لأفراد العشائر الأخرى بقتل ذلك الحيوان وبالزّواج من بنات العشيرة لأنّهنّ مخصّصات لهم، والعكس بالعكس (كايوا 1950: 109-110).

فالتّحريم قائم على منع العمل الّذي يكون له في اللاّوعي دافع قويّ، ولذلك لا يُمنَع العمل الّذي لا يريد أحد أن يفعله. ولذلك يمثّل التّناقض بين الرّغبة الجامحة في الشّيء والامتناع الشّديد عن فعله، أساسا لعمليّة التّحريم من حيث يكون للفرد المندرج في سلطة التّحريم رهبة من موضوع التّحريم ورغبة فيه في آن. أو بعبارة أخرى تناقض أو تجاذب بين الامتثال للتّحريم وخرقه سواء أكان بالفعل والعمل أم بالقول والرّمز. ذلك أنّ "المحرّم منع قديم جدّا، تفرضه سلطة خارجيّة، وهو موجّه ضدّ أشدّ رغبات الإنسان جموحا. فتستمرّ الرّغبة في خرقه ماثلة في لا وعيه. فالبشر الّذين يمتثلون للمحرّم إنّما يزدوج موقفهم من المحرّم." (فرويد 1912: 32).

---

[269] tabou
[270] Freud 1912
[271] totem

وينضاف إلى أبعاد المحرّم من الأشياء ومن الأعمال، بعد لغويّ يتعلّق بالسّلوك في القول، يمثّل المحرّم اللّغويّ[272]. هو بعد يجمله بنفينيست (1974: 255)[273] في تعريف المحرّم اللّغويّ بكونه منعا لا يتعلّق بـ"قول شيء ما"[274] وهو ما قد يكون رأيا أو موقفا، وإنّما يتعلّق بـ"النّطق بالاسم"[275]، من حيث كان ذلك مجرّد تقطيع صوتيّ نطقيّ. فيتضمّن المحرّم اللّغويّ عددا كبيرا من مظاهر المنع، من قبيل سبّ الجلالة أو الأنبياء أو الصّحابة أو الأولياء، أو لعن الدّين وما إلى ذلك ممّا له صلة بالمقدّس، ويندرج فيه اجتناب ما يحرّم النّطق به من أسماء الأعضاء من الجسد، وما التّلطيف إلاّ سبيل إلى اجتناب ذلك المنع ومغالطته كما نبيّن بعد هذا.

والمهمّ أن نثبت أنّ للتّلطيف صلة بالمحرّم اللّغويّ الّذي يندرج بدوره في المحرّم العامّ. ولذلك يكون تعريف التّلطيف والتّعامل معه من ثلاثة مداخل على عدد المظاهر الّتي يتجلّى فيها، وفق ما يسطّره ميغال كاساس غوميز (2009)[276]، هي مدخل من خارج اللّغة[277] ومدخل لغويّ صرف ومدخل تداوليّ.

أمّا المدخل من خارج اللّغة فمنطلقه الأسس النّفسيّة الّتي تبعث على التّلطيف. وهي بمثابة المحرك الأوّل لحدوثه؛ نجد منها الاستعاضة عن الكلمة الجارحة بكلمة ألطف منها (اجتناب كلمة لأسباب دينيّة أو قدسيّة أو أخلاقيّة عامّة أو سعيا إلى احترام الآداب العامّة في المجتمع). وأمّا المدخل اللّغويّ الصّرف فقوامه ما يكون بين المفهوم موضوع التّلطيف واللّفظ

---

[272] tabou linguistique
[273] Benveniste, 1974.
[274] le « dire quelque chose »
[275] le « prononcer un nom »
[276] Gomez, Miguel Casas. 2009
[277] extralinguistic

الملطّف واللفظ الملطّف من علاقات متنوّعة في النّظام وفي الاستعمال من قبيل التّرادف والتّعويض وإعادة الشّحن أو التّلطيف الجديد من درجة ثانية. وأمّا المدخل التّداوليّ فينبني على سياقات التّلطيف وعناصره المقاميّة.

فالتّلطيف لا يعرفه الخطاب العلميّ لما فيه من كلفة العناء وضياع المعنى، ولما في مجال العلوم من تجاوز للمحرّمات الاجتماعيّة ذات الأساس الأخلاقيّ غير المبرّر في مجال البحث عن حقائق الظّواهر وتفسيرها ومعالجتها. وتكفي لإثبات ذلك قراءة سريعة لكتب الطّبّ- مثلا- وأساسا كتب التّشريح لتجد الأسماء الجارية على الأعضاء التّناسليّة كما هي دون تبديل.

ويغيب التّلطيف في سياق المحادثة الّذي يجمع بين الأقران من الأتراب أو من الجنس الواحد أو ما يغيب فيه التّحفّظ أو ترتفع فيه "الحشمة" والكلفة؛ نلاحظ ذلك في المحادثة الرّجاليّة الصّافية أو النّسويّة الخالصة، فإذا ما خالطها بعض الأفراد من الجنس الآخر أو من شريحة عمريّة أخرى تزيد أو تنقص، عاد التّلطيف ليجد مدخلا له، وإن كان الجميع يعلمون موضوع الحديث ويفهمون ويتفاهمون، فهذا يدخل في الرّاحة الاجتماعيّة ليس غير.

والتّلطيف اجتناب للذّكر لاجتناب الحضور. ففي الثّقافات الّتي يُحظر فيها ذكر المكروه حتّى لا يستحضر إنّما يقوم ذلك على المعتقد في كون الكلمات تستحضر مسمّياتها، ولذلك وجب تجنّب النّطق بالأسماء الصّريحة في إطار محرّم كلاميّ جزءا من المحرّمات السّلوكيّة، فمن الثّقافات ما لا يسمّى الأموات فيها خشية أن يُستحضَروا بأسمائهم فيكون الإيماء إليهم بالضّمائر مطلقا أو بكناهم في أيّام حياتهم. فيكون التّلطيف على هذا نوعا من التّعويذة السّلبيّة تكون الحماية بها عن طريق اجتناب النّطق لاجتناب المكروه. ولهذا صلة بفعل الكلام السّحريّ الّذي تُستحضَر به الأرواح

بأنواعها عن طريق دعوتها بأسمائها أو بأناشيدها وما إلى ذلك.

التلطيف ستر لغويّ للعورة

لعلّ أقدم معلم يتوفّر في التّاريخ متّصلا بستر الجسد ما تتداوله مختلف الثّقافات من أسطورة آدم وحوّاء. فقد انطلقت عمليّة السّتر والتّغطية بجعل ورق التّوت على الأعضاء التّناسليّة، ولكنّ النّظر في ذلك من زاوية رمزيّة يقود إلى ربط هذه الحادثة باكتشاف اللّباس في الحضارة البشريّة وتبلور المحرّم: فقد يكون ستر الجسد للوقاية من عوامل الطّبيعة كالبرد والحرّ، أو من عوامل الضّرر حماية له من الجرح والكدم والخدش وما إلى ذلك؛ وهو أمر يجد صدى له في لباس الحرب وما إليه. والجسد في جميع ذلك محتاج إلى تغطية كاملة، ولكنّ البداية بستر الأعضاء التّناسليّة (أو العورة، اختصارا) لا يمكن تبريرها بعوامل الطّبيعة وإنّما هو ستر وحجب عن النّظر، والعورة كما هو معلوم مخفيّة في مواضع لا تبلغها عوامل الطّبيعة بالضّرورة. والسّتر عن النّظر ستر رمزيّ بمعنى اجتناب وقوع النّظر على الموضوع لاجتناب الأثر الّذي تثيره رؤيته، ولا تعنينا هنا دوافع ذلك من قبيل سلطة الأب أو سلطة التّحريم أو الطّوطم، وإنّما تعنينا صلة ذلك بالسّتر اللّغويّ أو السّتر بالتّلطيف.

فالسّتر بالتّلطيف اجتناب لتسمية العورة من حيث المبدأ، هو بمثابة تغطية العورة لاجتناب رؤيتها. فالتّسمية الصّريحة كشف لها وهي بمثابة تعريتها، للوضوح الكائن بين الإبصار وموضوعه من جهة وبين التّسمية الصّريحة ومرجعها، من أخرى. ولكنّ العمليّتين لا تحجبان الموضوع حجبا تامّا، فالثّوب مهما تكثّف والتّلطيف مهما ألغز، لا يمنعان الذّهن من تخيّل الموضوع المستور بالثّوب أو المكنّى عنه بالتّسمية، موجودا حيث هو وبالشّكل الّذي عليه. تمثيل ذلك في الجدول التّالي:

الواقع	العورة	رؤية مباشرة	تغطية	ستر وإخفاء
		إبصار		وجود متخيّل
اللّغة	المفهوم	تسمية	تلطيف	وسم متخيّل
		وسم مباشر		كناية وتورية

وعلى هذا تكون اللّغة لباسا للجسد، يغطّى بها منه ما استوجب التّغطية بالقماش وغيره في الواقع والتّجربة. ولكنّ ستر أعضاء الجسد (أي العورة) باللّغة، ستر أمضى وأقوى وأثخن من السّتر المادّي، لما فيه من الرّمزيّة: هو ستر رمزيّ لأنّه يستر العورة في بعدها المادّيّ فيقوم الحجاب بين الاسم ومسمّاه، وهو يستر العورة في بعدها الرّمزيّ من حيث يحجب رمزيّتها في ذاتها.

فالسّتر اللّغويّ تغطية تنغرس في الذّهن، بمعنى أنّ التّلطيف تغطية واجتناب للمفهوم المركوز في الذّهن، للإبقاء عليه حبيسا للفكر لا يفلت منه، فالتّغطية المادّيّة للعورة تغطية خارج الذّهن تستتبع عن طريق التّرسيخ والتّقوية تغطية داخل الذّهن، هي تغطية تحاصر المفهوم في خباياه، فتحجب العلاقة الكائنة بين الاسم الصّريح للعورة في المعجم الذّهنيّ ومرجعه أي مفهومه فيه، عن طريق إنشاء علاقة أخرى غير مباشرة بين اسم (هو الغطاء) الّذي يحجب الاسم الأصليّ. وفي ذلك سلطان التّحريم يطارد المحرّم في الممارسة وفي الفكر حتّى لا يفلت شيء من رقابته.

وإذ كان التّحريم أقوى ما يكون عندما يحول رمزيّا، وإذ كانت اللّغة أقوى الأدوات الرّمزيّة في المنظومة الذّهنيّة البشريّة، كان من الطّبيعيّ أن يشملها التّحريم، هو تحريم تنهار له العلاقة بين الاسم وموضوع التّحريم، هو تحريم لا يهمّ البنية الصّوتيّة من الاسم في ذاتها وإنّما هو تحريم لإنشاء العلاقة بينها وبين مرجعها أي المفهوم المقترن بها. ولهذا صلة بوظيفة لغويّة رمزيّة معلومة قوامها "الاستحضار" جارية في طقوس السّحر وما حايثه. بها

يستحضر ما توارى عن البصر أو عن الوجود. فالكلام يستحضر الغائب كما يستحضر المحرّم. فالعورة محرّمة يمنع الكشف عنها في السّلوك ولكنّها قد تُستحضر بالكلام "عارية" ولذلك وجبت تغطيتها بطريقة حجب أخرى، هي التّلطيف. فالتّلطيف على هذا حجاب من نوع أمضى وأقوى في الرّمزيّة.

وللتّلطيف صلة بمظهر طقوسيّ رمزيّ آخر هو منظومة الطّهارة (أو الطّهر) في جميع أبعادها المعلومة. فالطّهارة كائنة في الجسد كلّه إجمالا أو في بعضه على تخصيص، وهي كائنة في السّلوك فعلا وقولا، في العموم. وهي كذلك كائنة في كليهما في طقوس ومواقف معلومة تقترن فيها طهارة الجسد وطهارة القول. فإذا كانت تعرية العورة ممنوعة لأنّ كشفها مناف للطّهارة في السّلوك، كانت تسميتها ممنوعة لأنّ كشفها بالتّسمية مناف للطّهارة في القول، وكانت تسميتها ممنوعة كذلك لأنّ تسميتها استحضار لها في الذّهن وهذا الاستحضار كشف لها فيه، وكشفها في الذّهن مناف للطّهارة في ما يجتمع فيه الجسد والسّلوك والقول، أي العقل أو الرّوح. وهي كما هو معلوم موطن الطّهارة والصّفاء الأزليّين. فالتّلطيف بهذا المفهوم طهارة وتقوى في القول، جزءا من طهارة وتقوى في اللّسان، جزءا من الجسد الطّاهر النّقيّ التّقيّ.

التّلطيف قائم على التّبرير

يمكن الخوض في مبحث الاعتباط والتّبرير في العلاقة بين الدّالّ ومدلوله في اللّغة، من باب التّلطيف. فمن الثّابت المعلوم أنّ الاعتباط أغلب من التّبرير، هذا في أصل الوضع المفترض. ولكنّ شحن اللّفظ سلبا دافع إلى اجتنابه بمعنى إبطاله أو محوه وإلى تعويضه بلفظ غير مشحون أو غير موسوم. يقوم ذلك التّعويض على تبرير هو في الظّاهر تعليل للاختيار، أي اختيار ذلك اللّفظ دون غيره للتّعويض، ولكنّه في الأساس تبرير لدلالته

الجديدة أي لعلاقته بمدلوله الجديد. فهو تبرير للعلاقة بين دالّ ومدلول يجري القرن بينهما قرنا واعيا قصديًا.

يقودنا هذا الأمر إلى الحديث عن المظهر المفهوميّ الصّرف من حيث اعتبار الشّحنة السّلبيّة سمة من السّمات المكوّنة للمفهوم المقترن باللّفظ المكروه أو المحرّم. فاللّفظ المشحون سلبا لا يُجتنب لكون شكله الصّوتيّ المقطعيّ كذلك وإنّما لكون المفهوم المقترن به كذلك. فيكون على هذا في تكوّن المفاهيم ووسمها في الذّهن مستويان: مستوى الخصائص التّصوّريّة الصّرف ومستوى الخصائص الثّقافيّة حيث تكمن سمات الاستحسان أو الاستهجان أو التّحريم وما إلى ذلك. وهذه السّمات جزء من المفهوم الموسوعيّ في ذاته ومن معرفة المتكلّمين بها، يختزنونها جزءا من الملكة أو من النّحو في أذهانهم. فشحنة السّلب من حيث هي سمة ثقافيّة لها قوّة سائر السّمات الدّلاليّة والإعرابيّة، ولها قوّة القاعدة النّحويّة الّتي توجّه الكلام تركيبا وتأويلا. فالنّطق باللّفظ المحرّم تنقدح له جميع سماته في الذّهن بما فيها سماته التّحريميّة، وإن كان المحرّم متمثّلا في المفهوم لا في اللّفظ كما بيّنّا قبيل هذا.

ومن القضايا المتّصلة بهذا المبحث، نجد المصادفات اللّغويّة. وفيها يقوم الشّبه الصّوتيّ المقطعيّ بين كلمتين في لغتين مختلفتين تدلاّن على معنيين مختلفين ليس من الضّروريّ أن تكون بينهما صلة. ولكن يمتنع إجراء الكلمة الوافدة إلى الواحدة منهما، لا لاجتناب النّطق بالمكروه المقترن بذلك الاسم في لغته الأصليّة، وإنّما لاجتناب الإيحاء بالمدلول المحرّم المقترن بصورة ذلك اللّفظ في اللّغة القابلة. يكون ذلك في سياق الحياة العاديّة كما يكون في مستوى العلاقات بين الدّول، من ذلك ما تداوله النّاس والمجالس والإعلام من رفض سفير باكستانيّ عيّنه بلده في السّعوديّة وبعض بلدان

الخليج لأنّ لقبه العائليّ يشابه صوتيا كلمة محرّمة أو مشحونة سلبا في العربيّة:

> رفضت وزارات خارجية كل من السعودية والبحرين والإمارات، وكذلك مجلس التعاون الخليجي، قبول اعتماد السفير الجديد الذي قررت باكستان تعيينه سفيرا لها، ليس لعدم كفاءته أو لوجود توتر في العلاقات الخليجية الباكستانية، وإنما بسبب اسمه الفاضح "ميانقيل أكبر زب". ويشغل الدبلوماسي الباكستاني المشهود له بالكفاءة "أكبر زب" سفيرا لإسلام آباد في كندا، ما جعلها تقرر اعتماده سفيرا لها في الإمارات ثم البحرين إضافة إلى مجلس التعاون الخليجي".
>
> (منقول من: http://www.doualia.com/2010/02/04)

ولو كان الأمر متعلّقا باسم شيء أو بضاعة لأمكن اجتناب الحرج بتغيير اسمه كلّيا أو جزئيا، ولكنّ الأمر يتعلّق باسم ممثّل دبلوماسيّ تتداول اسمه وسائل الإعلام والوثائق الرّسميّة وما إليها. فرُفِض السّفير ولعلّه اختار وجهة أخرى يكون فيها لقبه غير موسوم فلا يثير الحرج.

التلطيف بابا للتّرادف

لعلّ من القضايا الّتي تظلّ في حاجة إلى بحث وتدقيق، تلك المتعلّقة بالآليّات النّفسيّة والاجتماعيّة الّتي بها ينقدح الشّعور عند المستعملين بكون الكلمة قد شُحِنت سلبا من زاوية الوعي الجماعيّ المشترك، وكذلك الآليّات الّتي بها تتحدّد درجة الشّحنة السّلبيّة في الكلمة وهو أمر مختلف متفاوت بين المستعملين؛ فما يراه الواحد من عائلة أو أسرة محدودة مثلا عيبا قد لا يراه الآخرون كذلك، أو فيه درجة أخفّ من العيب أو أكثر. وكذلك الآليّات الّتي يكون بها نشوء الألفاظ البديلة في التّلطيف: هل مبدأها المصادفة أو الاجتهاد الفرديّ ثمّ ينتشر ذلك في الاستعمال في مستوى العائلة أو الأسرة فمستوى الجهة أو البلد، إلخ؟

فمن ألفاظ التّلطيف ما يشبه المواضعة الدّاخليّة بين أفراد مجموعة مغلقة لا يفكّ مغالق استعمالها إلاّ من كان على علم باللّفظ المشحون سلبا أو على بيّنة من أمره. ومن لا يعلم اللّفظ الملطِّف الّذي به جرت الاستعاضة عن اللّفظ المشحون سلبا، يقع في الحرج. لذلك نجد من يستعمل كلمة لا يشعر هو فيها بالسّلب ودون أن يعي يسبّب حرجا أو ضيقا عند من يعلم ذلك، وهو أمر يجد له سامعه في نفس الوقت عذرا وقبولا إذا كان ممّن يعلمون أنّها كذلك وأنّ المستعمل يجهل ذلك، يكثر هذا عند الغرباء عن الثّقافة أو الأجانب أو الأطفال الصّغار من المبتدئين في الحياة الاجتماعيّة ولم يكتسبوا بعد آليّاتها الاجتماعيّة الثّقافيّة وإن استوت عندهم آليّاتها النّحويّة ونضجت.

فالمنطلق في التّلطيف تعويض كلمة بأخرى تنشأ له علاقة ترادف بين وحدتين معجميّتين تجريان على التّزامن في الدّلالة على مرجع واحد، ولكن ذلك التّرادف لا يدوم فقد تعوّض الكلمة الملطَّفة الكلمة الملطِّفة وتحلّ محلّها، ثمّ قد يحدث أن تتحوّل هذه الكلمة بدورها إلى محرّمة ويجري تلطيفها بأخرى وهكذا دواليك. فيحدث - كما يقول أولمانّ (1966: 245)- أن يقترن اللّفظ الملطِّف رأسا بالمعنى الملطَّف وقد أريد به إخفاؤه، و"عوض أن يخفي التّلطيف المحرّمَ الّذي أجري من أجله، يصير مقترنا به رأسا". وهذا الأمر محتاج إلى ثبت تاريخيّ موثّق يبين به تسلسل التّعويض المتعاقب في الزّمن بين مختلف الوحدات الدّالّة على المفهوم المحرّم الواحد.

وباعتماد ثنائيّة الوسم[278] وعدمه، يمثّل التّلطيف استعاضة عن كلمة موسومة[279] سلبا بكلمة غير موسومة[280] كذلك: الكلمة الملطِّفة تلغي الشّحنة السّلبيّة المقترنة بالكلمة الملطَّفة أو تحجبها. وهي في الواقع تحجب المحرّم

[278] mark, marking
[279] marked
[280] unmarked

بأن توفّر طريقا "مباحا" للتّعبير عن مفهوم جرى تحريم طريقة التّعبير عنه بالكلمة الملطّفة. فإذا كان التّلطيف إبطالا للأثر السّلبيّ الّذي شحنت به الكلمة الملطّفة أو إلغاء له، أمكن للعمليّة أن تتواصل عن طريق التّناوب والتّكرار في مخطّط دوريّ: ينشأ اللّفظ (أ) ويدور في الاستعمال فيشحن شحنا سلبيّا، تتقدّح له عمليّة التّلطيف فتكون الاستعاضة عنه أو تعويضه باللّفظ (ب)، يدخل دورة الاستعمال فيشحن بدوره شحنا سلبيّا آخر، تتقدّح له عمليّة تلطيف أخرى فتكون الاستعاضة عنه باللّفظ (ج)، وهكذا. وينتهي الأمر إلى أن يتكدّس في اللّغة أو في الاستعمال بفعل التّراكم عدد من الألفاظ النّاشئة بالتّلطيف المتكرّر فتجري على المسمّى الواحد وتتناسى عصورها ومناسباتها، فيتكوّن رصيد من المترادفات المنتظمة في حقل دلاليّ تجري وحداته عند الفرد الواحد في سياقات مختلفة أو عند أفراد المجموعة المتعدّدين في السّياقات نفسها. تمثيل ذلك في الجدول الموالي:

<table dir="rtl">
<tr><td>نشأة</td><td>استعمال</td><td>شحن</td><td>تلطيف</td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td colspan="3" rowspan="3">لفظ (أ)</td><td>تعويض</td><td>استعمال</td><td>شحن</td><td>تلطيف</td><td></td></tr>
<tr><td colspan="3" rowspan="2">لفظ (ب)</td><td>تعويض</td><td>...</td></tr>
<tr><td colspan="2">لفظ (ج)</td></tr>
<tr><td colspan="8">التّرادف = لفظ (أ) + لفظ (ب) + لفظ (ج)...</td></tr>
</table>

ويمكن قياسا على نفس المسار أن نبرّر تعدّد الأسماء في بعض الكائنات من الحيوان من قبيل [الأسد] و[الذّئب] و[الثّعلب] و[الضّبع] وما إليها في الثّقافة العربيّة حيث يجري على هذه الكائنات الاسم العامّ المعروف المتداول والكنية والاسم العلم عليها أو "علم الاسم" من قبيل [أسامة] و[ثعالة] و[سرحان] و[حفصة] أعلاما عليها تباعا. يكون ذلك بافتراض طور طوطميّ كانت فيه هذه الحيوانات مصدر رهبة وخوف فتحظر تسميتها صريحة فيكنّى عنها بأسماء أخرى ثمّ تتوسّي ذلك وتجمّع للواحد منها في المعجم والذّاكرة

أسماء عديدة جارية على أساس التّناوب الحرّ، لا على التّرادف إذ لا يمكن أن تستقيم هذه العلاقة بين الاسم العامّ وعلم الاسم.

إستراتيجيّات التّلطيف وآليّاته

نشير في ما يلي إلى بعض الإستراتيجيّات المعتمدة في التّلطيف عند ذوي اللّغة الواحدة من أحاديّي اللّغة أو عند ذوي اللّغات المتعدّدة في المجتمعات ذات الازدواج اللّغويّ حيث يكون تغيير السّنن[281] كثيرا متداولا، وجميعها غير مخصوص بثقافة ولا بعصر.

التّلطيف بالتّغيير الصّوتيّ

من التّلطيف ما يكون بإحداث تغيّر أو تغيّرات في البنية الصّوتيّة للكلمة الملطّفة. يكون ذلك بتغيير حرف واحد من الكلمة المحرّمة أو النّابية والنّطق بها في شكل آخر، وهي ظاهرة تخضع لقواعد الإبدال الصّوتيّ عامّة، وذلك من قبيل إبدال الزّاي لاما من اسم العضو الذّكريّ في بعض الجهات من الجمهوريّة التّونسيّة، أو إبدال حرف الرّاء من لفظ [ربّ] هاء عند نقل ملفوظ فيه سبّ للجلالة في سياق شهادة أو إخبار.

التّلطيف بالاقتراض المعجميّ

من وسائل التّلطيف الاستعاضة بالكلمة الأجنبيّة بشكل من أشكال الاقتراض أو تغيير السّنن حيث تجري عمليّة التّلطيف الّتي بها يرتفع الحرج بأن يستعاض عن الكلمة المحرّمة في لغة الأمومة -أساسا- بكلمة تعبّر من لغة أجنبيّة عن المعنى نفسه أو تشير إلى المسمّى نفسه. يثبت هذا الأمر أنّ شحن المفاهيم سلبيّا إنّما يكون في لغة الأمومة ويشمل أطوار الطّفولة والاكتساب اللّغويّ بما يصحب جميع ذلك من اكتساب لسلّم قيميّ وما يندرج في مجال المعتقدات والانتظام الاجتماعيّ الدّينيّ ببعديهما المقدّس والأخلاقيّ.

---

[281] code-switching

ويثبت التّلطيف باعتماد كلمات أجنبيّة إستراتيجيّة قوامها المغالطة أو الهروب من الرّقابة الّتي يتضمّنها النّحو أو الملكة عند المتكلّمين كما بيّنا قبيل هذا. والأمثلة في هذا كثيرة هي من قبيل ما يعمد إليه النّاس في تسمية الأعضاء موضوع التّحريم من إجراء أسمائها الأجنبيّة بدل أسمائها الأصليّة في لغتهم.

التّلطيف بالإشارة بالجارحة

من مظاهر التّلطيف أن يستعيض المتكلّم عن التّسمية بالإشارة المحاكية لشكل المسمّى موضوع التّحريم أو الحياء، ولكنّه في الأغلب الأعمّ يكون في حال تعذّر التّسمية لأسباب أخرى يكون فيها بعض الحضور ممّن يُخشى عليه أو منه سماع الاسم أو اللّفظ موضوع التّحريم، فيلجأ المتكلّم إلى استعمال قناة الإشارة البصريّة.

التّلطيف باعتماد العلاقات الدّلاليّة

لعلّ من أشمل الوثائق المنشورة الجامعة لمعطيات مفيدة في دراسة التّلطيف "الباب الثّامن: في أسماء أيور الرّجال" من كتاب الرّوض العاطر للشّيخ النّفزاوي، حيث يورد جملة الأسماء مشفوعة بتبرير التّسمية حيثما كانت التّسمية من الكناية و/أو التّلطيف. فالتّمييز بين الأسماء الأصليّة من أسماء العضو الذّكريّ وما ليس بأصيل فيه ثابت "فأمّا الكمرة والذّكر فهما أصلان في أسمائه" (الرّوض العاطر، الباب الثّامن) والبقيّة أسماء لا يهتمّ صاحبها بكونها من التّلطيف أو من الكناية وإنّما يبرّر جريانها عليه، كما يبين في ما يلي حيث نشير إلى طبيعة العلاقة الّتي يتوسّل بها التّلطيف ونثبت التّبرير كما هو في المصدر سبيلا إلى تبيّن العلاقة بين الاسم والمسمّى:

من ذلك، الكناية بالهيأة حيث تجري التّسمية باعتماد لفظ "أب" عمادا للكنية مضافا إلى صفة هي هيأة للمسمّى منتقلة أو لازمة، أو هي اسم على شيء من لوازمه، فمن الصّفات العابرة [أبو نفخة] و[أبو فشّة] وتبريرها أنّه

"إذا انتفخ قام، وإذا فشّ نام." و[أبو لعابة]، لأنّه "يسيل لعابه في كلا الحالتين، إذا وقف وإذا دخل خصوصا إذا كان ماؤه كثيرا." و[أبو حمامة]، لأنّه "إذا كان نائما يحضن البيض كالحمامة الرّاقدة على بيضها." و[أبو رقبة]، لأنّه "لم يكن ما أطول من رقبته وأوسع جرثومة وأعرض من ظهره."

ومن التّلطيف ما يكون بالكناية عن المسمّى باعتماد الصّوت الّذي يحدثه حقيقة أو تخيّلا، وفي بعض الأحيان يكون ذلك باعتماد المحاكاة الصّوتيّة، من ذلك [الطنّانة]، لأنّه "إذا دخل في الفرج يسمع له طنين في دخوله وخروجه." و[الشّلباق]، لأنّه "إذا دخل في الفرج تسمع له تشليقا كتشليق الغدير".

ومن التّلطيف ما يكون باعتماد سمات جزئيّة أو كلّيّة تكون للعضو أثناء الحركة أو العمل، وترد في صيغة المبالغة [فعّال] في الأغلب الغالب دليلا على كونها من خواصّ العضو في وظيفته الطّبيعيّة أو هي مستوحاة من هيأة عامّة تكون له في جميع ذلك. وإن تتبّعناها عن طريق التّدقيق وجدناها في مجموعها موزّعة على مختلف الأطوار من العمل الجنسيّ من حيث الزّمان والمواضع. فمنها [الحمّاش]، وذلك "لدخوله وخروجه". و[الزدّام]، لأنّه "إذا لقي الفرج يزدم برأسه مفارطا في الدخول شوقا إلى النّكاح." و[العوّام]، لأنّه "إذا دخل إلى الفرج يتفرّغ ويعوم يمينا وشمالا." و[الخيّاط] لأنّه لا يدخل حتّى يخيط فم الفرج ويطبطب." و[الخرّاط] و[الدقّاق] "لأنّه يخرط باب الفرج ثم يدقّ ويقضي منه أربه من غير حيا." و[الدّخّال] و[الخرّاج] و"معناهما معروف". و[الهتّاك] بمعنى "القويّ الشّديد السّفّاك للدّماء." و[الفتّاش] لأنّه "إذا دخل الفرج لا يستقرّ في مكان واحد بل يفتّش في الوسط والتّراكين." و[الحكّاك] لأنّه "لا يدخل حتّى يحكّ باب الفرج، وقيل هو المرخيّ وهو الّذي لا يدخل أبدا بل يحكّ حكّا." و[المطّلع]، لأنّه" يطلع أمور داخل الفرج ويصل

للأماكن الغريبة." و[الهرماق]، لأنه "إذا انتفخ وانتصب يبقى يهرمق برأسه ويرفل في باب الفرج حتّى يصل قعره."

ومن الكناية في التّلطيف ما يكون باعتماد سمة خلقيّة تستعار له من سمات البشر لشبه بينهما فيها، يتجلّى ذلك من تعليل المؤلّف الإمام. ومنها: [الأعور]، "لأنّ عينيه لا تشبه العيون كالحفرة المحفورة." و[القرطاس]، "لأنّ رأسه ليس عليه شعر البتّة." و[أبو عين]، وهو "معلوم"، و[أبو قطاية]، "وهو كثير الشّعر." و[القصيص]، "لأنه إذا قام لا يبالي بأحد ولا يستحي برفع الأثواب على رأسه ويمسكها مسكا فترى صاحبه يأخذه الحياء وهو لا يستحي." و[المستحي] "لقلّة انكشافه." و[الباكي]، وهو معروف. و[النعّاس]، لأنه "إذا قام واشتدّ فيأخذ في حالة الرّجوع فيبقى يتناعس إلى أن ينام." و[الهزّاز] و[اللذّاذ]، "لأنّه يهزّ ويلذّ ولو أصاب دخل البيضتان معه إذا التقى بالفرج فيجب أن يشهدا عليه بالشّجاعة."

ومن باب التّلطيف ما يجري في الخطاب حيث تكون الكناية في مستوى الحكاية على العمل الجنسيّ ويكون ذلك مغلّفا بالهزل، فيختلط في الخطاب إستراتيجيّتان خطابيّتان أولاهما قائمة على اجتناب تسمية المحرّم بلفظه المجعول له بالأصالة (أي التّلطيف)، وثانيهما متّصلة بتوظيف ذلك التّلطيف لإنشاء الطّرافة من مدخل الاستعارة أو من مدخل الإلغاز اللّطيف الّذي يحسن فيه توظيف الكناية المخلوطة بالبلاهة.

فمن نماذج التّلطيف الّذي تصاحبه الاستعارة في الكناية على الأعضاء عند الرّجل والمرأة وعلى حال ضعفه عنده، ما أورده الجاحظ في خبر المرأة والشّيخ: "راودت امرأة شيخا واستهدفت له، وأبطأ عليه الانتشار فلامته، فقال لها: إنّك تفتحين بيتا وأنا أنشر ميتا." (البيان والتّبيين 2: 292). ومن نماذج التّلطيف المشوب بالإلغاز المخلوط بالبلاهة ما أورد الجاحظ في خبر

الأعرابيّ الّذي أشهدوه في إثبات حالة زنا: "أشهدوا أعرابيّا على رجل وامرأة، فقال: رأيته قد تقمّصها يحفزها بمؤخّره ويجذبها بمقدّمه، وخفي عليّ المسلك. وقال آخر: رأيته قد تبطّنها ورأيت خلخالا شائلا وسمعت نفسا عاليا، ولا علم لي بشيء بعد." (البيان والتّبيين 2: 333).

خاتمة

لم نعتن هنا بالشّتم الّذي يكون بلعن بعض الأعضاء من الجسد وخاصّة الأعضاء الأنثويّة من الأمّ أساسا لما لها من منزلة في العلاقات الأسريّة عند الرّجل في الثّقافة الشّرقيّة، أو باليمين أو التّوسّل متعلّقين ببعض أعضاء الجسد من قبيل الرّأس خاصّة وما يقترن به من الحياة (وحياة رأسك)، (برأس والديك!) أو (برأس العزيز عليك!)، (وحياة عينيك!)، إلخ. وهي جميعا متقاربة في المنطلق. فإذا كان التّلطيف منطلقه التّحريم، تحريم النّطق بالمكروه وقد شحن سلبا، يكون المنطلق في إجراء تلك الأعضاء في اليمين والتّوسّل من منطلق مقدّس آخر أو ممّا هو بمثابة المقدّس، يُجتنب الأوّل تحقيقا لسلطة المنع بمراوغتها ويثبت الثّاني وسيلة لتحقيق الغاية بجعل المقدّس ضمانا لتلك الرّغبة. وتخيّرنا أمرا كائنا بين كليهما هو التّلطيف من حيث كان إستراتيجيّة خطابيّة يتحوّل بمقتضاها الإجراء الظّرفيّ إلى ناتج ثابت في المعجم أو في النّحو؛ وبذلك فسّرنا بعض المظاهر الجارية في التّرادف وما إليه، ومن حيث كان مغالطة يجتنب بها صدام الممنوع أو المحرّم ممثّلا في سلطة جمعيّة بأن تستأنف مسالك في التّعبير يستعيض بها النّاس عن المسلك الممنوع. ولا نملك أن نمتنع عن تشبيه هذا الواقع في السّلوك اللّغويّ بما هو معلوم عن سلوك المهرّبين بأنواعهم إذ يجتنبون المرور من الطّريق الّتي تكتشفها السّلطات بمسلك آخر ما يزال مجهولا عندها. ولعلّ أكثر الطّرق في التّلطيف رواجا تلك الّتي تعتمد التّغيير الصّوتي

فالاقتراض المعجميّ أو غيره فالإشارة بالجارحة فالتّوسّل بالعلاقات الدّلاليّة بأنواعها. وهي وجوه قد يكفي الواحد منها الحاجة أو يتظافر قليلها أو كثيرها إن لم يكن ذلك، ويرتبط ذلك بنسبة المنع والتّحريم كائنين من السّلطة الجماعيّة على مرّ الزّمن بتبدّلاته القيميّة وما جرى مجراها.

الفصل الثـالث

الجسد في المعجم: (جسد) و(جسم)

مقدمـة

نخصّص هذا الفصل للنّظر في انتظام الجسد مفهوما معجميًا من حيث كان حقلا معجميًا مترابط العناصر ترابطا نظاميًا في مظهرين صوتيّ ودلاليّ. والمعنيّ بالصّوتيّ المكوّن الحرفيّ (الحروف الأصول) المشترك بين جدول من الجذور، ويناسبه المكوّن الدلاليّ المقترن بتلك الحروف الأصول، ويكون ذلك في إطار ما وسمناه بالمنوال الاحتماليّ في انتظام المعجم العربيّ. وقد تبلور هذا المنوال في مناسبات سابقة عديدة ويكون لنا الإطار المناسب لاعتماده إطارا في طرق المبحث المخصوص بهذا الفصل لسبره من حيث طواعيته النّظريّة وجدواه التّفسيريّة.

ولعلّ أحسن المداخل في هذا المبحث ما كان منها عفويّا قوامه تجميع جملة الأسماء المتقاربة في البنية الصّوتيّة والمنتمية إلى حقل الجسد، وذلك من قبيل: الجسد والجسم والجثمان والجلد والجيد والجماد والجرم، والنّسمة والشّخص والوسامة في الجسم والقسمات في الوجه وما إلى ذلك ممّا له صلة بهذا الحقل. ويمكن ولوج هذا الحقل من زاوية مفهوميّة صرف بالبحث في طبيعة الواحد منها وفي مكوّناته وفي مميّزاته وفي كلّ ما يجعل منه حقلا منتظما بوجه من الوجوه، وهذا باب منفتح على الكثير من المعارف بعضها بيولوجيّ بمعنى تسمية الأعضاء الّتي تكوّن الجسم أو الجسد المعلوم، وبعضها ثقافيّ يهمّ تصوّرات الجسد وأبعادها الرّمزيّة الاجتماعيّة. وبعضها دينيّ يهمّ تصوّر الجسد طبيعة وسلوكا في إطار دينيّ إسلاميّ يهمّ الخلق

النّوع؛ وبعضها فنّيّ يهمّ أبعاد الجسد في أعمال النّحت والتّصوير والرّقص، وبعضها فكريّ فلسفيّ يهمّ رمزيّة الجسد في مستوى الفرد وفي مستوى المعاش والمعاد، وبعضها فقهيّ أو قضائيّ يهمّ حرمة الجسد وحدوده، وبعضها اقتصاديّ يهمّ موقع الجسد في المنظومة التّبادليّة منتجا ومستهلكا؛ إلخ. وهي مداخل لا ننتهجها في هذا العمل خيارا منّا لما فيها من الاتّساع الّذي يخرج بنا عن وجهة هذا الكتاب. ولذلك خيّرنا أن نساهم في دراسة هذا الحقل من موقع اللّغويّ الّذي يحتكم إلى المعطيات اللّغويّة أساسا وإن كان لا يهمل سائرها في جميع أبعادها المادّيّة والرّمزيّة.

نتناول مفهوم الجسد حقلا معجميّا، وفق ما يشير إليه عنوان هذا الباب: الجسد في اللّغة: كيف كان تمثّل الجسد وما حايثه في المعجم العربيّ؟ بمعنى آخر مفهوم الجسد كما تبلور على مرّ العصور وحفظته لنا التّعريفات المعجميّة اللّغويّة. وما من شكّ في أنّ التّداخل كائن بين الأرضيّة اللّغويّة "العفويّة" بمعنى البسيطة الأوّليّة الّتي مثّلت مهدا للمفهوم أي الأحوال اللّغويّة العربيّة القديمة الّتي سبقت أطوار الإسلام والدّولة والاختلاط بسائر الثّقافات حتّى تاريخ اليوم، وما من شكّ في أنّ المعطيات اللّغويّة قد خالطها الكثير من المظاهر العقائديّة من واضعي القواميس أو من نقلة اللّغة، وما من شكّ في أنّ ما نقرأه منها اليوم لا نقرأه بعين كانت في أصل الأشياء، ولكن جميع ذلك لا يمنعنا - على الأقلّ - من أن نسعى إلى تبيّن الخيوط الأولى في نشوء المفاهيم وانتظامها من خلال الرّصيد النّوويّ الّذي حفظه التّاريخ والاستعمال، نعني تبلور مفهوم الجسد. ولهذا يكون التّعويل على المعاجم اللّغويّة مصدرا وحيدا في استقاء المعطيات، وعلى جهاز المنوال الاحتماليّ إطارا نظريّا في تحليل تلك المعطيات. ولذلك نعرض في ما يلي أسس هذا المنوال بإيجاز وتلخيص وتركيز، ثمّ يكون تناول الحقل المفهوميّ المتعلّق بالجسد في ما يلي

ذلك.

المنوال الاحتماليّ في تولد المعجم العربيّ وانتظامه

نعرض في ما يلي المبادئ العاملة عرضا مركّزا في شكل فقرات تحمل أرقاما تسهّل الإحالة عليها في غضون البحث:

المبادئ

1- اللّغة اقتران الصّوت بالمعنى.

2- الصّوت حروف وحركات والمعنى معجميّ ونحويّ: يقترن المعنى المعجميّ بالجذر والمعنى النّحوي بالحركات والحروف جارية في أبنية مقطعيّة تكوّن وحدات تجري في أبنية إعرابيّة.

3- الجذر أحاديّ وثنائيّ وثلاثيّ ورباعيّ وخماسيّ. وليس من المفروض أن يكون الواحد منها توسيعا للآخر ولا سابقا أو لاحقا عليه في الزّمان أو في التّصوّر. وبين الجذور والأبنية الصّيغيّة الّتي تتشكّل فيها تفاعل وتزامن في التّكوّن والانتظام دلالةً وبنيةً. ولا سبق للواحد منهما على الآخر في الزّمان أو في التّصوّر.

4- بنية الجذر بنية مرتّبة المواضع. المواضع مادّة الحروف وترتّب المواضع ذهنيّ مجرّد في اللّغة يأخذ شكلا تتابعيا زمانيا في الكلام.

5- التّرتّب الزّمانيّ يكسب الجذر هويّته الصّوتميّة الدّلاليّة.

6- ينشأ الجذر بالتّوليف بين الحروف توليفا ثنائيًا وثلاثيًا ورباعيًا وخماسيًا.

7- الحروف كائنات للواحد منها موقع في فضاء النّطق.

8- تحدث الحروف والحركات في فضاء النّطق حدوثا انتشاريًا توسّعيًا خلال التّاريخ المديد. انتشار الحروف يوازي تطوّرا في المهارات العصبيّة

النّطقيّة. المهارات العصبيّة النّطقيّة توازي تطوّرا في الملكات الذّهنيّة العرفنيّة في تاريخ الإنسان سعيا إلى الإمساك بالأشياء في العبارة اللّغويّة. يبلغ انتشار الحروف في فضاء النّطق حدّ التّشبّع، وقدره في العربيّة ثمانية وعشرون حرفا.

9- فضاء النّطق استرسل وفضاء الدّلالة استرسال. تشغل الحروف فضاء النّطق على استرسال: فضاء النّطق أحيار والأحياز مخارج تمتدّ على ما بين الحنجرة والشّفتين.

10- تقترن بالتّوليفة الحرفيّة دلالة معجميّة ما اعتباطا.

11- التّوليف بين الحروف احتمالي[282] في الأساس وإن كان يخضع لما بين الأحياز والمخارج والسّمات من تعامل وتفاعل. يشتغل التّوليف وفق مبدإ الثّابت والمتغيّر بالمراوحة بين نوعين من الحروف من حيث القيمة: الثّابت (ث) والمتغيّر (م).

12- الثّابت قيمة حرفيّة قارّة والمتغيّر قيمة متبدّلة تكون واحدة من الحروف الثّمانية والعشرين.

13- للبنية الثّلاثيّة المشتغلة بمبدإ الثّابت والمتغيّر أربعة وجوه متزامنة في الوجود ومتداخلة في الانتظام. عناصر الوجه الواحد ثلاثة من حيث العدد وهي من حيث الطّبيعة إمّا متغيّرات أو ثوابت أو خليط بينهما. بضمّها الوجه الواحد دون ترتيب:

وجه 1:	ثلاثة متغيّرات	(م1، م2، م3)
وجه2:	ثلاثة ثوابت	(ث1، ث2، ث3)
وجه3:	متغيّران وثابت	(م1، م2، ث)
وجه4:	ثابتان ومتغيّر	(ث1، ث2، م).

[282] probabilistic

يتحقّق الوجه الواحد في عدد من الخطاطات للقيم فيها ترتّب موضعيّ.

14 – للوجه الذي يتضمّن ثلاثة متغيّرات خطاطة واحدة: إم1 م2 م3إ. وهي أقصى الخطاطات تجريدا إذ تنطبق على جميع الجذور الثّلاثيّة الممكنة انطباقا رياضيا. فإذا كان للمتغيّر في الخطاطة قيمة أيّ من الحروف العربيّة أنتجت هذه الخطاطة عند اشتغالها كلّ الجذور الثّلاثيّة في العربيّة إنتاجا آليا شكليا لا تحتكم فيه إلى المعنى. فالخطاطة إم1 م2 م3إ هي خطاطة الجذر الثّلاثيّ مطلقا بها ينقاس كلّ عنصر من رصيد الجذور الثّلاثيّة:

الوجه 1	(م1، م2، م3)
الخطاطة	إم1 م2 م3إ
القيم	X X X
الجذور	جميع الجذور الثّلاثيّة في العربيّة.

15- للوجه2 القائم على ثلاثة ثوابت خطاطة واحدة: إث1 ث2 ث3إ. وهي ألصق الخطاطات بالجذر العينيّ من حيث تتحدّد هويّته الصوتميّة الدّلاليّة. فالخطاطة إث1 ث2 ث3إ بقيم حرفيّة محدّدة لا تنتج إلاّ نسخا من الجذر الواحد. يكون ذلك في الاستعمال خلال التّاريخ المديد به يتأصّل الجذر الواحد عنصرا مخصوصا من الرّصيد. فإذا كانت القيم ث1=ك، ث2= ت، ث3=ب، لا تنتج هذه الخطاطة إلاّ الجذر (ك ت ب) في اللّغة في جميع العصور عند جميع المتكلّمين باللّغة العربيّة:

الوجه2	(ث1، ث2، ث3)
الخطاطة	إث1 ث2 ث3إ
القيم	ك ت ب
الجذر	(ك ت ب)

16 – يكون للوجه 3، ثلاث خطاطات وفق ترتّب المتغيّرين والثّابت:

أ- خطاطة إم1 م2 ث| تتضمّن جميع الجذور الثّلاثيّة الّتي تتّفق في قيمة ثابت واردا في الموضع الثّالث من البنية: فإذا كانت قيمة ثـ(ـابت)= ب وكانت قيمة المتغيّرين أيّا من الحروف العربيّة كان لنا جميع الجذور الّتي تتّفق في حرف الباء واردا ثالثا من قبيل (ك ت ب، ر س ب، س ح ب، ع ذ ب...):

الوجه3	(م1، م2، ث)
الخطاطة	إم1 م2 ث|
القيم	x x ب
الجذور	ك ت ب
	ر س ب
	س ح ب
	ع ذ ب...

ب - خطاطة إم اث م2| تتضمّن جميع الجذور الثّلاثيّة الّتي تتّفق في قيمة ثابت واردا في الموضع الثّاني من البنية. فإذا كانت قيمة ث= ر - مثلا- كان لنا ما يلي: (ش ر ب، د ر ك، ق ر س، ك ر ش...):

الوجه3	(م1، م2، ث)
الخطاطة	إم اث م2|
القيم	x ر x
الجذور	ش ر ب
	د ر ك
	ق ر س
	ك ر ش ...

ج- خطاطة إث م1 م2| تتضمّن جميع الجذور الثّلاثيّة الّتي تتّفق في قيمة ثابت واردا في الموضع الأوّل من البنية: إذا كانت قيمة ث= ك كان لنا (ك ت

ب، ك ر ش، ك هــ ر، ك ب ر...):

الوجه3	(م1، م2، ث)
الخطاطة	|ث م1 م2|
القيم	ك X X
الجذور	ك ت ب
	ك ر ش
	ك هــ ر
	ك ب ر ...

تمثّل الخطاطات الثّلاث مفترقة ومجتمعة عند انطباقها شبكة من العلاقات بين الجذور في المظهر الصّوتميّ أساسا قد تناسبها علاقات في المظهر الدّلاليّ. فإذا كانت قيمة ث = ك مثلا تنطبق الواحدة من الخطاطات الثّلاث على كلّ الجذور الّتي يكون واحد من حروفها \|ك\| في الموضع المخصوص بها، وتنطبق جميعا على جميع الجذور الّتي يكون \|ك\| من حروفها، كلاًّ في موضعه.

17- للوجه 4 (ث1، ث2، م) ثلاث خطاطات وفق ترتّب الثّابتين والمتغيّر: الخطاطات المشتغلة بثابتين ومتغيّر هي الخطاطات المولّدة للجذور الثّلاثيّة في المعجم. تولّد الواحدة منها شبكة صغرى – نمثّل لها بجدول – من الجذور تتّفق في قيمة ث1 وقيمة ث2 وعددها ثمانية وعشرون وفق ما يكون للمتغيّر من قيم حرفيّة في اشتغال الخطاطة على استرسال صوتميّ في فضاء النّطق يناسبه استرسال في الدّلالة. اتّفاق عناصر الجدول في قيمة ث1 وقيمة ث2 ضامن لوحدتها الصّوتميّة الدّلاليّة. واختصاص عناصر الجدول، كلاًّ بقيمة مخصوصة من قيم م الثّماني والعشرين (28) ضامن لتمايز الجذور صوتميًا ودلاليًا. تناسب الوحدة الصّوتميّة بين عناصر الجدول وحدة دلاليّة بينها هي

18- التّضعيف تطابق في القيم الحرفيّة في الخطاطات المشتغلة بثابتين ومتغيّر. يكون هذا التّطابق في المنطلق عند تحديد قيمتي الثّابتين أو عند اشتغال الخطاطة في إنتاج جداول الجذور.

التّضعيف ثلاثيّ وثنائيّ: الثّلاثيّ ما تطابقت فيه قيمة الثّالوث (الثّابتين والمتغيّر). والثّنائيّ ما تطابق فيه اثنان من الثّالوث في القيمة.

والثّنائيّ نوعان: متّصل ومنفصل: المتّصل ما تطابق فيه العنصران المتجاوران (الأوّل والثّاني أو الثّاني والثّالث) في القيمة في المنطلق أو في اشتغال الخطاطة. والمنفصل ما تطابقت فيه قيمتا العنصرين الأوّل والثّالث من الثّالوث في المنطلق أو في اشتغال الخطاطة.

والتّضعيف مقبول وممتنع: من التّضعيف الثّنائيّ يقبل ما طابقت فيه قيمة ث2 قيمة م (ث2 = م) في جميع الوجوه ومن أمثلته المضاعف المعلوم (م د د، هـ ز ز....) أمّا ما طابقت فيه م قيمة ث1 (ث1 = م) فبعضه مقبول وبعضه ممتنع وفق قيود على الموضع. ويمتنع التّضعيف الثّلاثيّ مطلقا.

19- الجذر الجامع هجين صوتا ودلالة:

تتقاطع الجداول الثّلاثة -حتما - في شكل صوتميّ جامع نطلق عليه (الجذر الجامع[284]) بأن تنتج الخطاطة الواحدة نسخة من ذلك الجذر الجامع وفقا لقيم العناصر فيها. فيحدث بذلك تطابق بين النّسخ الثّلاث في الشّكل الصّوتميّ يناسبه تراكب في الدّلالة. وهذا ما يحدث الاشتراك. فكلّ جذر ثلاثيّ في العربيّة – نظريّا- موطن تقاطع وموطن اشتراك. يترابط رصيد الجذور في العربيّة بكامله بتوسّط هذا التّقاطع[285].

---

[284] Archiracine, Archiroot

[285] انظر تحليل ذلك في ما يأتي من هذا العمل، وللمزيد من التفصيل الزّنّاد 1998، 2003 ، 2005

20- تنتظم دلالات الجذر الجامع سلّميّة على درجات وفق التّواتر النّسبيّ للدّلالة الواحدة في الشّبكة الاشتقاقيّة: الدّلالات الرّئيسيّة هي ما كان ذا تواتر عالٍ في الصّيغ الفعليّة والاسميّة بأنواعها، والدّلالات الثّانويّة ما كان على خلاف ذلك. فإذا أخذنا مثلا الجذر الجامع (ن ج ر) وجدنا له في القاموس عددا من المعاني تتوزّعها سلّميّة في التّواتر من حيث عدد الصّيغ الفعليّة (مجرّدة ومزيدة) والصّيغ الاسميّة المتّصلة بها. فما كان منها رئيسيّا تواتر في عدد كبير من الصّيغ لكثرة استعماله وما كان منها ثانويّا تقلّص عدد الصّيغ المقترنة به. فدلالة العطش المقترن بالحرّ ودلالة نحت الخشب ودلالة السّوق أو الدّفع المقترنة بالسّرعة، جميعها ذو تواتر عالٍ من حيث الصّيغ فهي رئيسيّة. أمّا دلالة الأصل والحسب ودلالة القصد ودلالة اللّون وغيرها فجميعها ذو تواتر محدود يقترن بعدد محدود من الصّيغ بل بصيغة واحدة أحيانا. فهي دلالات ثانويّة في هذا الجذر الجامع.

21- توافق درجات هذه السّلّميّة مستويات التّقاطع الحادث بين الجداول: التّقاطع الرّئيسيّ يحدث التّراكبَ في مستوى الدّلالات الرّئيسيّة والتّقاطع الثّانويّ يحدثه في مستوى الدّلالات الثّانويّة.

22- تترابط الجذور في الجدول الواحد صوتميّا ودلاليّا في آن. الرّابط الصّوتميّ اتّفاقها في قيم ث1 وث2 والرّابط الدّلاليّ في انتماء دلالتها إلى مجال واحد. المجال جملة المفاهيم المترابطة المنسجم بعضها مع بعض تكوّن مجتمعة وحدة مفهوميّة ما تتقاسمها الجذور واحدا واحدا من الجدول على استرسال.

23- الوجوه الأربعة الّتي تكون للبنية الثّلاثيّة المشتغلة وفق مبدإ الثّابت والمتغيّر قسمان: إنتاج وتصنيف. الإنتاج توليد قوامه صلة صوتميّة دلاليّة والتّصنيف تنضيد قوامه صلة صوتميّة ليس غير. يمثّل الوجهان 2 و4 البنى المنتِجة ويمثّل الوجهان 1 و3 البنى المصنِّفة.

24- البنى المنتجة هي التّي تولّد الجذر في أصل الوضع فيتكوّن بها رصيد الجذور في التّاريخ أو تنشئ نسخة من ذلك الجذر في الكلام مقترنا بالاستعمال الفرديّ المتكرّر. فالبنية المشتغلة بثابتين ومتغيّر تنتج رصيد العربيّة من الجذور في شكل جداول تترابط عناصرها صوتا ودلالة على استرسال. فهذا إنتاج في مستوى اللّغة خلال التّاريخ. والبنية المشتغلة بثلاثة ثوابت تنتج نسخا لا نهائيّة من الجذر الواحد الذي أنتجته البنية المشتغلة بثابتين ومتغيّر في اللّغة خلال التّاريخ. مجال هذه النّسخ اللاّنهائيّة هو الاستعمال الفرديّ الآنيّ في الكلام.

25- البنى المصنّفة هي التّي بها يكون تنضيد الجذور في اللّغة وفي الكلام. يكون ذلك بإقامة شبكة من العلاقات بين عناصر الرّصيد المعجميّ في مظهرين بنيويّ صرف وصوتيّ صرف. البنيويّ الصّرف تنهض به البنية المشتغلة بثلاثة متغيّرات والصّوتيّ الصّرف تنهض به البنية المشتغلة بمتغيّرين وثابت.

26- البنية المشتغلة بثلاثة متغيّرات بنية تعمّ جميع الجذور دون استثناء. هي البنية الثّلاثيّة مطلقا. موقعها في الرّصيد هو موقع البنية الأمّ تتحكّم في توليد العناصر من الرّصيد وفي استعمال هذه العناصر من مدخل تصنيفيّ بنيويّ ليس غير.

27- البنية المشتغلة بثابت ومتغيّرين بنية تصنيفيّة من زاوية صوتيّة دون دلالة. هي البنية التّي تحدث شبكة العلاقات الصّوتيّة بين عناصر الرّصيد. تكوّن هذه العلاقات موردا لعدد من الظّواهر في الكلام - نثرا وشعرا- كالتّقفية والسّجع والجناس ولعب الكلام والأحاجي والألغاز والكلمات المتقاطعة والسكرابل، إلخ. وتمثّل مداخل صناعيّة مؤسّسيّة (صناعة المعاجم والموسوعات إلخ) في تبويب المادّة على أساس صوتيّ هجائيّ.

إذا تصوّرنا المعجم عبر التّاريخ لا المعجم الآنيّ الذّي يمثّل ترسّبات الحركة التّاريخيّة، إذا تصوّرناه آليّة تشتغل على إنتاج الجذور من جملة ما تنتج يكون تمثيله من حيث آليّاته ومكوّناته كما يلي:

البنية المشتغلة بثلاثة متغيّرات هي البنية الأمّ من حيث كانت بنية ثلاثيّة المواضع تمثّل منطلقا وأساسا لجميع البنى.

تأخذ هذه البنية الأمّ شكل البنية الثّلاثيّة المشتغلة بثابتين ومتغيّر، هذه التّي تنتج الجداول المختلفة من الجذور بآليّاتها من حيث قيم الثّابتين وقيم المتغيّر في الاسترسال الصّوتيّ والدّلاليّ المولّد لجميع الجذور في المعجم. فالبنية الثّلاثيّة المشتغلة بثابتين ومتغيّر تمثّل قلب الآلية المشتغلة.

وإذا كانت هذه البنية قلب النّظام المولّد للجذور تقاسمتها البنى الثّلاث المتبقّية من حيث تنطلق الواحدة منها وتختصّ بمكوّن واحد ممّا اجتمع فيها:

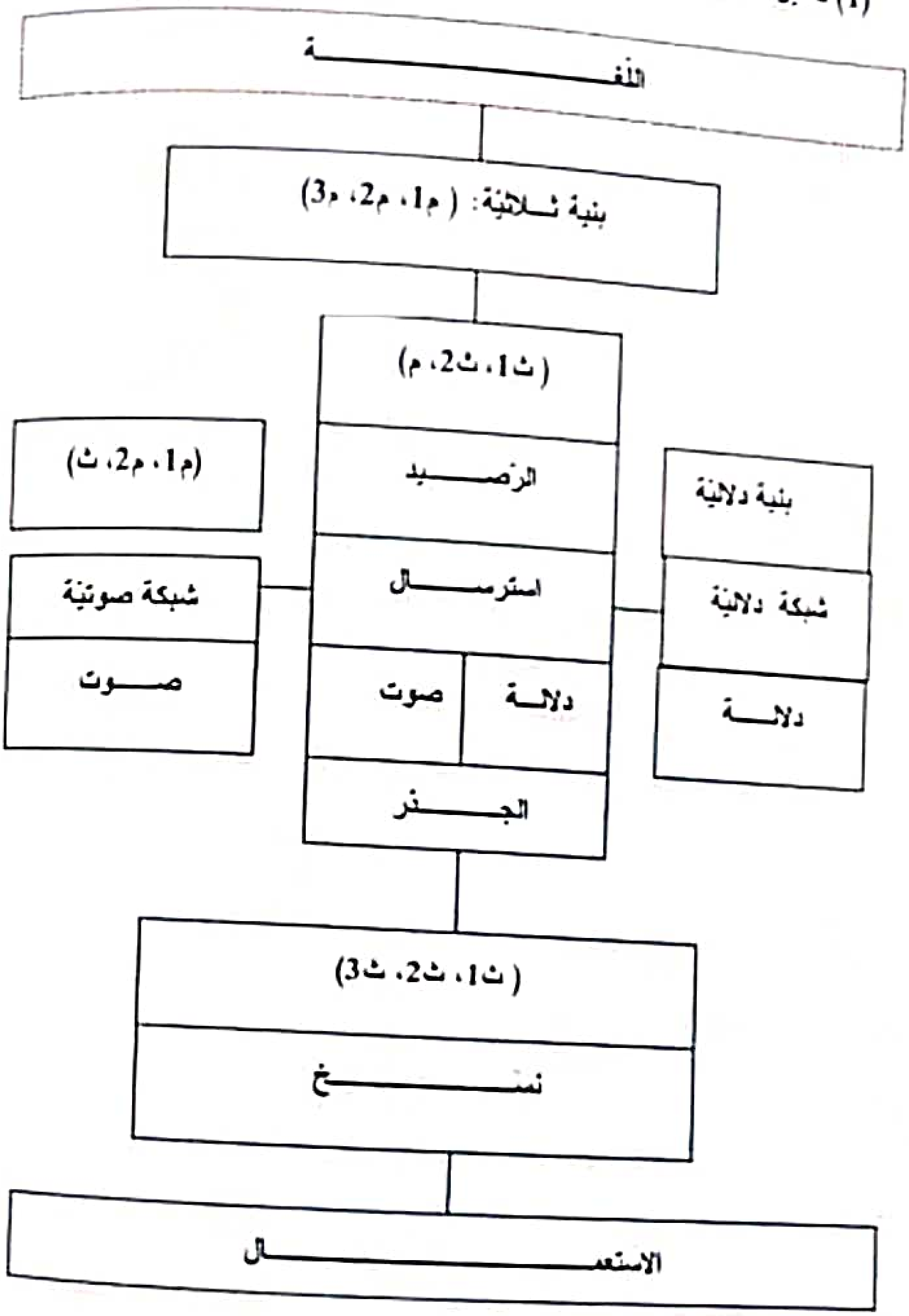
يجتمع في الرّصيد مظهران صوتيّ ودلاليّ، تختصّ البنية المشتغلة بثابت ومتغيّرين بالمظهر الصّوتيّ الحرفيّ دون غيره لتنشأ بها شبكة العلاقات الصّوتيّة بين الجذور المختلفة. وإزاء هذه البنية تشتغل البنية الدّلاليّة بمداخلها لتنشأ شبكة العلاقات الدّلاليّة بين عناصر الرّصيد المعجميّ من الجذور.

وإزاء البنيتين المختصّة بالصّوت وتلك المختصّة بالدّلالة، المتّصلتين بالبنية الممثّلة لقلب النّظام، تقع البنية المشتغلة بثلاثة ثوابت، والتّي تحكم إنتاج النّسخ اللاّنهائيّة من الجذور واحدا واحدا، جارية في الكلام بتعدّد المتكلّمين اللاّمتناهي.

وتنغلق الدّورة المكرّرة للجذر الواحد بإحداث نسخه في الاستعمال لنعود إلى البنية الأمّ المجرّدة، وهي البنية المشتغلة بثلاثة متغيّرات. نجمل جميع ذلك

في التّمثيل (1).

(1) تمثيل الأساس في المعجم العربيّ



في انتظام الحقل: جسد/جسم

يمكن الانطلاق من تساؤلين اثنين مترابطين: كيف ينتظم حقل الجسد في المعجم؟ ومن جملة القضايا فيه، ما العلاقة بين (جسد) و(جسم) من جهة، وكيف نفسّر الاشتراك الدّلاليّ الكائن في المدخلين المعجميّين المترابطين: جسد وجسم؟ وكيف يجتمع عدد من الجذور المشتركة في المكوّن الحرفيّ في هذا الحقل من قبيل (جلد) و(نسمة) و(جرم) وما إليها؟ وفي ما يلي محاولة في ذينك التّساؤلين.

فالجسد، عند ابن فارس (مقاييس اللّغة)، أصل يتكوّن من الجيم والسّين والدال "يدلُّ على تجمُّع الشّيء واشتداده"، وكذلك الجسم أصل يتكوّن من "الجيم والسّين والميم يدلُّ على تجمُّع الشّيء. فالجسم كلُّ شخص مُدرَك." وإذا كان ذلك، أمكن العود بمختلف المعاني المقترنة بكليهما، كلاّ على حدة، ومجتمعَين في ما يتّفقان فيه؛ إلى مفهوم جامع هو "التّجمّع" مشتركا بين الأصلين: [جسد] و[جسم]، والاشتداد يختصّ به الأصل [جسد]. ولكنّ سائر المعاني الّتي تثبتها القواميس في مختلف الاستعمالات لا يمكن فيها ذلك.

يثبت المنوال الاحتماليّ أنّ كلّ جذر في العربيّة جذر جامع بمعنى يمثّل تقاطعا لثلاثة جداول تتولّد في الواحد منها نسخة منه تقترن بشحنة دلاليّة منتمية إلى مجال الجدول المعنيّ. فيكون الأمر في الجذرين الجامعين [جسد] و[جسم] كما يلي:

الخطاطة	م ث1 ث2	ث1م ث2	ث1ث2 م	ث1 م ث2	م ث1 ث2
القيم	X س د	ج X د	ج س X	ج X م	X س م
[جسد]	جسد3	جسد 2	جسد 1		
[جسم]			جسم1	جسم 2	جسم 3

وتكون الجداول كما يلي حيث نثبت المستعمل والمهمل كليهما لمجرّد الاستقصاء والبيان:

م ث1 ث2	ث1م ث2	ث1 ث2 م	ث1 م ث2	م ث1 ث2
x س د	ج x د	ج س x	ج x م	x س م
ب س د	ج ب د	ج س ب	ج ب م	ب س م
م س د	ج م د	ج س م1	ج م م	م س م
و س د	ج و د	ج س و	ج و م	و س م
ف س د	ج ف د	ج س ف	ج ف م	ف س م
ث س د	ج ث د	ج س ث	ج ث م	ث س م
ذ س د	ج ذ د	ج س ذ	ج ذ م	ذ س م
ظ س د	ج ظ د	ج س ظ	ج ظ م	ظ س م
ت س د	ج ت د	ج س ت	ج ت م	ت س م
د س د	ج د د	ج س د1	ج د م	د س م
ط س د	ج ط د	ج س ط	ج ط م	ط س م
س س د	ج س د2	ج س س	ج س م2	س س م
ز س د	ج ز د	ج س ز	ج ز م	ز س م
ص س د	ج ص د	ج س ص	ج ص م	ص س م
ن س د	ج ن د	ج س ن	ج ن م	ن س م
ر س د	ج ر د	ج س ر	ج ر م	ر س م
ل س د	ج ل د	ج س ل	ج ل م	ل س م
ض س د	ج ض د	ج س ض	ج ض م	ض س م
ش س د	ج ش د	ج س ش	ج ش م	ش س م
ي س د	ج ي د	ج س ي	ج ي م	ي س م
ج س د3	ج ج د	ج س ج	ج ج م	ج س م3
ق س د	ج ق د	ج س ق	ج ق م	ق س م
ك س د	ج ك د	ج س ك	ج ك م	ك س م
خ س د	ج خ د	ج س خ	ج خ م	خ س م
غ س د	ج غ د	ج س غ	ج غ م	غ س م
ح س د	ج ح د	ج س ح	ج ح م	ح س م

ع س د	ج ع د	ج س ع	ج ع م	ع س م
هـ س د	ج هـ د	ج س هـ	ج هـ م	هـ س م
أ س د	ج أ د	ج س أ	ج أ م	أ س م

ويثبت المعجم العربيّ في مدخل (جسد) جملة من المعاني هي: [البدن]، و[اليبس] و[الجماد]، و[اللّصوق بالشّيء]. ويثبت كذلك في مدخل (جسم) جملة من المعاني تعود إلى [البدن]، و[العظمة والكبر]، و[الخيار والقصد]، نثبتها مجملة في الجدول التّالي، حيث يبين انتماء (جسم) و(جسد) في نسخة من الواحد منهما في الجدول (جسم1، جسد1)، ولذلك كانا حاملين لنفس المعنى إجمالا وبينهما فوارق كما نبيّن في إبانه بعد هذا:

الخطاطة	م ث1 ث2	ث1 م ث2	ث1 ث2 م	ث1 م ث2	م ث1 ث2
القيم	X س د	ج X د	ج س X	ج X م	X س م
[جسد]	جسد3	جسد 2	جسد 1		
[جسم]			جسم1	جسم 2	جسم 3
المعاني	اللّصوق بالشّيء	اليبوسة	البدن	العظمة والكبر	الخيار والقصد

الجذر الجامع [ج س د]

يقترن بالجذر الجامع [ج س د] ثالوث من الشّحنات الدّلاليّة، هي كما يلي:

شحنة البدن: ورد في اللّسان: "الجسد: جسم الإنسان ولا يقال لغيره من الأجسام المغتذية، ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض. والجسد البدن، تقول منه: تَجَسَّد، كما تقول من الجسم: تجسّم. ابن سيده: وقد يقال للملائكة والجنّ جسد؛ غيره: وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجنّ مما يعقل، فهو جسد. وقال أبو إسحق في تفسير الآية: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط. قال: وهذا يدلّ على أن ذوي الأجساد يأكلون الطّعام، وأن الملائكة روحانيّون لا يأكلون الطعام

وليسوا جسداً، فإن ذوي الأجساد يأكلون الطعام."

فالجسد على هذا هو الجسم أو البدن أو الجثّة مطلقا. هو تسمية على الجسم في بعده الماديّ الصرف ويجري على الكائن المغتذي مطلقا فيشمل الحيوان والإنسان، وقد يختصّ به جسم الإنسان دون غيره من الكائنات. ويجري كذلك على غير الإنسان من الكائنات الرّوحانيّة في بعض التّفاسير القرآنيّة. فالجسد: جسم أو بدن مغتذ، يجري على الإنسان والحيوان، وهو الشّيء (الجثّة) يطلق على الكائنات الحسّيّة والمجرّدة فيشمل الإنسان والحيوان والملائكة والأشياء.

شحنة اليبوسة: جاء في اللّسان: الجاسد من كل شيء: ما اشتدّ ويبس. والجسد والجسِد والجاسِدُ والجَسِيد: الدّم اليابس، وقد جَسِدَ."

شحنة اللّصوق بالشّيء: جاء في اللّسان: "والمِجْسَد: الثّوب الذي يلي جسد المرأة فتعرق فيه. ابن الأعرابيّ: المَجاسد جمع المجسد، بكسر الميم، وهو القميص الذي يلي البدن. الفرّاء: المِجْسَدُ والمُجْسَد واحد، وأصله الضمّ لأنه من أُجسِدَ أي أُلزِق بالجسد."

ويلتحق بهذه الشّحنة ما تتداوله القواميس من دلالة جسد على الزّعفران وعلى الصّبغ المشبع. فما يصبغ من الألوان إنّما هو لصيق بتلافيف المصبوغ وأليافه.

وفي ما يلي عرض للجداول الثّلاثة المنتجة للنّسخ الثّلاث من الجذر الجامع [ج س د] كلاً بعناصره ودلالته المندرجة في المجال المسيطر على الجدول:

جسد 1: البدن

جدول (ج س x): البدن	
ج س x	الصيغة و الدلالة
ج س م ا	"الجسم: جماعة البدن أو الأعضاء من الناس والإبل والدواب ونحوهم من الأنواع العظيمة الخلق؛ الجسم: البدن، الجسد، ما له طول وعرض وعمق؛ الجسم؛ فالجسم كلُ شخص مُدْرَك؛ الجُسام والجسمان: الشخص. في المقاييس: الجيم والسين والميم يدلُ على تجمّع الشيء، والجسمان: جماعة الجسم، جسْمُ الرجل، جُسمانُ الرجل وجُثمانه واحد. الجسم الجسد.
ج س و	بمعنى جسا.
ج س د ا	الجسد: جسم الإنسان ولا يقال لغيره من الأجسام المغتذية، ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض. والجسد البدن،
ج س س	جواسّ (جاسّة): جواس (جاسّة)
ج س ر	الجسْر: الطويل الضخم (من الرجال)، العظيم (من الإبل)
ج س ع	جسع عن العطاء: أمسك، الجاسع من البقر: الجميد
ج س أ	جسأت اليد من العمل: صلبت؛ الجسيء: الجلد الصلب، الماء الجامد؛

جسد 2: اليبوسة

جدول (ج x د): اليبوسة	
الجذر	الصيغة و الدلالة
ج ب د	تنصُ جميع القواميس على أنه مقلوب من (جذب): ويقال للناقة إذا قلَّ لبنُها: قد جذبَتْ، فهي جاذب، والجمع جوانب وجذابٌ أيضاً. الجذْبُ: انقطاع الريق.
ج م د	جمد الماء: قام وتماسكت أجزاؤه فصار جليداً؛ جمد الدم: تيبّس؛
	الجماد: الأرض، ما لا ينمو ولا حياة له كالحجر .
ج و د	جود الرَّجل: عطش، أشرف على الهلاك؛ الجُواد: العطش وشدته
ج د د	جدّ جدداً الثدي أو الضرع أو الناقة: يبس؛ سنة جدّاء: سنة محلة؛ الجدد: الأرض الغليظة المستوية
جسد2	الجسد، الجسيد: الدم إذا يبس، اليابس.
ج ن د	الجند: الأرض الغليظة.
ج ر د	جرد العود (الجراد): قشره؛ جرد القحط الأرض: صيّرها جرداء (لا نبات فيها)؛

	انجرد الثوب(أجرد وجرد): انسحق وبلي (ثوب خلق، بال)
ج ل د	الجليد: ما يجمد على الأرض من الماء؛ جلُد، جلادة الرّجل: كان ذا صلابة وجلادة وشدّة وقوّة. الجلد: غشاء جسد الحيوان، أجلاد الإنسان وتجاليده: جسمه وأعضاؤه
ج ي د	الجيد: العنق؛ جاد، جيد، يجاد جيدًا طال وحسن عنقه.
ج ح د	عام جحد: عام قليل المطر. جحدت الأرض: يبست وخلت من الخير
ج ع د	جعد الشعر: ضد سبط والمسترسل؛ تجعّد: تقبّض
ج ه د	الجهد: الأرض الصلبة لا نبات فيها.

جسد 3: اللّصوق بالشيء

جدول (ج س د): اللصوق بالشيء	
الجذر	الصيغة والدلالة
مسد	- مسد الحبل: فتله وأجاد فتله - مسد البطن: كان لينًا مستويًا؛ الممسد: القوام؛ ساق ممسداء: مستوية حسنة؛ الممسود: رجل مجدول الخلق. -التمسيد: إمرار الكفّ بشدة على الجسم تليينًا للعضلات أو إزالة للدهن المتجمع فيه.
وسد	وسّد الوسادة: جعلها تحت رأسه أوسد الكلب بالصيد: أغراه به
جسد 3	جسد الدم به: لصق؛ المجسد: القميص الذي يلي البدن.
كسد	كسد: لا ينفق لقلة الرّغبات فيه؛ انكسدت الغنم إلى الغنم: رجعت إليها.
حسد	حسده نعمته/ عليها: تمنّى زوال نعمته وتحولّها إليه
عسد	عسد الحبل: فتله فتلا شديدا
لسد	لسد الكلب بالصيد: أغراه به لسد بين القوم: أفسد

الجذر الجامع [ج س م]

شحنة البدن: ورد في اللّسان ما يلي: "الجسم: جماعة البَدَن أو الأعضاء من الناس والإبل والدواب وغيرهم من الأنواع العظيمة الخَلْق؟ والجسمان جماعة الجسم. والجُسْمانُ جسْمُ الرجل، جُسمانُ الرجلِ وجُثْمانه واحد. الجسم الجسد، وكذلك الجُسمان والجُثمانُ الشخص. وتجسّمَ: من الجسم. وقد جَسُمَ الشيءُ أي عَظُمَ، فهو جَسيمٌ وجُسام، بالضم. والجُسام،

بالكسر: جمع جسيم. وجَسُمَ الرجلُ وغيره يَجْسُمُ جسامةً، فهو جسيمٌ، والأنثى من كل ذلك بالهاء".

فيكون الجذر [ج س م] مقترنا بمفهوم الجسم: جماعة البدن من الكائنات الحيّة العظيمة الخلق. ومرادفاته (جثمان وجسد).

شحنة الفصل: تجسَّمْتُ فلاناً من بين القوم أي اخترته كأنك قصدت جِسْمَه، كما تقول تأيَّيْتُه أي قصدت آيته وشخصه. وتجسَّمْتُ الرمل والجبل أي ركبت أعظمه. والجسيمُ: ما ارتفع من الأرض وعلاه الماء. فيكون الجذر [ج س م] مقترنا بمفهوم العظمة والكبر، يجري على كلّ ما ضخم حجمه أو ارتفع من الحيوان والأشياء ومن المجرّدات.

شحنة القصد والاتّجاه: جاء في اللّسان وتَجَسَّمْتُ الأرضَ إذا أخذتَ نحوَها تريدها؛ والتَّجَسُّمُ ركوب أجْسم الأمر ومُعْظمه. قال أبو تراب: سمعت أبا محجن وغيره يقول: تَجَسَّمْتُ الأمر وتجشَّمْتُهُ إذا حملْت نفسك عليه.

بيان المسالك في تولّد ما مضى من الشّحنات تولّدا مجملا فمفصّلا في ما يلي:

الجذر الجامع [ج س م]		
ث1ث2 م	ث1 م ث2	م ث1 ث2
ج س X	ج X م	X س م
جسم1	جسم 2	جسم 3
البدن	الفصل	الخيار والقصد
البدن	القطع والفصل	الوسم

(انظر جدول جسد 1 قبل هذا).

جسم 1: البدن

جسم 2: القطع والفصل

تندرج شحنة (الفصل) المقترنة بجسم 2 في مجال (القطع والفصل) المسيطر على الجدول:

جدول (ج x م): القطع والفصل	
الجذر	الصيغة والدلالة
جذم	أجذم العنب: قطع كلّ ما فوق الأرض من أغصانه؛ (لسان العرب)
جوم	جام، يجوم، جوما: طلب شيئا خيرا أو شرا.
جثم	جثم الزرع: ارتفع عن الأرض واستقلّ نباته؛ الجثمان: الجسم، الشخص.
جذم	- جذم الشيء: قطعه سريعا؛
جذم	- جذمه فانجذم: قطعه فانقطع
جشم2	تجشم في علي كذا: تهوّر؛ وتجشّمها ناقةً من الإبل فانحرْها أي اخترْها؛
جزم	- جزم: قطع، كسر، شقّ، - قطع، في الأمر: قطع فيه قطعا لا عودة فيه، عزم.
جرم	الجرم: القطع؛ الجرم (أجرام، جروم): أحد الأجرام السماوية (النجوم)؛ الجِرم: الجسم من الحيوان وغيره؛ والجرمُ ألواح الجسد وجثمانه والجسدُ جرمٌ، لأنّ لـه قدْرا وتقطيعا؛ حولٌ مجرّمٌ: تامٌّ. وسنة مُجرّمة: تامّة، قال الأزهري: وهذا كله من القطع كأنّ السنة لما مضت صارت مقطوعة من السنة المستقبلة.
جلم	- جلم، اجتلم: قطعه، الصوف: جزّه؛ جلم الجزور: أخذ ما على عظامها من اللحم؛ الجلمة، الجلمة: جميع الشيء؛ جلمة الجزور: لحمها أجمع.
جشم	الجشم، الجشم: الثقل، الأمر الثقيل؛ ألقى عليّ جشمه: ألقى عليّ ثقله؛ الجشم من البعير: صدره؛ الجشم، الجشيم: الغليظ الثقيل.
جحم	أجحم عنه: كفّ كأجخم
جعم	- جعمه جعما: وضع في فيه ما يمنعه من العضّ والأكل. -اجعم الشيء: استأصله، الشجرَ: أكله ورقه إلى أصوله.
جهم	الجهم والجهيم من الوجوه: الغليظ المجتمع في سماجة، وقد جهم جهومة وجهامة؛ جهمه بجهمه: استقبله بوجه كريه.

جسم 3: تتدرج شحنة (القصد والاتّجاه) في مجال (الوسم والفصل) المسيطر على الجدول التّالي:

جدول (٨ س م): الوسم والفصل	
الجذر	الصيغة والدّلالة
بسم	بسم: إذا فتح شفتيه كالمكاشر ؛ الابتسام: إبداء مقدّم الفم لمسرّة؛ وهو دون الضّحك.
وسم	- وسَم: كواه وأثّر فيه بسمة أو كيّ، جعل له علامة يعرف بها - وسُم الغلام: حسُن وجهه؛ توسّم الشّيء: تعرّفه
دسم	- لسم الأثر: طمس وامّحى؛ النّسَم: الطّرف ومنتهى الشّيء
طسم	طسَم الشّيء والطّريق وطمس يطسُمُ طُسُوماً: درس، انطمس والطّسمُ: الظّلامُ، والغسم والطّسمُ عند الإمساء، الطّامسة أي موقّنٌ أرضٌ طامسة تحوجُ إلى التّفتيش والتّوسّم.
نسم	- نسم البعير الأرض: ضربها بخفّه وأثّر فيها؛ النّسم، النّيسم: الطّريق الدّارس؛ المنسم (ج مناسم): طرف خفّ البعير والنّعامة، العلامة، الطّريق، المذهب والوجهة؛ المطالع والمَنسِمُ: المذهب والوجة منه. يقال: أين منسمك أي أين مذهبك ومتوجّهك. ومن أين منسِمك أي من أين وجهتك.
رسم	- رسم المطر الدّيار: عفّاها ولقّى أثرها لاحقا بالأرض؛ ترسّم الشّيء: تذكّره؛ رسم رسما: كتب وخطّ؛ الرّسم، رسوم: تمثيل الشّيء.
لسم	- لسم لسما: ذاق؛ لسم: سكت حياء أو عيّا؛ استلسم الشّيء: طلبه
جسم3	- تجشّمتُ فلاناً من بين القوم أي اخترته كأنّك قصدت جسْمه، كما تقول تأيّيته أي قصدت أيّته وشخصه، وتجشّمتُ الرمل والجبل أي ركبت أعظمه. وتجشّمتُ الأرض إذا أخذت نحوها تريدها؛
قسم	- القسامُ: الجمال والحُسن وفلان قسيمُ الوجه ومقسّم الوجه؛ القسمةُ: الحُسن، الوجه؛ قسمةُ الوجه ما خرج من الشعر. وقيل: الأنفُ وناحيتاه، وقيل: وسطه، وقيل: أعلى الوجنة، وقيل: ما بين الوجنتين والأنف، وقيل: القسمة أعالي الوجه، وقيل: القسمات مجاري الدموع، والوجوه.
كسم	كسم، الكسم: فتُك الشّيء بيدك ولا يكون إلا من شيء يابس، الكسم: البقيّة تبقى في يدك من الشّيء اليابس.
غسم	- غسم اللّيل: أظلم (مثل الغسق). والطّسمُ: الظّلامُ، والغسمُ والطّسمُ عند الإمساء؛ الغسَم: اختلاط الظّلمة، السّواد، الظّلمة، الغبرة؛ الغسمة، الأغسام: القطع من السّحاب في السّماء.

	حسمة الشيء: منعه إياه
حسم	-حسم (الأمر، الداء): قطعه مستأصلا إياه؛
عسم	- العسمة: كسر الخبز اليابس؛ العسَمُ: يَبَسٌ في المرفق والرُسغ تعوجّ منه اليدُ والقدم؛ انتشار رُسغ اليد من الإنسان، وعَسَمَتْ عينه تعسِمُ: ذرفَتْ، وقيل: انطبقت أجفانُها بعضُها على بعض؛ والاعتِسَام: أن يأخذَ النعْلَ أو الخُفَّ الخَلَقَ ويَلْبَسَهُ، ويعبرُ حَسَنُ الأعْسَام، أي: الجسم والخلقة.
هسم	- يهسم الهسم مثل الهشم: كسر؛ الأزهري عن ابن الأعرابي: الهُسُم الكاوُون. قال أبو منصور: كأنّ الأصلَ الحُسُم، وهم الذين يتابعون الكيَّ مرة بعد أخرى، ثم قلبت الحاء هاء (لسان العرب)
أسم	- انظر في س م و؛ سَماوةُ كل شيء: شخصه.

بعد أن تبيّنّا مختلف الموارد في المعاني الأصليّة في كلّ من [جسم] و[جسد] يمكن توسيع الفحص ليشمل بعض المفاهيم المنتمية إلى نفس الحقل المفهوميّ مقترنة بالجذور التّالية: الجثّة والجثمان، الجلد، النّسمة.

فأمّا في شأن [الجثّة] و[الجثمان]، فقد ورد في اللّسان: "والجثّة شخص الإنسان، قاعداً أو نائماً؛ وقيل جُثّةُ الإنسان شخصُه، مُتّكِئاً أو مُضطجعاً؛ وقيل: لا يقال له جثّة، إلاّ أن يكون قاعداً أو نائماً، فأما القائم فلا يقال جُثّته، إنما يقال قِمّتُه؛ وقيل: لا يقال جُثّةٌ إلاّ أن يكون على سرْج أو رَحْل مُعْتَمًا، حكاه ابن دريد عن أبي الخطاب الأخفش؛ قال: وهذا شيء لم يسمع من غيره". وأمّا في شأن [الجلد]، فقد ورد في اللّسان: "الجلد: غشاء جسد الحيوان، أجلاد الإنسان وتجاليده: جسمه وأعضاؤه"، وأورد ابن قتيبة (أدب الكاتب: 144) أنّ "ظاهر جلد الإنسان من رأسه وسائر جسده البشْرة، وباطنه الأدَمة، والعرب تقول: فلان مؤدَم مبشَر أي قد جمع لين الأدَمة وخشونة البشْرة. وشخص الإنسان إذا كان قاعدا أو نائما "جثّة" فإذا كان قائما فهو "قامة". وأمّا في [النّسَم] و[النّسَمَة]، فقد ورد في اللّسان: "النّسَم والنّسَمَة نفَسُ الروح. وما بها نَسَمَة أي نفَس. يقال: ما بها ذو نَسَم أي ذو رُوح؛ والجمع نَسَم، والنّسيمُ ابتداءُ كلِّ ريحٍ قبل أن تَقْوى؛ والنّسَمةُ الإنسان، والجمع

نسَم ونسمات. وقال بعضهم: النَسَمَة الخَلْقُ، يكون ذلك للصّغير والكبير والدوابّ وغيرها ولكل من كان في جوفه رُوحٌ".

الخطاطة	م ث1 ث2	ث1م ث2	ث1ث2 م	ث1 م ث2	م ث1 ث2
القيم	X س د	ج X د	ج س X	ج X م	X س م
[جسد]	جسد3	جسد 2	الجسد 1		
[جسم]			الجسم1	جسم 2	جسم 3
المعاني الجدولية	اللّصوق بالشّيء	اليبوسة	البدن	العظمة والكبر	الخيار والقصد
		ج ل د		ج ث م	ب س م
		الجلد غشاء الجسد		الجثمان الشّخص بلا حراك	انفراج الشّفتين
				ج ر م	ن س م
				الجرم ألواح الجسد وقدره وتقطيعه	النّسمة المتنفّس ذو الرّوح
الجسد		+	+	+، +	+، +
الجسم		ذو جلد	ذو بدن	ذو حركة وسكون وذو قدر وكثافة	حيّ ذو نفس ذو ابتسام
التّعريف الجامع	الجسم/ الجسد: جسد/جسم ذو قدر وكثافة (جرم)، مغتذ، حيّ، يتنفّس، ذو حركة وسكون، ذو غشاء جلديّ يكون به اجتماع أبعاضه في بدن، ذو ابتسام...				

وأمّا [الجرم] فهو في اللّسان: "الجسم من الحيوان وغيره؛ والجِرْمُ ألْواحُ الجَسد وجُثْمانه والجَسَدُ جِرْمٌ، لأنّ له قَدْراً وتَقْطيعاً"، وأمّا بسم وابتسم فأمرها معلوم واضح ولعلّها من خصائص الإنسان جسما بحكم اختصاصه بالضّحك، في التّعاريف المتداولة، وإن كانت من سماته الثّانويّة. وجميعها مندرج في [الجسم] إذ يقول أبو هلال العسكريّ (الفروق اللّغويّة: 158):

"الجسم اسم عامّ يقع في الجسوم والشّخص والجسد وما يسبيل ذلك، والشّيء أعمّ لأنّه يقع على الجسم وغير الجسم".

تمثيل ذلك في الجدول السابق، حيث نثبت ما يستحضره الجذر الوارد منا أوردنا قبيل هذا ممّا يكمّل الحقل المفهوميّ ثمّ نختم بالتّعريف الجامع باعتماد ما توفّر مفترقا في مختلف الجذور المتولّدة كلاّ في جدوله. لعلّنا بهذا قد بيّنا، وإن بطريقة موجزة، الوجوه الّتي ينتظم بها مفهوم الجسد في المعجم العربيّ (للمزيد من التّفاصيل في المنوال الاحتماليّ باعتماد نماذج أخرى من المعجم العربيّ انظر الزّنّاد (2010)).

خاتمة

فحصنا في هذا الفصل تكوّن النّواة المفهوميّة لحقل الجسد وقرينه الجسم بما يتضمّن من فروع مثل الجثمان والجلد والنّسمة وما إليها، وأثبتنا في إطار المنوال الاحتماليّ في انتظام المعجم العربيّ أنّ هذا الحقل متكوّن بانتشار المفاهيم انتشارا شعاعيًا يوافقه من حيث يوازيه ويناسبه انتظام جدوليّ ثلاثيّ يشتغل بالثّابت والمتغيّر قسما من الانتظام العامّ في المعجم العربيّ. وقد اعتمدنا أساسا المفاهيم النّوويّة في النّماذج المفحوصة أي تلك المفاهيم اللّغويّة الّتي نتصوّرها سابقة لسائر ما تعلّق بتلك النّماذج بحكم المنظومة العقائديّة الحادثة في الإسلام من حيث تصوّر الجسد والرّوح وما إلى ذلك من أحكام الفقه والعبادات. فالجسد في مجمله متمثّل على أساس عدد من الخصائص فيه من حيث هو مادّة أي (جسم) صلبة مجتمعة في غشاء يجعل منها كتلة متّحدة الأجزاء أي (جلد) مغتذية أي (جسد) متنفّسة أي (نسمة) ومتحركة أو ساكنة (جثّة، أو جثمان).

خاتمة الباب الثاني

تمثّلت الفكرة المحوريّة في هذا الباب في إثبات مركزيّة الجسد في اللّغة: هو مركزيّ في المعجم من حيث كان تصوّر المفاهيم بأنواعها على أساسه، ومركزيّ في النّحو من حيث تُتصوّر العلاقات بأنواعها على أساس أبعاضه إذ يمثّل مركز الوعي في توزيع الكون والتّجربة. ولئن كانت هذه المركزيّة ثابتة في المطلق فهي في حاجة إلى بيان درجات ذلك الحضور بناء على مكوّنات الجسد في ذاته، فجميع أعضائه لا تتساوى في الحضور ولا في العمل في اللّغة:

فقد بيّنّا في الفصل الأوّل مركزيّة لنوع مخصوص من الأعضاء، هي الأعضاء الوظيفيّة في حياة الجسد كائنا بيولوجيّا مجرّدا و/أو اجتماعيّا فكانت اليدان (أداة العمل ومبدأ التّكنولوجيا) والقدمان (أداة التّنقّل لضمان الحياة) موردين أساسيّين في قيام منظومة العدّ، كما كانت تضاريس الجسد موردا للأدوات النّحويّة تستمدّ منها اللّغة موارد رمزيّة في تصوير العالم والتّجربة من حيث التّوجّه والتّوجيه في الفضاء أساسا.

وبيّنّا في الفصل الثّاني تغييب بعض الأعضاء، ممّا شملها التّحريم، لشدّة حضورها، فهي مركزيّة حاضرة وغائبة، بما يعمد إليه المتكلّمون في خطاباتهم من تلطيف أو ستر لغويّ للعورة الّتي تعبّر عنها تلك الأسماء. فاجتنابها ليس اجتنابا للمفهوم وإنّما هو اجتناب للذّكر، هو منع خطابيّ وليس نحويّا إذ لا قاعدة تمنعه في النّحو. وجميع الدّوافع إلى ذلك أو الموانع منه إنّما هي ثقافيّة عرفيّة أخلاقيّة. ولئن لم يمنعها النّحو بقاعدة منع مخصوصة، فقد وفّر ما به يكون الإخفاء والسّتر في جملة من آليّات التّلطيف الّتي

فحصنا.

ولعلّ أصفى المظاهر في حضور الجسد، مركزا للوجود وللّغة، أن يكون مادّة مفهوميّة ذهنيّة في المطلق تتصوّر على شاكلة منظوميّة في المعجم، فحصناها في الفصل الثّالث حيث أثبتنا أنّ حقل الجسد/الجسم قد تبلور بانتشار شعاعيّ يتوازى فيه المكوّن الدّلاليّ والمكوّن الصّوتيّ في حقل مفهوميّ يستقصي مفهوم الجسد ويتابع مسالك الجداول في الجذور الحرفيّة في آن. فالجسد في مجمله يتمثّل من حيث هو مادّة صلبة مجتمعة في غشاء تستوي به كتلة متّحدة الأجزاء مغتذية متنفّسة تكون منها الحركة والسّكون. ولعلّ أفضل ما يمكن به تأطير مركزيّة الجسد في اللّغة وفي الذّهن أنّ اللّغة حادثة بالجسد من حيث كانت من أعماله، ولذلك مثّل الجسد بأعضائه وبأعماله وهيأته أوّل مورد يمدّها بالأسماء وبالأدوات وبالإستراتيجيّات في العبارة سبيلا إلى الإمساك بالكون وتعقّله.

البــاب الثَّـــالث

جسد اللّغـــة

مقدّمـة البـاب

إنّ اللّغة جسم قبل أن تكون ممارسة، إنّها جسم من الأصوات. (لوسركل 2005: 399)

من المفاهيم الثّابتة أنّ اللّغة ملكة تتحقّق في الكلام من حيث هو إحداث لأصوات من نوع مخصوص هي الأصوات اللّغويّة، والصّوت عمل عضليّ يكون متجسّما في أثر فيزيائيّ. فاللّغة بهذا صوت، وذاك مظهرها المادّيّ الوحيد الّذي تستوي به ظاهرة تقبل الإدراك والوصف فالفحص. وهذا مدخل تساؤل نطرحه في هذا الباب ونخصّه بفصل يكون مداره تجسّد اللّغة في الزّمان وفي الفضاء أو كيف تكون اللّغة ظاهرة فينومينولوجيّة بما يتفرّع هذا المبحث إليه من المسائل الكثيرة المتشابكة من قبيل جسد اللّغة كائنا في الزّمان ومدخلا للتّبرير في نشوء العلاقة بين الدالّ والمدلول وفي تجذّر المعنى من زاوية الفرضيّة الإشاريّة وفي تصوّر جسد اللّغة على أساس جسد الإنسان من زاوية مركزيّة الإنسان في تسمية اللّغة، وفي توقّع اللّفظ قسما من جسد اللّغة لتوقّع المعنى، وفي خطّيّة الجسد اللّغويّ من زاوية ما توفّره هذه الخصيصة فيه من ظواهر تخدم المعنى من قبيل التّقديم والتّأخير واللّعب اللّغويّ بما يخوّله من مطاطيّة في القراءة والفهم.

وإذ كانت اللّغة جسدا حادثا بالعمل المادّيّ أمكن اعتباره من زاوية كمّيّة يتجلّى فيها الجهد العضليّ والمدى الزّمانيّ، وهو مدار الفصل الثّاني حيث تكون العناية بالكمّيّة اللّغويّة في مظاهرها الأيقونيّة العامّة على أساس التّناسب بين كمّيّة لفظيّة وكمّيّة دلاليّة، كما يبين في ظواهر نظاميّة وأخرى خطابيّة من قبيل مطل الحركات والتّخفيف والتّثقيل (النّون الخفيفة والثّقيلة) والتّضعيف والتّكرير والحذف وما إلى ذلك.

وإذ كانت اللّغة من عمل الجسد البشريّ باعتماد عمل القول الأصليّ (التّقطيع والتّلفّظ) كان جسد اللّغة مصطبغا بطبيعة الجسد النّاطق من حيث طبيعته الخطّيّة ومن حيث ما يعتوره من الاستقامة أو العيب، وكان أداة لإيقاع الأعمال اللّغويّة متدرّجة من العمل اللّغويّ الأصليّ (أي الإشارة بالضّمير المتكلّم) إلى العمل بالقول بل يتّسع هذا المدى لينوب جسد اللّغة عن الجسد النّاطق في مظاهر كثيرة منها الاستعاضة عن عنف الجسد بعنف اللّغة كما يبين في الفصل الثّالث من هذا الباب. ولعلّ هذه المباحث جميعا مندرجة في مبحث جامع هو "كيف تتحقّق اللّغة بالجسد فتكون من عمله وتعمل عمله بالاستتباع؟ وكيف يتّحد الجسد النّاطق والجسد اللّغويّ فيكون الواحد منهما امتدادا للآخر وتكملة له؟"

الفصل الأوّل

اللغة ظاهرة فينومينولوجيّة

مقدّمـة: في جسديّة اللغة

لقد ساد في الدّراسات البنيويّة، على أساس ثنائيّة اللّغة -الكلام، أنّ البنية اللّغويّة ذات تشكّل مزدوج أو ثنائيّ الطّبقات: الشّكل المعطى الحسّيّ وهو المظهر الصّوتيّ المسطّح الخطّيّ في رتابة عناصره وتساويها (وهذا هو "الكلام" في مظهره الأساسيّ كما تحدّد في الإطار السّوسيريّ)، والبنية الكامنة حيث يتجلّى الانتظام والعلاقات والوظائف والقيم، وهي لبّ اللّغة وقلبها المحرك. وما المظهر الحسّيّ الصّوتيّ إلاّ سبيل إلى الغوص على ذلك القلب المحرك. فالبنية اللّغويّة ليست في ظاهرها وإنّما في الكامن في ذلك الظّاهر، فيكون توصيفه باعتماد الفرضيّات. وهذا الموقف يقسم اللّغة نصفين: نصفا غير ثابت متلاشيا لا يجب أن يستوقف العقل، ونصفا جوهريّا هو المطلوب. فالنّظام اللّغويّ كامن متخفّ والمظهر الصّوتيّ قشرة حاملة لأمارات على ذلك النّظام (من أبرز الأعلام المدافعين عن هذا التّوجه: بوتيتو-كوكوردا، 1985)[286].

ولكنّ اللّغة تتجلّى من خلال الكلام أو القول عملا جسديّا يحدث عن طريق التّقطيع والنّطق بالأصوات، فهي عمل منتج لشيء وهي حدث جار في المكان وفي الزّمان يقبل التّسجيل والتّأريخ وتحديد آثاره إن كان ذا أثر وفعل في العالم يغيّره. وذاك حال اللّغة بالتّحديد، فهي حدث يدرك سماعا فيحدث أثرا في الذّهن فيزيولوجيّا عصبيّا وعرفنيّا رمزيّا. هي حدث مزامن

[286] Petito-Cocorda, 1985

لمحدثه حالّ حيث يحلّ جسده. ففي عمل القول جسدان يتراكبان: جسد بشريّ ناطق (مقطّع، منتج، محدث) وجسد لغويّ منطوق (مقطّع، منتَج/ناتج، محدَث)، وهما متلازمان في الزّمان وفي المكان وإن انفصلا إنّما يكون ذلك في الظّاهر فكلّ نصّ منقول، مثلا، إنّما هو مقتض لقائل على الدّرجات وبالوجوه المعلومة في التّناقل والرّواية وتقنياتها المتنوّعة.

فاللّغة جسد بمعنى: شيء ذو حدود بيّنة يتميّز بها من سائر الأشياء في المطلق فالقول ينتج لغة، كما يحدث الضّرب صوتا أو التّصفير صفيرا أو انكسار الجسم الصّلب صوتا للانكسار. هذا في بني جنسه من الأشياء الحادثة عن طريق الصّوت، وهي شيء بيّن الحدود في الوجود يتميّز من سائر الأشياء من الموجودات أو آثار عملها وتنقّلها في المكان أو فعلها فيه بالتّغيير وما إلى ذلك.

واللّغة جسد بمعنى أنّ التّمييز بين أبعاضه ممكن كأن نميّز بين قول فلان وقول آخر الوجوه من التّمييز المعروفة، أو ننسبه إليه جملة أو تفصيلا أيّ وجه من وجوه النّسبة كما ننسب إليه أعماله أو أشياءه الّتي تعود إليه بالملكيّة أو الانتماء أو التّكوين وما إلى ذلك، ويمكن أن نميّز بين كلامين أو أكثر في المحادثة أو في التّناوب بين المتخاطبين ويكفي أن نشير إلى حدود كلام الفرد وكلام الآخر ليكون الكلام جسدا واللّغة جسدا. وإن أمكن أن ينضاف تمييز [illegible] في هذا المستوى بين نمطين من التّجسّد اللّغويّ من حيث كان تجسّدا عامّا مشتركا بين جميع النّاس وتجسّدا مخصوصا بالفرد بتوسّط التّوليف والتّصريف في وجوه العبارة والحاجات كما يسطّر الجرجاني ذلك، يقول: "معلوم لكلّ من نظر أنّ الألفاظ من حيث هي ألفاظ وكلم ونطق لسان لا تختصّ بواحد دون آخر، وأنّها إنّما تختصّ إذا توخّي فيها النّظم" (دلائل: 366).

ولكنّ خصوصيّة اللّغة ماثلة في كون الصّوت هيكلها العظمي[287]، قياسا على تسمية جاكبسون. وجميع ما ذكرنا يختزله دو سوسّير في قوله: "اللّغة شيء ملموس، كما أنّ الكلام ملموس، وهذا صفة تساعدنا في دراسة اللّغة. فالإشارات اللّغويّة- مع أنّها سايكولوجيّة في جوهرها- ليست تجريديّة والارتباطات الّتي تحمل الطّابع الجماعيّ وموافقة المجموعة الّتي من مجموعها تتألّف اللّغة، هي أشياء حقيقيّة لها وجود في الدّماغ. ثمّ إنّ الإشارات اللّغويّة يمكن إدراكها بالحواسّ حيث يمكن تحويلها إلى رموز كتابيّة تقليديّة." (علم اللّغة العامّ: 33).

اللغة جسدها في الزّمان

الكلام جسد اللّغة. فعندما يتكلّم الشّخص تكون اللّغة دائما هي الّتي تتكلّم. واللّغة تتكلّم فقط حين تأخذ شكل الكلام، أي حين يتجسّد نظام اللّغة[288] في الكلام الفرديّ[289]، "هي تتكلّم عندما يكون الشّخص قد تكلّمها فعلا." (لوسركل 2005: 206). واللّغة جسد وسيط بين الأجساد المتفاعلة، تتفاعل الأجساد به ويتفاعل بها، فـ"هناك وجود مادّيّ للّغة لا يمكن الهروب منه. كلماتي تنبثق من جسدي، وكلمات الآخرين تخترقه." (لوسركل 2005: 209). ومن خصوصيّات الجسد اللّغويّ أنّه جسد منطوق يوجده الجسد المتكلّم. ولذلك كان لها خصائص الجسد الحركيّ من حيث تتحدّد بوجودها في ذاتها وتشتغل وفق آليّات ومكوّنات متجانسة متناغمة شأنها في ذلك شأن كلّ جسد (ميرلوبونتي1945: 144)، ولعلّ ذلك ما شرّع لميرلوبونتي أن يستعمل، منذ عقود، عبارة "جسد اللّغة"[290] يجريها في المعنى الحقيقيّ لا الاستعاريّ، مشيرا بها إلى البنية الإعرابيّة والمفردات (ميرلوبونتي 1945:

---

[287] charpente phonique
[288] *langue*
[289] *parole*
[290] corps du langage

223). وإذا كانت اللّغة من وظائف الجسد وكان الجسد الفرد عنصرا اجتماعيّا بالضّرورة وكانت اللّغة جسدا رمزيّا، كان الكلام الّذي به تتجسّد اللّغة أو قل جسدها، أشدّ وظائف الجسد جميعها ارتباطا بالوجود في جماعة أو بالوجود الجماعيّ- حسب ميرلوبونتي (1945: 187).

اللّغة جسد ذو وظيفة رمزيّة، وهذه الوظيفة تقتضي أن يتوارى المظهر المادّيّ الملموس المحسوس من خلال المرموز إليه به، فاللّغة جسد شفّاف في وجوده وحدوثه أو تحقّقه، أي الاستعمال، وهو ثخن عند التّوصيف (الوظيفة الماورالغويّة). وتقتضي الوظيفة الرّمزيّة في أنّ التّلازم بين الرّمز والمرموز إليه في العموم، وفي الخصوص بين اللّغة والمعنى من حيث يتجسّد هو بتجسّدها هي، إذ "الكلام، عند من يتكلّم، لا يترجم فكرة قد تكوّنت سلفا، وإنّما ينجزها." (ميرلوبونتي 1945: 207). وفكرة تحقّق الفكر باللّغة قديمة معلومة بل هي أساس الخلق في الكون في النّصوص المقدّسة، ولكن لا يجب أن تؤخذ في هذا الاتّجاه دون غيره، فهي ذات صلة بالمعنى مطلقا. فاللّغة والكلام ليسا مجرّد تعيين للموجودات ووسم لها، في المعنى الوظيفيّ، وإنّما هما تجسّد للفكر في حامل مادّيّ. فاللّغة والكلام، أو اللّفظ بعبارة قديمة، ليست حلية أو كسوة للمعنى إنّما هما "شعاره أو جسده"، كما يقول ميرلوبونتي (1945: 212).

اللّغة ظاهرة فينومينولوجيّة بما أنّها شيء يخضع للحسّ والإدراك، فهي موضوع حسّيّ مدرك بالسّمع وبالبصر، تحتلّ حيّزا في الزّمان وفي الفضاء، تستقلّ بنفسها موضوعا قابلا للتّأمّل والوصف وإن كانت "لا تقول شيئا ما عدا نفسها، (...) ومعناها لا ينفصل عنها" على حدّ عبارة ميرلوبنتي (1945: 219). ولعلّ آخر ما تبلغه اللّغة من مراتب التّجسّد أن يشعر الفرد بحلول اللّغة فيه وحلوله في اللّغة، جسدين في واحد، فيكون التّعبير عن

مفهوم الملكيّة، ملكيّة اللّغة وتملّكها جهازا مشتغلا في الكيان يحقّقه ويمكّنه من التّفاعل مع محيطه الاجتماعيّ ومن الفعل في الوجود من حوله.

جسد اللغة مدخلا للتبرير

يتجاذب البحث اللّغويّ قطبان في شأن العلاقة بين الدّالّ والمدلول: قطب الاعتباط وقوامه العلاقة اللاّمبرّرة بينهما على أساس أنّها التّقارن بينهما من حيث كان وليد المواضعة والاتّفاق الجماعيّين أو بكلام آخر وليد المصادفة، لا بالمعنى الفيزيائيّ وإنّما بالمعنى الاجتماعيّ. وقطب التّبرير وقوامه خضوع العلاقة بينهما لرابط ما يكون سرّ قيامها وأساسا له. والبحث في هذه العلاقة بحث في ما به يكون تعقّل الظّاهرة اللّغويّة باستكناه مبدإ علّيّ سببيّ يكون له اللّفظ دالاّ على معنى أو محيلا على مرجع بعينه.

وقد طرحت قضيّة العلاقة بين اللّفظ والمعنى في أطر نظريّة متباعدة زمانا ومكانا، وجميعها عائد إلى تغليب الاعتباط على التّبرير وإن كان الموقفان في بعض الأحيان ينشئان مدارس لا مصالحة بينها؛ فأنصار الاعتباط يدافعون عن موقفهم بأدلّة "عقليّة" من قبيل اختلاف المسمّيات للمسمّى الواحد باختلاف اللّغات، وأنصار التّبرير يجدون في الأصوات المحاكية لمسمّياتها دليلا حاسما ويعتبرون رصيد المحاكيات نواة التّسمية الأولى منها تنامت اللّغة وتطوّرت. والمبحث نفسه يطرح في النّظم العلاميّة قاطبة لينشأ الثّالوث المعروف: العلامة، الأيقونة، الرّمز؛ حيث يتوفّر التّبرير، بصرف النّظر عن الأساس الّذي يقوم عليه، في الأيقونة وفي الرّمز كلاًّ حسب خصوصيّاته، وينعدم في العلامة. وتواصل الأمر مبحثا حتّى دوسوسّير، وبعده وصولا إلى اللّسانيّات العرفنيّة حيث يمثّل التّبرير الأساس في اشتغال اللّغة بل إنّ الاعتباط فيها يُعتبر أمرا يسيرا ضئيلا، سيرا على نهج وظيفيّ في الرّبط بين العنصر وعمله بل سرّا لوجوده في النّظم

البيولوجيّة والرّمزيّة وما إليها.

وتتضمّن عمليّة التّبرير، من منظور عرفنيّ، حزمتين من الأدوات متكاملتين (راذن و بانثر 2004)[291]: أولاهما مخصوصة باللّغة دون غيرها، تتضمّن كلّ صلة غير اعتباطيّة بين الشّكل والمعنى وكلّ مظهر من مظاهر الأيقونيّة اللّغويّة، وكلّ تفسير لتلك الصّلة أو لذلك المظهر. وثانيتهما جملة من الملكات أو المهارات العرفنيّة المشتغلة في جميع المجالات بما فيها اللّغة وسائر النّظم العلاميّة، من مثل الاستدلال والإسقاطات الاستعاريّة والمجازيّة.

فالتّبرير موقف نظريّ ومفتاح الرّبط بين جسد اللّغة ووظيفته، بين بنية اللّغة ودلالتها، وأمّا الاعتباط فإقرار بوجود اللّغة جسدا لا رابط له بدلالته. ولئن كان ما بين التّبرير المطلق والاعتباط المطلق درجات فإنّ ما يرتق ما بينهما من فراغ يمكن العود به إلى الأصل الّذي به تتجذّر اللّغة بمعناها في الإشارة.

تجذّر المعنى: الفرضيّة الإشاريّة

تبلورت معالم الفرضيّة الإشاريّة[292] في أعمال آرت غلينبرغ[293] وجماعته في إطار الجسدنة مدخلا في تفسير ما به يكون فهم بني البشر للعلامات اللّغويّة، أو بعبارة أخرى كيف تكون العلامة اللّغويّة ذات معنى عند الإنسان. ويمكن تلخيص الفرضيّة الإشاريّة في كون المعنى مجسدنا أي مشتقّا من طبيعة الأجساد البيوميكانيكيّة ومن النّظم الحسّيّة الإدراكيّة (غلينبرغ وكاشاك، 2002: 558). فلا يمكن أن تكون الرّموز اللّغويّة ذات معنى عند الفرد بمجرّد أن يتّبع أوامر يكون بها الجمع بين علامة وأخرى. فالفهم متجذّر بوجه من الوجوه. وأساس الفرضيّة الإشاريّة أنّ فهم المعنى

---

[291] Radden & Panther, 2004
[292] indexical hypothesis
[293] Glenberg and Robertson (2000); Glenberg and Kaschak (2002); Glenberg, Havas, Becker, and Rinck (2005)

اللّغويّ يمثّل نتاجا لعمليّة ثلاثيّة المراحل: أولاها مرحلة التّأشير[294]، تأشير الكلمات وإسقاطها في رموز إدراكيّة[295]، وثانيتها مرحلة المنافع[296] المشتقّة من تلك الرّموز الإدراكيّة، وثالثتها مرحلة التّنسيق[297] بين تلك المنافع المتاحة لإنشاء فهم للعلامات اللّغويّة.

أ- الرّموز الإدراكيّة

يجري التّمييز في علم النّفس العرفنيّ بين نوعين من الرّموز وفق نمط الإدراك[298] (بارصالو[299] (1999): رموز نمطيّة[300] (ذات نمط إدراكيّ واحد بصريّ أو لمسيّ أو شمّيّ) ورموز لا نمطيّة (غير ذات نمط إدراكيّ). ذلك أنّنا ندرك الأشياء في العالم من خلال قنوات مختلفة تمثّل الواحدة منها نمطا إدراكيّا، من قبيل الإبصار والسّمع واللّمس. فيمكن أن يتمّ الإدراك بنمط دون آخر فقد نرى عصفورا من النّافذة ولا نسمعه كما يمكن أن نسمعه ولا نراه، ولكنّنا في الحالتين نتمثّل صورة له من خلال وجوده في حديقة المنزل مثلا. فيمكن أن نرى الورود في الحديقة من خلال الزّجاج دون أن نشمّ شيئا من عطرها أو نشمّ شيئا من عطر الورود دون أن نراها مباشرة فيها. فكلّ وجه من الوجوه تلك، نمط إدراكيّ: هو نمط بصريّ أو نمط سمعيّ أو نمط شمّيّ. وكلّ واحد من هذه الأنماط يحدث صورة بصريّة أو سمعيّة أو شمّيّة يتمثّل بها الشّيء الموجود هناك (العصفور أو الورد) من زاوية بعينها. وكذلك كلمة (عصفور) أو (ورد) تحدث في أذهاننا تمثيلا للشّيء المعنيّ ولكن بوجه غير ذي نمط إدراكيّ إذ لا نكون في حاجة إلى رؤية ما تدلّ عليه الكلمة منهما أو

---

294 indexation
295 perceptual symbol(s)
296 affordance(s)
297 meshing
298 mode of perception
299 Barsalou 1999
300 modal

سماعه أو شمّه، وتحيل عليه مباشرة دون الحاجة إلى جميع تلك الأنماط الإدراكيّة. وهذا ما يجعل تعلّقها بالمرجع تعلّقا اعتباطيّا (غير مبرّر).

وتنتمي الرّموز اللّغويّة (وهي غير ذات نمط إدراكيّ) إلى مجموع الرّموز الذّهنيّة الّتي تشتغل عليها العمليّات العرفنيّة في التّصوّر العرفنيّ النّموذجيّ الكلاسيكيّ. فالمتصوّر فيها أنّ الواحد من الأنماط الإدراكيّة (بصر، سمع، شمّ، إلخ) يمثّل إثارة مخصوصة لجزء من حاسّة بعينها ثمّ تجري ترجمتها إلى شفرة عصبيّة تنتهي بها المعالجة في نهاية المطاف إلى رمز غير ذي نمط إدراكيّ هو من قبيل الرّمز الذّهنيّ الاعتباطيّ في "لغة الذّهن". فإذا ما وفّر النّمط الإدراكيّ من قناته صورة ما للطّائر أو للورد هي بصريّة أو سمعيّة أو شمّيّة، كانت هذه التّمثيلات في المنطلق مختلفة في شفراتها متباينة في خصائصها، ثمّ يجري في الذّهن التّوحيد بينها في صورة واحدة ينتزع بمقتضاها نمط الإدراك المخصوص بالواحدة منها فتكون رمزيّة اعتباطيّة غير ذات نمط إدراكيّ.

ولكنّ بارصالو وغلينبرغ وكاشاك لا يرون ضرورة لافتراض مرحلة العبور من التّمثيلات النّمطيّة (السمعيّة، البصريّة، الشّمّيّة، إلخ) إلى تمثيلات غير ذات نمط حسّيّ. ذلك أنّ العمليّات العرفنيّة لا تحتاج إلى نزع المعلومات المتعلّقة بنمط الإدراك من التّمثيلات الّتي تشتغل عليها. وعلى خلاف ذلك يمكن أن تستغلّ العرفنة التّمثيلات النّمطيّة المتوفّرة في ما يوفّره نظام الإدراك الحسّيّ الأوّليّ (بارصالو 1999: 578-579). وما الرّموز الإدراكيّة إلاّ إعادة بناء للمدركات الحسّيّة كلاّ بنمطه الإدراكيّ، تتوفّر به مادّة للمعالجة العرفنيّة الّتي تجري في أطوار لاحقة على التّمثيلات كما تتجلّى في نمطها الإدراكيّ الأصليّ. فسماع العصفور، مثلا، ورؤيته في آن- عند بارصالو- في مرحلة أولى يكون بها تشفير لتمثيلات بصريّة وسمعيّة لذلك العصفور، ومن تلك التّمثيلات تنهل جميع أفكارنا اللاّحقة متعلّقة به، فنفس

العمليّات الحسيّة الإدراكيّة الّتي اشتغلت عند تسجيل مظاهره البصريّة والسّمعيّة تشتغل ثانية عندما نتذكّر العصفور أو نتصوّره أو نسأل عنه وما إلى ذلك. وذاك ما يدعمه غليبنبرغ وكاشاك (2002: 559) إذ يقرّان أنّ الرّموز الإدراكيّة تتأسّس على أحوال الدّماغ الكامنة في إدراك المرجع.

ب- المنافع

تعود فكرة المنافع (المتاحة أو المتوفّرة) إلى غبسون[301] (1979) في إطار ما يطلق عليه علم النّفس البيئي[302]، إذ يرى غبسون أنّ لعلاقة الكائن بمحيطه دورا كبيرا في فهم الإدراك. فالكائنات بمختلف أنواعها قد تطوّرت في أنواع مخصوصة من البيئات وبرمجت، وفق ذلك، أجهزتها الإدراكيّة وعدّلت لاستخلاص المعلومات المخصوصة ببيئاتها. يجتمع ذلك في ما يطلق عليه "وسط الكائن[303]": فالكائنات، في ضوء تاريخ التّطوّر عندها، تردّ الفعل إزاء بعض المظاهر أو السّمات في بيئتها أو قد تردّ الفعل إزاء عدد من السّمات المتشابهة بطرق مختلفة وفق ما يكون قد انغرس فيها من الأهداف والغايات. فقد يشترك عدد من الكائنات المنتمية إلى أنواع أو أجناس مختلفة في بيئة واحدة ولكنّها تعيش في أوساط مختلفة بحكم التّنوّع الكبير في الخصائص الّتي تتوفّر فيها وتكون مفيدة لبقائها واستمرارها، من ذلك أنّ الشّجرة الواحدة قد تكون عددا من الأوساط إذ توفّر، مثلا، الملجأ لطائر ما والغذاء لحشرة ولا توفّر الغذاء للأوّل أو الملجأ للثّانية، وكذا الشّاطئ الرّمليّ الواحد يوفّر موطنا للبيض، مثلا، للسّلاحف البحريّة ومسكنا لنوع من السّرطان. ويطلق غبسون على تلك الخصائص الّتي تهمّ كائنا بعينه من حيث تفيده وتهمّه في وسطه ذاك "المنافع المتاحة".

---

[301] Gibson, 1979
[302] ecological psychology
[303] organism's *niche*

ويوظّف غلينبرغ في إقامة الفرضيّة الإشاريّة فكرة غبسون في عمومها وخاصّة منها ما به يهتدي الكائن إلى معرفة المنافع المتاحة في الأشياء في محيطه، وتلك المنافع مرتبطة بخصائص الكائن وبحاجاته، وهي عمليّات تُجري في فهم المعنى بأنواعه، "فالكرسيّ يوفّر الجلوس للكهول من البشر لا للفئران أو الفيلة ذات الأجسام غير المناسبة من حيث أشكالها للجلوس على كرسيّ عاديّ" (غلينبرغ وكاشاك 2002: 558-559).

ج- التنسيق

يتمثّل التّنسيق في ما به يكون التّأليف بين المنافع المتاحة في تصوّر الشّيء. ويمكن أن يجري التّركيب بين منافع لشيئين مختلفين لتحدث منفعة جديدة ليست في الأصل لأيّ منهما، وفق ما يكون بين ذينك الشّيئين في الكلام. فإذا كان من المنافع المتاحة في تصوّر مكنسة كهربائيّة – والمثال من غلينبرغ- أنّ ذراعها طويلة بشكل تصلح له لتعليق شيء عليها، وإذا كان من المنافع المتاحة في تصوّر المعطف كونه طويلا بحيث يمكن أن يتدلّى إذا ما علّق بشيء عال أو مرتفع قدرا من العلوّ، ومن منافع الشّيئين يمكن أن يكون فهم لجملة تتضمّنهما على أساس منافع الواحد منهما تشتقّ منهما منفعة جديدة مناسبة. فإذا قال قائل: "علّق المعطف على المكنسة الكهربائيّة" أمكن فهم هذه الجملة على أساس منافع مشتقّة من المكنسة ومن المعطف. فيكون للمكنسة منفعة متاحة جديدة هي صلاحها لتعليق الثّياب وذلك بحكم منفعة حادثة لم تكن في الأصل لذراع الامتصاص فيها ولكن بحكم الطّول فيه وهيأته عندما تكون المكنسة في وضع لا تستعمل فيه في ركن من البيت، تكون صالحة ليعلّق عليها شيء طويل، وكذا المعطف بحكم الطّول فيه يقبل أن يعلّق على ذراع المكنسة. ويكون جمل من قبيل "علّق المعطف على الكأس" جملة غير

ذات معنى لأنّ المنافع المتاحة من الكأس لا تتضمّن صلاحه لتعليق شيء عليه، وما إلى ذلك من النّماذج.

وبإجمال، يتمثّل فهم الجملة - في إطار الفرضيّة الإشاريّة - في مجموع العمليّات الّتي تشتقّ المنافع المنتمية إلى المراجع المشار إليها بالعناصر في الجملة، وتنسّق بينها. فالجملة "تسلّق الرّجل الكأس" غير ذات معنى، في حين تكون الجملة "تسلّقت النّملة الكأس" ذات معنى، ففي الحالتين يحتكم المعنى والفهم لما يتوفّر من المنافع لكلّ من جسد الرّجل وجسد النّمل، فالأوّل لا يصلح له الكأس للتّسلّق ولكنّ الثّانية يمكنها ذلك بحكم طبيعة الجسدين. فالجسدان يتصوّران نفس الواقع أو نفس الشّيء تصوّرين مختلفين بحكم طبيعة الجسد عند كلّ منهما. ويثبت بهذا - عند غلينبرغ- كون المعنى مجسدنا، أو قل إنّما نفهم الكلام واللّغة بأجسادنا.

جسد اللّغة جسد الإنسان: مركزيّة الإنسان في تسمية اللغة

تجري عبارة "التّمركز على الإنسان"[304] أو "مركزيّة الإنسان" على جعل الإنسان مركزا في إدراك الأشياء في الكون من زاوية نظر بشريّة يكون فيها توزّع الأبعاد والعناصر وتصوّر أجزائها ومكوّناتها في توزّعها فيه على أساس الإنسان من حيث مكوّناته وأعضاؤه وعناصرها وتوزّع جميعها في جسده. وفي هذا يكون الإدراك وتصنيف المدركات على أساس الجسد البشريّ في بعديه الذّاتيّ حيث يتّخذ الفرد من جسده مركزا أو الموضوعيّ يتّخذ فيه الفرد الجسد البشريّ مركزا في المطلق.

وقد رأينا بعض المظاهر من هذه المركزيّة (انظر: الباب الثّاني، الفصل الأوّل: إنحاء أعضاء الجسد)، ولنا في هذا الفصل مجال للنّظر في توسّعها لتشمل تصوّر المكوّنات اللّغويّة في مستوى الجهاز الواصف (النّحو

---

[304] Anthropocentricity

العربيّ، علم العروض، اللّسانيّات، النّقد الأدبيّ قديما وحديثا، إلخ.) على أساس الجسد البشريّ مطلقا.

تمثّل اللّغة - بالمفهوم السّوسيريّ- أو النّحو أو القدرة أو النّحو المضمر - بالمفهوم التّوليديّ - الملكة الكامنة في الأذهان جزءا من الملكة العرفنيّة. وهي من طبيعة ذهنيّة ولذلك لا يجري في تسميتها استعارة أعضاء الجسد، وهذا خلافا لقرين تلك الأطراف من قبيل كلام أو إنجاز أو نحو مظهر. فلكونه الجزء المحسوس المتحقّق في الزّمان وفي المكان تحقّقا فيزيائيّا يستعار له جسد الإنسان مطلقا بمعنى الفرد منه، وفي أحيان يستعار له الجمع منه.

فالبنية اللّغويّة كائن ذو بدن ورأس وأعضاء وأطراف يتردّد بين الإنسان والحيوان وتعتوره الأدواء كما تعتور ذلك الجسد. فتستعار أسماء الجسد الطبيعيّ للجسد اللّغويّ في الجهاز النّحوي الواصف، في مصطلحات من قبيل:

- الرّأس: في 'رأس الجملة' و'رأس المركّب" و"الرّأس العامل'، و"الرّأس المعجمي" و'رأس المقطع'، إلخ.
- الصّدر: في 'صدر البيت' و'صدر الكتاب" و'صدر الجملة" و'صدر الكلام" و'تصدير الكتاب'، إلخ.
- العجز: في 'عجز البيت'، وفي قولهم 'ردّ الصّدور على الأعجاز'[305] أو 'رد أعجاز الكلام على ما تقدّمها"، إلخ.
- الرّدف: في تسمية بعض القافية في العروض، يقول سيبويه 'ولا يجوز في القوافي المحذوفة. وذلك أنّ كلّ شعر حذفتَ من أتمّ بنائه حرفا

---

[305] epanalepse

متحركا أو زنة حرفٍ متحرّك فلا بدّ فيه من حرف لين للرّدف." (الكتاب 4: 441).

- الذّيل: في "ذيل الجملة" و"ذيل المقطع" و"ذيل المركّب" و"تذييل الكتاب" و"تذييل الرّسالة".

- المذاق: في توصيف الأبنية العروضيّة.

- السّلامة والاعتلال: في صفات من قبيل "الأجوف" و"السّالم" و"المعتلّ" جارية على الأفعال أو المصادر أو الجموع.

وتستعار بعض أعضاء النّطق من حيث هيأتها فتجري صفات على الأصوات فتكون لها صفة مشتقّة من هيأة العضو عند النّطق، فالأصوات فمويّة أو شفويّة أو أنفيّة وما إلى ذلك حسب مواضع النّطق، وهي "مستديرة"، "منفرجة"، "منفتحة" إلخ.، حسب هيأة الشّفتين، إلخ.

والبنية اللّغويّة مؤسّسة أسريّة عائليّة يكون فيها بين المكوّنات ما يكون بين أفراد الأسرة من العلاقات، من قبيل ما يجري في التّوليديّة من قبيل "الأخوّة" و"البنوّة" بين المكوّن والمكوّن الأخر وهما مقتضيان لعلاقة الأمومة: فالمكوّن أخ للمكوّن[306] إذا كان كلاهما في مستوى واحد من البنية المشجّريّة وكذلك العجرة بنت[307] للعجرة الأخرى إذا كانت متفرّعة عنها مباشرة، أو هي أمّ[308] لها إذا ما تفرّعت منها (انظر رادفورد[309] 2004 على سبيل المثال).

والبنية اللّغويّة مؤسّسة إداريّة وظيفيّة أو اقتصاديّة أو عسكريّة يخضع أفرادها للتّرقية والتّقهقر في السّلّم الوظيفيّ. من ذلك ما يحدث من ترقية

---

[306] sister (node, constituent)
[307] daughter (node)
[308] mother (node)
[309] Radford, 2004

المفعول[310](به) وخفض الفاعل[311] في ظاهرة النيابة عن الفاعل أو الإسناد إلى المفعول[312] كما يجري تحليلها في إطار النحو العلائقي[313]، حيث يحال الفاعل الأصليّ على البطالة ليكون عاطلا[314] عن العمل (انظر على سبيل المثال: بارلميتر وروزان 1984: 81-125)[315]. ومن هذا القبيل مفهوم "التحكم[316]" بأنواعه و"الحكم[317]" (العمل) في النظريّة التوليديّة.

والبنية اللّغويّة جدار قابل للانهيار. فيجري التعبير عن عدم الاستقامة في البنية النحويّة لتعطّل مظهر من المظاهر التصريفيّة وما إليها بوجه يتعذّر النطق بها أو تحقّقها وفق ما تقتضيه قواعد النحو، بمفهوم "الانهيار[318]". وفي ذلك تصوّر للبنية اللّغويّة المجرّدة على أساس بناء أو جدار ينهار إذا ما لم يكن قائما على أساس مواصفات معماريّة تضمن قيامه وتماسكه في إطار النظريّة التوليديّة.

والبنية اللّغويّة رقعة مادّيّة جغرافيّة أو اجتماعيّة وكلماتها عناصر مادّيّة أو أفراد، فيكون لها ما لتلك من حدود[319] وحواجز[320] وجزر[321] تجري عليها عمليّات النقل[322] فيما وراء تلك الحدود تقف عندها أو تتجاوزها أثناء عمليّات التحويل[323] في النظريّة التوليديّة: النقل[324]، موقع الاقتلاع[325] (مو

---

310 promotion; advancement
311 subject demotion
312 passivization
313 Relational Grammar
314 chômeur; chômage
315 Perlmutter & Rosen, 1984
316 command (c-command, etc.)
317 Government
318 crash
319 frontier(s)
320 barrier(s)
321 island(s)
322 move(ment)
323 transformation(s)
324 move, movement
325 extraction (site)

الموقع الّذي كان يشغله المكوّن قبل نقله)، موقع الهبوط[326]، الأثر[327] المتروك، إلخ.

فاللّغة على هذا يتصوّرها الإنسان على أساس نفسه وهو أمر جار في الخطاب الماورالغويّ بوجوه شتّى بعضها عفويّ يأتيه النّاس في الحياة اليوميّة، وبعضها معرفيّ علميّ تقام فيه النّظريّات في تفسير الاشتغال اللّغويّ. ولعلّ الحكم بكون النّظريّة اللّسانيّة استعارة كبيرة لا يقوم على المبالغة أو المجازفة، ومن أمهر النّظريّات في ذلك وأشدّها إحكاما فيه النّظريّة التّوليديّة.

توقع اللفظ لتوقع المعنى

القدرة على التّوقّع[328] في معالجة اللّغة الطّبيعيّة مبحث عرفنيّ نفسيّ لسانيّ عصبيّ قوامه ما يكون عند الفرد-السّامع أساسا- من قدرة على الاهتداء- بالمعنى العصبيّ- إلى قطعة من الخطاب قبل أوانها، سواء كانت تلك القطعة صوتا أو مقطعا صوتيّا أو كلمة أو مركّبا، وسواء كان ذلك في الكلام المنثور أو في الكلام المنظوم (الشّعر).

ولعلّ هذا المبحث يشكو من عناية ثانويّة في المباحث اللّسانيّة عامّة والتّوليديّة على وجه الخصوص، فالتّوقّع اللّغويّ- من حيث هو ظاهرة- ينافي مبدأ التّوليديّة: فإذا كان النّحو توليديّا بمعنى ينتج ما لا نهاية له من الأقوال انطلاقا من عدد محدود من العناصر، لا يمكن توقّع النّاتج القوليّ. بل إنّ البحث فيه ممّا لا يعين على فهم أعمق للّغة و/أو الذّهن: فكلّ توليف بصرف النّظر عن موقعه في الجملة إنّما ينفتح على آلاف الإمكانيّات وهذا ما يجعل البحث فيه "عبثيّا" أو "غير ذي معنى" (على حدّ عبارة جاكندوف[329]

---

[326] landing (site)
[327] trace
[328] prediction, anticipation
[329] Jackendoff 2002

2002: 59). وعلى خلاف ذلك يحظى بعناية كبيرة في اللّسانيّات النّفسيّة وفي جميع البحوث (النّظريّة والمخبريّة) المعنيّة بتحليل الكلام بناء وفهما.

وهذا المبحث متوفّر كذلك في التّراث وإن لم يكن قائما برأسه. فقد طُرح في المباحث الأدبيّة العامّة، خاصّة، علامة من علامات الكلام البليغ ينظمه - بمفهوم عبد القاهر الجرجاني - البليغ، فيكون من أمارات البلاغة بل من محدّداتها الأساسيّة، ولذلك تجد كتب النّقد في الشّعر ومجامع الأدب تتجاوب أصداءه على نمط يكاد يكون واحدا. وقد طُرح هذا المبحث في إطار بلاغيّ أوسع قوامه سباق ما بين اللّفظ والمعنى في الوصول إلى القلب أو إلى الفهم. فالكلام البليغ ما سبق معناه إلى قلبك لفظه إلى سمعك. ولعلّ قول الجاحظ يجمع ذلك:

> "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السّكوت ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء... وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشّعر البيت الّذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته كأنّه يقول: فرّق بين صدر خطبة النّكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصّلح وخطبة التّواهب، حتّى يكون لكلّ فنّ من ذلك صدر يدلّ على عجزه، لأنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معناك ولا يشير إلى مغزاك." (البيان والتّبيين 1: 115-116).

لئن أمكن العود بمبحث التّوقّع - مفهوما- إلى الإطار السّوسيريّ في ثنائيّة الاختيار أو الجدول، أي بعبارة أخرى إذا ما أمكن للسّامع أن يتوقّع كلمة قبل أوانها في جملة ينطق بها المتكلّم، إنّما يعتمد الجدول نفسه -جدول الاختيار- والعمليّة نفسها- عمليّة الاختيار- فيهتدي رأسا إلى الكلمة المناسبة قبل أوانها. هذا في العموم ولكن دقائق العمليّات الذّهنيّة العصبيّة متبلورة في أعمال لاحقة (لوفالت، مورطون، إلخ.). فمبحث التّوقّع ذاته متأخّر نسبيّا في

الحضور ضمن مباحث اللّسانيّات النفسيّة، مقارنة بقضايا أخرى تُتداول في هذا المجال. والمشترك فيها قيام التّوقّع على آليّة الاهتداء المعجميّ[330].

التّوقّع: النّجاح والخيبة

تمثّل ظاهرة التّوقّع أو الاستباق واحدة من علامات نجاح المحادثة، فالمتحادثون ينهي الواحد منهم كلام الآخر، بل لا ينطق بعضهم بجمله كاملة إلى نهايتها ويكتفي ببعض منها ويجيبه محاوره على أساس كلام لم ينجز واقعيّا وإنّما مفهومه حاصل في ذهن السّامع بحكم التّوقّع أو الاستباق ومحادثتهما سائرة مستقيمة.

وفي جميع ذلك، قد نتوقّع المضمون العرفنيّ (الفكرة، المعنى، المفهوم...) ولكن حظوظ التّوقّع في الكلمة (اللّفظ) بمعنى الشّكل الصّرفصوتميّ قد لا يكون ثابتا، فمثلا يمكن أن يقترن بالمفهوم الواحد أشكال صرفصوتميّة عديدة على أساس ما يعرف بالتّرادف، أو بعبارة أخرى قد ينقدح للمفهوم الواحد وحدات معجميّة عديدة، ولذلك يكون التّوقّع ناجحا في مستوى المفهوم فاشلا أو يحتمل الخطأ في مستوى العبارة.

يسهل توقّع العاديّ أو المألوف المتواتر أو ما جرى مجراه وأمّا سائر المظاهر فحظوظ نجاحها محدودة. فنسبة النّجاح في التوقّع تكون عالية مرتفعة في الأبنية اللّفظيّة بأنواعها (حرف الجرّ "في" مثلا بعد فعل يتعدّى به...) أو في الصّفات الجارية مقترنة بموصوفات مخصوصة في سياقات بعينها أو في الأدعية أو في خطابات طقوسيّة ذات بنية متوارثة تتردّد على مرّ الأزمنة لا تتغيّر، أو في غير ذلك من المركّبات عند الأشخاص الّذين ينجزون خطابات ثابتة الملامح بوجه يُتوقّع فيه ما لم ينطق به بعد على أساس المنطوق فعلا. فهذا المظهر قائم على نوع من التّعوّد العصبيّ أساسه

---

330 lexical access

المنعكسات الشّرطيّة على أساس التّرابطات العصبيّة يكون بها سماع اللّفظ في موقع ما من الخطاب قادحا للّفظ المشارط له في إبّانه وعند أوانه.

ويكون التّوقّع يسيرا ناجحا عندما يتعلّق بمركّب أو وحدة معجميّة بعينها في كلام شخص معروف بترديدها فتحفظها ذاكرة من يعرفه معرفة جيّدة وعاشره مدّة سواء أكان ذلك في مستوى الشّخص أم في العائلة أم في مستوى أعمّ يجري في وسائل الإعلام (تلفزيون، راديو، إلخ). بعبارة أخرى هو توقّع قائم على مظهر بنيويّ لغويّ من قبيل الّذي أسلفنا ولكنّه مشروط بمعرفة ومعاشرة سابقتين. فهذا توقّع غير مطّرد من كلّ سامع، فأساسه التّعوّد المحدود بالمقام والحياة.

ومن مظاهر التّوقّع أن يعين المدرّس تلامذته في الأجوبة بنطق حرف أو مقطع بدئيّ من الكلمة المطلوبة، موحيا بنصفها الثّاني، وهو ما به تتدع وحدة معجميّة في أذهانهم بحضور نصفها الأول. وهو أمر ينجح في نسبة كبيرة. ولكن كما هو معلوم من التّجربة قد يكون توقّع التّلميذ خاطئا فيكون الضّحك أو السّخرية حسب المقامات ونوع الفارق بين المتوقّع المناسب والجواب المنجز.

وكذا الأمر في الشّعر، حيث لا شيء ينبئ عن القافية، ولا عن الرّويّ في فضاء البيت الأوّل من القصيد. وإن كان ذلك ممّا يتيسّر في غضون القصيد فإنّ التّوقّع وإن كان صعبا محكوم بالبنية العروضيّة: فالعمود الشّعريّ (مواضعة الموازين الشّعريّة) تفرض جملة من القيود تتأسّس في مطلع القصيد وتُحترم في سائر الأبيات منه، فإذا كان توقّع القافية في المطلع ممكنا ولكن حظوظ نجاحه قليلة فهو أكثر نجاحا في سائر الأبيات بحكم ما كان به تحديد الرّويّ أو القافية في المطلع، فهذا توقّع للدّوريّ الإيقاعيّ الموسيقيّ. ولكنّ توقّع القافية أو الرّويّ في مطلع القصيد قد يمهّد له في إطار المواضعة العروضيّة دائما، بظاهرة التّدوير حيث يرد ذكر ما يمهّد للقافية في المصراع

الثّاني ويوحي بها، فيمكن حينئذ توقّع القافية أو الرّويّ من حيث شكله الصّرفصوتميّ (أي مقطع أو حرف بعينه)، يكون ذلك استباقا لقافية الصّدر لا توقّعا لوحدة معجميّة تحمل تلك القافية بعينها. فهو توقّع منقوص فيه قسم كبير من الفشل. ينضاف إلى جميع ذلك ما به يزداد الأمر تعقّدا بالقياس إلى الشّعر المقفّى تقفية أحاديّة بسيطة، عندما يتعلّق الأمر بالتّقفية المركّبة في ظاهرة لزوم ما لا يلزم، كما تتجلّى في لزوميّات المعرّي، واحدا من كثير، وكذلك الأمر في الموشّحات ذات التّقفية المتبدّلة والأبنية العروضيّة المتداخلة.

ومن موانع الاطّراد في ظاهرة التّوقّع في الشّعر ظاهرة الضّرورة أو الاضطرار عامّة وفي القافية خاصّة. والضّرورة مقبولة في عرف الشّعراء ونقّاد الشّعر، وهي إذ كانت كذلك تمثّل خروجا عن النّمط القياسيّ أو المعهود في رصف الكلام من حيث الأبنية الصّوتيّة والصّرفيّة والإعرابيّة، قد يقارب درجة اللّحن أو الغلط. فإذا كانت الضّرورة على هذا، كان التّوقّع فيها صعبا ممتنعا إن لم نقل مستحيلا من زاوية السّامع يستبقها ومحالا من زاوية المعنى. يقول أبو هلال العسكريّ (تـ 395):

> "ومن عيوب القوافي أن تكون القافية مستدعاة لا تفيد معنى، وإنما أوردت ليستوي الرويّ فقط، مثل قول أبي تمام:
>
> كالظبية الأدماء صافت فارتعت... زهر العرار الغضّ والجثجاثا
>
> ليس في وصف الظبية أنها ترتعي الجثجاث فائدة، وسواء رعت الجثجاث أو الثلام أو غيره من النبت." (كتاب الصناعتين: 359).

توقّع اللفظ في إطار المعالجة اللغويّة

تجري ظاهرة التّوقّع في الكلام المنطوق المسموع وفي الكلام المكتوب المقروء. ولعلّها ترتبط بمهارات عصبيّة عرفنيّة عليا من قبيل التّعوّد والمنعكسات الشّرطيّة وآثار الذّاكرة جملة من الآليّات، وترتبط بجملة من

الملكات أو المهارات لعرفنيّة من قبيل التّناظر و لخطاطة وما إليها. وفي ما يلي بعض لمعالم في تفسير هذه الظّاهرة في بعض الأطر النّظريّة المكوّنة للمناويل اللّسانيّة في معالجة الكلام.

وفي العموم تتوفّر ثلاثة تّجاهات في هذا المبحث: اتّجاه الإنشاط[331] حيث تقوم المعلجة اللّغويّة على آليّة الاهتداء لمتوازي وعلى مفهوم الإنشاط الانتشاري[332]، ونموذجها نظريّة اللّوغونات (مورطون). واتّجاه المعلجة الحوسبيّة في الاهتداء المعجمي[333] (فورستر[334] 1989: 76) حيث يُعتبر الاهتداء المعجميّ شبيها باستحضار المعلومات المخزّنة في الحاسوب مرتبطا - من حيث سرعته - بما به يكون تخزين المعلومات وتصنيفها وتنظيمها. واتّجاه الإنشاط والفحص[335] حيث تنشط جملة من الوحدات المعجميّة تترشّح للعبارة ثمّ تُفحص للتّأكّد من صلاحيّتها ويكون اختيار أفضلها (نظريّة اللّفات (لوفلت[336] (1989)).

توقع اللفظ في إطار نظريّة اللوغونات

تمثّل نظريّة اللّوغونات[337] (مورطون[338] 1969، 1979) نظريّة عامّة في الاهتداء المعجميّ في إنتاج الكلام وفي تحليله (انظر التّفاصيل في الزّنّاد: نظريّات (92-93)): يتكوّن جهاز إنتاج الكلام من أربع محطّات: النّظام العرفنيّ ونظام اللّوغونات[339] وحافظة الاستجابة[340] فالاستجابة المنطوقة[341].

---

331 Activation
332 Spreading activation
333 Computational theories of lexical access
334 Forster 1989
335 Activate and check
336 Levelt
337 Logogen Theory
338 Morton 1969, 1976, 1979, 1982
339 Logogen system
340 response buffer
341 spoken response

اللّوغون (الوحدة المعجميّة) آليّة تجمع المعلومات أو المؤشّرات الّتي يكون بها سبر صلاحيّة كلمة للتّعبير عن مفهوم ما. وتنشط اللّوغونات جميعها بصفة متوازية متزامنة في البحث عن المعلومات المخصوصة بكلّ واحد منها. والنّظام العرفنيّ موطن الوظائف المعيوميّة والنّحويّة والوظائف الذّهنيّة الرّمزيّة العليا، ولذلك يمثّل مصدر المعلومات الّتي تثير اللّوغونات. يشتغل نظام اللّوغونات على أساس الاهتداء المتواري.

ولكلّ لوغون عتبة[342] إثارة يبلغها عند تجمّع المعلومات فينقدح أي يجعل الشّكل الصّرفصوتميّ متوفّرا للاستعمال، ويرسل اللّوغون تلك الشّفرة الصّوتميّة إلى حافظة الاستجابة حيث تستقرّ تلك الشّفرة زمنا وجيزا لتُصدر حافظة الاستجابة الأوامر النّطقيّة الحركيّة لإحداث الاستجابة المنطوقة وينزل عندها مستوى نشاط اللّوغون إلى درجة الصّفر. ويذهب مورطون إلى أنّ جميع اللّوغونات الّتي يقتضيها إنجاز جملة ما تنشط متزامنة متوازية تستوي جاهزة للنّطق استواء واحدا في حافظة الاستجابة، ولكن قد يقتضي التّقطيع ترتيبها بوجه ما لأسباب عديدة، فيظلّ جميعها نشطا جاهزا في حافظة الاستجابة ريثما يكون دوره في الإنجاز.

وترتبط عتبة الإثارة في كلّ لوغون بدرجة التّواتر الّتي تكون في إنشاطه وبالفاصل الزّمانيّ ما بين أوان إثارته وآخر ما أثير فيه ذلك اللّوغون في ما مضى. وأمارات ذلك الإجرائيّة ما يكون من وقفات أو تردّد في الكلام عامّة أو في بعض الكلمات المخصوصة تبعا لعدد من العوامل من أبرزها طبيعة الكلمة من حيث تواترها أو ندرتها وكذلك ملابسات المقام ومقتضياتها، وتفسّر نظريّة اللّوغونات الفوارق الزّمانيّة الكائنة في استحضار الكلمات وفق التّواتر في الاستعمال، فالمتواتر من اللّوغونات ذو عتبة يبلغها سريعا فيكون

---

342 threshold

إنشاطه سريعا، أمّا النّادر أو ما كان ذا تواتر محدود فذو عتبة عالية ولذلك يقتضي إنشاطه زمنا أطول.

فلو طرحنا المسألة في إطار نظريّة اللّوغونات لكان تحليلها في منطلقها على أساس التّناظر بين ما يجري في دماغ المتكلّم منتجا وما يجري في دماغ السّامع محلّلا (مؤوّلا وفاهما):

ما ينشط من اللّوغونات في ذهن المتكلّم في ضوء مقاصده ينشط قبل أن تنشط تلك اللّوغونات عند السّامع، ولكن بالتّقدّم في الخطاب وسلسلة الكلام يكون التّساوي بينهما - وهذا معلوم- وبناء على ما نشط في ذهن السّامع من اللّوغونات وعلى انحسار المجال المفهوميّ شيئا فشيئا تتقلّص احتمالات الاختيار بين اللّوغونات عند كليهما، فيكون المتوقّع من اللّوغونات معلوما - بمعنى جاهزا في شكل شفرة صرفصوتميّة ليتحقّق صوتيّا- قبل الأوان، وهنا ينقدح اللّوغون عند السّامع في شكل شفرة صرفصوتميّة وإن لم يسمعه بمعنى لم تكن إثارته صوتيّا. فيكون التّوقّع بمعنى الاهتداء الذّهنيّ إلى الوحدة المعجميّة الّتي "ينوي" المتكلّم أو "ينبغي" عليه أن ينطق بها. هذا في المنثور ولنا عود إلى المنظوم إذ تثير القافية والبنية العروضيّة عمليّات في الاهتداء فيها شبه بما مضى وأخرى مخصوصة به.

توقّع اللفظ في إطار نظريّة اللمّات

يكون إنتاج الكلام - لوفلت (1989)- على خطوتين كبريين: خطوة المخطّط الأكبر[343] وخطوة المخطّط الأصغر[344]: تتبلور في المخطّط الأكبر المقاصد التّواصليّة[345] بأنواعها وفي ضوئها تُنتقى المعلومات وتكون معالجتها من حيث تخطيطها وترتيبها المعلومات واستحضارها من رصيد

---

[343] Macroplanning
[344] Microplanning
[345] communicative intention

الذّاكرة وتحديد مراتبها في سلسلة الكلام عند التّعبير وفق المعطيات المقاميّة بأنواعها. وتتشكّل في المخطّط الأصغر العبارة ببناء المعلومات بوجه يتبيّن به السّامع المقاصد التّواصليّة. وفيه تتحدّد سلّميّة المفاهيم وبنيتها (البنية المحوريّة، القيمة الإخباريّة، زاوية النّظر، الأزمنة، إلخ)، وفي نهاية هذا المخطّط تستوي الرّسالة ما قبل-الكلاميّة (ما قبل النّطقيّة). وقوام المعالجة ومنطلقها هو اللّمّة: وحدة دلاليّة مفهوميّة بخصائص شكليّة صرفصوتميّة.

ويمثّل جهاز المعالجة اللّغويّة واحدا من نظم عرفنيّة عديدة تشتغل متوازية متفاعلة متزامنة اشتغالا مرحليّا يتحوّل فيه الدّخل ليعطي خرجا إلى أن تستوي الرّسالة قابلة للتّقطيع. وفيه أربعة من مكوّنات:

أ- المتصوّر[346]: هو 'النّظام العرفنيّ' في مفهومه الشّامل مضمونا ومعالجة، وفي هذا المستوى يتهيّأ المضمون الذّهنيّ ويكتمل قبل أن يأخذ تشكّلا تعبيريّا في المطلق أو لغويّا معيّنا.

ب- المعبّر[347]: نظام التّشفير اللّغويّ من حيث الاهتداء إلى اللّمّات (المظهر المعنويّ الإعرابيّ) من المعجم وإجرائها في أبنية مقوليّة إعرابيّة تتشكّل بها الرّسالة في بنية تكتمل باشتغال المشفّر الصّرفصوتميّ الّذي يتولّى تكوين المخطّط الصّوتيّ بالاهتداء إلى المعلومات الشّكليّة الّتي للوحدات المعجميّة، وهو ما يتحوّل بعد ذلك إلى حركات نطقيّة بفعل المقطّع[348]. وفي هذا الطّور تستوي الرّسالة كلاما.

ج- المقطّع: يتحدّد فيه المخطّط الصّوتيّ الّذي تحقّقه أعضاء النّطق والتّصويت باتّباع الأوامر العصبيّة-العضليّة الّتي بها يتحوّل المخطّط إلى كلام ظاهر.

---

[346] Conceptualizer
[347] Formulator
[348] Articulator

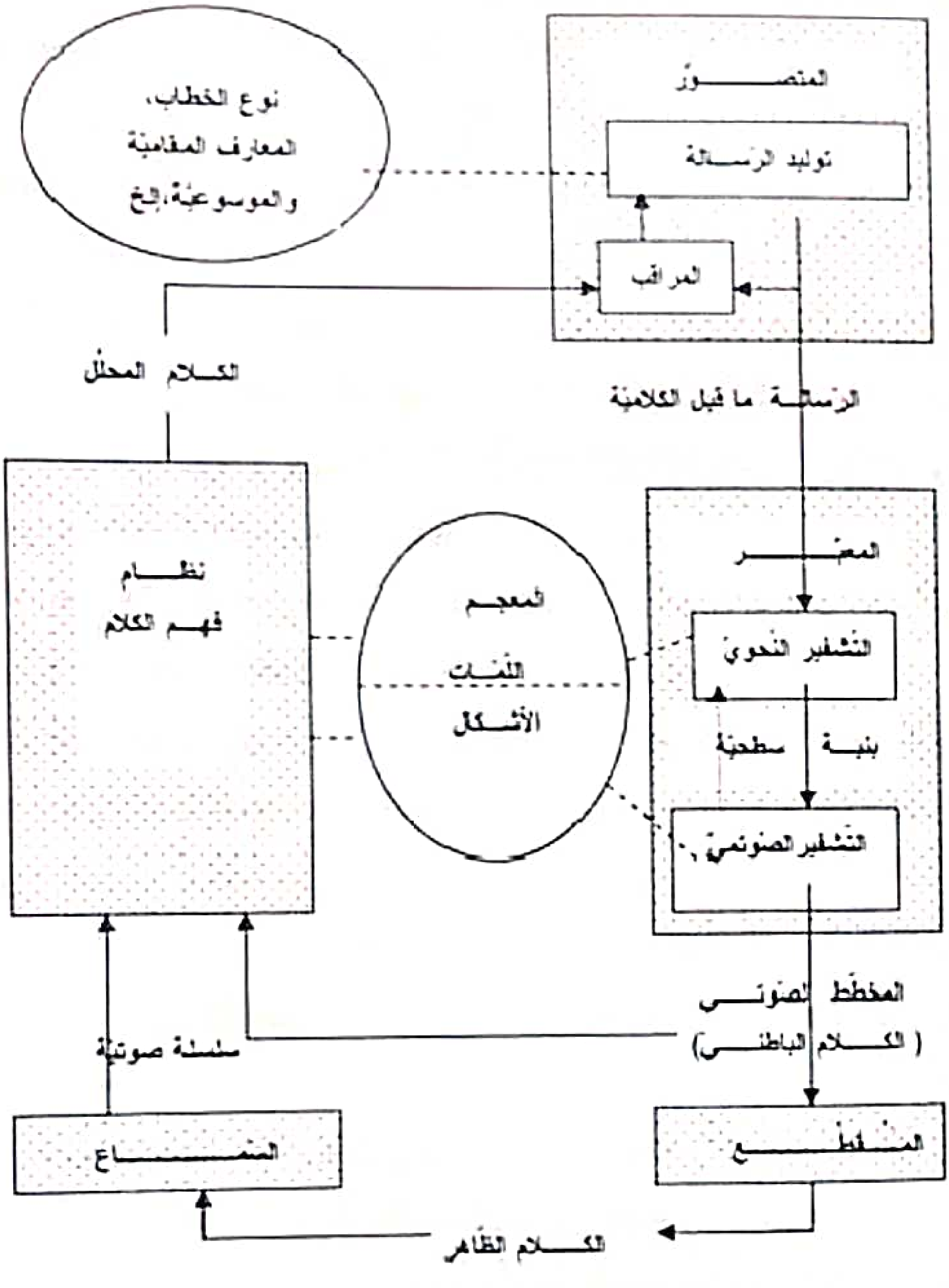
د- نظام فهم الكلام[349] (أو المحلّل) جملة الآليات الّتي يتمكّن بها النّظام التّصوّريّ من استرجاع[350] الكلام الدّاخليّ والكلام المنجز لتحقيق المراقبة الذّاتيّة بالمقارنة بين ما قصد في المتصوّر وما صيغ في المعبّر وما بلغ في الكلام المسموع. ملخّص ذلك في التّمثيل الوارد بعد هذا.

ظاهرة التّوقّع من عمل السّامع في ذهنه أي في مستوى المحلّل من الجهاز الوارد أعلاه، هي عمليّة تستدعي التّناظر بين ما يجري في الذّهن مركّبا وفي الذّهن محلّلا سواء أكان ذلك في مستوى دماغ الشّخص الواحد أم في مستوى دماغي الشّخصين المتخاطبين. وهو في العموم منتظم وفق المراحل التّالية متتابعة و/أو متزامنة: سماع جزء من الكلام والبقيّة في طريقها لم تنطق بعد أو لم تسمع، فكّ الشّفرة بأنواعها الصّوتميّة الصّرفيّة واقترانها بمداليلها ومفاهيمها المناسبة عن طريق الإنشاط (معجم اللّفات)، التّأليف بين تلك المفاهيم يوفّر إطار التّوقّع أي استباق المفهوم الّذي تستدعيه المفاهيم المنشّطة قبل أن يحصل شكله الصّوتميّ في جهاز التّحليل، ثمّ نطق اللّفظ المتوقّع، وهو أمر كما أسلفنا قد يكون ناجحا أو فاشلا وفق درجات المطابقة بين اللّفظ الوارد أو المراد وما اهتدى إليه السّامع متوقّعا إيّاه. وجميع ذلك جار على غاية من السّرعة وفي أمدية زمنيّة قد تقصر وتطول تبعا لنوع الخطاب ومجاله ولمعرفة السّامع بذلك المجال ولمهاراته فيه.

---

[349] Speech-comprehension system
[350] Feedback

جهاز المعالجة اللّغوية (لوفلت 1989: 9)



فالتّوقّع في المطلق مهارة عرفنيّة تستبق بها الذّات الذّكيّة الشّيء المتوقّع قبل حدوثه أو تحقّقه، هي مهارة تبني الممكن على الحاصل، والمفترض على مقدّمة قد تتنوّع طبائعها من مخزونات التّجربة، كأن يتوقّع سائق السّيّارة طفلا يعدو ليقطع الطّريق عندما يرى كرة طائرة خارجة من بين الأشجار على حافّة الطّريق المعبّدة فيخفض من سرعته ليجتنب الاصطدام به، جميع ذلك بحكم معرفته بسلوك الأطفال وارتباط الكرة بلعبهم وما إلى ذلك. فالتّوقّع جزء من الحياة اليوميّة البسيطة في أدقّ مظاهرها، وهو كذلك في التّخاطب قائم على عناصر خطابيّة معطاة حاصلة بأيّ وجه كان، ولكنّ الكمّيّة اللّفظيّة المتوقّعة تكون دائما أقلّ من الحاصل المعطى. يصحّ ذلك في الوحدة المعجميّة البسيطة يكون بعض من حروفها أساسا لتوقّعها كاملة، وكذا المركّبات أو الجمل.

وللسّياق والمقام والمعرفة بالكون والتّجربة، دور مركزيّ في التّوقّع اللّغويّ، ففي إكمال العبارة التّالية "لم يجد السّارق صعوبة في العثور على النّقود، فقد كانت مخفيّة في..." قد تتوفّر إمكانيّات عديدة حسب الإطار الثّقافيّ الّذي ينتمي إليه الشّخص، من ذلك أن تكون (خلف اللّوحة الجداريّة) لمن كان تزيين الجدران باللّوحات الزّيتيّة جزءا من إطاره الثّقافيّ، أو تكون "في خزانة الأدباش" لمن كان ذلك جزءا من إطار عيشه، ولمَ لا تكون "في الوسادة" أو "في الحاشية" وما إلى ذلك من العادات الّتي تكون للنّاس في إخفاء الأموال وحفظها.

فمهارة التوقّع جارية وفق خطاطات عرفنيّة تشتغل بصورة آليّة على بناء خطاطة مكتملة بالاعتماد على المتوفّر من العناصر توفّرا جزئيّا، فالتّوقّع عمليّة إكمال أو ملء للفراغ في بنية خطاطيّة يكون إنشاطها بفعل ما ورد من منبّهات في الخطاب أو في التّجربة. وكذا الأمر في الخطاب، يكون التّوقّع محكوما بالعادة الثّقافيّة عند الفرد أو الجماعة عامّة أو مجموعة منها

مخصوصة. فالمتوقّع هنا يكون جزءا من الرّوتين الجماعيّ: كأن نتوقّع بعد ذكر عدد من الكلمات نوعا من الدّعاء أو التّنزيه كما هو الأمر في الخطاب الدّينيّ، حيث يكون ذكر اللّه متبوعا دوما بسبحانه، وذكر الرّسول متبوعا بصلّى الله عليه وسلّم واسم الصّحابيّ متبوعا برضي اللّه عنه، وذكر اسم وليّ صالح متبوعا، عند العامّة، بعبارة "يعطينا رضاه"، وما إلى ذلك. وجميع ذلك محكوم في مستوى البنية الجمليّة بقواعد النّحو جميعها حيث يمكن توقّع مركّب بعينه لمقتضيات البنية الإعرابيّة أو بحكم التّعوّد كذلك. فالتّوقّع ناجح في الرّوتينيّ الّذي يشتغل اشتغالا آليا (التّعوّد والدّربة والمتداول المتواتر) وغير ناجح في ما عدا ذلك.

توقع اللفظ في نظام النورون المرآة

تتمثّل وظيفة المنظومة المرآة (النّورون المرآة) في تحويل التّمثيلات الحسّيّة المتعلّقة بالأعمال الحركيّة المرئيّة أو المسموعة، إلى تمثيلات حركيّة لتلك الأعمال نفسها، وفي تحويل الوضعيّات العاطفيّة إلى استجابات مماثلة للاستجابات الّتي يشعر بها الفرد الّذي يعيش تلك المشاعر حقيقة فتعطي هذه المنظومة الفرد إحساسا مباشرا بما يشعر به الأفراد الآخرون؛ وفي تحويل الأصوات المسموعة إلى أعمال حركيّة قادرة على إنجازها نطقا أو تقطيعا، يكون ذلك في إنشاط العضلات النّطقيّة الّتي تحرّك عضلات اللّسان عند سماع الأصوات اللّغويّة. وتوفّر النّظم المرآة أساسا لعيش الفرد في المجموعة بأنواعها من حيث يتمكّن بواسطتها من تبيّن المقاصد والنّوايا بناء على ما يشاهده من علامات وأعمال تكون من مظاهر السّلوك بأنواعه. وتمكّن الفرد كذلك من تصوّر المشاعر وتعلّم التّجارب الجديدة عن طريق المحاكاة. والأساس في جميع ذلك أنّها منظومة بها يتمكّن الفرد من تعديل أعماله أو ردود أفعاله في ضوء ما يتوقّعه من سائر الأفراد من تعاون أو

عداء أو غير ذلك من الأعمال؛ (انظر التفاصيل في فقرة "النورون المرآة" في الفصل الأول من الباب الأول).

وإذ يكون ذلك، يكون توقّع اللفظ، في معناه الواسع، أي توقّع المكوّن المعجميّ عند الفرد قبل أن ينطق به مخاطبه، أو اللفظ الحامل لقافية بعينها، أو استباقه نطقا أو لفظا قبل أن ينطق بالعبارة كملت أو نقصت، وما إلى ذلك من النماذج، يكون جميع ذلك بتوسّط المنظومة المرآة. فسماع اللفظ، طال أو قصر وليكن مفردة أو مركبا جمليّا أو بعض بيت من الشعر، يثير عند السامع مخطّطا صوتيّا على تلك الترجات بمعنى جملة الأوامر العصبيّة الحركيّة التي بها يكون الإنجاز الصوتيّ النطقيّ في مستوى أعضاء التقطيع، وإذ يستوي ذلك المخطّط أمكن توقّع ما هو من المخطّط قبل أن ينطق به القائل وهو يتّبع نفس المخطّط في صورته عنده وهي صورة مطابقة لتلك التي نشأت عند سامعه.

خطية الجسد اللغويّ

تكون العناية في هذه الفقرة بالخطّيّة من حيث هي محرّك الظواهر اللغويّة التي تستغلّ فيها الخطّيّة في إنشاء المعنى حسب ثالوث متكامل من المحاور أو المستويات فيها: أوّلها الخطّيّة الصغرى[351] أي خطّيّة الكلمة[352] تهمّ بنية الكلمة في مستوى الوحدات المعجمية في ضوء أحكام البنية الصرفيّة والعروضيّة في تتابع مقاطعها وأصواتها وما إلى ذلك. وثانيها الخطّيّة الوسطى[353] أو الخطّيّة الجمليّة[354] تهمّ تتابع الكلمات في مستوى الجملة الواحدة حيث تحكمها خطّيّة هرميّة تتوزّع بمقتضاها عناصر الإسناد

---

351 microlinearity
352 word linearity
353 middle linearity
354 sentential linearity; sentence linearity

ومنمّماته وفق التّرتيب المعلوم، وثالثها الخطّيّة الكبرى[355] أو الخطّيّة الخطابيّة[356] (النّصّيّة) تهمّ تتابع الجمل أو المقاطع (وما جرى من أبعاض الخطاب أو النّصّ) في مستوى الخطاب أو المحاورة وما إليها. وننظر في ما يأتي في ظاهرتين من كثير محكومة بالخطّيّة، هما التّقديم والتّأخير، واللّعب اللّغويّ بالتّركيز في استغلال الخطّيّة بابا على مطاطيّة القراءة والتّأويل.

التّقديم والتّأخير

أثبتنا في ما مضى أنّ جسد اللّغة خطّيّ وأنّه كائن في الزّمان. وإذ كان كذلك كان تصوّر سلسلتها على أنّها مواضع أو محلاّت متسلسلة متتابعة مرتّبة في الزّمان. ولهذا التّرتّب بعدان ضروريّان لا محيد عنهما: سبق ولحاق للحتميّة الزّمانيّة المقترنة بطبيعة جهاز التّقطيع. وذانك البعدان تتقاسمهما محاور مختلفة يناسب الموضع الواحد وما يحلّ فيه منزلة قيميّة من زوايا متعدّدة: فالسّابق أهمّ وأفضل من اللاّحق، هذا في المطلق وقد يكون العكس حيث يكون عكس التّرتيب إيذانا برفعة الشّأن من زاوية عرفنيّة إخباريّة دون شكّ. فمن التّحقّقات ما يوافق التّرتيب المعياريّ النّموذجيّ السّائد ومنها ما يخرج عنه. وقد اجتمع جميع ذلك في ما يسمّى بظاهرة التّقديم والتّأخير. وإن كنّا نستعمل المفهوم بقسميه فلمجاراة المعهود، وكان من الأولى أن نكتفي بالحديث عن التّقديم أو عن التّأخير، فحدوث الواحد منهما مقتض للآخر مستوجب إيّاه.

تجري هذه التّسمية على ما يطرأ على ترتيب الوحدات في فضاء الجملة من تشويش بالقياس إلى ترتيب معياريّ في النّحو بمعناه الذّهنيّ. وهي تسمية غلب فيها المنزع المدرسيّ وصفا وتحليلا من حيث اعتبر التّرتيب المعياريّ أو النّموذجيّ قالبا لا يمكن الخروج عنه فكان الخروج نوعا من

---

[355] macrolinearity
[356] discourse linearity; text(ual) linearity; discursive linearity

الشّذوذ وجب تبريره بواحد من أمور عديدة أهمّها مقاصد اختياريّة تكون للمتكلّم وأخرى ضرورة لا محيد عنها. فالضّرورات تشمل عددا من الظّواهر يكون تفسيرها بقيود تفرضها أطر تتجاوز في العادة البنية النّحويّة الإعرابيّة وتتعلّق بالبنية العروضيّة (الشّعر، السّجع، وسائر الظّواهر البديعيّة في الوصف البلاغيّ عامّة، إلخ) وما إليها. وأمّا المقاصد الاختياريّة فهي ما يتصوّر من غايات تكون للمتكلّم عندما يعمد إلى تشويش ذلك التّرتيب المعياريّ من قبيل الإبراز والتّسطير والإقناع والتّشويق والتّأثير، إلخ. وهذا التّشويش ظرفيّ سياقيّ ومقاميّ لا يمكن أن يحدّ بقواعد في المطلق، وإن كان ذلك فلغاية تعليميّة في البداية قد تتأصّل في الملكة فتصير ضابطا لا محيد عنه.

لنأخذ، مثلا، تقديم الخبر المشروط بأمرين هما كونه مركّبا بالجرّ وكون المسند إليه نكرة، كما في قولك:

- في الدّار رجل.

فأنت واجد النّاس بين أمرين:

واحد يعتبره معيارا لا محيد عنه، وخلاف ذلك خطأ أو لحن. فهو يلتزم بنصّ القاعدة ولا سبيل عنده إلى أن يجري خلافه:

- * رجل في الدّار.

ويسرد لك قاعدة تتراجع أصداءها مصنّفاتُ النّحو القديم منثورها ومنظومها.

وآخر يقبل ذلك أي يقبل ورود المسند إليه النّكرة في محلّ الابتداء والمركّب بالجرّ في محلّ الخبر، ولكنّه يبحث عن تعليل غائيّ لذلك.

ففي الحالتين يكون التّرتيب المعياريّ لحاقَ المسند إليه النّكرة على الخبر المركّب بالجرّ. وهذه الظّاهرة- عند التّأمّل- غير مطّردة في السّلوك اللّغويّ العفويّ، وإنّما ركّزها تحليل مدرسيّ تعليميّ.

ومن الحجج المناقضة لهذا الموقف أنّ اللّهجات العربيّة الحديثة قد لا يتوفّر فيها تأخير المسند إليه النّكرة في حال كون خبره مركّبا بالجرّ، تأخيرا اضطراريًا. ومن ذلك العربيّة التّونسيّة حيث يقال في الأغلب المتواتر (راجل في الدّار) أي (رجلٌ في الدّار) وإن جرى في الكلام التّرتيب الآخر (في الدّار راجل) أي (في الدّار رجلٌ)، فذلك على أساس التّكافؤ بينهما ليس غير.

وحجّة أخرى تدعم حرّيّة التّرتيب في هذه الحال، وهي من مستوى الكلّيّات اللّغويّة، حيث تصنّف اللّغات وفق ترتيب العناصر الجمليّة إلى الأبنية المعلومة: ف فا مف، فا ف مف، إلخ. ولا سبيل إلى إثبات كون العربيّة متفرّدة بإجراء قاعدة تقديم في بنية الجملة الاسميّة، في حال توفّر الشّرطين المذكورين في نموذجنا. فيمكن أن يكون هذا النّمط نوعا من ترتيب العناصر في فضاء الجملة الاسميّة الّتي تتحقّق على الوجوه المعروفة، فيكون لنا حينئذ: الرّجل في الدّار، في الدّار الرّجل، رجل في الدّار، في الدّار رجل.

فما يبقى إذن هو أن يندرج ما يسمّى بظاهرة التّقديم (أو التّأخير) - والأولى أن نكتفي في تسميتها بشقّ واحد فكلّ تقديم يقتضي تأخيرا ويتضمّنه ضرورة- وتنضاف إليها ظاهرة الاعتراض، في نوع من الأبنية الّتي يتحقّق فيها المضمون العرفنيّ الواحد. وما تلك التّحقّقات إلاّ موارد مختلفة يمكن أن يصاغ فيها ذلك المضمون. وفي هذا المستوى تكون الجملة في خطّيّتها عددا من المواقع الزّمانيّة هي سبق ولحاق، فما يبادر إليه الاهتداء المعجميّ يكون مبادرا في التّحقّق وما يتلوه يكون مواليا.

يجعل الجرجانيّ التّقديم والتّأخير نوعين: تقديما يبقي على الحكم الإعرابيّ وتقديما يغيّر الحكم الإعرابيّ (دلائل الإعجاز: القول في التّقديم والتّأخير، 83): أولهما "تقديم على نيّة التّأخير كتقديم الخبر على المبتدأ، والمفعول على الفاعل مع إقرار كلا العنصريْن على حُكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه، كقولك "منطلقٌ زيدٌ" و"ضرب عمرًا زيدٌ" فقد بقيت كلمتا

"منطلقٌ" و"عمرا" على الحكم الذي كان لهما قبل التّقديم والتّأخير، لم يزل عنهما (دلائل: 83). وثانيهما "تقديم لا على نيّة التّأخير ولكن على أن تنقل الشّيء عن حكم إلى حكم وتجعله بابا غير بابه وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كلّ واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له فتقدّم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق حيث تقول مرّة: "زيد المنطلق"، وأخرى: "المنطلق زيد" (دلائل: 83). وهي حال لا يعتبرها تقديما أو تأخيرا وإنّما هي نقل للمكوّن من حكم الخبر مثلا إلى حكم المبتدأ أو العكس. فهذه الظّاهرة ليست من التّقديم وإنّما هي تركيب لجملة جديدة، وليس من المفروض أن يكون التّرتيب الواحد منهما ذا صلة بالآخر أي تقديما له أو تأخيرا.

وإذ كانت الجملة فضاء خطّيًا تترتّب فيه العناصر ترتيبا نموذجيًا أو طرازيًا، يُعتبَر ما خالف ذلك التّرتيب تقديما لعنصر أو أكثر وتأخيرا لعنصر آخر أو أكثر بالاستتباع. ولئن استحال ضبط قواعد جزئيّة تحكم هذه الظّاهرة فإنّ بعض المبادئ الكبرى كافية في ذلك، وهي متأسّسة على الإخبار أو الإفادة التّواصلية من حيث جعلت المنزلة الأولى أو الأسبقيّة في الانتظام الخطّيّ الزّمانيّ محكومة بدرجات من الضّرورة على سلّم الأهمّيّة الإخباريّة والتّأويليّة. ويمكن أن نكتفي في هذا السّياق بمبدأين عامّين يحكمان جعل العنصر في المرتبة الأولى؛ هما مبدأ نظاميّ نحويّ تأويليّ يلزم بمقتضاه العنصر مرتبة الصّدارة، ومبدأ تداوليّ (سياقيّ مقاميّ مقصديّ) يرد بمقتضاه العنصر محطّ العناية في صدر الكلام.

فالمبدأ النّظاميّ النّحويّ التّأويليّ يفرض أن تكون الصّدارة وجوبا لجملة من العناصر النّحويّة الّتي تمثّل "مفاتيح" الفهم والتّأويل من قبيل أدوات الاستفهام وأدوات الشّرط وما إليها ممّا يوجّه الكلام توجيها دلاليًا ما. وموجز ذلك في قول الأستراباذيّ: "وإنّما كان للشّرط والاستفهام والعرض والتّمنّي

ونحو ذلك ممّا يغيّر الكلام مرتبةُ التّصدّر، لأنّ السّامع يبني الكلام الّذي لم يصدّر بالمغيّر على أصله، فلو جوّز أن يجيء بعده ما يغيّره لم يدر السّامع إذا سمع بذلك المغيّر أهو راجع إلى ما قبله بالتّغيير أو مغيّر لما سيجيء بعده من الكلام، فيتشوّش لذلك ذهنه." (شرح الكافية 1: 193). وهذا لا يمنع خلاف هذه الحال، إذ يكثر في الكلام أن يتخلّل "المغيّر" عناصر الجملة أو يلحق عليها في التّرتيب الخطّيّ، والمعنى واحد.

وأمّا المبدأ التّداوليّ (السّياقيّ المقاميّ المقصديّ)، فيوجزه عبد القاهر الجرجانيّ ناقلا عن سيبويه في أنّهم "يقدّمون الّذي بيانه أهمّ وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم" (دلائل: 84). وتحكم جميع ذلك "أغراض النّاس" وتوقّعاتهم الذّهنيّة – عند الجرجانيّ- إذ يفترض لبيان ذلك الواقعة التّالية: رجل خارجيّ، يعيث فسادا، فيريد النّاس قتله، فيقتل الخارجيّ، وهناك شخص قتله، والعبارة عن حادثة القتل ذات تصريفين على الأقلّ في ضوء ما يتوقّعه السّامع في تصوّر المتكلّم: أولهما أن يريد النّاس قتلَ الخارجيّ، وهم لا يبالون من كان القتل منه، فيقدّم المخبر عند الإخبار عنه ذكرَ الخارجيّ، فيقول: "قتلَ الخارجيَّ زيدٌ". "ولا يقول "قتل زيدٌ الخارجيّ" لأنّه يعلم أن ليس للنّاس في أن يعلموا أنّ القاتل له زيد جدوى وفائدة (...) ويعلم من حالهم أنّ الّذي هم متوقّعون له ومتطلّعون إليه متى يكون القتل بالخارجيّ" (دلائل: 84). وثانيهما أن يوجد رجل لا بأس له ولا حول، فيكون منه القتل وهو غير متوقّع منه، فتقديم الفاعل واجب لأنّ المتكلّم "يعنيه ويعني النّاس من شأن هذا القتل طرافته وموضع النّدرة فيه وبعده عن الظّنّ" (دلائل: 85).

الإنسان لعبي[357] بطبعه كما يكون عارفا[358] (عارفا) أو صانعا[359] أو منتصبا[360] وما إلى ذلك من الصفات المتداولة في دراسة تاريخه التطوّري وانتظام مجتمعاته وعقائده وما إليها. ويقرّر هوستينغا (2012: 108) أنّ "اللّعب نشاط طوعيّ أو مهمّة يتمّ تنفيذها ضمن حدود معيّنة ثابتة زمانيًا ومكانيًا، وطبقا لقواعد تقبّلناها طواعية ونتقيّد بها بصورة صارمة. وهذا النّشاط ينطوي في داخله على الأهداف والغايات المتوخّاة منه، كما أنّه مصحوب بمشاعر التوتّر والفرح وبإدراك واضح بأنّه "مختلف" عن أمور الحياة المألوفة."

فجميع الثّقافات تعرف اللّعب بأنواعه عامّة ونوعا من اللّعب بالكلام منطوقا أو مكتوبا، بصفة مخصوصة، وجميعها يستغلّ في ذلك موارد الخطّيّة اللّغويّة في الزّمان كائنة في شكلها المنطوق وفي الفضاء كائنة في شكلها المكتوب. وهذا باب ذو صلة بالإلغاز رياضة لغويّة فكريّة (الأحاجي، الألغاز، إلخ) وبالشّفرات السّرّيّة في مستويات تعقّدها المختلفة وما إلى ذلك، وليس من اللّغة السّرّيّة تصطنعها الجماعات المغلقة بأنواعها أو ما شابهها.

ولعلّ اللّعب اللّغويّ يمثّل طورا أقصى بلغته مهارة الإنسان في امتلاك اللّغة وتصريفها في الاستعمال، فهو ظاهرة تمثّل تجاوزا لإجراء اللّغة الحاجيّ أو التّواصليّ الأدنى، إلى طور بذخيّ لعبيّ تبرز فيه مهارة بعض النّاس دون سائرهم وقد كانوا متساوين- نظريًا- في الإجراء الحاجيّ، هو طور يتجاوز كذلك الإجراء الفنّيّ (الشّعريّ والأدبيّ والخطابيّ) فجميع هذا متردّد بين الحاجيّ والبذخيّ، متوسّط بينهما من حيث كان المقصود به

---

[357] Homo Ludens
[358] Homo Sapiens
[359] Homo Faber
[360] Homo Erectus

التّواصل والإبلاغ، دون شكّ، والإمتاع أو الإقناع والتّأثير، وجميعها حاجيّ بوجه من الوجوه من حيث كان توظيفها لبلوغ غاية مقصودة فرديّة كانت أو جماعيّة، ظرفيّة آنيّة كانت أو ممتدّة في الزّمان وفي المكان. وأمّا اللّعب اللّغويّ فلا غاية له ما عدا تزجية الوقت والرّياضة "اللّغويّة-الفكريّة"، وهو أقصى ما يمكن أن تبلغه الطّاقة اللّغويّة.

وإذ كان الأمر لعبا وكانت اللّغة بنية ومعنى، تعلّق اللّعب بكليهما تعلّقا واحدا فنشأت ظواهر تهمّ المعنى رأسا من قبيل المقابلة والتّورية والمجاز بأنواعه، ونشأت ظواهر تهمّ الصّوت رأسا من قبيل الجناس والسّجع والتّقفية وما إلى ذلك. ولذلك كان اللّعب اللّغويّ عامّة من أبرز المظاهر الّتي يتجلّى فيها تجسّد اللّغة لأنّه يعتمد مظهرها الصّوتيّ (الهيكل البنيويّ-المقطعيّ) الخطّيّ. فاللّعب اللّغويّ منصبّ على جسد اللّغة كائنا في الزّمان كونا خطّيّا زمنيّا وكائنا في الفضاء كتابيّا. وغالبا ما يتداخل المظهران فلا ينفصلان:

فمن نماذج اللّعب اللّغويّ قلب ترتيب الحروف في الكلمة أو توليفها توليفا مخصوصا خارجا عن المألوف للتّعمية والإلغاز، وهذا ما يحدث في ظواهر عفويّة من قبيل زلّات اللّسان وما إليها من أعراض لغويّة معلومة. ومن نماذج اللّعب اللّغويّ في الأشكال الكتابيّة أن يكتب الشّاعر قصيدا يشكّله تشكيلا بصريّا مرئيّا يوحي برسم عامّ مكوّناته أسطر وكلمات موزّعة على هندسة معلومة، فيكون القصيد في شكل ربطة العنق أو الوردة وما إلى ذلك. فالشّعر في أساسه، مفهوما ونشاطا وجنسا أدبيّا، كما يقول هوستينغا (2012: 333)، "وظيفة من وظائف اللّعب إذ ينبع من ذات منطقة اللّعب في العقل البشريّ في عالم قائم بذاته من صنع العقل وإبداعه."

ومن نماذج اللّعب اللّغويّ أن تُكتب (أو تقال) عبارة - هي في الأغلب شعر منظوم - تستقيم فيها القراءة أنواعا من الاستقامة وفق أنواع من الاتّجاهات مفردة أو متعدّدة متوازية أو متقاطعة: يمينا وشمالا أو صعودا

ونزولا، أو أفقيا وعموديّا (الكلمات المتقاطعة، مثلا)، وما إلى ذلك. وجميع ذلك لا ينفكّ فيه المتكلّم (الكاتب) يستغلّ بنوع من الرّياضة واللّعب خطيّة الرّسالة اللّغويّة منطوقة كانت أو مكتوبة. ومن النّماذج ما يحفل بها التّراث العربيّ، وهي في الأغلب أشعار أو مقطوعات أو أبيات، ومنها ما هو جار في حياتنا اليوميّة يعمد إليه النّاس للتّندّر أو للإلغاز أو للّعب في معناه الواسع:

(أ)- نماذج تقرأ من اليمين الـ[illegible] ال[illegible] وتتواصل القراءة نزولا كما هو معهود، بمعنى [illegible]ستقيم في جميع ذلك، وتقرأ القراءة نفسها نزولا من اليمين إلى الشّمال يستوفى الجدول الأوّل وتتواصل القراءة كذلك إلى منتهاه. ويمكن أن ينضاف إلى جميع ذلك قراءة قطْريّة فيها عبارات كثيرة بعضها مستقيم وبعضها على خلاف ذلك (وهذا يقال، كلام محال، إلخ)، كما يتوفّر في ما يلي (وفي نسبته اضطراب ولكنّ بعضهم ينسبه إلى عليّ بن أبي طالب):

الوم	صديقي	وهذا	محال
صديقي	أحبه	كلام	يقـال
وهذا	كلام	بليغ	الجمال
محال	يقال	الجمال	خيال

(ب)- نماذج تُقرأ من اليمين إلى الشّمال فيكون مضمونها مدحا وتقرأ على عكس ذلك فيكون مضمونها ذمّا أو هجاء، وفي ما يلي أبيات لإسماعيل بن أبي بكر المقري (تــ837 هــ) (مجموع المقّري: 383-384):

قراءة المدح:

طلبوا الذي نالوا فما منعوا   رُفعتْ فما حُطتْ لهم رُتَبُ
وهبوا ومـــا مُنّتْ لهم خُلُقُ   سلموا فما أودى بهم عطَبُ
جلبوا الذي يرضى فما كَسَدوا   حُمدتْ لهم شيمٌ فما كَسَبوا

قراءة الهجاء:

رتَبٌ لهم خطتْ فما رُفعتْ   منعوا فما نالوا الذي طلبـوا
عطَب بهم أودى فمـا سلموا   خلقٌ لهم مَنتْ ومـا وهبـوا
كسَبوا فما شيمٌ لهم خُمدتْ   كمدوا فما يرضى الذي جلبُوا

ومن نماذج ذلك بيتان لليازجيّ من المقامة الرّجَبية (مجمع البحرين: 144-145):

قراءة المدح:

حلموا فما ساءت لهم شيمٌ   سمحوا فما شحّت لهم مننٌ
سلموا فلا زلّت لهم قدمٌ   رشدوا فلا ضلّت لهم سننٌ

قراءة الهجاء:

مننٌ لهم شحّت فما سمحوا   شيمٌ لهم ساءت فما حلموا
سننٌ لهم ضلّت فلا رشدوا   قدمٌ لهم زلّت فلا سلمـوا

(ج)- نماذج تقرأ في الاتّجاهين (يمين- شمال) ولكن بتتبّع الحروف لا الكلمات، وهي عمليّة أمضى في الدّقّة، وبإحداث مقاطع تختلف حسب الاتّجاه، ويكون الحاصل الصّوتيّ والمعنويّ واحدا في الحالتين، على أن يكون اللّقاء بين القراءتين في حرف وسطيّ، هو المفصّلة بينهما. فكأنّ المصراعين متناظران بفعل الانعكاس على مرآتين متقابلتين، فيكون المصراع الأوّل صورة مقلوبة من الثّاني تناظره ويكون الثّاني صورة مناظرة للأوّل، كما يبين في قول اليازجيّ من المقامة البصريّة (مجمع البحرين: 156-158):

قمر يُفرط عمدا مشـــــر	ق	رشّ ماء دمع طرف يرمق
قرطه يفدي حلاه ليمـــــن	ـمـ	ـــن مياه الجيد فيه طـــرق
قيس يدعو سناه لي حتـ	ـــا	فحناه لمس وعد يسبـــــق
قـــد حلا كاذب وعد نـاـــع	لــ	ـــعبا تدعو بذاك الحـــدق
قزحت ذا عبرات أربــــع		عبرات أربع إذ تحـــــرق
قلق يلثم نادي علـــــــــ	ـــة	لبعيد لِمَ مثلي قلــــــــق
قمرة الربيع أمالت فـــــــــ	تية	أتلاها عبر لا ترفــــــق
قد حماها ركب ليل حافـــــ	ـــظ	فاح ليل بكراها محـــــدق
قر في إلف نداها قلـــــــــ	ـــه	بلقاها دنف لا يفــــــرق
قطنت هيفاء به أمنـــــــــا		إنّما هيفاء فيه تنطـــــــق
قف ألا قاض قلبي ضاق بي	رَ	بث قاصينا فضاق الأفـــق
قلم بحري سيبقى ضرمـــــــ	ـــــا	مرّ ضيق ليس يرجى ملق
قيل افتح باب حار تلفـــــــ	ـــه	قلت راح باب حتف أبـــق
قنّ مطعم دونه رذ بكـــــــــ	ـــم	كبـــــد رهنّ ودمـــع طلق

(د)- نماذج تُقرأ قراءة عاديّة من اليمين إلى الشّمال صدرا فعجزا، بيتا فبيتا، فيكون المعنى المستفاد مدحا كما يبين من الأبيات الموالية (وهي منسوبة إلى إسماعيل بن أبي بكر المقّري):

إذا أتيت نوفل بن دارم أمير مخزوم وسيف هـــاشم
وجدته أظلم كل ظالـــم على الدنـــانير أو الـــدراهم
وأبخل الأعراب والأعاجم بعرضه وســـــره المكـــاتم
لا يستحي من لوم كل لائم إذا قضى بالحق في الجرائـــم
ولا يراعي جانب المكارم في جانب الحق وعدل الحاكم
يقرع من يأتيه سن النادم إذا لم يكن من قـــدم بقـــادم

وتقرأ عموديّا من أعلى إلى أسفل بالاكتفاء بالصدر من كلّ بيت فيكون المعنى المستفاد هجاء أو ذمّا:

إذا أتيت نوفل بن دارم وجدته أظلم كل ظالـــم
وأبخل الأعراب والأعاجم لا يستحي من لوم كل لائم
ولا يراعي جانب المكارم يقرع من يأتيه سن النادم

(هــ)- نماذج (نصوص شعريّة أو نثريّة) تتضمّن نوعا من نسيج الحروف يبدأ بها المصراع أو البيت أو ينتهيان بها بوجه يتكوّن من مجموعها اسم علم أو رسالة مشفّرة لقارئ أو سامع يملك مفاتيح حلّها أو يعطيها القائل إيّاه، كما ورد في مقطوعة للمعتمد بن عبّاد (431-488 هــ/ 1040-1095م) في زوجه اعتماد حيث نسج اسمها في أوّل حرف من كلّ بيت ويشير في البيت الأخير إلى ذلك (الدّيوان: 8):

أغائبة الشّخص عن ناظري وحاضرةً في صميم الفــــــؤاد
عليك سلام بقدر الشّجـــــو ن، ودمع الشّؤون، وقدر السّهـــاد
تملّكت منّي صعبَ المَـــــرا م، وصادفت ودّي سـهل القيـــاد
مرادي لقياك في كلّ حيـــن فياليت أنّي أعطى مـــــــرادي
أقيمي على العهد ما بيننـــا ولاتستحيـــلي لطول البعـــــاد
دسست اسمك الحلو في طيّه وألّفـت منه حـــروفَ اعتمـــادْ

(و)- نماذج في شكل نصوص حواريّة منتشرة على صفحات الشّبكة الاجتماعيّة (الفايس بوك)، مجهولة المؤلّف، منها حوار ثنائيّ يدور بين فتاة وفتى باللّغة الفرنسيّة، يقرأ نزولا - وفق القراءة المعهودة- فيكون مضمونه الحبّ والشّغف والإخلاص عند الفتى، يمثّل ذلك مرحلة ما قبل الزّواج. وعندما يبلغ القارئ النّهاية يجد طلبا بإعادة القراءة صعودا فيتحوّل بها ما كان جوابا في القراءة الأولى سؤالا والعكس صحيح. فينكشف معنى آخر مناقض للأوّل، هو شعور الفتى في مرحلة ما بعد الزّواج مضمونه الكره

واليأس والخيانة. وفي هذا توظيف لجسد اللّغة في الزّمان، فهو نصّ مضاعف وفق اتّجاه القراءة يكسر الخطّيّة الكبرى: تتتابع المقاطع (الجمل، السّؤال، الجواب، إلخ) تتابعا خطّيًا دائما ولكن في اتّجاه معاكس ينعكس به ترتيبها، وإن ظلّت الخطّيّة الصّغرى والوسيطة ثابتتين. وفي ما يلي ترجمة عربيّة لهذا النّصّ:

قبل الزّواج

- هي: سلاما،
- هو: آه، طالما انتظرت ذلك.
- هي: هل تريد أن أذهب؟
- هو: لا، لا أجرؤ حتّى على التّفكير في ذلك.
- هي: هل تحبّني؟
- هو: دون شكّ، بل كثيرا.
- هي: هل حدث أن خنتني؟
- هو: لا، لم تطرحين هذا السّؤال؟
- هي: هل تريد أن تقبّلني؟
- هو: بكلّ تأكيد، كلّما سنحت لي الفرصة.
- هي: هل تضربني يوما؟
- هو: هل جننت؟ لن يكون ذلك أبدا.
- هي: هل يمكنني أن أثق بك؟
- هو: نعم!
- هي: عزيزي.

بعد الزّواج:

أعد قراءة النّصّ نفسه من أسفل إلى أعلى.

خاتمة

أثبتنا في هذا الفصل جسديّة اللّغة من خلال تجسّدها في شكل منطوق يوجده الجسد المتكلّم. فاللّغة جسد من حيث كان الكلام حدثا فيزيائيّا ذا حدود بيّنة يتميّز بها من الأشياء والأحداث في الكون والتّجربة، ومن حيث أمكن التّمييز بين أبعاضه المكوّنة له. واللّغة كذلك جسد وسيط بين الأجساد المتفاعلة، تتفاعل الأجساد به ويتفاعل بها. فتكون على هذا اللّغة ظاهرة فينومينولوجيّة من حيث يخضع الكلام للحسّ والإدراك، فهي موضوع حسّيّ مدرك بالسّمع وبالبصر، تحتلّ حيّزا في الزّمان وفي الفضاء، تستقلّ بنفسها موضوعا قابلا للتّأمّل والوصف. ولعلّ من أبرز خصائص الجسد اللغويّ أنّه يتحقّق في الزّمان.

وأثبتنا كذلك أنّ جسد اللّغة مدخل للتّبرير، تبرير العلاقة الكائنة بين اللّفظ والمعنى؛ يتوفّر ذلك كلّما أمكن التّوسّل بخصائص البنية اللّغويّة المادّيّة الفيزيائيّة لتبرير الدّلالة المقترنة بها.

ولعلّ من أبرز ما وقفنا عليه في هذا الفصل أن أثبتنا مركزيّة الإنسان في تصوّر اللّغة على أساس الجسد البشريّ أو الحيوانيّ المطلق تسميةً وإجراء؛ وآثار ذلك بيّنة في تسمية جسد اللّغة. فالبنية اللّغويّة كائن ذو بدن ورأس وأعضاء وأطراف يتردّد بين الإنسان والحيوان وتعتوره الأدواء كما تعتور ذلك الجسد. وتستعار كذلك أسماء الجسد الطّبيعيّ للجسد اللّغويّ في الجهاز النّحوي الواصف. فتُتصوّر البنية اللّغويّة على أساس المؤسّسة الأسريّة يكون فيها بين المكوّنات ما يكون بين أفراد الأسرة من العلاقات، من قبيل ما يجري في التّوليديّة من قبيل "الأخوّة" و"البنوّة" بين المكوّن والمكوّن الآخر وهما مقتضيان لعلاقة الأمومة؛ وتُتصوّر البنية اللّغويّة كذلك على أساس المؤسّسة الإداريّة الوظيفيّة أو الاقتصاديّة أو العسكريّة يخضع أفرادها للتّرقية والتّقهقر في السّلّم الوظيفيّ ،لما هو من مقتضيات السلّميّة في

كلّ منها. ونتصوّر البنية اللّغويّة على أساس الجدار يبنى البناءَ الصحيح فيثبت أو يختلّ بناؤه فيكون عرضة للانهيار، إذ يجري التّعبير عن عدم الاستقامة في البنية النّحويّة لتعطّل مظهر من المظاهر التّصريفيّة وما إليها بوجه يتعذّر النّطق بها أو تحقّقها وفق ما تقتضيه قواعد النّحو بمفهوم "الانهيار". ونتصوّر البنية اللّغويّة على أساس الرّقعة الجغرافيّة أو الاجتماعيّة وكلماتها على أساس العناصر المادّيّة أو الأفراد كائنات في تلك الرّقعة، فيكون لها ما لتلك من حدود وحواجز وجزر تجري عليها عمليّات النّقل في حيّز توفّره تلك الحدود فتقف عندها أو تتجاوزها أثناء التّحويلات (التّوليديّة).

وكانت خطّيّة الجسد اللّغويّ أساسا أقمنا عليه النّظر في عدد من الظّواهر الخطابيّة تكون فيها **الخطّيّة المحرّك الأساسيّ في إنشاء المعنى؛** وذلك من قبيل التّقديم والتّأخير وظاهرة توقّع اللّفظ لتوقّع المعنى في الشّعر وفي النّثر، واللّعب اللّغويّ في علاقته بالخطّيّة وبمطاطيّة القراءة. واللّعب اللّغويّ منصبّ على اللّغة بنية ومعنى متعلّق بكليهما تعلّقا واحدا فكان إطارا لظواهر تهمّ المعنى رأسا (المقابلة والتّورية والمجاز بأنواعه) ولظواهر تهمّ الصّوت رأسا (الجناس والسّجع والتّقفية، إلخ.). وخلصنا إلى أنّ اللّعب اللّغويّ من أبرز ما يتجلّى فيه تجسّد اللّغة من حيث يمتدّ على جسد اللّغة كائنا في الزّمان نطقا وكائنا في الفضاء كتابة.

الفصل الثـاني
الكمّيـة اللّغويـة

مقدمـة

يمكن العود بانتظام البنية اللّغويّة إلى عدد من المبادئ المشتغلة في تزامن أو في تفاوت في نسب الحضور. يكون ذلك في جميع المستويات اللّغويّة انطلاقا من الصّوت المفرد فالبنية الصّرفيّة الاشتقاقيّة (المعجميّة) فالبنية الإعرابيّة (الجمليّة) وما جاوزها (بنية الخطاب). ومن هذه المبادئ الرّاسخة في المباحث اللّسانيّة رسوخها في الظّواهر اللّغويّة مبدأ قائم على ثنائيّة الخزل والإطناب، ولعلّ هاريس[361] من أبرز الأعلام الّذي اعتمدوها في تناول اللّغة في إطار تحويليّ.

والخزل والإطناب أمران يهمّان كمّية اللّفظ لذلك ينطبق الواحد منهما على المكوّن البنيويّ الصّوتيّ الفيزيائيّ الظّاهر أساسا، وله أثر في المضمون الدّلاليّ، أي ينطبقان على جسد اللّغة. وهذا مدخل العناية بهما في هذا الفصل وتوظيفهما في بيان مظهر الأيقونيّة في الكمّيّة اللّغويّة. يكون ذلك من خلال تناول عدد من الظّواهر من قبيل مطل الحركات ومن قبيل التّضعيف بدرجاته المختلفة في الأبنية الصّوتميّة - الصّرفيّة والاشتقاقيّة وأبنية الجموع، ومن قبيل التّكرير والتّرديد في التّوكيد اللّفظي والمعنويّ والمفعول المطلق، والعطف ومن قبيل الحذف الّذي يطرأ على المكوّنات اللّغويّة في المستويات المعلومة. ولئن كانت حركات الجوارح من الوسائل المهمّة في تلوين الكمّيّة اللّغويّة من حيث يكون بها ترديد وتأكيد وتسطير أو تضخيم وتهويل بحركات

---

361 Harris, Z.

الجارحة المعلومة وفق الثّقافات والمقامات، فإنّها مطروحة من عنايتنا في هذا الفصل.

في الأيقونيّة اللغويّة

إذا كانت اللّغة منظومة تواصليّة، وكانت مادّة ذلك الأصوات التي تتجسّد فيها، يأخذ البحث في مظاهر تبرير العلاقة بين الصّوت والمعنى وجهتين: أولاهما تغوص على منبت الاقتران بينهما وهو مستوى الأصوات الدّنيا أي أدنى ما به تتجسّد اللّغة فيكون البحث في الرّمزيّة الصّوتيّة وما يحايثها من العناصر الفوق-قطعيّة[362]، سعيا إلى استقصاء مظاهر التّبرير في تكوّنها النّوويّ كما فعل الكثير من الدّارسين ولعلّ فوناجي[363] أخطرهم شأنا. وثانيتهما تأخذ الاتّجاه الآخر صعودا إلى المستويات العليا استكمالا لمظاهر ذلك التّبرير والأعمال في هذا كثيرة جدّا. فالتّبرير مبحث قديم كلاسيكيّ إزاء مبحث آخر يعاكسه تماما هو الاعتباطيّة، كما تركّزت في أعمال دوسوسير. وكلاهما واجد في اللّغات ما يثبته وما يجعل منه مبدأ نسبيّا، إذ يتوفّر في اللّغة مظاهر تكاد تكون متكافئة من التّبرير والاعتباط. هذا الأمر في اللّغة وأمّا سائر النّظم العلاميّة فنسبة التّبرير فيها أكثر من الاعتباط للعوامل المعلومة في طبيعتها ومكوّناتها وأنماط اشتغالها. ومنها تخيّرنا مبدأ الأيقونيّة في عمومه والأيقونيّة الكمّيّة بالخصوص سبيلا إلى تركيز فكرة "اللّغة جسد".

يجري تقسيم المبادئ المتحكّمة في الانتظام اللّغويّ إلى ثلاثة أنواع هي: مبدأ الإشاريّة[364] ومبدأ الأيقونيّة[365] ومبدأ الرّمزيّة[366] (دلباك 2002: 20-31)[367]. وأمّا الرّمزيّة فأمرها معلوم وأمّا الإشاريّة فقد سبق أن خضنا

---

362 supra-segmental
363 Fónagy, 1983
364 principe d'indexicalité
365 principe d'iconicité
366 principe de symbolicité
367 Delbecque 2002

في شأنها في الفصل السّابق وإن من منظور آخر، وأمّا الأيقونيّة فهي ما به يتعزّز حضور اللّغة حضورا فيزيائيّا ماديّا فيتكثّف بعدها "الجسديّ" أو بعبارة أخرى إذا كانت اللّغة بحكم تحقّقها الصّوتيّ النّطقيّ في الكلام جسدا شفّافا، فإنّ ذلك الجسد يزداد ثخونة وحضورا وكثافة باعتمال مظاهر الأيقونيّة فيها.

مبدأ الأيقونيّة

تقوم جميع المنظومات العلاميّة على مبدإ الأيقونيّة، وإن تباينت نسبها في الواحدة منها. وقوام الأيقونيّة تناسب (تشابه، تماثل، تجانس) بين شكل العبارة (الدّالّ) وما يمثّله (المدلول). والتّشابه متوفّر في ظواهر لغويّة كثيرة منها المحاكاة اللّغويّة[368] (تسمية الأشياء بمحاكاة صوتها أو فعلها أو حركتها بالأصوات اللّغويّة) ومنها الرّمزيّة الصّوتيّة، إلخ. والأيقونيّة اللّغويّة ثلاثة أنماط جامعة يحكم الواحد منها مبدأ مخصوص: أيقونيّة خطّيّة محكومة بمبدإ التّرتيب الخطّي، وأيقونيّة المسافة يحكمها مبدأ المسافة وأيقونيّة كمّيّة محكومة بمبدإ الكمّيّة.

يشتغل مبدأ التّرتيب الخطّي[369] في ترتّب العناصر اللّغويّة ترتّبا ـــ تتابعيّا، وهو البعد الأساسيّ الأوّليّ في تجسّد اللّغة مطلقا -كما بيّنّا في الفصل السّابق من هذا الباب- من حيث رتبة العناصر النّحويّة (الصّوتيّة، الصّرفيّة، المعجميّة، المركّبيّة) في الجملة وفروعها، أو ترتيب مقاطع الكلام في الخطاب. ولكنّ مدخل الأيقونيّة في هذا التّرتّب يكون من زاوية المناسبة بين موقع العنصر اللّغويّ في العبارة اللّغويّة (مركّب، جملة، نصّ) وموقع المدلول عليه به في الزّمان أو المكان أو حال الأشياء في التّصوّر أو في الكون وما إلى ذلك. ومنه رتبة العناصر في أشكال الجملة المعلومة في جميع اللّغات مطلقا من قبيل (ف فا مف) وتنويعاتها. ومنه رتبة المفاعيل بعد الفعل

---

[368] onomatopée
[369] principe de l'ordre linéaire

والفاعل وترتيبها في حال تعدّدها (المباشر وغير المباشر في النّحو الفرنسي، المفاعيل الأوّل والثّاني والثّالث في النّحو العربيّ) ومنه رتبة المنعوت والنّعت مثالا من كثير، وما إلى ذلك (انظر للتّفصيل دلباك 2002: 24-26).

وقوام مبدإ المسافة[370] على التّناسب ما بين درجات القرب والبعد بين العناصر المكوّنة للعبارة ودرجات القرب والبعد بين المفاهيم المدلول بها عليها. فالتّرابط الوثيق بين المفاهيم في التّصوّر تتقلّص له المسافة بين العبارات المدلول بها عليها، والعكس قائم. فيكون التّناسب، قربا وبعدا، ما بين المسافة الذّهنيّة والمسافة في العبارة اللّغويّة مظهرا من مظاهر الأيقونيّة، وإن كان ذلك ممّا لا يتجلّى تجلّيا ساطعا. ولكنّ بعض المظاهر كافية للتّدليل على حضوره منها تعدية المفاعيل -مثلا- تعدية مباشرة أو بتوسّط حرف التّعدية وفق ما يكون بين الحدث ومتحمّله من مسافة ذهنيّة (قارن بين: "أهدى زيد عمرا كتابا" و"أهدى زيد كتابا إلى عمرو"، إلخ)، ومنها امتناع الفصل بين المتضايفين، وبين المنعوت ونعته. ومنها إدراج حرف الوصل "أن" -مثلا- في موضع وامتناع ذلك في موضع آخر (قارن بين "كاد يفعل" و"كاد أن يفعل"، إلخ).

وأمّا مبدأ الكمّيّة[371] منطبقا على عدد العناصر المكوّنة للعبارة، فذو صلة بنزوع طبيعيّ في اللّغات إلى "الرّبط بين كمّ كبير من الأشكال وكمّ كبير من المعنى، والرّبط بين كمّ قليل من الأشكال وكمّ قليل من المعنى" (دلباك 2002: 28). وذاك ما يختزل في التّراث اللّغويّ العربيّ على أساس ثنائيّة اللّفظ والمعنى، في قولهم: "قوّة اللّفظ مؤذنة بقوّة المعنى" (شرح المفصّل 8: 4).

---

[370] principe de la distance
[371] principe de quantité

ولئن كانت مظاهر الأيقونيّة الثّلاثة أسّا يقوم عليه التّبرير[372]، تبرير العلاقة ما بين العبارة ومدلولها عامّة فإنّ مظهر الكميّة أفضلها مدخلا لبيان ذلك. فكلّما كان جسد اللّغة حاضرا محطّ تكثيف أو تأكيد تقلّصت الاعتباطيّة وزاد مستوى التّبرير. ولهذا تنصبّ عنايتنا في هذا القسم من البحث على الكميّة، في مواضع تتفاوت إجمالا وتفصيلا، وفق ما نتصوّره مفيدا لخدمة الفكرة الأساسيّة في هذا الباب: وهي كون اللّغة جسدا أو قل ذات جسد بأشكاله المعلومة.

وعلى عدد الأنواع من التّناسب ما بين الكميّة اللّفظيّة ومعناها تكون الفقر في ما يلي حيث تكون العناية بظواهر من العربيّة أولّها من المستوى الصّوتميّ المفرد متمثّلة في مطل الحركات (الإطالة أو مدّ الصّوت) وزيادة الحروف، وثانيتها التّكرار في مستوى الجذور والأبنية الصّرفيّة منطبقا على التّضعيف بأنواعه: المعجميّ بتضعيف بعض الحروف في مستوى الجذور، وفي مستوى البنية الصّرفيّة المقطعيّة، وثالثتها التّكرار في مستوى البنية الإعرابيّة (المركّبية) أو الجمليّة (التّوكيد اللّفظيّ، المعنويّ، المفعول المطلق، الحال) وفي مستوى الكلام عامّة (في ما يطلق عليه "الاستعانة"). ثمّ تكون لنا عناية بما يعتور الكميّة اللّغويّة من نقص يتحقّق في ظواهر صوتيّة مقطعيّة من قبيل التّرخيم أو ظواهر خطابيّة من قبيل الحذف أو الخزل.

الأيقونيّة الكميّة في مطل الحركات

تجري تسمية "المطل" وما يتعلق بها من صفات عند سيبويه في عدد من المواضع المتباعدة جريانا واحدا (الكتاب 2: 228، 4: 447)، على المدّ أو الإطالة. ويهمّ الحركات وحروف اللّين والحروف الرّنّانة الّتي تقبل المطّ أو مدّ النطق بها. يكون ذلك في عدد من الظّواهر المعهودة في النّحو العربيّ

[372] motivation

نوردها في ما يلي بإيجاز محكوم ببيان التّناسب بين الكمّيّة الصّوتيّة والكمّيّة المعنويّة كما تتجلّى من خلال شواهد من النّحاة أو نماذج من مختلف الاستعمالات القديمة أو المعاصرة. فمطل الحركة متوفّر في عدد من الحروف الأدوات يكون بها عمل التّنبيه مطلقا بفروعه المعلومة كالنّداء والتّفجّع والتّرنّم والتّفخيم في النّدبة والاستغاثة والتّعجّب وما إلى ذلك، كما يتوفّر في أسماء الإشارة وفي صيغ الفعل المزيد وفي الأسماء المتّصلة بالفعل وفي صيغ الجموع سالمة أو مكسّرة وفي جموع السّلامة وفي الكتابات الفايسبوكيّة وما إليها.

فمن التّنبيه ما يكون بالنّداء، وهو حادث بحروف بعضها ذو حركة قصيرة (أي، أ) وبعضها ذو حركة طويلة (يا، أيا، هيا) يخصّها سيبويه بقوله: "إلاّ أنّ الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدّوا أصواتهم للشّيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم الّذي يرون أنّه لا يقبل عليهم إلاّ بالاجتهاد، أو النّائم المستثقل. وقد يستعملون هذه الّتي للمدّ في موضع الألف ولا يستعملون الألف في هذه المواضع الّتي يمدّون فيها. وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة غير "وا" إذا كان صاحبك قريبا منك، مقبلا عليك، توكيدا." (الكتاب 2: 229-230).

ومن المطل ما يكون لازما للنّدبة مفيدا للتّفجّع مضيفا التّرنّم الّذي به يتلوّن الخطاب إذ "النّدبة يلزمها "يا" و "وا"؛ لأنّهم يحتاطون ويدعون ما قد فات وبعد عنهم. ومع ذلك أنّ النّدبة كأنّهم يترنّمون فيها، فمن ثمّ ألزموها المدّ، وألحقوا آخر الاسم المدّ مبالغة في التّرنّم." (الكتاب 2: 231). وكذا التّعجّب والاستغاثة كلاهما من التّنبيه يحدثان بأداة ممطولة الحركة، فـ"أمّا المستغاث به فـ"يا" لازمة له؛ لأنّه يجتهد. فكذلك المتعجّب منه؛ وذلك: يالنّاس ويالماء. وإنّما اجتهد لأنّ المستغاث عندهم متراخ أو غافل والتّعجّب كذلك." (الكتاب 2: 231).

ويتجلّى التّناسب النّظاميّ بين مدى الحركة في حرف النّداء والمدى الفاصل بين الشّخصين في الفضاء مكانا أو ذهنا، فالقرب في المكان موقعا أو في الذّهن انتباها أو في المنال تصوّرا، لا مطل فيه قياسا ولذلك كانت "أ" و"أي" للقريب مكانا وانتباها وتصوّرا، والبُعد فيها، بعضها أو جميعها، مقتض للمطل قياسا ولذلك كان الثّالوث (يا، أيا، هيا) للبعيد مكانا وذهنا وتصوّرا. فهذه كميّة قياسيّة بمعنى نظاميّة ولكن قد يحدث تبادل بين ممطول الحركة ولا ممطولها في الاستعمال زيادة في التّوكيد، أو يجري الحرف الممطول الحركة لنداء القريب مكانا ولكنّه بعيد في حضوره الذّهنيّ، بعبارة أخرى. ولعلّ هذا التّناسب في "الكمّيّة"، بعبارة حديثة، يوافقه مفهوما "الاحتياط" و"الاجتهاد" بالمعنى المادّيّ والذّهنيّ كما ورد في كلام سيبويه قبل هذا.

ومن مظاهر المطل، ما يوظّف في مظهر كمّيّ أيقونيّ في منظومة الصّرف (تصريفا واشتقاقا). نكتفي بإشارات يبين بها المراد فتفاصيل ما نجمل في هذا الموضع معلومة في مواطنها. فالمطل في المنظومتين التّصريفيّة والاشتقاقيّة مستوف للحركات الثّلاث استقصاء للتّمييز في الدّلالة عامّة، خلافا لاقتصار المطل على حركة الفتحة في ما مضى من أدوات التّنبيه، وهو أمر معلوم من حيث السّمات المخصوصة بالفتحة نطقا وتصويتا دون أختيها الضّمّة والكسرة.

فالجمع في اللّغة عامّة مقولة متفرّعة من العدد مظهرا من مظاهر الكمّيّة العامّة، وتخضع البنية فيه لمبدإ التّناسب بين الشّكل والمدلول حيث تنشأ المقابلة بين درجتين على الأقلّ هما الإفراد والجمع، وما بينهما من قبيل التّثنية في العربيّة. فالجمع في العموم تكثير اللّفظ لتكثير المعنى، ولكنّه على درجات ينقسم بمقتضاها إلى جمع لمفرد وجمع لجمع وما إلى ذلك. ولنا في العربيّة تناسب ما بين كمّيّة لفظيّة وكمّيّة عدديّة في الصّيغ المعبّرة عن العدد في ضوء قسمة ثنائيّة تعرفها العربيّة ما بين السّلامة (جمع بالتّلحيق)

والتّكسير (جمع بتغيّر بنية المفرد المقطعيّة أو باستئنافها). فالتّعبير عن التّثنية والجمع يكون بتلحيق الحركات الطّويلة المعلومة وفق الحالات الإعرابيّة، وجميعها كمّيّة صوتيّة منضافة مناسبة لكمّيّة في المعنى زائدة، وذلك مقارنة بصيغة المفرد. وكذا الأمر في الجموع المكسّرة بدرجاتها المتنوّعة من قبيل: (بيت، بيوت، بيوتات) أو (رجل، رجال، رجالات) أو (عطر، عطور، عطورات). ففي الجمع من الدّرجة الأولى تناسب الكمّيّة الصّوتيّة ارتفاعا في العدد من االأشياء المدلول عليها، وفي الجمع من الدّرجة الثّانية (جمع الجمع) تناسب الكمّيّة الصّوتيّة الزّائدة ارتفاعا في العدد من االأشياء المدلول عليها من حيث القيمة والشّأن -كما في "رجالات"- أو من حيث التّنوّع وتعدّد الأصناف كما في "عطورات". ذلك أنّ "جمع الجمع يجيء على نوعين: فنوع يراد به التّكثير فقط ولا يراد به ضروب مختلفة، ونوع يراد به الضّروب المختلفة، وهو الّذي لا يمتنع منه جمع." (ابن السّرّاج: الأصول في النّحو 3: 33).

وأمّا الكمّيّة في منظومة الاشتقاق فجارية على نفس النّمط تقريبا حيث يَبين الفعل المزيد بحركة طويلة- وهي زيادة كمّيّة صوتيّة- عن زيادة في كمّيّة المعنى المقترن بالحروف الأصول مقارنة بالمجرّد منه. وقد تتنوّع الكمّيّة هنا على محاور عدّة منها ما يهمّ الاستمرار في الزّمان أو في المدى مطلقا (من مثل: زاول، جاهد، قاوم، ناضل، إلخ)، ومنها ما يهمّ الكثافة أو المبالغة (احمارّ، ابياضّ، إلخ). والأمر نفسه ثابت في سائر الأسماء المتّصلة بالفعل (المشتقّات) من قبيل الصّفات الّتي يتجلّى فيها التّناسب بين الكمّيّة الصّوتيّة والكمّيّة في المعنى المدلول عليه بها. يكون ذلك في أسماء المبالغة من قبيل: ضحوك، ضحّاك؛ صدوق، صدّيق، وفي الصّفات المشبّهة وما إلى ذلك.

ومن المطل ما يكون غير نظاميّ أو مطلا كلاميًا خطابيًا، بمعنى أنّه غير مسجل في النّظام النّحويّ وأنّه موكول إلى المتكلّم بالاستتباع. فهو غير ذي وظيفة تمييزيّة كما هو الأمر في المطل النّظاميّ الّذي طرحنا بعضا من مظاهره قبيل هذا. وفي هذا المطل تتجلّى الأيقونيّة الكمّيّة في أصفى درجاتها متحقّقة في مطل الصّوت لمطل المعنى لتحقيق المناسبة بينهما. ولذلك يكون المتكلّم حرّا في اختيار المدى الّذي يجعله للصّوت ويشعر أنّه موافق لمراده مبالغة وترسيخا أو تخفيفا وتحقيرا.

فمن نماذج المطل الكلاميّ أن يعمد المتكلّم إلى إطالة الحركة من العبارة اللّغويّة للتّعبير عن شدّة المعنى المدلول بها عليه، إطالة تتجاوز المدى المعهود وهو أمر يتعلّق بالحركات قصيرها وطويلها يجري مطلها وفق مدى نسبيّ يحدّده عدد من المعايير الشّخصيّة وملابسات المقام في ضوء التّفاعل بين المتخاطبين:

- المرّيخ بعـيــــــــد من الأرض.
- تنبعث من المستنقع رائحة كريـــــــــــــــــهة.
- البنيّة لأمّها: نحب عروسه كبيــــــــــــــــره.

وما إلى ذلك من النّماذج الّتي نعيشها في المقامات العفويّة وقد تتميّز بهذا فئات عمريّة أو اجتماعيّة مخصوصة كالأطفال أو البنات.

ومن نماذج المطل الكلاميّ ما يتّخذ شكلا كتابيًا حيث يتعذّر التّواصل الشّفويّ المباشر، وهو أمر مرتبط بظهور وسائل الاتّصال الإلكترونيّة من قبيل المراسلات القصيرة عبر الهاتف الجوّال أو عبر الفايسبوك وتويتّر وما إليها. وفيهما أشياء من هذا القبيل نورد منها نماذج فالغرض هنا ليس استقصاءها وإن كانت هذه الظّاهرة جديرة بالدّراسة المتأنّية:

- لووووووول. مقابل (looooool)

- أكيييييييد. (أكيد.)

- ما احلاااااااااااااااها. (تعجب: ما أحلاها!)

- الجهل رااااااااهو مصيبة. (الجهل أراه مصيبة.)

ومن الظّواهر اللاّفتة في التّخاطب الفايسبوكيّ كذلك مطل الحركة لغايات تمييزيّة، فيحول المطل وظيفيّا في الفرق بين الكلمتين اللّتين يصعب التّمييز بينهما كتابيّا، فيكون مطل الحركة في الواحدة منهما ليرتفع اللّبس بتمايزهما. ولعلّ هذه الظّاهرة منصبّة على الضّمائر عامّة وعلى ضميري المخاطب المفرد خاصّة بقسميه المذكّر والمؤنّث سواء أكان منفصلا أم متّصلا، حيث يعمد المتكلّم/الكاتب إلى إطالة الحركة من ضمير المؤنّث تمييزا له من المذكّر. فالاقتصار على كتابة [أنت] دون إثبات الحركة، الفتحة للمذكّر والكسرة للمؤنّث، مردّه إلى صعوبة رقن ذلك على الشّاشة أو لغياب الإرادة في إثباتها اقتصادا في الجهد، فنشأت لذلك أشكال ضميريّة تزداد انتشارا في محاورات النّاس وتعليقاتهم الكتابيّة، من قبيل [أنتـــي] و[أحبكـــي] و[إليكـــي] و[كـــي] وما إلى ذلك.

وفي العموم، يمكن قسمة الكمّيّة الصّوتيّة إلى نوعين: كمّيّة نظاميّة نحويّة وكمّيّة إجرائيّة كلاميّة. الكمّيّة النّظاميّة تحدّد نوع الحركة الممطولة فهي الفتحة أساسا في حروف التّنبيه والإشارة، وهي خليط من الحركات المتباينة حيث تشتغل صرافم دالّة على معان صيغيّة اشتقاقيّة في مطل الحركات من أبنية الفعل (المزيد) ومن الأسماء المتّصلة بالفعل ومن الجموع. وكمّيّة صوتيّة خطابيّة غير محدّدة نظاميّا للمتكلّم الحرّيّة في ذلك سواء أكان متكلّما أم منشدا أم مغنّيا أم مرتّلا للقرآن، إلخ.

الأيقونيّة الكمّيّة في النّون الخفيفة والثّقيلة

نكتفي في إثبات هذا الأمر بظاهرتين نظاميّتين من النّحو العربيّ تتعلّق أولاهما بنون التّوكيد، وثانيتهما بأسماء الإشارة في توزّعها حسب المسافة الفاصلة بين المشير وموضوع الإشارة أو المشار إليه. فنون التّوكيد، بنوعيها الخفيفة والثّقيلة، لاحقةً على الفعل المضارع أو على صيغة الأمر وصيغة النّهي، تمثّل كمّيّة صوتيّة زائدة مناسبة لزيادة في المعنى، هو معنى مقاميّ قصديّ مداره ترسيخ وتوكيد. وليكن قول المبرّد في ما يلي كافيا مغنيا عن التّفاصيل: "اضرب، ولا تضرب، فإذا أتيت بها قلت: اضربنّ زيدا ولا تضربنّ زيدا، وإن شئت ثقّلت النّون، وإن شئت خفّفتها. وهي - إذا خفّفت- مؤكّدة، وإذا ثُقّلت فهي أشدّ توكيدا." (المقتضب 3: 12). والمهمّ أنّ التّناسب ثابت بين حضور النّون ومعنى التّوكيد مطلقا، وبين التّضعيف غيابا وحضورا، ودرجة التّوكيد ضعفا وشدّة. وكذا الأمر في سائر الحروف المفيدة للتّوكيد ولسائر المعاني، مفردةً أو مجتمعةً، من قبيل اللاّم وإنّ وما إليهما.

الأيقونيّة الكمّيّة في اسم الإشارة

إذا تأمّلنا منظومة أسماء الإشارة في اللّغة العربيّة وجدنا بيسر توزّع العناصر فيها حسب المسافة الفاصلة بين معلمين هما المشير/ المتكلّم والمشار إليه، سواء أكانت مسافة فضائيّة مكانيّة أم ذهنيّة (تصوّريّة) وفيها تتدرج الإشارة العهديّة وما إليها. فالإشارة منقسمة إلى ثالوث من الدّرجات هي: [القريب] و[المتوسّط] و[البعيد] تناسبها كمّيّة صوتيّة (حركيّة وحرفيّة) في بنية اسم الإشارة كما يلي:

قريب	متوسّط	بعيد
ذا	ذاك	ذلك
هنا	هناك	هنالك

تُوظّف الكمّيّة الصوتيّة في هذه المنظومة توظيفا نظاميًا ثلاثي الدرجات يناسبه ثالوث من الدّرجات على سلّم المسافة. ولكنّ مدّ الصّوت لا حدّ له -نظريًا- في الإنجاز. بعبارة أخرى تقبل هذه الأسماء مطل الحركة فيها مطلا يفوق المدى النّظاميّ فيها وفق ما يقدّره المتكلّم من مدى مفيد وظيفيّ. فالتّمييز النّظاميّ كائن بين الأبنية النّحويّة الثّابتة، ولكنّ طول الحركة ممّا لا يُتحكّم فيه نظاميًا فأمره متروك للمتكلّم (الذّات النّاطقة المنجزة)، كما يحدث أن ينطمس ذلك التّمايز. فإثبات التّمايز باعتماد المطل و/أو زيادة الحرف النّظاميّين لا يعني ثباته على مرّ الزّمن في اشتغال اللّغات عامّة، وفي العربيّة خاصّة. فهو عرضة للتّبدّل وفق القيم النّسبيّة الّتي تتحدّد على مرّ الزّمن وتتبدّل حسب الأقوام والأقطار في مختلف اللّهجات العربيّة المعلومة. وهذا أمر يخرج بنا عن مشغلنا وإن كان من المفيد استقصاء ما لمبحث الحال من التّجلّيات في جميعها.

الأيقونيّة الكمّيّة في التّضعيف والتّكرير

يمثّل التّضعيف والتّكرير آليّة ذات طاقة إنتاجيّة عالية في جميع اللّغات لما يتوفّر فيها من يسر في الاشتغال واقتصاد في الإمكانيّات. ويجري توظيفها في مجالات دلاليّة متنوّعة، ولذلك يمكن اعتبارها مظهرا كونيًا من مظاهر الأيقونيّة الكمّيّة يتجلّى فيه البعد المادّيّ في تحقّق "جسد اللّغة". والتّضعيف[373] تكرير الصّوت أو المقطع في مستوى صرفيّ اشتقاقيّ أو تصريفيّ وأمّا التّكرير[374] فيشمل تعدّد الكلمة في مستوى الجملة أو المركّب والخطاب بصورة عامّة. ويتوفّر في مختلف اللّغات أنماط متنوّعة من التّضعيف يجتمع بعضها أو جميعها في الواحدة منها حيث توظّف بدرجات مختلفة للتّعبير عن مقولات معجميّة تصريفيّة ونحويّة تداوليّة متباينة.

---

[373] reduplication
[374] repetition

ولنا في ما يلي نماذج من اللّغة الأفريكانيّة[375] ولغة الكوتا[376] (من اللّغات الدّرافيديّة[377]) وكرْوليّة الرّأس الأخضر[378] حيث يعتمد التّضعيف للتّعبير عن معان متنوّعة تهمّ شدّة المعنى أو طريقة إحداثه أو سرعته وما إلى ذلك:

- اللّغة الأفريكانيّة

gou-gou	'سريعا سريعا'	'بسرعة'
stuk-stuk	'قطعة قطعة'	'شيئا فشيئا'
lag-lag	'ضحك ضحك'	'على غاية من السّهولة'

- لغة الكوتا (من اللّغات الدّرافيديّة)

kad-kadk	'نبض –نبض'	'ينبض القلب سريعا من خوف أو فزع'
a:nk-a:nk	'قويّ –قويّ'	'شديد القوّة' (الرّجل أو الثّور)
	'جميلة–جميلة'	'شديدة الجمال' (المرأة)

- كروليّة الرّأس الأخضر (كاب فيردي)

moku moku	'سكران سكران'	'ذو سكر شديد'
faxi faxi	'سريعا سريعا'	'بسرعة شديدة'
dia dia	'يوما يوما'	'كلّ يوم'
boka boka	'فم فم'	'في السّرّ'

الأيقونيّة الكمّيّة في التّضعيف

التّضعيف في الفعل ومشتقّاته

تعتمد اللّغات التّكرير للتّعبير عن شدّة المعنى المدلول عليه بلفظ الفعل، وتكون درجات الشّدّة على عدد المرّات، منها الأفريكانيّة حيث يدلّ (*krap*) على "فرك نفسه بنفسه فركا عاديّا" وتدلّ (*krap-krap-krap*) على "فرك نفسه بنفسه فركا شديدا" (بوتا 1988)[379]. ولنا في العربيّة تضعيف الحروف

---

[375] Afrikaans, (Encyclopedia of Language and Linguistics, 2005: 103, Afrikaans)
[376] Kota, (ELL, 2005: 455, Areal Linguistics)
[377] Dravidian language(s)
[378] Cape Verdean Creole, (ELL, 2005: 198, Cape Verdean Creole)
[379] Botha, 1988

الأصول تضعيفا ثنائيا بوجه يكون له فيها أزواج من الجذور يجري الواحد منها في التّعبير عن المعنى عاريا من التّكثير ويجري الآخر في التّعبير عن المعنى مسترسلا أو مكثّفا شديدا بوجه من الوجوه.

فمن التّضعيف ما يكون في التّعبير عن المجال الواحد حدثا كان أو صوتا، وهو تضعيف يشتغل في "الحكاية" (أي المحاكيات الصّوتيّة) بصورة عامّة. وفيه يميّز الخليل بن أحمد، مثلا، بين نمطين هما: تضعيف المدّ وتضعيف التّرجيع. فتضعيف المدّ مطل للصّوت الواحد وتثقيل له، وتضعيف التّرجيع تضاعفٌ واستمرار في الصّوت أو في الحدث على أبعاض مسترسلة على أطوار أو حلقات متكرّرة، يقول:

> والعرب تشتقّ في كثير من كلامها لأبنية المضاعف من بناء الثّلاثيّ المثقّل بحرفي التّضعيف ومن الثّلاثيّ المعتلّ، ألا ترى أنّهم يقولون: صلّ اللّجام يصلّ صليلا، فلو حكيتَ ذلك قلت: صلّ تمدّ اللاّم وتثقّلها وقد خفّفتها في الصّلصلة وهما جميعا صوت اللّجام. فالثّقل مدٌّ والتّضاعف ترجيع يخفّ فلا يتمكّن لأنّه على حرفين فلا يتقدّر للتّصريف حتّى يُضاعف أو يثقّل، فيجيء كثير منه متّفقا على ما وصفت لك، ويجيء منه كثير مختلفا نحو قولك: صرّ الجندب صريرا وصرصر الأخطبُ صرصرةً. فكأنّهم توهّموا في صوت الجندب مدّا وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعا. ونحو ذلك كثير مختلف.
>
> (العين 1: 56)

فالتّناسب بين كمّيّة اللّفظ وكمّيّة المعنى بارز بيّن في النّماذج الّتي تتواتر في دراسة ظاهرة التّضعيف عامّة وفي "الحكاية المضاعفة" بصورة خاصّة. ففي (صلّ، صلصل) و(زلّ، زلزل)، مثلا، يذهب الخليل إلى أنّ المتكلّمين الواضعين "يتوهّمون في حسّ الحركة ما يتوهّمون في جرس الصّوت يضاعفون لتستمرّ الحكاية في وجه التّصريف." (كتاب العين 1: 55).

وهذا التّناسب متدرّج وفق درجات كمّية متدرّجة، ومن التّدرّج هذا ما هو موكول إلى المتكلّم، فهو غير ذي حدود نظاميّة نحويّة: "ألا ترى الحكاية أنّ الحاكي يحكي صلصلة اللّجام فيقول صلصل اللّجام وإن شاء قال: صلْ، يخفّف مرّة اكتفاء بها، وإن شاء أعادها مرّتين أو أكثر من ذلك، فيقول: صل صل صل، يتكلّف من ذلك ما بدا له." (كتاب العين 1: 55).

ومن مظاهر التّرابط النّظاميّ الاشتقاقيّ في العربيّة، مثلا، ما يقيمه سيبويه من قرن نظاميّ بين التّعبير عن الكثرة في الحدث معبّرا عنه بالفعل المصرّف أو بالمصدر صيغة، على أساس التّضعيف، تضعيف الحرف من الصّيغة في كلّ منهما. فيكون التّناسب بين زوج (فعل/فعّل) و(المصدر العاديّ/تفعال): "هذا باب ما تُكثّر فيه المصدر من فعلتُ، فتلحق الزّوائد وتبنيه بناء آخر، كما أنّك قلتَ في فعلتُ فعّـلت حين كثّرت الفعل. وذلك قولك في الهذْر التّهذار، وفي اللّعب التّلعاب، وفي الصّفق التّصفاق وفي الرّدّ التّرداد وفي الجولان التّجوال والتّقتال والتّسيار. وليس شيء من هذا مصدر فعلت، ولكن لمّا أردت التّكثير بنيت المصدر على هذا كما بنيتَ فعلتَ على فعّلتُ." (الكتاب 4: 83-84).

الأيقونيّة الكمّيّة في التّكرار والتّرديد

يمكن باعتماد العلاقة الدّلاليّة والصّوتيّة بين العبارتين المكرِّرة والمكرَّرة أن ينقسم التّكرير إلى نوعين: تكرير صريح وتكرير صدى. فالصّريح أن يكون المكرِّر مطابقا للمكرَّر فيكون اللاّحق ترديدا لسابقه نسخة منه بها يكون التّسطير والتّذكير والتّوكيد. والتكرير الصّدى أن يجري اللّفظ مكرّرا في صورة لفظ آخر يختلف عنه في البنية الصّوتيّة ولكنّه مرادف له في المعنى، فالمعنى مرسّخ على عدد المرادفات المتواليات وإن اختلف اللّفظ. وترتبط في التّكرير بأنواعه الأيقونيّة الكمّيّة بقيم دلاليّة متنوّعة تتّفق في

تكثير المدلول عليه باللّفظ المكرّر: تكثير الأحداث أو تعدّد الذّوات أو تربيع عمل الشّيء والتّصغير أو التّحقير، إلخ. وتتدرج فيه ظواهر كثيرة معروفة بأسماء متباعدة من قبيل التّوكيد (اللّفظي، المعنويّ) والمفعول المطلق والحال المؤكّدة والعطف "التّرديديّ" المعبّر عن الاستمرار أو التّتابع العدديّ.

التّكرير الصّريح

تتوفّر ظاهرة التّكرير الصّريح في المستوى الصّرفيّ يتكرّر بمقتضاه اللّفظ الجاري على المفرد ليدلّ على الجمع مطلقا سواء تعلّق الأمر بتكرار الحدث أو تكاثر العدد، من ذلك ما يتوفّر في بعض اللّغات السّاميّة والأفروآسيويّة (ليبينسكي 1997: 244)[380] كما يلي بيانه:

الأرامية	*rab*	كبير	*rabrəbīn* *rabrəbān*	كبيرون كبيرات
الهوسا	*dambe*	صراع	*dambedambe*	صراعات
الكوشيتيّة	*san*	أخ	*sansanā*	إخوة

من التّكرير الصّريح ما يكون للتّعبير عن المفهوم في صيغة يتلازم فيها العنصران المتكرّران ويلتحمان في مركّب واحد لا فكاك بينهما فيه، دون أن يبلغ ذلك درجة النّحت في مظهرها المعلوم:

من ذلك ما يجري في تسميات السّياسة (سياسة الخطوة خطوة) وفي طرق العمل من قبيل الرّيّ (الرّيّ قطرة قطرة) وفي طرق الطّهي (سلق سلق (من اللّهجة المصريّة)).

ومنه ما يتعلّق بالحدوث مرّة واحدة وانقضاء الحال دون معاودة، يجري ذلك في المداواة وحلّ المشاكل المزمنة خاصّة وذلك من قبيل جريان التّكرير في (ضربه ضربه) في الحديث عن الأدوية والمعالجة وما إليها في العاميّة التّونسيّة.

---

[380] Lipiński, Edward, 1997

ومنه ما يعبّر عن الاستقصاء واستيفاء الأشياء المدلول عليها بالكلمة المكرّرة واحدا واحدا، وذلك في عبارات من قبيل: "بيت بيت، دار دار، زنقة زنقة" في قولة القذّافي الشّهيرة، أو في قولنا "قرأت القصيد كلمة كلمة".

ومنه ما يعبّر عن الاستمرار في الحال أو الحدوث يستغرقان زمنا طويلا: "وهو قاعد قاعد قاعد"، "وظلّ ساكتا ساكتا ساكتا وفي الأخير نطق" أو "سكتله، سكتله، سكتله ومن بعد قضيت عليه"، "وخر وخر، ظهر البهيم وفى"، إلخ.

ومنه ما يعبّر عن طريقة حدوث الفعل سواء أتعلّق الأمر بوتيرة الإنجاز أم بالمقادير فيه أم بالمقاييس في الأطوال والمكاييل وما إلى ذلك: "وحده وحده"، "شويّه شويّه من كلّ حاجة"، "يمشي خطيوه خطيوه حتّى يوصل"، "تقابلوا راس راس".

ومنه "تكرير اللّفظ حتّى لا يبقى شكّ في كونه حقيقة" (الأستراباذيّ، شرح الكافية 1: 1050)، فيكون بذلك نوع من توجيه الفهم عند السّامع إلى تأويل واحد مراد أو مقصود فتنتفي له سائر الإمكانيّات في التّأويل. وهو ما يتوفّر في ما يطلق عليه "التّوكيد" بنوعيه اللّفظيّ والمعنويّ.

المصدر تكرير للفظ الفعل: المفعول المطلق

من نماذج التّكرير الصّريح ما يجري فيه المفعول المطلق أي المصدر من لفظ الفعل مكرّرا له في موضع المتمّم ومردّدا له في موقع تابع في فضاء الجملة مخصوصا بالنّصب. وإذ يمثّل الحدث الّذي يعبّر عنه الفعل مجالَ التّرسيخ كان المصدر الوارد مفعولا مطلقا توكيدا لذلك الحدث وترسيخا له لا توكيدا للفعل ولا لما لابسه من العناصر الواردة في الجملة. فيمكن حينئذ أن نعتبر أنّ المفعولَ المطلق تحقّق للأيقونيّة الكمّيّة في أفقر تجلّياتها، ذلك أنّ "المرادَ بالتّأكيد المصدرُ الّذي هو مضمون الفعل بلا زيادة شيء عليه من

وصف أو عدد، وهو في الحقيقة تأكيد لذلك المصدر المضمون، لكنهم سمّوه تأكيدا للفعل توسعا، فقولك: ضربتُ بمعنى أحدثتُ ضربا، فلمّا ذكرت بعده ضربا صار بمنزلة قولك: أحدثتُ ضربا ضربا، فظهر أنّه تأكيد للمصدر المضمون وحده لا للإخبار والزّمان اللّذين تضمّنهما الفعل." (الأستراباذي: شرح الكافية 1: 347-348).

العطف التّكريريّ

تمثّل إستراتيجية العطف في تحقّقاتها المعبّرة عن الجمعيّة، أداة طيّعة في التّعبير عن عدد من المقولات المتمايزة المتداخلة منها التّرتيب في الحدوث أو في المطلق. ولعلّ من أبرز مظاهر تلك الطّواعيّة أن لا حدّ للاسترسال في توسيع بنية العطف، نظريّا، دون شكّ. وتتجلّى الأيقونيّة في العطف في أبرز مظاهرها عندما تتحقّق في العطف التّكريريّ القائم على تراكم المداليل المعبّر عنها بالألفاظ المتعاطفة، ويتوفّر في ذلك تناسب أيقونيّ كمّيّ من حيث كثرة اللّفظ لكثرة المعنى، ذلك أنّ العطف يؤدّي معنى التّراكم بأن ينضاف في بنيته العنصر اللاّحق إلى السّابق، فيفيد الكثرة العدديّة المتصاعدة أو الشّدّة في المفهوم على مراتب متدرّجة تذهب متكثّفة في الشّدّة أو ممطولة مسترسلة في المدى الفضائيّ و/أو الزّمانيّ عندما يتعلّق الأمر بإفادة الحدوث على مقاطع متّصل بعضها ببعض يكون المحصّل من جميعها معنى الطّول و/أو الامتداد و/أو الاستمرار في الزّمن:

- وقطرة فقطرة تذوب في المطر. (السيّاب)
- كان يجري ويجري ويجري...

التّوكيد اللّفظيّ

من نماذج التّكرير الصّريح "التّوكيد اللّفظيّ" أداة لترسيخ الكلام وترديده بتكرار العبارة أو اللّفظ الواحد عددا من المرّات كما في: "أيّما امرأة

نُكحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل باطل باطل" (حديث نبويّ). وفي جميع ذلك إنّما "يجب تكرير اللّفظ حتّى لا يبقى شكّ في كونه حقيقة." (الأستراباذيّ: شرح الكافية 1: 1050).

ومنه ما يكون في إفادة الكثافة في المضمون المدلول عليه بالكلمة عندما يتعلّق الأمر باللّون وما يقبل التّوزّع على سلّم من الدّرجات تتفاوت شدّة أو كثافة أو ما إليهما. ولعلّ في الخبر الّذي أورده الجاحظ كفاية تفسير، يقول: "بعث عبيد اللّه بن مروان، عمُّ الوليد، إلى الوليد بقطيفة حمراء، وكتب إليه: إنّي بعثت إليك بقطيفة حمراء حمراء. فكتب إليه الوليد: "قد وصلت القطيفة، وأنت يا عمّ أحمق أحمق." (البيان والتّبيين 2: 232).

ويبين الفرق بين موقفين أو حالين ذهنيّين إحداهما متعلّقة بورود اللّفظ مرّة واحدة والأخرى مكرّرا في الخبر التّالي: "قال محمّد بن الجهم للمكّيّ: إنّي أراك مستبصرا في اعتقاد الجزء الّذي لا يتجزّأ، فينبغي أن يكون عندك حقّا حقّا. قال أن يكون عندي حقّا حقّا فلا، ولكنّه عندي حقّ." (الجاحظ: البيان والتّبيين 2: 232).

ومنه ما يكون للتّمييز بين درجتين أو أكثر من نسبة الشّيء إلى أصل أو من جودة في صناعته أو مادّته أو جوهره. فالكلمة الواحدة واردةً مرّة تفيد نوعا من النّسبة الواهية أو المغشوشة، وهي نفسها واردةً مكرّرة تفيد كونه حقيقيّا أصيلا في معناه. ومن ذلك ما نقل الجاحظ في بعض النّوادر: "قال محمّد بن بلال لوكيله دبّة: اشترِ لي طيبا سيرافيّا. قال: تريده سيرافي، أو سيرافي سيرافي. (البيان والتّبيين 2: 232).

التكرير الصدى

ممّا يتحقّق به التّكرير الصدى ما يطلق عليه في النّحو العربيّ "الحال المؤكّدة". ومن الثّابت أنّ الحال نوعان واحدة إخباريّة بمعنى يحمل لفظها خبرا إضافيًا من جهة، ومعنى المزامنة من جهة أخرى، والأخرى مؤكّدة تجيء "إمّا لتقرير مضمون الخبر وتأكيده وإمّا للاستدلال على مضمونه" (الأستراباذي: شرح الكافية 1: 687). ويورد الأستراباذيّ أمثلة كثيرة ذات تصاريف مقاصديّة متنوّعة كالمدح والفخر والتّعظيم، إلخ. فالعبارة الجارية حالًا مؤكّدة لا تضيف خبرا جديدا وإنّما تُظهر شيئا هو من متضمّنات ما تتعلّق به مذكورا قبلها، فهي صدى يردّده:

- أنا الحجّاج سفّاكَ الدّماء.
- هو المسكين مرحوما.

ومن التّكرير الصّدى ترديد المترادفات والمعنى واحد، من ذلك ما أورد الجاحظ في البيان والتّبيين (2: 235): "كتب (الخرداذيّ) إلى بعض الأمراء: "أبقاك الله، وأطال عمرك، ومدّ في عمرك."

الاستعانة

من الكمّيّة اللّغويّة ما لا يكون له ما يناسبه في الكمّيّة المعنويّة، فيحصل عدم التّناسب بينهما يكثر اللّفظ والمعنى قليل أي لا زيادة فيه. ومن مظاهر ذلك "الاستعانة". وقد عدّت من عيوب الكلام والفصاحة، يقول الجاحظ: "حدّثني صديق لي قال: قلت للعتّابيّ: ما البلاغة؟ قال: كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ. (...) فقلت له قد عرفت الإعادة والحبسة فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع منّي واستمع إليّ، وافهم

عنّي، أولست تفهم، أو لست تعقل. فهذا كلّه وما أشبهه عيّ وفساد." (البيان والتّبيين 1: 113).

وتعتبر الاستعانة أو العبارة المتكرّرة[381] أو الآلانيّات الكلاميّة[382] (انظر مثلا: تيزاك وكود 2008: 212، كود 2005: 122)[383] في الدّراسات حالا مرضيّة مرتبطة بالأفازيا؛ وهي نوعان:

(أ)- أشكال لغويّة غير معجميّة أو آلانيّات لا معجميّة أي عدد من المقاطع غير ذات معنى تتكرّر في الكلام، وممّا يتواتر فيها الأشكال المقطعيّة ذات التّواتر المرتفع في اللّغة الجارية في المجتمع الّذي يعيش فيه المصاب، من قبيل (*do-do*) و (*ma-ma-ma*) وما إلى ذلك (كود 2005: 122)[384].

(ب)- أشكال لغويّة معجميّة أو جمليّة أو آلانيّات معجميّة وآلانيّات جمليّة تتمثّل في تكرار كلمات من قبيل (*Sacre Nom de Dieu*) أو جمل بأكملها من قبيل (*I can talk, I can try,...*). وممّا يتواتر في هذا أشكال القسم والعبارات ذات التّواتر العالي في اللّغة عامّة.

والاستعانة ظاهرة متوفّرة في جميع اللّغات ولكن عند بعض المتكلّمين دون غيرهم أو عند بعض الأقوام والمجموعات من اللّغة الواحدة دون غيرهم، بل تشتهر من بعضهم تكرار عبارات بعينها فيعرفون بها وتطلق عليهم بلفظها ألقابا للتندّر أو للتّمييز خاصّة عندما يتعلّق الأمر بالمشاهير من الأعلام من قبيل السّاسة أو نجوم الفنّ. وهي غير ذات أثر في زيادة اللّفظ لزيادة المعنى، وكل ما فيها ملء لفراغ ما بين المقاطع، مقاطع القول ومقاطع التّفكير، يستحضر خلالها المتكلّم ما ينوي قوله، فهي نوع من الكلام الآليّ يتّخذ "تكأة" لما بعده ولا يقصد به معنى، أو هي نوع من الكلام يتجدّد به

---

381 recurring utterance(s)
382 speech automatism(s)
383 Tesak & Code 2008
384 Code 2005

الانتباه عند السامع وما إلى ذلك. وهي، من زاوية المادّة المعتمدة، متبدلة من شخص إلي آخر ومن عصر إلى آخر ومن بلد إلى آخر، وذلك من قبيل "فيمت الحاصل معناها" التي اشتهر بها الرئيس الحبيب بورقيبة، أو "فهمتني وإلاّ لا" أو "معناه" أو "تحبّ نقول" في سياقات أخرى ومقامات أخرى عند الكثير من النّاس. ولهذه الظّاهرة، في حال كونها مرضيّة، مظاهر عصبيّة عضويّة يخرج بنا تتبعها عن مبحثنا هذا.

في تشبّع الكمّيّة

قوام الأيقونيّة الكمّيّة على التّناسب بين كمّيّة اللّفظ وكمّيّة المعنى قلّة وكثرةً. وهذا التّناسب ذو قطبين أقصيين: واحد منهما متناه مغلق هو قطب القلّة، والآخر غير متناه منفتح هو قطب الكثرة. ففي قطب القلّة نجد أنّ الدّرجة الدّنيا الضّروريّة محدودة بحضور اللّفظ الواحد للمعنى الواحد، في ضرورةٍ من حيث مثل التّحقّق الأحاديّ (الصّوت، مدى الحركة، التّضعيف بأنواعه، التّكرير، إلخ) للكمّيّة اللّفظيّة حالا أوّليّة في التّواصل وأقلّ ما به يكون التّعبير من كمّيّة اللّفظ. وفي قطب الكثرة لا نظفر في الأنحاء، بشكل صريح، على ما به يكون تحديد الدّرجة القصوى الّتي يمكن أن ينتهي عندها ازدياد اللّفظ لازدياد المعنى، سواء كان ذلك في شكل "قواعد" أو "أوامر" أو "نزعات" أسلوبيّة تداوليّة ثقافيّة. وهذا سبيل إلى طرح مبحث التّشبّع في ازدياد اللّفظ لازدياد المعنى من زاوية أيقونيّة كمّيّة.

وأمّا مطل الحركات فمداه غير محدود ولعلّ أقصى ما يبلغه هو أقصى ما يمكن أن يتحقّق وفق كمّيّة الهواء المتوفّر في الرّئتين، وهو أمر يوظّف في الغناء أو التّرتيل لا في التّواصل والدّلالة. وأمّا تكرير المقاطع والألفاظ فهو علي درجات يتوفّر في اللّغة الواحدة بعضها أو جميعها، فنجد التّكرير

الثنائيّ (التضعيف) والتّكرير الثلاثيّ[385]، والتّكرير الرُباعيّ[386]، حيث تناسب درجة التّكرير درجة من التّكثير أو التّوكيد. وتكثير الكمّيّة اللّفظيّة لتكثير الكمّيّة المعنويّة باعتماد المطل أو التّكرير، أمر موكول إلى المستعمل يمكن أن يدفعه إلى المدى الّذي يراه وظيفيّا مفيدا، هو ما يوجزه الخليل بن أحمد في سياق الحديث عن المضاعفة، في قوله: "يتكلّف من ذلك ما بدا له." (العين 1: 55).

ومن يطّلع على مصادر النّحو العربيّ القديم يجد مبحثا ذا صلة بمفهوم التّشبع الكمّيّ، في غضون مباحث التّوكيد المعنويّ بنوعيه: توكيد الذّات وتوكيد الشّمول. وفيه تطرح القضيّة من زاويتين: ما هي ألفاظ التّوكيد الّتي يمكن أن تجتمع على أساس التّتابع في سياق واحد؟ وما ترتيبها إن أمكن ذلك الجمع؟

فالجمع ممكن بين ألفاظ توكيد الذّات على حدة، وبين ألفاظ توكيد الشّمول على حدة، وهو ممكن بين جميع العناصر في المجموعتين، كما يتجلى من قول الأستراباذيّ: "اعلم أنّك لو أردت الجمع بين ألفاظ التّوكيد المعنويّ قدّمت النّفس ثمّ العين، ثمّ الكلّ ثمّ أجمعين ثمّ أخواته من أكتعين إلى أبتعين." (شرح الكافية 1: 1070).

والجمع ممكن بين بعضها دون بعض وفق ما يراد من درجة التّوكيد، ولمّا التّرتيب فواجب على ما يصوّره الأستراباذيّ في قوله: "والمشهور أنّك إذا أردت ذكر أخوات أجمعَ وجب الابتداء بأجمع ثمّ تجيء بأخواته على هذا التّرتيب: أجمع، أكتع، أبصع، أبتع" (شرح الكافية 1: 1071)، وإن أمكن أن يتغيّر ذلك في ما عدا ما يجب الابتداء به من ألفاظ التّوكيد إن اجتمعت.

---

[385] triplication
[386] quadruplication

والجمع بين ألفاظ التّوكيد المعنويّ في الأحوال الثّلاثة محكوم بتراتبيّة أو سلّميّة تحدّد ترتيب الألفاظ -خطّيّا- على أسس دلاليّة حينا وبنيويّة شكليّة حينا، وتداوليّة حينا آخر، نتبيّنها بجلاء في ما يلي:

> وأمّا تقديم "النّفس" على "الكلّ" فلأنّ الإحاطة صفة "للنّفس" ومعنى فيها، فتقديم "النّفس" على صفتها أولى، وأمّا تقديم "النّفس" على "العين" فلأنّ "النّفس" لفظ موضوع لماهيتها حقيقة ولفظ "العين" مستعار لها من الجارحة المخصوصة (...) وأمّا تقديم "الكلّ" على "أجمع" فلكونه جامدا وإتباع المشتقّ للجامد أولى ولا سيما إذا كان المشتقّ على وزن الصّفة وهو "أفعل"، وأيضا فإنّ "كلاّ" قد يقع مبتدأ دون "أجمع"، فإنّه لا يقع إلاّ تأكيدا. وأمّا تقديم "أجمع" على أخواته فلكونه أدلّ على الجمعيّة المرادة من جميعها. وأمّا تقديم "أكتع" - في الصّحيح- على أخويه فلكونه أظهر في إفادة معنى الجمع منهما (...) وهذا المعنى خاف فيهما.
>
> (الأستراباذي: شرح الكافية 1: 1070).

وممّا طُرح في هذا الباب من قضايا تتعلّق بمجال التّوكيد في حال تتابع الألفاظ المفيدة له أمتعلّق هو بما قبله أي أنّ لفظ التّوكيد يؤكّد لفظ التّوكيد السّابق عليه فيكون توكيدا لتوكيد، أم متعلّق باللّفظ المؤكّد الوارد في رأس المركّب، وفي الأمر خلاف، إذ "قال ابن برهان: إذا قلت: جاءني القوم كلّهم أجمعون أكتعون أبصعون أبتعون، فكلّهم تأكيد للقوم، وأجمعون تأكيد لكلّهم وكذا البواقي كلّ واحد منها تأكيد لما قبله. وقال غيره: الصّحيح أنّ كلّها تأكيد للمؤكّد الأوّل كالصّفات المتتالية." (الأستراباذي: شرح الكافية 1: 1072). والمهمّ أنّ المحصّلة في نهاية الكلام ترسيخ للمؤكّد على درجات تبلغ التّشبّع باستيفاء ألفاظ التّوكيد في خطّيّة تراتبيّة وإن كان مداها يشمل اللّفظ المؤكّد مضاعفا على عدد ألفاظ التّوكيد.

والمهمّ أن نتبيّن في نهاية هذا المبحث أنّ التّكرير صريحا كان أو صدى، يمكن أن لا ينتهي، من زاوية نظريّة، عند حدّ لا يمكن الزّيادة عليه. هو ما يمكن تسميته بتشبّع الكمّيّة لتشبّع المعنى. ونتصوّر أنّ هذا الأمر كان

في سائر الأدوات أو الآليّات الجارية في ظاهرة التّوكيد عامّة مهما كانت طبيعتها، وأنّ الحدّ الأقصى موكول إلى المستعمل فردا أو جماعة، وفق ما يشعر به من حاجة إلى التّوكيد قد تفي بها كمّيّة لفظيّة قليلة يمكن أن يُكتفى بها لتحقيق الغرض أو تفي بها كمّيّة كثيرة تقتضيها مقاصده وملابسات القول مقاميّة مباشرة كانت أو ثقافيّة في المعنى الواسع.

فإذا ما تقرّر أنّ التّكرير وسيلة من وسائل التّوكيد - في معناه المطلق- وأنّ الكمّيّة اللّفظيّة تناسب طردا الزّيادة في المعنى، يمكننا أن نتصوّر أنّ زيادة الواحد منهما لا حدّ لها، وهي دليل على "تضخّم" في قيم الألفاظ كما تتضخّم قيم الوحدات النّقديّة في المنظومة التّبادليّة. وكلاهما بالغ درجة تشبّع يجد فيها النّظام توازنه (الجديد) بين العنصر وقيمته بوجه من الوجوه.

الكمّيّة اللّغويّة النّاقصة: الحذف

نوجّه العناية في هذه الفقرة إلى مظهر آخر من مظاهر الأيقونيّة الكمّيّة يتمثّل في ظاهرة الحذف. وقوامه نقص في الكمّيّة اللّفظيّة (صوتيّة، مقطعيّة، مركّبيّة) أساسه المحو أو الحذف أي عدم التّحقّق في الشّكل الصّوتيّ. يخرج من عنايتنا كلّ ما سمّي كذلك وكان محكوما بقواعد صوتميّة نطقيّة أو بنزعات اجتماعيّة وما إليها على أن ندقّق بعض النّظر في ما يستقيم به التّناسب بين كمّيّة اللّفظ وكمّيّة المعنى من زاوية نقص اللّفظ لنقص المعنى.

يمثّل الحذف تحقّقا في البنية الصّوتيّة (في الكلام) منقوصا للّغة بالقياس إلى بنية معياريّة مكتملة تتوفّر فيها جميع المكوّنات، فهو من هذه الزّاوية ذو صلة بجسد اللّغة في مفهومه الّذي بسطنا في ما مضى. فالحذف في البنية اللّغويّة قائم على استغلال ملكة أو مهارة عرفنيّة أساسها الاستكمال، استكمال النّاقص الغائب بأيّ وجه من الوجوه، على أساس خطاطة مسجّلة معلومة

مخزنةً في الذاكرة أو النّظام العرفنيّ مطلقا. وبين المتحقّق الحاضر المدرك وصورته المكتملة تشتغل آليّة التّناظر أو تكملة المتبقّي في ضوء ما تقتضيه الخطاطة. فمن ذلك أن نعثر صدفة على صورة فوتوغرافيّة وقد مزّقت فنال منها بعضها (قليلها أو كثيرها) ونقول هذه صورة فلان أو فلانة، باعتماد ما ارتسم عندنا من ملامح الشّخص كاملة بحكم معرفتنا به في ما مضى، حيث يكون استكمال المنظر العامّ باعتماد الجزء الماثل من الصّورة بتوسّط آليّة التّناظر أو آليّة أخرى. وقياسا على ذلك يكون فهم الجملة أو القول فهما تامّا وقد تحقّق بعضه صوتيًا وغاب سائره. يكون ذلك باعتماد خطاطة جمليّة (بنيويّة إعرابيّة) محفوظة، عليها يكون التّعويل عند المتكلّم وعند السّامع.

ومن الظّواهر اللاّفتة في هذا المضمار ظاهرة التّرخيم، وهو بتعريف سيبويه: "حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا، كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفا. (...) ولا يكون إلاّ في النّداء إلاّ أن يضطرّ شاعر، وإنّما كان ذلك في النّداء لكثرته في كلامهم، فحذفوا ذلك كما حذفوا التّنوين." (الكتاب 2: 239).

فالتّرخيم ظاهرة اجتماعيّة لغويّة بها يكون التّحبّب والاستلطاف والتّقرّب بصرف النّظر عن المسافة الفاصلة في الفضاء، فهو دليل قرب ذهنيّ عاطفيّ، تختصر المسافة الذّهنيّة بين الذّات المنادية وموضع النّداء فيُختصر اللّفظ في النّداء فيرخّم. فقلّة الكمّيّة اللّفظيّة مناسبة لقرب في المسافة الذّهنيّة (الشّعوريّة والعاطفيّة، إلخ).

ويندرج في الحذف ما يطلق عليه سيبويه "الإضمار" بمعنى السّكوت عن التّصريح باللّفظ وتحقيقه صوتيًا: "وإنّما أضمروا ما كان يقع مُظهرا استخفافا، ولأنّ المخاطب يعلم ما يعني (...) كما تقول: لا عليك، وقد عرف المخاطب ما تعني أنّه لا بأس عليك ولا ضرّ عليك. ولكنّه حُذف لكثرة هذا في كلامهم." (الكتاب 1: 224).

ومن ظواهر الحذف ما يكون للاختصار لعلاقة ثابتة يسهل الاهتداء إليها دون توسّل بالعبارة وتكون البنية المنجزة المحذوف منها مكتملة منسجمة منتظمة: "واسأل القريةَ التي كنّا فيها والعيرَ الّتي أقبلنا فيها" إنّما يريد: أهل القرية، فاختصر وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان ها هنا." (الكتاب 1: 212).

في تكافؤ مظاهر الكميّة وتظافرها

نكتفي في هذا المضمار بمثال واحد يبين به التّكافؤ بين مظاهر الكميّة اللّغويّة فيغني الواحد منها عن قرينه وبه يبين كذلك تظافر بعضها أو جميعها جارية في سياق واحد يجمعها. ولعلّ هذين المظهرين مرتبطان بحدس المتكلّم وتقديره للأثر الدّلاليّ حادثا بما يناسبه من الكميّة اللّغويّة فيكون منه تقسيط هذه على قدر ذاك. مدار هذا المثال: المرّيخ، البعد، الأرض، كما في الجدول الموالي:

الكميّة	العبارة
مطل الحركة من الكلمة حاملة المعنى	المرّيخ بعـــــيـــــد من الأرض
تكرار الكلمة حاملة المعنى	المرّيخ بعيد بعيد من الأرض (حيث يمكن أن تتكرّر كلمة (بعيد) على عدد من المرّات وفق المراد).
إيراد عنصر معجميّ قد يكون صفة أو مفعولا مطلقا	المرّيخ بعيد جدّا من الأرض، المرّيخ بعيد بعدا كبيرا من الأرض، يبعد المرّيخ بعدا كبيرا من الأرض. إلخ.
العطف بالتّكرار	المرّيخ بعيد وبعيد وبعيد من الأرض.

خـاتمـة

كانت العناية في هذا الفصل ببعد مهمّ من أبعاد جسد اللّغة، هو الأيقونيّة الكميّة بتجلّياتها المتنوّعة في المستويات النّحويّة المختلفة وفي الظّواهر الجارية في الواحد منها بأسمائها المتعدّدة تبعا لذلك، منها المستوى

الصّوتميّ المفرد (مطل الحركات (الإطالة أو مدّ الصّوت) وزيادة الحروف)، ومنها التّضعيف جاريا في مستوى الجذور وفي الأبنية الصّرفيّة، ومنها التّكرار جاريا في مستوى البنية الإعرابيّة (التّوكيد اللّفظيّ، المعنويّ، المفعول المطلق، الحال)، ومنها ما يجري في مستوى الكلام عامّة ("الاستعانة"). وجميع ذلك في إطار التّناسب بين زيادة في الكمّيّة وزيادة في المعنى. وكانت العناية كذلك بنقيضه في نقص الكمّيّة اللّغويّة لنقص في المعنى (التّرخيم، الحذف أو الخزل).

وقد أثبتنا في جميع ذلك أنّ الأساس في الأيقونيّة الكمّيّة التّناسب بين كمّيّة اللّفظ وكمّيّة المعنى قلّةً وكثرةً، وأنّ هذا التّناسب متردّد بين قطبين أقصيين هما قطب القلّة (المنتهي المحدود)، وقطب الكثرة (المنفتح غير المتناهي) تحكمه درجة في التّشبّع ينتهي عندها وتحدّدها الحدوس العامّة؛ وأثبتنا التّكافؤ والتّظافر بين مختلف الإستراتيجيّات الّتي تتحقّق فيها الأيقونيّة الكمّيّة بوجه يغني بعضها عن بعضها الآخر أو يترافدان في البنية الواحدة. وتبيّنّا كذلك نوعين من التّكرير: صريحا وصدى. يكون المكرِّر مطابقا للمكرَّر في الصّريح منهما فيكون التّسطير والتّذكير والتّوكيد. ويكون المكرِّر، في الصّدى منهما، مختلفا عن المكرَّر صوتا مرادفا له معنى، ولكنّ أثر كليهما واحد.

ولعلّ أبرز ما تقرّر في هذا الفصل أنّ الكمّيّة الصّوتيّة نوعان: كمّيّة نظاميّة نحويّة مسجّلة في النّحو جزءا من الملكة في بعديها النّحويّ الكونيّ العامّ والنّحويّ الفرديّ الثّقافيّ المخصوص، وكمّيّة إجرائيّة كلاميّة للمتكلّم فيها خيارات وإمكانيّات في حدود هامش جماعيّ و/أو فرديّ مقبول بحكم حدوده ومداه التّوازنُ أو التّناسب بين الأداة الكمّيّة والمقصد الدّلاليّ.

الفصل الثـالث
عمل الجسد عمل القول

مقدمـة

يؤخذ مفهوم العمل في هذا الفصل من زاويتين: أولاهما من حيث هو عمل مادّيّ فيزيائيّ يكون من الجسد، وبه تحدث اللّغة كلاما، هو ما نطلق عليه "جسد اللّغة من عمل الجسد". وثانيتهما من حيث هو عمل يكون للّغة، به يحدث ما نسمّيه "العمل الأصليّ" وهو تعيين جسد المتكلّم زمن القول عامّة وبالإشارة إليه تحديدا. ولذلك نسعى إلى أن نثبت أنّ الضّمير الجاري على شخص المتكلّم هو أصل الأعمال اللّغويّة، ثمّ يكون التّركيز على النّطق من حيث هو تجسيد للّغة، مشغّلين اثنين من كثير.

جسد اللغة من عمل الجسد

من الثّابت أنّ اللّغة ظاهرة ذات بعدين: بعد تجريديّ تمثّل به ملكة عند بني البشر، وبعد حسّيّ ملموس يمثّل تحقّقا لتلك الملكة في "الكلام" أو الخطاب. ويختصر ذانك البعدان في ثنائيّات معلومة من قبيل "اللّغة والكلام" (في اللّسانيّات السّوسيريّة) أو "القدرة والإنجاز" و"النّحو المضمر والنّحو المظهر" (في اللّسانيّات التّوليديّة). وبهذا المنظور يمثّل "الكلام" تجسّدا للّغة. وذاك ما اختزلناه في جسد اللّغة. ولكنّ جسد اللّغة من عمل الجسد، بمعنى أنّ اللّغة لا تتحقّق إلاّ بعمل النّطق تصويتا وتقطيعا، وهو عمل أو نشاط فيزيائيّ عضليّ عضويّ تأتيه جملة الأعضاء أو المكوّنات الّتي تمثّل مجتمعة جهاز النّطق والتّصويت.

فجهاز النّطق والتّصويت مجموعة من الأعضاء، ما كان منها متحركا وما كان منها ثابتا، تنتمي إلى نظم جسديّة لكلّ وظيفته البيولوجيّة الّتي بها يكون ضمان عيش صاحبها فحياته بالاستتباع. وذلك من قبيل نظام التّنفس ونظام الهضم وما إلى ذلك. فوظيفة النّطق والتّقطيع وظيفة متردّدة بين البيولوجيّ والثّقافيّ: هي بيولوجيّة من حيث اعتمادها على أعضاء ذات وظيفة بيولوجيّة طبيعيّة تشترك في أنماط تكوّنها وأشكال تركّبها وأنماط اشتغالها الكائنات الحيّة من الثّدييات عامّة، هذا من جهة، وهي ثقافيّة رمزيّة من حيث أداؤها لما به تكون اللّغة كلاما للتّواصل والتّفاعل الاجتماعيّ وباقي المظاهر الإنسانيّة الحضاريّة في معناها الواسع، من جهة أخرى. وإن كان تثقيل الوظيفة البيولوجيّة الأصليّة بوظيفة رمزيّة – وكلتاهما تؤدّيه الأعضاء نفسها- كانت الوظيفة الحادثة- أي النّطق- محكومة بالوظيفة الأصليّة أي بما جُبلت عليه تلك الأعضاء من تركيبة عضليّة عصبيّة كانت بها صالحة لإنجاز وظائفها البيولوجيّة المعلومة من استنشاق وزفير، ومضغ وبلع، ومصّ أو رضاع وما إلى ذلك. فهذه حتميّة بيولوجيّة تحكم التّشكّل اللّغويّ، ولذلك كان جسد اللّغة متشكّلا بما يكون لتلك الأعضاء من تشكّلات فيزيولوجيّة عصبيّة طبيعيّة. ولا نطيل في هذا الأمر وإن كانت موضوعاته متسعة والفرضيّات في شأنه متعدّدة، فاستقصاؤها يخرج بنا عمّا نحن فيه.

ولهذه الحتميّة العضويّة كانت المظاهر الصّوتميّة والظّواهر الأساسيّة في البنية اللّغويّة كونيّةً. فالسّمات الصّوتميّة لصيقة بخصوصيّات تكوينيّة جسديّة عند النّوع البشريّ ناطقا. ولذلك يمكن أن نقرّر أنّ ما يتوفّر من السّمات النّطقيّة التّصويتيّة وقوانينها في الدّرس الصّوتميّ واللّسانيّ، إنّما هو مستخلص من جميع الأعمال العضليّة الّتي تسمح بها تركيبة الجهاز النّطقيّ في المطلق، وما الاختلاف في المتوفّر منها في لغات دون أخرى إلا خيارات (جزئيّة) من رصيد كبير يندرج في مجال المبادئ والبرامترات.

فإحداث اللّغة بالأصوات عمل جسديّ يتوزّع فيه الجهد على الأعضاء المشاركة فيه على قدر العمل ثقلا وخفة، هو عمل تقطيع مادّته النفسُ. ولهذا وغيره كانت صفات اللّغة أصواتا وأبنية من صفات الجسد مادّة وتصوّرا.

فمن أقرب المفاهيم وأكثرها تأصّلا في العمل بمفهومه الفيزيائيّ مطلقا وفي العمل الجسديّ بالاستتباع، مفهوم "الخفّة والثّقل" في النّطق وما إلى ذلك، وتصوّر المفاهيم اللّغويّة تبعا لذلك من منظور فيزيائيّ. وهو ذو فروع من قبيل "ثقل النّطق" و"خفّة النّطق" أو"يسر النّطق" و"صعوبة النّطق"، إلخ. وجميعها يعكس تصوّر اللّغة على أساس الجسد الفيزيائيّ مطلقا. يقول سيبويه في سياق الحديث عن التّضعيف: "اعلم أنّ التّضعيف يثقل على ألسنتهم، وأنّ اختلاف الحروف أخفّ عليهم من أن يكون من موضع واحد. ألا ترى أنّهم لم يجيئوا بشيء من الثّلاثة على مثال الخمسة نحو ضَرَبّب، ولم يجئ فَعَلَّلٌ ولا فُعَلُّلٌ إلاّ قليلا، ولم يبنوهنّ على فعالل كراهية التّضعيف، وذلك لأنّه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ولا تكون مهلة ثمّ يعودوا له، فلمّا صار ذلك تَعَبا عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مُهلَة، كرهوه وأدغموا، لتكون رفعةً واحدة، وكان أخفَّ على ألسنتهم ممّا ذكرت لك." (الكتاب 4: 417).

خطيّة اللفظ من عمل الجسد

إذ كان إحداث اللّغة بالأصوات عملا جسديّا، توزّع فيه الجهد وترتّبت فيه الحركات على قدر أبعاض العمل. فيحدث الكلام على محور خطّيّ فيه بين المتكلّم والسّامع تناظر على درجتين: أولاهما بين جسديهما مقطّعا وسامعا، وثانيتهما بين هيأتين فيزيائيّتين للكلام أصواتا منطوقا بها وأصواتا مسموعة تطرق الأذن. ويوفّر هذا التّناظر أسّا لفرضيّات في إنتاج اللّغة وفهمها، قد تتنوّع بتنوّع العصور وأدوات التّحليل والأطر النّظريّة. ولكنّها

جميعا متّفقة في اعتبار الجسد حاضرا في المظهر المادّيّ غائبا في المظهر العقليّ: الحضور من زاوية المتكلّم كائن في النّشاط النّطقيّ، ويقابله عند السّامع نشاط حسّيّ سمعيّ، وكلا النّشاطين لا اعتبار له في الفهم والتّأويل.

فمن آثار الحضور الجسديّ في الكلام أن تترتّب الألفاظ أو القطع الصّوتيّة تبعا لحتميّة التّقطيع عند المتكلّم وعند السّامع على هيأة واحدة، وهذا أساس لقيام فرضيّة في ما تكون عليه المعاني في الذّهن، وهي فرضيّة فاسدة عند الجرجانيّ، واحدا من كثير، يقول: "قد ترى أحدهم يعتبر حال السّامع، فإذا رأى المعاني لا تترتّب في نفسه إلاّ بترتّب الألفاظ في سمعه ظنّ عند ذلك أنّ المعاني تبع للألفاظ، وأنّ التّرتّب فيها مكتسب من الألفاظ ومن ترتّبها في نطق المتكلّم. وهذا ظنّ فاسد ممّن يظنّه." (أسرار البلاغة: 417).

ومن آثار العمل الجسديّ في الكلام أنّ القول صناعة أو حرفة يتقنها بعضهم فيؤدّيها بمهارة أو لا يتقنها فلا يكون ذلك. فإنجاز الكلام بمثابة سبك المعادن النّفيسة، و"مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذّهب أو الفضّة فيذيب بعضها في بعض حتّى تصير قطعة واحدة. وذلك أنّك إذا قلت: ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له، فإنّك تحصل على مجموع هذه الكلم كلّها على مفهوم، هو معنى واحد لا عدّة معان كما يتوهّمه النّاس. وذلك لأنّك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفسَ معانيها وإنّما جئت بها لتفيده وجوه التّعلّق الّتي بين الفعل الّذي هو "ضرب" وبين ما عمل فيه والأحكام الّتي هي محصول التّعلّق." (الجرجاني، أسرار البلاغة: 412-413).

ومن آثار العمل الجسديّ أنّ نتاج عمله اللّغويّ قد يتأثّر بما فيه من مهارات الأداء فيكون النّتاج جميلا، أنيقا فصيحا؛ أو بما فيه من عيوب العضو النّاطق فيكون النّتاج دون ذلك. فأناقة الكلام من أناقة الجسد وعيب الكلام من عيب الجسد. ومن القضايا الّتي طرحت في هذا السّياق عود الفصاحة إلى اللّفظ أو إلى المعنى، والجواب في الإطار الكلاسيكيّ معروف.

فالمعنى دائما مفضّل على اللّفظ مبجّل عليه تبجيل المخدوم على الخادم. وما يعنينا من ذلك كلّه إنّما هو قيام المبحث كاملا على الجسد اللّغويّ الّذي يحسن لحسن الجسد المنتج ويسوء لعيب فيه. من ذلك أنّ الجرجاني يورد حجّة بها يثبت كون الفصاحة للّفظ لا من زاوية نطقه وإنّما من زاوية المعنى أو العقل إذ "لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في اللّفظ محسوسة تدرك بالسّمع أو تكون صفة فيه معقولةً تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة في اللّفظ محسوسة لأنّها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السّامعون للّفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحا... وإذا كان كذلك لزم منه العلم بأنّ وصفنا اللّفظ بالفصاحة وصف له من جهة معناه لا من جهة نفسه." (أسرار البلاغة: 407).

النطق والكتابة من عمل الجسد

يمثّل عمل الجسد، إذن، عملا أساسيًا في تجسّد اللّغة في مظهر نطقيّ وكذلك في مظهر كتابيّ بحكم عمل عضليّ يدويّ، حيث تتجسّد اللّغة في نوع من التّرجمة، ترجمة العلامات الصّوتيّة إلى علامات كتابيّة مرئيّة. ودون أن ندخل في تفاصيل تذهب بنا بعيدا عن وجهتنا هاهنا، من قبيل النُّظُم الكتابيّة بأنواعها وتطوّراتها على مرّ الزّمن واختلافاتها على تعدّد الثّقافات والأمكنة، وعن مختلف الأبعاد الّتي تكون للتّشكّلات الخطّيّة الكتابيّة، نكتفي بالإشارة إلى ما به يكون تمثّل العلامات الكتابيّة على أساس التّجربة عامّة وعناصر المعيشة ممّا يتوفّر في البيئة بأنواعها خاصّة. فالكتابة عمل جسديّ يكون نتاجه خطوطا على حامل مادّيّ ورقيًا كان أو جلديًا أو طينيًا وما إلى ذلك، أو على حامل افتراضيّ كما هو الحال في وسائل الاتّصال الحديثة مثل الشّاشة الإلكترونيّة في مختلف الآلات المجهّزة بها من حاسوب أو هواتف محمولة أو تلفزة وما إليها. ولعلّ البعد المادّيّ الجسديّ كائن في المطلق

وكائن كذلك في تمثّله عند الأفراد، من ذلك تقريب هيأة الحروف المكتوبة من هيأة شكل مألوف في البيئة بناء على شبه في الشّكل أو في الحجم وما إلى ذلك.

ومنه "سمات" الحروف المكتوبة وجميعها مُسقط من مجالات الأشكال المتداولة في الحياة اليوميّة سواء تعلّقت بهيآت تكون للأعضاء أو للأدوات من المصنوعات وما إليها، فالياء مقصورة وممدودة، والتّاء مربوطة ومفتوحة وجملة من الحروف من ذوات الشّيلة ومن غير ذواتها (ض/ ظ ص/ط). ينضاف جميع ذلك إلى ما يُتداول في تاريخ الكتابة من حيث مصادر الأشكال الخطّيّة الأوّليّة المستعارة من أشكال المسمّيات على أساس المحاكاة في الشّكل، ومن ذلك أن كان حرف السّين مثلّث الأسنان لأنّه أوّل حرف من اسم (سمكة)، فاستعير له شكل السّمكة في تعدّد شوكها، أو يكون حرف الباء على الشّاكلة المعلومة لأنّه أوّل صوت من كلمة (بيت) والبيت وعاء محيط بمظروفه فكان حرف الباء كذلك، و"أمّا ما يخصّ تسمية الحروف الفينيقيّة، فمن الأرجح أنّها صيغت في مرحلة متأخّرة من صياغة الأحرف نفسها، وبهدف تقنيّ (وهو تسهيل استذكار المعنى اللّفظيّ للأحرف) ولعلّ هذه التّسميات ظهرت على أساس الملاحظة العابرة للتّشابه بين أشكال الأحرف والأشياء المختلفة الّتي تبدأ أسماؤها بالألفاظ المطابقة لتلك الأحرف." (حاتم 1982: 236).

ولعلّ جميع ذلك في حاجة إلى إثبات وإن كانت الظّاهرة ذات صدى في نظم كتابيّة تمثيليّة أخرى مثل الغليفات في الكتابة الهيروغليفيّة المصريّة حيث يرمز للحرف بصورة الحيوان الّذي يكون ذلك الحرف من حروف أسمائه. ولهذا التّجسّد نماذج متداولة في سياقات كثيرة منها التّندّر والنّكت النّحويّة وما إليها فقد ذكر الجاحظ: "قال أبو الحسن: بينا هشام يسير ومعه أعرابيّ إذ انتهى إلى ميل عليه كتاب، فقال للأعرابيّ: انظر أيّ ميل هذا؟

فنظر ثمّ رجع إليه، فقال: عليه محجن وحلقة وثلاثة كأطباء الكلبة، ورأس كأنّه رأس قطاة. فعرفه هشام بصورة الهجاء ولم يعرفه الأعرابيّ، وكان عليه "خمسة"." (البيان والتّبيين 2: 332).

عيب اللّغة لعيب الجسد

من آثار العمل الجسديّ في الجسد اللّغويّ أن يكون في هذا عيب لعيب في ذاك، تماما كما يكون العيب في النّتاج لعيب في آلة العمل أو في قالبه. فإذا كان جهاز النّطق والتّصويت آلة إنتاج للكلام، كان هذا النّتاج من آلته سالما لسلامتها وذا عيوب لعيب فيها. وفي جميع ذلك معيار يحكم التّمييز بين تحقّق سويّ مستحسن أو مقبول وآخر يعتوره الخروج عن المعيار المعلوم، فيكون مستقبحا أو مرفوضا. وهذا الخروج مستويان: ظرفيّ طارئ عابر، ودائم مقترن بطبيعة (العاهة في) العضو العضليّ أو الذّهنيّ. وفي الحالتين يكون النّطق السّويّ معيارا أي تحقّقا سويّا لجسد اللّغة عليه ينقاس التّحقّق المختلّ. فعيب اللّغة من عيب الجسد، ولكن من المتكلّمين من يجتهد في اجتناب مصدر العيب، "فقد كان واصل بن عطاء سامَ نفسَه للثّغةِ إخراجَ الرّاء من كلامه ولم يزل يرُوضها حتّى انقادت له طباعُه وأطاعه لسانه فكان لا يتكلّم في مجالس التّناظر بكلمة فيها راء." (ابن قتيبة: أدب الكاتب 1: 17).

العمل اللّغويّ الأصليّ: الضّمير المتكلم

يمثّل النّطق (تقطيع الأصوات) عمليّة يحدث بها الكلام فتتجسّد اللّغة في الزّمان، كما قرّرنا في ما مضى. ولذلك يعتبر عمل القول - بالمعنى القول الحرفيّ المتداول- العمل الأساسيّ الأوّلي لكلّ الأعمال اللّغويّة. ومدخلنا في هذا المبحث كائن من زاوية ما به يكون في عمل القول الأوّليّ من المعالم الّتي يكون فيها التّقارن بين اللّغة وقائلها أو بين الجسدين: الجسد

النّاطق والجسد المنطوق، نعني بذلك المتكلّم فردا أو ذاتا محدثة للكلام في الزّمان ببعديه الفرديّ والاجتماعيّ، واللّغة حدثا قوليّا متجسّدا في ذلك الزّمان. هي لحظة يكون فيها تجسّد اللّغة بتجسّد الإنسان ناطقا، فهي لحظة إشارة لغويّة فيزيائيّة إلى الجسد النّاطق فردا كان أو مجموعة، يكون ذلك بجريان {أنا} أو {نحن} (الضّمير المتكلّم/ ضمير المتكلّم).

فالإشارة المباشرة الوحيدة الجامعة بين الجسد حاضرا في المكان وفي الزّمان و/أو في الوعي، ومحدثا للّغة منشئا لجسدها في الزّمان الوجوديّ إنّما تتجلّى في اللّحظة الّتي يوجد فيها الجسد باللّغة وتوجد اللّغة بالجسد، في لحظة النّطق والتّكلّم، هي استعمال الضّمير "أنا". ولعلّه ليس ضميرا بالمعنى التّامّ، فهو لا يعوّض شيئا، والأولى أن يلتحق بأسماء الإشارة في تصنيف الأسماء التحاقَ "هنا" و"الآن" بها (انظر في تفصيل هذا: الزّنّاد 2005: 225-279).

فلحظة الإشارة بكلمة "أنا" إلى الجسد المتكلّم، تمثّل لحظة عقد بين اللّغة وصاحبها به تتجسّد فتخرج أصواتا من جسده، بها يتحوّل المتكلّم من الوجود المتجسّد فيزيائيّا إلى التّجسّد التّواصليّ الّذي به يستوي جسدا/كائنا اجتماعيّا، يكتمل له بعد آخر هو التّجسّد التّواصليّ الاجتماعيّ في ضمير كلمة "نحن"، رابطا آنيّا مباشرا فوريّا لحظة القول في المجموعة السّامعة أو المتحدث عنها، رابطا عابرا للتّاريخ في مفهوم الأمّة أو الشّعب أو العشيرة. هي لحظة الوعي بالذّات وقد تحقّقت في الإشارة إليها، وهذا مبحث فلسفيّ وجوديّ يخرج بنا الخوض فيه عمّا نريده في هذا السّياق.

والمهمّ أنّ صيرورة "الضّمير" المتكلّم، وهو يختزل الفرد المتكلّم مطلقا، عبر التّاريخ، عرفت تقلّبات كبرى لعلّ أبرز محطّاتها أو أطوارها هي كما يلي، نظريّا، ولكنّها متداخلة في تاريخ اللّغات كما هو معلوم، ويمكن أن

يؤخذ الطّور الواحد ممّا يلي على أنّه مظهر من مظاهر الاستعمال ليس غير أو مستوى لغويّ في سلّميّة قيميّة متفاضلة الدّرجات:

- طور/مظهر بدنيّ: فيه الأنا أنا والنّحن نحن، هو طور الاستعمال العفويّ النّظاميّ أو الطّرازيّ. هو طور الافتراق ما بين مظهرين في وعي المتكلّم: فردا مفردا واحدا وفردا منتميا إلى مجموعة تتضمّنه فتعمّها الإشارة بالنّحن.

- طور/مظهر الأنا المحكوم والنّحن الحاكم: يكون وفق انتظام المجموعة البشريّة إلى حاكم صاحب سلطان وجاه ومحكوم غير ذي سلطان ولا جاه. من ذلك أنّ الملك أو العالم يخاطب النّاس بنحن، وكذا رئيس الجمهوريّة في فاتحة النّصوص القانونيّة وما إليها ممّا ينشر في الرّائد الرّسميّ، مثلا. يقول ابن قتيبة: "ونحن" لا يكتب بها عن نفسه إلاّ آمر أو ناه، لأنّها من كلام الملوك والعلماء." (أدب الكاتب 1: 18).

- طور/مظهر الأنا "الحقير-الفقير": من نماذج ذلك ما يتواتر عند صنف من النّاس في اللّهجة التّونسيّة، من قبيل:

(أ). انا- وأعوذ بالله من كلمة "أنا"،...

(ب). أنا، عبدك الحقير،...

(ج). أنا، عبدك الفقير،...

(هـ). أنا، العبد الفقير،...

- طور/مظهر النّحن المبترى (هو طور/مظهر الأنا المتواضع): في المؤلّفات العلميّة والمحاضرات تعتبر علامة تواضع عند صاحبها، وإن جرى (أنا) بدلا منها اعتبرت علامة صلف وكبرياء...

- طور/مظهر الأنا "المتغول": نماذج هذا كثيرة في سياقات كثيرة متنوّعة يمكن الاكتفاء في شأنها بالإشارة إلى جريانها في الشّعر وفي النّثر، وفي المساجلات والمنافحات والمشادّات الكلاميّة بأنواعها في سياقات الجدل

السّياسيّ أو الفخر والحماسة. ولا شكّ أنّ خير نموذج لهذا ما يتغنّى به الشّاعر العربيّ في المعلّقات وفي ما بعدها من بطولات ومحاسن وتر يجري فيها الأنا هذا المجرى (عنترة واحد من كثير). ويتغوّل الأنا في موق الخصومة أو الجدال الحادّ في الكلام العفويّ، فيستعاض عنه بالنّحن في اللّهجة التّونسيّة:

(أ). ماو قلنالك سامحنا؟!

(ب). ماو طلبنا منك السماح؟!

- طور/مظهر التّوازن ما بين الأنا والنّحن: يكون فيه التّوازن بين الأنا والنّحن على أساس الوزن (اجتماعيًا كان أو سلطويًا) وعلى أساس التّواتر من حيث المراوحة بينهما لغايات تداوليّة شتّى يمكن تلخيصها في المقاصد المقاميّة وما إليها. ولعلّ هذا المظهر مقترن بإستراتيجيّة خطابيّة - ظاهرة أو خفيّة، معلنة أو مستبطنة- من قبيل ما كتب بول ريكور في متن كتاب له يبين فيه عن اختصاص الأنا- فردا- بمسؤوليّته، وعن اتّساع النّحن لجعل القارئ شريكا له بمعنى معه وليس عليه، لينشأ نوع من التّعاون أو التّرافد:

> "هل أعترف أخيرا بأنّي لم أتّبع قاعدة ثابتة في استعمالي لكلمة "أنا" أو كلمة "نحن" إلاّ في كلمة "نحن" الدّاخلة على السّلطة أو التّفخيم؟ إنّي أفضّل القول "أنا" حين آخذ على عاتقي استدلالا، والقول "نحن" حين آمل أن أجرّ معي قارئي."
> (ريكور 2009: 29).

العمل بالقول (الأعمال الإيقاعيّة)

العمل اللّغويّ في المطلق كلام ينجز به عمل، حالما تتجسّد العبارة في الصّوت يكون لها العمل، ولذلك يمكن البحث في تجسّد اللّغة من مظهرين: مظهر صوتيّ فيزيائيّ (لغويّ) يكون له عمل الجسد المادّيّ الحيّ في المطلق

المتفاعل مع عناصر محيطه من الأناسيّ خاصّة. ومظهر رمزيّ يكون به إحداث المعاني والأشياء والأعمال أو إيقاعها.

تتجسّد اللّغة بالكلام وتتحقّق، وهذا عمل في ذاته وحدث يحتلّ حيّزا في الوجود الفيزيائيّ (المظهر الصوتيّ ظاهرة صوتيّة)، ولكنّ ما تتجسّد به فعلا من جملة ما تتجسّد به هو ما تجعله متحقّقا بها من تغيير الكون والتّجربة: إيقاع القول لإيقاع الأشياء. فالكلمات في المطلق لا تغيّر شيئا وإنّما تساعد على تغيير الأشياء، ولا تحدث شيئا في ذاتها وإنّما تحدث لحدوثها الأشياء.

وممّا به يتداخل العمل الإيقاعيّ ويتوزّع بين اللّغة منطوقا بها وسيلة في إيقاع العمل، والجسد ناطقا مُوقعا للعمل. وبعض أجزاء الجسد مدقّقة لذلك العمل، ما تعرفه بعض المجتمعات الّتي يكون فيها الرّئيس (شيخ القبيلة، إلخ) شخصا مقدّسا بجميع أبعاد القدسيّة تجعل منه إلاها. ومنها أن يكون ما يلمسه من الأشياء يمتنع عن الجميع مسّه فلا يصلح إلاّ لاستعماله هو دون غيره، بل إنّ ما يرتدي من الملابس وما يأكل فيه من الأواني يسبّب الأذى لمن يضع يديه عليه إن لم يتسبّب في هلاكه. بل يكفي الرّئيس البولينيزيّ، مثلا، "أن يسمّي شيئا باسم جزء من جسده كي يضمّه إلى ملكيّته ويشحنه بطاقة مميتة، أو أن يعلن أحد الأنهار أو الأدغال محرّما حتّى يكرّسه له، بحيث يمسي عبوره محظورا ويستحيل القيام فيه بأيّ عمل دنيويّ نافع." (كايوا 1950: 133).

ويمكن أن نعتبر أنّ العمل باللّغة أي بجسدها نتيجة لفائض الاستعمال، لا بمعنى الغنى وتوفير الحاجيّ وهو التّواصل والتّعبير، وإنّما بتوظيف آخر للّغة عندما تتجسّد صوتا ويكون الوعي بقدرة ذلك الصّوت على إحداث الأثر بالتّأثير في الأشياء والعمل فيها. فالعمل باللّغة تماما مثل العمل بعضو من أعضاء الجسد يتطوّر ويتدقّق ويميّز صاحبه في أداء الحادث من الأدوار له: فاليد في المنطلق المشترك أداة للتّنقّل (عند الطّفل الصّغير) ثمّ يتوازى كلّ

ذلك ويتداخل مع دور الإمساك بالأشياء ثمّ تركب أدوار أخرى هي أعمال متعدّدة (الإشارة باليد والجارحة، التّصفيق أو جعل الخاتم في الأصابع الصّناعة وسائر المهارات الفنّيّة والمعيشيّة اليوميّة) إلخ. وكذلك اللّغة منطلقها إخبار واستخبار في البداية ولكنّها جارية في الكثير من المظاهر الزّائدة عن الحاجيّ من التّواصل والعملُ اللّغويّ أقصاها قوّة وفعلا وتعقّدا.

عنف الجسد وعنف اللغة

تقوم حياة المجموعة على التّفاعل بين أفرادها، تعاونا وتصارعا أو تعاضدا وتنافسا. وفي جميع ذلك تتوسّط أدوات التّواصل والتّفاعل بأنواعها وفق طبيعة المجموعة بشريّة كانت أو حيوانيّة، كلاًّ حسب ما أوتي من ملكات رمزيّة وأجهزة بيولوجيّة. ولجميع ذلك كان في اللّغة صدى وأداة في آن، يحدث بها من الأعمال ما يحدث بالأعضاء والجوارح.

فمن الأعمال اللّغويّة ما يكون بالسّباب والشّتم، يحدث به الإيلام فيكون في المصارعات الكلاميّة الانتصار والهزيمة، وفي جميع ذلك يعتبر اللّسان أداة وسلاحا، والكلام الّذي هو أثره أداة وسلاحا. فعنف اللّغة من عنف الجسد ولينها أو لطافتها من لينه أو لطافته. وإذ كانت اللّغة بدورها من عمل الجسد أمكن اعتبارها تابعة لعنف الجسد ومعوّضة إيّاه بها يستعيض البشر عن العنف العضليّ المادّيّ ليحدث عنفا رمزيّا يحقّق الغايات نفسها ويكون له الأثر نفسه.

ولذلك يحدث العنف باللّغة عندما يتعطّل العنف الجسديّ في الغالب، ولعلّها استعاضة ثقافيّة، فلو كانت جميع الخصومات جسديّة في أفراد المجموعة الواحدة لانتهى الأمر بالجميع من أفرادها إلى الفناء، ولكنّ العنف اللّغويّ الّذي استعاض به البشر عنه، ذو أضرار أخفّ ووقع ألطف من حيث يحدث الأثر نفسه ولا تهديد للحياة. ولذلك لا يكون الصّراع بين الحيوانات إلاّ

بالعنف الجسديّ لأنّها لا تتكلّم فلا تملك أداة رمزيّة تستعيض بها عن الجسد لتحقيق العنف، فالمفترس يطارد الفريسة وهي تفرّ منه طلبا للنّجاة دون كلام ولا تواصل. وكذا الأمر في الحروب لا يعرف العدوّ عدوّه فلا تواصل بينهما بمعنى أنّ الجنديّ الّذي يطلق النّار، مثلا، لا يعرف الجنديّ الآخر الّذي إن أصابه أرداه قتيلا، وإن تقابلا وجها لوجه أمكن لهما التّحادث، وإن بالإشارة، وأمكن لهما التّصارع باللّغة، ويمكن أن ينتصر الواحد وينهزم الآخر، وتستمرّ حياة كلّ منهما مصونة. وما ينطبق على العنف والصّراع ينطبق كذلك على سائر وجوه التّفاعل بين بني البشر.

فالعنف اللّغويّ تعويض لعنف جسديّ ماديّ من خلال الاستعاضة عن الجسد المادّيّ بالجسد اللّغويّ للاستعاضة عن العنف الجسديّ بالعنف اللّغويّ. فالشّتم والسّبّ عنف رمزيّ بالقياس إلى العنف والتّعنيف المادّيّين، فكم من حرب بالسّلاح تنشأ بين شعبين جارين يكون التّمهيد لها بحرب كلاميّة يتراشقان فيها بالشّتائم وبالسّباب يتبادلانها عبر الحدود كما يتبادلان القذائف المدفعيّة، وما إلى ذلك. وكم من كلمة جارحة يشبّه وقعها بفعل الرّصاص، ومن كلمة طيّبة يشبّه وقعها بالبلسم والدّواء، وكم راج في المصطلحات القانونيّة كلمات من قبيل "العنف اللّفظيّ" و"الكلام النّابي" وما إليها.

ومن الأعمال اللّغويّة المندرجة في مجال العنف التّهديدُ والوعيد، وكلاهما، حادثا باللّغة، إنّما هو بديل لحركات الجارحة المهدّدة في حركاتها المعلومة متتابعة وموجّهة إلى المهدّد أو المتوعَّد، ولعلّ لها صلة بعمل الضّرب للإيلام، وهو كذلك مكافئ لها ينوب عنها، أو هما معا متظافران متعاضدان إن تزامنا، فكم من وعيد لفظيّ يصاحبه وعيد بالحركة يقوّيه ويؤكّده.

فالعنف الرّمزيّ والعنف المادّيّ متلازمان متناوبان متكافئان. والعنف الرّمزيّ الحادث باللّغة إنّما هو كذلك بتجسّدها كلاما في المطلق، كما أثبتنا في ما مضى، وهي متجسّدة في العنف بنيابتها عن العضو المحدث للعنف الجسديّ. فالعنف باللّغة عنف بالجسد في نهاية المطاف.

وإذ تستوي اللّغة بما ذكرنا جسدا محدثا للأشياء (العمل بالقول) تحوّل في الآن نفسه أداة من أدوات السّلطة والصّراع الطّبقيّ حيث يكون لصاحب السّلطة (الحاكم) الأمر والنّهي ويكون للمتسلّط عليه الطّاعة إن امتثل أو التّوسّل والاستعطاف والالتماس إن طلب. ولعلّ جميع ذلك يمثّل الأساس الثّابت في انقسام العمل اللّغويّ إلى قسمين كبيرين: قسم القوّة والاستعلاء وقسم الضّعف والاستكانة، وإلى اتّجاهين في مراتب الهرم الاجتماعيّ: الأعمال اللّغويّة الحادثة من فوق إلى تحت، أقوى وأكثر وأنجز بكثير من تلك الحادثة من تحت إلى فوق. وأمّا سائر الدّرجات منها (أي الأساليب الوسطى) فجارية في الطّبقة الاجتماعيّة الواحدة ذات الأفراد المتساوين المتجانسين.

خاتمة

كانت العناية في هذا الفصل بآثار الجسد في الجسد اللّغويّ من حيث كان نتاجا له: فإحداث اللّغة بالأصوات عمل جسديّ يتوزّع فيه الجهد على الأعضاء المشاركة فيه على قدر العمل ثقلا وخفّة، هو عمل تقطيع مادّة النّفس. ولهذا وغيره كانت صفات اللّغة أصواتا وأبنية من صفات الجسد مادّة وتصوّرا. فمن آثار الحضور الجسديّ في الكلام أن تترتّب الألفاظ أو القطع الصّوتيّة تبعا لحتميّة التّقطيع عند المتكلّم وعند السّامع على هيأة واحدة، ومن آثار ذلك أن تكون سلامة الكلام من سلامة الجسد ويكون عيب الكلام من عيب الجسد.

وأثبتنا أنّ العمل الأساسيّ الأوّلي الّذي تنبنى عليه كلّ الأعمال اللّغويّة، إنّما هو العمل الّذي يكون فيه التّقارن بين اللّغة وقائلها أي بين الجسدين: الجسد النّاطق والجسد المنطوق بما في الأوّل من مفهوم المتكلّم ببعديه الفرديّ والاجتماعيّ، وبما في الثّاني من مفهوم اللّغة حدثا قوليّا متجسّدا في ذلك العمل ببعديه الفرديّ والجماعيّ؛ وأوّل ما يكون فيه ذلك التّقارن هو ضمير المتكلّم مفردا وجمعا. ويلحق بذلك العمل اللّغويّ الإيقاعيّ الّذي به يكون تغيير الكون والتّجربة تقع الأشياء والأحداث لوقوع القول، وإن كانت الكلمات في المطلق لا تغيّر شيئا وإنّما تساعد على تغيير الأشياء، ولا تحدث شيئا في ذاتها وإنّما تحدث لحدوثها الأشياء.

وفي هذا الإطار أثبتنا أنّ الأعمال اللّغويّة تمثّل توظيفا آخر للّغة مفارقا للعمل الأصليّ عندما تتجسّد صوتا ويكون الوعي بقدرة ذلك الصّوت على إحداث الأثر في الأشياء والعمل فيها. ويستوي التّوازي بين اللّغة والعضو في العمل، فالعمل باللّغة تماما مثل العمل بالعضو يؤدّي الحاجيّ من الأعمال في المنطلق، ثمّ يتطوّر ويتدقّق ويمهر في الأداء فيكون منه أداء الحادث من الأدوار. وأثبتنا في نهاية المطاف أنّ عنف اللّغة من عنف الجسد بأن استعاض البشر عن الجسد المادّي بالجسد اللّغويّ استعاضة رمزيّة ثقافيّة فيكون العنف باللّغة لتعطّل العنف الجسديّ بالموانع المعلومة.

خاتمة الباب الثالث

كان هذا الباب بحثا في جسد اللّغة، ولذلك بحثنا في ما به تكون اللّغة جسدا وفي ما به تشكّل النّظام اللّغويّ على أساس ذلك الجسد بطبائعه المخصوصة وفي ما به كان الجسد اللّغويّ من عمل الجسد البشريّ وأداة يعمل بها في آن.

فكان البحث في الفصل الأوّل من هذا الباب في جسديّة اللّغة أو في ما به تكون اللّغة ظاهرة فينومينولوجيّة من حيث تجسّدها في شكل منطوق يوجده الجسد المتكلّم، ومن حيث كانت اللّغة جسدا فيزيائيا يجري وسيطا بين الأجساد المتفاعلة، ومن حيث مثّل جسد اللّغة مدخلا لتبرير العلاقة الكائنة بين اللّفظ والمعنى؛ ومن حيث مركزيّة الإنسان في تصوّر اللّغة على أساس الجسد البشريّ ومختلف المؤسّسات البشريّة، ومن حيث كان الجسد اللّغويّ أرضيّة لعدد من الظّواهر الخطابيّة من قبيل التّقديم والتّأخير وظاهرة توقّع اللّفظ لتوقّع المعنى في الشّعر وفي النّثر، واللّعب اللّغويّ في علاقته بالخطيّة وبمطاطيّة القراءة. وكانت العناية في الفصل الثّاني ببعد أساسيّ في جسديّة اللّغة هو الكمّيّة اللّغويّة بأنواعها من حيث أيقونيّتها من خلال تجلّياتها المتنوّعة في المستويات النّحويّة المختلفة من مطل للحركات وزيادة في الحروف، وتضعيف وتكرير وما إلى ذلك. هي أيقونيّة يحكمها التّناسب بين زيادة في الكمّيّة الصّوتيّة وزيادة في المعنى أو العكس. وهي أيقونيّة كمّيّة ذات مظهرين أوّلهما نظاميّ نحويّ مسجّل في النّحو جزءا من الملكة وثانيهما إجرائيّ كلاميّ للمتكلّم فيه خيارات وإمكانيّات محدودة بالتّوازن أو التّناسب بين الأداة الكمّيّة والمقصد الدّلاليّ. وكانت العناية في الفصل الثّالث بآثار الجسد في الجسد اللّغويّ من حيث كان من عمله وأداة يعمل بها في

إيقاع الأعمال (اللّغويّة) بأنواعها. فالجسد اللّغويّ عمل للجسد البشريّ من حيث كان حادثا بنشاط عضليّ جسديّ ولذلك كان ما له من الخصائ موروثا من طبائع الجسد البشريّ نطقا وإتقانا، جمالا وقبحا، وهو في أن ا… عمل يستخدمها في جميع أحواله ومستعيضا بها أحيانا عن أدوات أخرى في العمل من قبيل الاستعاضة عن الأشياء بتسميتها أو عن عنف الجسد بعد اللّغة في التّفاعل الاجتماعيّ.

البـــاب الرّابـع

لغــة الجسد

مقدمة الباب

هناك لحظات في الحياة تكون فيها مسألة معرفة ما إذا كان بالإمكان أن نفكّر بطريقة مخالفة لتلك الّتي نفكّر بها، وما إذا كان بالإمكان أن ندرك بطريقة مخالفة لتلك الّتي نرى بها، ضرورية من أجل الاستمرار في النّظر أو في التّفكير. (ميشال فوكو، تاريخ الجنسانيّة: استعمال المتع، ص 10)

يقتضي التّواصل اللّغويّ الأوّليّ وضعيّة تواجه بين المتخاطبين. ولذلك مثّل التّواجه الأرضيّة البسطى لقيام جميع النّظريّات اللّغويّة بمختلف مشاربها وأسسها ومواطن تركيز العناية فيها. ولكنّ التّواجه الّذي عنيت به النّظريّات اللّغويّة في جميع الأحقاب- في حدود ما نرى- يتناسى أنّه تواجُه بالأجساد يكون بين جسدين على الأقلّ، ولئن جرى تجريد التّواجه النّظريّ (في المنظومة اللّغويّة) فاستقام مفهوما عاملا برأسه في التّحليل ووصف الانتظام، فهو يظلّ غائما عائما ما لم يُعلّق بأرضيّته الّتي يتجذّر فيها وهي العرفنة المشتغلة في بيئتها المادّيّة الّتي يمثّل فيها الجسد مشاركا فاعلا مكوّنا للمشهد متفاعلا مع عناصر محيطه، لا مجرّد حاوية أو آلة بيولوجيّة يكون منها تقطيع للأصوات وتفكير سابق لذلك أو مزامن له أو لاحق عليه. فتكون حينئذ العناية بالإشارة المصاحبة للنّشاط الكلاميّ مناسبة يعود فيها الجسد الغائب. فالجسد لا يمثّل مجرّد آلة -بدماغه- يُجري عمليّات حوسبيّة على تمثيلات رمزيّة محفوظة في العلبة المغلقة (الدّماغ)، وإنّما هو عنصر مكوّن للتّواصل اللّغويّ جزءا من العرفنة في جميع أبعادها وبجميع نظمها. ولذلك كانت له لغته وإن لم تكن قابلة للتّقطيع الصّوتيّ ولكنّها قابلة لتقطيع من نوع آخر

مختلف في الوحدات، فهي لغة من هذا الجانب ولا اختلاف بينها وبين اللّغة في مفهومها المعهود- إلاّ في الوحدات الدّنيا المكوّنة لكلمتيهما ليس غير.

وقد جعلت النّظريّة اللّسانيّة حركة الجارحة أمرا ثانويّا في بعض الأحيان بل أمرا ممّا لا يعتدّ به في الدّرس اللّسانيّ المنصبّ على الملكة اللّغويّة في تصوّر النّحو ذهنيّا منفصلا عن سائر الملكات جاريا في الدّماغ في شكل دارة مغلقة، ولذلك قلّما تجد فصلا في الدّراسات النّحويّة بصورة عامّة (وفي التّوليديّة مثلا بصورة خاصّة) مخصوصا بحركة الجوارح، وإنّما تجد دراسات مستقلّة في شأنها أو فصولا مبثوثة في مباحث علم النّفس وما إليها. ومقابل ذلك تجد أنصارا لحركة الجارحة ذوي عناية مخصوصة بها في جميع أبعادها، ومنهم من يرى أنّ اعتبار حركة الجارحة "لغة للجسد" منفصلة عن اللّغة المقطّعة موقف خاطئ غالط (انظر مثلا ماكنال 2005: 4)[387].

• ولئن كان الجسد غائبا أو مغيّبا من العناية في الدّرس اللّسانيّ فهو ماثل بأشكال مختلفة في الفكر الفلسفيّ، وفي المنظومات العقائديّة بأنواعها المختلفة، من حيث تجلّياتها سواء أتعلّق الأمر بالعادات الاجتماعيّة اليوميّة أم بالعادات الطّقوسيّة بأبعادها المختلفة طقوسا جارية في مراسم دوريّة موسميّة ذات صلة بالأديان معاشا ومعادا أو في طقوس العبور بأنواعها من ميلاد فختان فزواج فموت، على سبيل المثال، أو في نقوش فنّيّة يحملها الجسد وسيطا ما بين الفرد والجماعة علامة على الانتماء، انتماء الفرد إلى مجموعة قبليّة أو إثنيّة أو إلى طبقة اجتماعيّة في المجموعة الواحدة، أو علامة منفردة تختزل التّاريخ ببعديه الفرديّ الشّخصيّ أو الجماعيّ المشترك.

[387] McNeill, 2005

فكان الجسد في جميع ذلك لوحة فنّيّة تزيّن أو تطلى أو تلوّن أو يوسم بالوشم أو بالحرق وما إلى ذلك. وهو في جميع ذلك جامع من حيث حضوره المستمرّ وتوفّره الدائم فهو في آن حامل وموضوع. ذلك أنّ العمل الفنّيّ في المطلق منفصل عن الذّات المعرفنة، ذو وجود موضوعيّ مستقلّ من حيث حامله قماشيًا كان أو خشبيًا أو معدنيًا أو صخريًا أو طينيًا وما إلى ذلك، ومن حيث مضمونه وفحواه. أمّا الجسد، في بعده الّذي يعنينا في هذا الفصل، فهو ماثل دوما ينصهر فيه الحامل والمضمون فلا فكاك بينهما، فيكون على هذا عملا فنّيًا رمزيًا اجتماعيًا يجول في الحياة ويتفاعل مع سائر الأفراد في المجموعة.

وقد استقلّ الجسد في العصور الحديثة مفهوما وكيانا، فظهرت فنون تُنسَب إليه في تعريفها وموضعها في أفنان شجرة الفنون. فهو في الرّسم مخصوص بالرّسم على الجسد، وفي المسرح مخصوص بفنّ المحاكاة، وفي بعضها صار صناعة وموضة مربحة لها مدارسها ومخابرها ومنظّروها واتّجاهاتها. هذا في البعد الرّمزيّ دون أن نهمل البعد الفيزيائيّ المنصبّ على الجسد أداة عضليّة تُتعهّد بأشكال مختلفة في مجالات متنوّعة ذات صلة بالمصارعة بأنواعها وبالمسابقات الرّياضيّة (رفع الأثقال، كمال الأجسام، إلخ)، أو ذاك المنصبّ على الجسد أداة استهلاكيّة ذات موقع مهمّ في الدّورة التّجاريّة كما هو الأمر في الإشهار والتّجميل وتجارة الجنس وما إلى ذلك، أوَ شاهدتم في يوم من الأيّام إشهارا لنوع فاخر من السّيّارات خلوا من حسناء في الجوار، جوار السّيّارة بطبيعة الحال؟

والإشارات المصاحبة للقول نوعان: إشارات تواضعيّة وإشارات مقاميّة (أيقونيّة، أشاريّة)؛ فالإشارات التّواضعيّة أو الاصطلاحيّة حركات ذات معنى معهود يرتبط بها ارتباط المعنى بالكلمة المنطوقة. والإشارات المقاميّة بنوعيها الأيقونيّة أو الإشاريّة حركات ذات معنى سياقيّ أو مقاميّ

فيها قدر كبير من الإبداع الفرديّ.

ومن الإشارات الحادثة بالجوارح[388] ما يكون مقنّنا أي ذا "نحو" ينتظم من حيث شكل أدائه ومن حيث أبعاده (طولا وقصرا، ارتفاعا وانخفاضا، ونبرة سريعة أو بطيئة، إلخ)، هي حركة الجارحة جارية للتّعبير عن مضمون إخباريّ أو للتّبئير والتّفخيم والتّوكيد. ومنها ما يكون فوضويّا، في حركات تصاحب القول مثل النّوع الأوّل ولكنّ شحنتها الدّلاليّة غير مفيدة أو معدومة وإن كانت في العموم جارية دون ضابط يحدّدها فلو سئل صاحبها و/أو مشاهدها عن معناها ما وجد الجواب.

نجعل هذا الباب فصولا محدودة انتقينا فيها ما بدا لنا مهمّا من المباحث المتّصلة بلغة الجسد، وما لا يذهب بنا عن مشاغلنا اللّغويّة العرفنيّة، وقد تقاسمه ثالوث من المحاور: أوّلها في "لغة الجسد" مفهوما وتاريخا وأدوات بفروعه الممكنة من قبيل منزلة حركة الجارحة في الإطار العلاميّ بما يتوفّر فيها خصائص الأيقونيّة، والتّصوّر الاستعاريّ والتّصوير الذّهنيّ والأساس الإنشائيّ الإيقاعيّ، وبما وفّرت به أرضيّة لنشأة اللّغة في المطلق. وثانيها في "الجسد 'متكلّما' بالجوارح" يكون ذلك بالفحص في دور الحركة بالجارحة في اشتغال الذّهن وفي الكتابة بالجسد (الكوريغرافيا والرّسم) وفي إيقاع الأعمال الّتي تكون بالقول وفي ما يكون في حركة الجوارح من كشف عن التّصوّر الاستعاريّ للمفاهيم باعتماد نماذج تتأسّس على التّصوّر الفرديّ أو الجماعيّ تتضمّنهما مناويل عرفنيّة عامّة، وفي ما يكون بحركة الجوارح من إنشاء للمفاهيم على عن طريق المزج. وثالثها "الجسد حاملا أيقونيّا"، بما يندرج فيه من مظاهر الأيقونيّة تتجلّى على البشرة في أعمال الوشم من حيث دلالاتها ورمزيّتها وأبعادها الذّهنيّة الثّقافيّة والاجتماعيّة التّاريخيّة، وبما يندرج فيه من

---

[388] gesture(s)

أيقونيّة في اللّباس تتجلّى في مظاهر الحياة الكثيرة منها ما يعاين في الكثير من المظاهرات أو المسيرات خلال الثّورة التّونسيّة وما بعدها حيث يتجسّد الشّعار لباسا وقناعا، وبما يندرج فيه من أيقونيّة هي للجسد كاملا من حيث كان منحوتا ثقافيا في جميع أبعاده كائنا مادّيا واجتماعيا فشيئا أو رقما من جملة أرقام في النّهاية.

13

الفصل الأوّل

لغـة الجسد: المفهوم وحدوده

مقدّمـة

يجري مفهوم "لغة الجسد" على كلّ ما يكون من الجسد حاملا لرسالة ليست فيه، بما في ذلك جميع الجوارح من اليد أو الذّراع أو الأصابع أو العين وسائر ما تكون به الإشارة منها. وتجري حركة الجارحة على جميع الحركات بمختلف أنواعها كائنة من الأصابع أو اليد أو الذّراع أو من جميعها، مزامنة للقول ومصاحبة له مصاحبة عفويّة لا إراديّة آليّة أو غير مصاحبة له. ويمكن توسيع حركة الجارحة لتشمل قسمات الوجه في مظهرها التّعبيريّ وما شابه ذلك من إشارات بالعين أو الشّفة وما إليها. ويكون النّظر في ذلك بتركيز الظّاهرة من حيث مفهومها وتاريخ العناية بها وتبلورها مبحثا برأسه ثمّ تكون العناية بحركة الجارحة أداة تصوير ذهنيّ وتفكير وتعبير باعتماد نماذج متنوّعة مختلفة، ولجميع ذلك تستوي حركة الجوارح قسما من النّظم العلاميّة.

الجسد شيء ورمز

لا نطيل كثيرا في هذا المبحث فهو مطروح من اهتمامنا ولكنّ التّمهيد به لما يلحق، ضرورةٌ من حيث مثّل الجسد موطنا لبعدين: ماديّ ورمزيّ، ينصهر كلاهما ويتشكّل في مستويات أدناها الفرديّ وأعلاها الجماعيّ (الأسرة فالقبيلة فالشّعب فالأمّة...) وفي تراكمات ثقافيّة - بالمعنى الواسع- حادثة خلال التّاريخ المديد.

والبعد الرّمزيّ مسكون بتمثّلات الجسد وهو يشتغل كائنا تاريخيًا واجتماعيًا وما يتفرّع عن الواحدة من تلك التّمثّلات في مظاهر عيشه المادّيّ المختلفة وعيشه الرّمزيّ والطّقوسيّ والفنّيّ والجماليّ. وفي العموم يمكن أن تقترن بالجسد رمزيّة ذات مراتب أربع (فيرث[389] 1975، بونوا وكاتبراس[390] 1993): يُستخدم الجسد وسيلة من وسائل التّواصل باعتبار الهيآت والحركات والإشارات ومظاهر الزّينة الّتي تكون له في مختلف الأنشطة التّفاعليّة. وتستخدم مختلف الأعضاء من الجسد أو الأجزاء منه للدّلالة على أحداث اجتماعيّة وأحوال نفسيّة شعوريّة أو عاطفيّة متنوّعة. ويُستخدم الجسد مفهوما وعبارة - بتوسّط الاستعارة الموسّعة- للدّلالة على مجموعات ذات بعد رمزيّ جامع بين أفرادها على أساس الانتماء بأنواعه، ومن ذلك تشبيه المؤمنين بالجسد يشتكي منه عضو فتسهر له سائر الأعضاء بالوجع والحمّى، ومن ذلك الخطاب الكنسيّ في المسيحيّة حيث يتمثّل أبناء الكنيسة جسدا واحدا. ويمكن أن ترمز صور الجسد (من رسوم أو تماثيل أو منحوتات، إلخ) إلى ذات صاحبه حيًا كان أو ميّتا، عند غيابه، وتحدث الأثر النّفسيّ والشّعوريّ الّذي يكون له في حال حضوره. ينطبق ذلك في مستوى الفرد انطباقه في مستوى الأسرة أو المجموعة الواسعة. فمن تمثّلات الجسد أن يكون مرآة للعالم أو الكون. وفي ذلك يكون رمزا لانتظام الكون فيكون التّناسب بينه وبين الكون مطلقا تتفرّعه تناسبات جزئيّة ما بين أعضائه وأجزاء الكون (الأرض). وذاك ما يلخّصه الجاحظ في مفهوم "الإنسان عالم صغير":

---

[389] Firth R. 1975
[390] Benoist & Cathebras 1993

وسمّوه العالمَ الصغير لأنّهم وجدوه يصوّر كلّ شيء بيده ويحكي كلّ صوت بفمه، وقالوا: ولأنّ أعضاءه مقسومة على البروج الاثني عشر، والنّجوم السّبعة، وفيه الصّفراء وهي من نتاج النّار، وفيه السّوداء وهي من نتاج الأرض، وفيه الدّم وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء، وعلى طبائعه الأربعة وضعت الأوتاد الأربعة (الحيوان 1: 213).

حركة الجارحة: معالم في تاريخ المفهوم

تعود العناية بحركة الجارحة موضوعا قائما برأسه إلى العقود المتأخّرة ولكنّ المتصوّر أنّ جذور ذلك عائدة إلى فجر الحضارة البشريّة في المطلق. فمن المفترض أنّ المؤسّسة التّواصليّة بأنواعها قامت على أساس ذي أرضيّة إشاريّة تطوّرت إلى رمزيّة لغويّة. ولذلك ورثت جميع الشّعوب في لغاتها عادةَ الإشارة بالجارحة المصاحبة للّغة. وتثبت الدّراسات المهتمّة بالإشارة بعض الشّذرات في ذلك نورد منها أهمّ المحطّات:

تضمّنت المصنّفات في الخطابة في الحضارتين اليونانيّة والرّومانيّة، والعربيّة الإسلاميّة إشارات تهمّ حركة الخطيب بالجارحة أداة من أدوات الإقناع والتّأثير في السّامعين. فالعناية فيها كانت بالإشارة الخطابيّة[391]: ما يأتيه الخطيب من الحركات، حركات اليدين والجسد من حيث نصبته وهيأته، غايتها تجميل القول وتحسينه أو تأكيده وترسيخه لضمان الأثر الحسن في سامعيه. فقد كانت حركة الجارحة تعتبر حلية ممّا يحلّى به القول بلاغيًا في مظهرين لغويّ وجسديّ.

صنّف كانتيليان[392] (35 – 100 م) "بلاغة الخطباء"[393] (سنة 95 تقريبا)، فيه اهتمّ بالخطابة والبلاغة من حيث هي فنّ وصناعة كما اهتمّ فيه بالخطيب نفسه من حيث ثقافته وعلمه وطبائعه وأسلوبه فكانت له عناية

---

[391] rhetorical gesture(s)
[392] Quintilian, Marcus Fabius
[393] Institutio Oratoria

بحركة الجارحة دليلا يتّبعه الخطباء في روما خلال القرن الأول وما بعده، وهو يصف حركات اليد والذّراعين وصفا دقيقا يسطّر لهما مختلف الحركات الممكنة يربطها بغاياتها، ويثبت مواطن تزمينها، وتناسقها مع القول. ويؤكّد على التّناسق ما بين حركةَ اليد وحركةَ الجسد عموما والصّوت، يقول:

"(85) ولنا اليدان. اللّتان بدونهما يَشلّ كلّ عمل ويضعف، وتندر إمكانيّة وصف حركاتها المتنوّعة إذ تكاد تعتبر متكلّمة. أولا نستعملهما للطّلب أو للوعد، أو للنّداء أو للرّفض أو للتّهديد أو للتوسّل أو للتّعبير عن الكره أو الفزع، أو للسّؤال أو للإنكار؟ (...) أو ليست تحلّ محلّ الظّروف والضّمائر عندما نشير إلى الأماكن وإلى الأشياء؟ وبالفعل، رغم أنّ شعوب الأرض وأممها تتكلّم ألسنة متعدّدة، فهي تشترك في لغة اليدين الكونيّة.

(88) فالحركات الّتي تحدّثت عنها إلى هذا الحدّ تصدر منّا صدورا طبيعيّا في زمن واحد مع كلماتنا. ولكن توجد حركات أخرى تعيّن الأشياء بالمحاكاة."

(كانتيليان: التدريب على الخطابة، XI، الفصل 3).

حركة الجارحة في الثّقافة العربيّة: بعض المعالم

نكتفي في هذا المستوى بما تقرّر عند الجاحظ وابن حزم، في حركات الجارحة في عمومها عند الأوّل وفي اختصاصها بالعين عند الثّاني. ولعلّ الجاحظ (تــ 255 هــ) ممّن يمكن عدّهم روّادا في التّصنيف في الإشارة (الحركة بالجارحة) إذ أفرد لها مبحثا كاملا مخصوصا، هذا في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ولكنّه - في إطار الفكر الإنسانيّ- حلقة مبهمة موصلة ليس غير. يرد ذلك في غمار حديثه عن الخطابة من حيث مضامينها وطرق البيان فيها ومن حيث الأثر الّذي يكون لجميع ذلك، بما فيها منظر الخطيب وملمحه وسامة ودمامة ومدى تأثيرها في قبول الكلام وحركاته وإشاراته سكونا وهدوءا.

يقول في أصناف الدّلالات: "وجميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أوّلها اللّفظ ثمّ الإشارة ثمّ العقد ثمّ الخطّ ثمّ الحال الّتي تسمّى نصبة. والنّصبة هي الحال الدّالّة الّتي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصّر عن تلك الدّلالات" (البيان والتّبيين 1: 76). وجميع هذه الأصناف كاشف للمعنى ذلك أنّ "المعاني مستورة خفيّة وبعيدة وحشيّة ومحجوبة مكنونة، وإنّما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها. وهذه الخصال هي الّتي تقرّبها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفيّ منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريباً (...) وعلى قدر وضوح الدّلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقّة المدخل يكون إظهار المعنى." (البيان والتّبيين 1: 76).

ومن تلك الأصناف جميعا يتفرّد وجهان صنوان في التّفوّق في البيان هما اللّفظ والإشارة، يكون الواحد منهما رفدا لقرينه بل يحدث أن تنوب الإشارة عن اللّفظ أو توضّحه لما فيها من المزايا لا تتوفّر فيه، يقول: "والإشارة واللّفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغني عن الخطّ (...) ولولا الإشارة لم يتفاهم النّاس معنى خاصّ الخاصّ ولجهلوا هذا الباب البتّة." (البيان والتّبيين 1: 64). وتفضل الإشارة اللّفظ في وجوه كثيرة يتعطّل هو فيها ولكنّها لا تتعطّل فيها، من ذلك أنّ "مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصّوت. فهذا باب تتقدّم فيه الإشارة الصّوت" (البيان والتّبيين 1: 79). وتفضل الإشارة اللّفظ من حيث أنّ ما لا يؤدّيه ذلك أنّ "حسن الإشارة باليد والرّأس من تمام البيان باللّسان، مع الّذي يكون مع الإشارة من الدّلّ والشّكل والتّقتّل والتّثنّي واستدعاء الشّهوة وغير ذلك من الأمور." (البيان والتّبيين 1: 79).

وتكون الإشارة بالجوارح وبغير الجوارح ممّا تتصرّف فيه الجوارح، وتكون لغايات متنوّعة. "فأمّا الإشارة فباليد وبالرّأس وبالعين والحاجب

والمنكب، إذا تباعد الشّخصان، وبالثّوب وبالسّيف. وقد يتهدّد رافع السّيف والسّوط فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا. (البيان والتبيين 1: 77). وبعضها أصلح من بعض في البيان وفق ملابسات التّخاطب في العموم، أو تلك الّتي تقتضي الإسرار والتّخفّي، في الخصوص. وفي ذا التّخفّي يكون بعضها أصلح من بعض، إذ "في الإشارة بالطّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض النّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس." (البيان والتّبيين 1: 78).

وجميع ذلك مرتبط بشرط عامّ يؤسّس لمفهوم البلاغة تمثّل فيه الإشارة بالجارحة، من حيث مناسبتها للكلام إيقاعا ووزنا ومن حيث مواكبتها له حركةً وسكونا، أسّا مركزيّا في آلة البلاغة؛ ذلك أنّ "أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّر اللّفظ." (البيان والتّبيين 1: 92). والخطيب البليغ من "كان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك." (البيان والتّبيين 1: 111).

وأمّا ابن حزم فيخصّ الإشارة في "طوق الحمامة في الألفة والألّاف" بباب "الإشارة بالعين" (الباب التّاسع)، يفتتحه بتسطير أمور عديدة تتعلّق بالإشارة عموما وبالعين على وجه خاصّ. وللقارئ المتمعّن أن يلحظ أنّ التّركيز من ابن حزم كان في "لحظ العين" أي في حركات المؤقة من حيث الاتّجاه والسّرعة وما أحاط بها من الحاجب أو الجفن، ويندرج تركيز ابن حزم في توصيف الإشارة بالعين، في منزلة العين في منظومة الحواسّ في التّصوّر الفلسفيّ الثّقافيّ الكلاسيكيّ. فالعين تفضلها كثيرا إذ هي "أبلغها وأصحّها دلالة وأوعاها عملاً وهي رائد النّفس الصّادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوّة الّتي بها تقف على الحقائق وتميّز الصّفات وتفهم

المحسوسات." (طوق الحمامة: باب الإشارة بالعين).

وتتنزل الإشارة بالعين في إطار اجتماعيّ ثقافيّ هو إطار المنع والتّحريم، تحريم العلاقة الغرامية مدخلا إلى العلاقة الجنسية. وقد نشأت لذلك "مؤسسة" رقيبة، تبلورت معالمها في الشّعر وفي القصّ وفي المخيال عموما بما فيها من الواشي والعاذل والرّقيب، تقابلها "مؤسّسة" مضادّة تسعى إلى إبطال رقابتها بالإفلات منها، تبلورت ثقافيا في مفهوم الرّسول وفي مفهوم التّعريض بالقول وفي الإشارة بالجارحة عامّة وبالعين ملاذا رئيسيا، أو قل هي سلطان المغالطة، لما فيها من طاقة في التّعبير وسرعة في الإشارة ولطف في الأمارة. ولعلّ للعين منزلة أخرى في ثقافة عصريّة انتفت منها أو ضعفت نسبيا مؤسّسة الرّقابة، فتقلّص دورها بالاستتباع أو نهضت به وسائل أخرى مستجدّة حادثة وفق ما يتوفّر من وسائل الاتّصال (الهاتف، الفايس بوك، إلخ).

فلحظ العين "يقطع به ويتواصل ويوعد ويهدّد ويقبض ويبسط ويؤمر وينهى وتضرب به الوعود وينبّه على الرّقيب ويضحك ويحزن ويسأل ويجاب ويمنع ويعطى. ولكلّ واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللّحظ، لا يوقف على تحديده إلا بالرّؤية. ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقلّ منه." (طوق الحمامة: باب الإشارة بالعين).

ولعلّ فضل ابن حزم كامن في أن جمع ما كان يتداول في التّفاعل اليوميّ الاجتماعيّ في سياقات مخصوصة، يملك كلّ من المشير بلحظ العين والمشارِ إليه به مفتاحَ التّأويل، فهي شفرة لا تكمن سرّيتها أو إلغازها في مواضعة فرديّة أو ثنائيّة وإنّما تكمن في خفاء الإشارة بها ويسر الإفلات من أن تعترضها عين أخرى (ثالثة) تفشي سرّ الرّسالة. وهذه الشّفرة أو مفاتيح فكّها تشتغل في توليف بسيط يكون للإشارة الواحدة معنى واحد في تناسب ثنائيّ بسيط مطّرد. هو ما يوجزه ابن حزم في ما يلي، إذ يقول: "فالإشارة

بمؤخّر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجّع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التّهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثمّ صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفيّة بمؤخّر العينين كلتاهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام. وسائر ذلك لا يدرك إلاّ بالمشاهدة." (طوق الحمامة: باب الإشارة بالعين).

حركة الجارحة في الدّرس الحديث

يبدو أنّ ظهور الصّور والتّصوير السّينمائيّ كان عاملا حاسما في تجدّد العناية بحركة الجارحة مبحثا مستقلاً بنفسه بفضل ما وفّرته تقنية السّينما والتّصوير البطيء من إمكانيّات للدّراسة والتّحليل والوصف الدّقيق (ماكنال 2005: 13). ولعلّ كتاب إفرون[394] (1941) يمثّل أوّل الأعمال المؤسّسة لذلك في ثلاثينيّات القرن الماضي حيث كان التّركيز في حركات الجارحة جارية في الحياة العاديّة اليوميّة العفويّة مصاحبة للنّشاط اللّغويّ أو مقطوعة عنه.

وتلا جميع ذلك نقلة أمضى في العناية بحركة الجارحة في العقود المتأخّرة من القرن الماضي حيث يكون تناولها من زاوية كونها جزءا من اللّغة ذاتها، لا من زاوية كونها عنصرا مصاحبا يدعمها أو يقوّيها. ولعلّ ما كتب كندون[395] (1972، 1988، 1995) يمثّل معلما مهمّا من المعالم في هذا الشّأن.

---

[394] Efron 1941
[395] Kendon 1972, 1988, 1995

حركة الجارحة في التاريخ: الأطوار الكبرى

عرفت دراسة حركة الجارحة خلال التاريخ المديد عددا من الأطوار في ضوء محطّ العناية بمظهر من مظاهرها دون آخر، أو في ضوء الموقف الفكريّ العامّ من الظاهرة ومن منزلتها في المنظومة التواصليّة. وهذه الأطوار في العموم خمسة: طور التدجين[396]، فطور التوظيف الخطابي[397]، وطور التوظيف الطبقيّ الاجتماعيّ، وطور التوظيف الفلسفيّ، ثمّ طور حركة الجارحة مبحثا برأسه (كورنيليا ميلّر[398] 2000).

- طور التدجين

هو طور تدجين حركة الجارحة والسيطرة عليها: يميل الكتّاب والمؤلّفون إلى العمل على الاستغناء عن الحركة العفويّة الغالبة على الكلام أو على إلغائها منه سبيلا إلى جعل الكلام لغويّا خالصا قوليّا صرفا. ويكمن في هذه الفكرة اعتبار الحركة بالجارحة منافسة للقول ومشوّشة له ومانعة لصفائه. وقد تبيّن الخطأ في هذا الموقف.

- طور التوظيف الخطابي

تكون فيه حركة الجارحة مقنّنة بشكل يخدم الأغراض الخطابيّة في شكل تعليمات أو قواعد يتقنها الخطيب إتقانا "صناعيّا" يتخلّص فيه من الطابع العفويّ الغالب على التواصل العاديّ في مقاماته المعهودة، فتستوي حركة الجارحة جزءا من صناعة الخطابة. ويبدو أنّ بقايا هذا التوجّه ماثلة في الخطاب السياسيّ حتّى أيّامنا. ويكمن في هذا التوجّه اعتبار حركة الجارحة منافسة للقول.

---

396 domestication
397 oratorical use
398 Müller, Cornelia 2000

- **طور التّوظيف الطّبقيّ الاجتماعيّ**

يمثّل هذا الطّور سمة من سمات عصور النّهضة الأوروبيّة، كان العناية فيه بحركة الجارحة مظهرا من مظاهر السّلوك والأداب الاجتماعيّ عند طبقة النّبلاء وأمارة من أمارات الانتماء إليها.

- **طور التّوظيف الفلسفيّ**

في عصر التّنوير، اعتبرت حركة الجارحة أصلا طبيعيّا للّغة المنطوقة (كونديّاك[399]، ديدرو[400]، إلخ)، وهي فكرة قائمة إلى أيّامنا في أشكال نظريّة متنوّعة تكون فيها حركة الجارحة أرضيّة لنشأة اللّغة البشريّة (كورباليس[401] 2002).

- **طور العناية بحركة الجارحة مبحثا برأسه**

طور العناية بحركة الجارحة في الاستعمال اليوميّ العفويّ بداية من النّصف الثّاني من القرن العشرين في أعمال متفرّقة وتواريخ متقاربة متوازية، وأساس هذا التّوجّه العناية النّظاميّة بحركة الجارحة فاعلة في اللّغة ومنفعلة بها، مشاركة لها في الكثير من المظاهر النّفسيّة والعصبيّة والاجتماعيّة في أبعادها الفرديّة والجماعيّة السّياسيّة بأنواعها، فاستقلّت مبحثا برأسه تُستوفى فيه مظاهرها النّفسيّة التّواصليّة والاجتماعيّة اللّسانيّة والعرفنيّة بالأساس في ما يعرف بدراسات حركات الجارحة[402]. ولذلك تأسّست مجلّة (حركة الجارحة[403]) و"الجمعيّة العالميّة لدراسات حركة الجارحة[404]".

---

399 Condillac
400 Diderot
401 Corballis, 2002
402 Gesture Studies
403 *Gesture*
404 International Society of Gesture Studies

في طبيعة حركة الجارحة

تمثّل حركة الجارحة خصيصة بشرية من حيث طبيعتها وتوظيفها. فلا يوجد عند الحيوان فرق بين الأداة والحركة فهما مندمجان في عضو واحد. وعند الإنسان يكون الافتراق بينهما من حيث يصلح العضو لوظيفته المعهودة ويؤدّي حركات ذات معنى تواصليّ تفاعليّ. ذلك أنّ الاستعمال المتناغم ما بين الأداة وحركة الجارحة يقتضي مسبقا وجود ذاكرة تحفظ برنامج ذلك السّلوك (لوروا- غورهان[405] 1964: 237).

ويتّسع مفهوم حركة الجارحة لأنواع كثيرة. يمكن في البداية تمييز نوعين كبيرين منها هما الحركة العاديّة الحادثة في أداء المهامّ المختلفة وهي حركات عضليّة تؤدّى بها مختلف الأعمال. فهي خارجة من حركة الجارحة، وأمّا ما يدخل فيها فهي الحركات الكائنة للدّلالة على معنى (أداة تواصل) سواء أكان ذلك أداء رأسيّا أم موازيا للّغة المنطوقة رافدا لها. وقد جعلها ماكنالْ (2005: 5) - متابعا كندون[406] (1988)- أنواعا قائمة على الاسترسال، هي الإيماء وحركة الجارحة المرتبطة بالكلام والإشارة الرّمزيّة والسّرد الإيمائيّ:

(أ)-الإيماء

الإيماء[407] حركة تجسّد معنى ذا صلة بالكلام المصاحب أو المزامن لها. وهو أكثر حركات الجارحة تواترا في السّلوك اليوميّ، يتضمّن حركة الذّراعين واليدين ويمكن للرّأس أن يؤدّي جملة من الحركات من هذا القبيل عندما تتعطّل حركة اليدين و/أو الذّراع لسبب من الأسباب، وكذا الأمر لحركات السّاقين أو الرّجلين.

---

[405] Leroi-Gourhan, 1964
[406] Kendon, 1988
[407] gesticulation

(ب)- حركة الجارحة المرتبطة بالكلام

تجري حركة الجارحة المرتبطة بالكلام[408] على الحركات الّتي تمثّل قسما من الخطاب نفسه أو من الجملة وما إلى ذلك، حيث تكون الحركة مكمّلة لبنية الجملة ومعناها. ويذهب ماكنال إلى أنّ هذا النّوع من الحركات يشغل محلاً نحويًا في الجملة، حيث لا ينطق المتكلّم بالوحدة المعبّرة عن المعنى المراد وإنّما يبدأ جملته مثلا قولا مقطّعا وينهيها أو يكملها بالحركة فيكون في المحصّل معنى متكامل الأبعاض يتظافر في تصويره بعض القول وبعض حركة من الجارحة. كأن يقول الشّخص وهو يشاهد آخر على النّعاس: "أرى فلانا ... (+ حركة مصاحبة من الرّأس تحاكي هيأة النّعاس مثلا للتّعبير عن معنى النّعاس) أو حركة مصاحبة مكمّلة من السّبّابة دائرية مثلا تحاكي معنى الدّوار أو حالة السّكر وما إلى ذلك.

(ج)- الإشارة الرّمزيّة

هي الإشارات الرّمزيّة[409] التّواضعيّة من قبيل الإشارة بالإبهام وضمّ الأصابع الأخرى في الموضعين المعلومين (الإبهام إلى فوق أو إلى أسفل) دليلا على الاستحسان أو الاستقباح، وما إلى ذلك.

(د)- السّرد الإيمانيّ

يتمثّل السّرد الإيمانيّ[410] في جملة الحركات بالجارحة بمختلف أنواعها تحدث بصفة مسترسلة مستمرّة يكون بها سرد مضمون مطوّل من قبيل القصّة أو المشهد المعيش أو المتخيّل وما إلى ذلك، وجميع ذلك يكون بلا كلام مقطّع يصاحبه.

---

[408] speech-linked gesture(s)
[409] emblem(s)
[410] pantomime

(هـ)- لغة الإشارة

قوام لغة الإشارة[411] رصيد من العلامات الإشاريّة الّتي تمثّل الوحدات "المعجميّة" و"نحو"، فيكون لها بنية شبيهة بالبنية اللغويّة من حيث الوحدات الدنيا والتّوليف بينها ومظاهر التّصريف.

وبين أنواع الحركة بالجارحة الخمسة (الإيماء وحركة الجارحة المرتبطة بالكلام والإشارة الرّمزيّة والسّرد الإيمائيّ ولغة الإشارة) من جهة، والقول المصاحب لها حضور على درجات مسترسلة (ماكنال 2005: 5-6). فالقول المصاحب يكون في أقصى درجات الحضور في الإيماء حيث يكون حضوره كالضّروريّ ثمّ يتقلّص على تدريج حتّى ينعدم في السّرد الإيمائيّ. ويناسب ذلك حضور متدرّج لخصائص الكلام في الحركات بالجارحة فيكون بين حركة الجارحة والكلام تزامن وتناوب به تنوب الكلمة مثلا عن الحركة أو تكوّن الحركة والكلمة حاملا إخباريّا ذا معنى متكامل، كما هو الأمر في الإيماء فالكلام يصحبه دون أن يكون للواحد منهما خصائص الآخر، فهما مختلفان متباينان متمايزان. وأمّا حركة الجارحة المرتبطة بالكلام فتكون بمصاحبة الكلام وجوبا وترتبط به بوجوه متنوّعة أبرزها ما به تنوب الكلمة مثلا عن الحركة أو العكس. وأمّا السّرد الإيمائيّ ولغة الإشارة فلهما خصائص الكلام الأساسيّة من حيث يستغني الواحد منهما عنه مطلقا فلا يصاحبه بالضّرورة.

حركة الجارحة في الإطار العلاميّ

يمكن تصنيف الحركة بالجارحة باعتماد العلاقة الكائنة بين مظهرها الفيزيائيّ البصريّ ومدلولها أو مرجعها إلى جملة الأصناف المعلومة في المنظومة العلاميّة (السّيميائيّة) في المطلق وفي العلامة اللّغويّة على وجه

---

[411] sign language(s)

التّحديد (بيرس[412] 1960). ولعلّ هذا التّشابه في التّصنيف بين الحركة بالجارحة والعلامة اللّغويّة مدخله اتّفاقهما في عمل الإحالة أو الدّلالة الّتي يقتضي انفصالا بين مظهرين أو وجهين: دالّ ومدلول. فالدّالّ هو المظهر الحسّيّ منطوقا في حال العلامة اللّغويّة ومرئيّا في حال الحركة بالجارحة، والمدلول ذهنيّ في طبيعته يقترن بالواحد منهما وجوه الاقتران المعلومة. فالعلاقة بين الدّالّ والمدلول اعتباطيّة بمعنى يمثّل فيها الدّالّ مثيرا أو منبها يكون له الاهتداء إلى المعنى (التّمثيل الذّهنيّ) دون رابط مبرّر. فالعلامة اللّغويّة في قسم كبير منها اعتباطيّة وكذا حركات الجارحة في ما انتمى منها إلى لغة الإشارة. وما جاوز ذلك دخل في باب نوع مخصوص من العلاقة بين الدّالّ والمدلول فتكون حركة الجارحة - مثل العلامة اللّغويّة- أيقونيّة أو إشاريّة. ويتّسع هذا التّصنيف ليتضمّن ما كان استعاريّا قائما على المماثلة مطلقا أو على تمثّل الشّيء على أساس الآخر، على حدّ عبارة لايكوف في الاستعارة التّصوريّة. ويجعل ماكنال (2005: 38-44) الحركة بالجارحة أربعة أنواع ممثّلا للواحد منها بنماذج بعضها من تجاربه وتجارب من عني بالموضوع وبحث فيه، نورد منها المفيد في حدود ما يوضّح الفكرة. والأنواع الأربعة هي: الرّباعيّ الأيقونيّ- الاستعاريّ- الإشاريّ - الإيقاعيّ[413].

الحركة الأيقونيّة

هي الحركة الّتي تمثّل شيئا مادّيّا أو عملا حسّيّا. فالعلاقة بينها وبين مرجعها تكون بتوسّط شكل الحركة أو نمط التّحقّق بما يتضمّنه ذلك من دقائق الحركة من حيث اتّجاهها وسرعتها ومسارها وما إلى ذلك. ومن ذلك تعبير حركة اليد عن عمل الإمساك بالشّيء - مثلا- حسب سمكه باجتماع

---

[412] Peirce 1960

[413] The Iconic-Metaphoric-Deictic-Beat Quartet

الأصابع على الشّكل المعلوم وانغلاقها فتوقّفها وقد اتّخذت شكل الموضوع وفق شكله ويمكن أن ينضاف إلى جميع ذلك دقائق تفصيليّة تهمّ طبيعة الشّيء الممسك به من حيث هشاشته (قابليّته للكسر) أو عدم ذلك، ومن حيث حجمه كأن نكتفي بتحريك عدد قليل من الأصابع للإمساك بالشّيء الدّقيق أو تحريكها جميعا للتّعبير عن الإمساك بالشّيء الكبير. قارن بين الإمساك بالإبرة مثلا والإمساك بكرة التّنس وهكذا دواليك. فالعلاقة بين حركة الجارحة ومدلولها أساسها الشّبه والمحاكاة الحركيّة.

الحركة الاستعاريّة

يندرج في الحركة الاستعاريّة ما عبّر من حركات الجارحة عن معنى تجريديّ، من قبيل حركة الإمساك- وإن كان فيها المظهر الأيقونيّ- بفكرة أو برأي. ولئن أمكن مناقشة هذا النّوع من الحركة على أساس أنّه استعاريّ، يمكن أن نتوسّع في ذكر أنماط منها نستمدّها من الحياة اليوميّة، كأن يعبّر الشّخص عن اشتغال ذهنه مفكّرا أو متأمّلا بدوران سبّابته المتواصل، حيث يتمثّل عمل الذّهن على أساس عمل شيء (لعلّه المروحة أو المحرّك الميكانيكيّ) في دوران مسترسل. فالمعنى المدلول عليه بحركة الدّوران هو التّفكير، والتّفكير عمل تجريديّ جُعل له مظهر حسّيّ عمليّ تؤدّيه الجارحة في الفضاء، ويمكن أن تتواصل الاستعارة لتبلغ كون الذّهن فضاء تحلّ فيه الفكرة وتشتغل. ومهما يكن من أمر فإنّ إدراج هذا النّوع (الاستعاريّ) في الحركة بالجارحة لا يمكن تمييزه من الأيقونيّ منها بحكم طبيعة الحركة نفسها فهي حادثة على أساس تماثل بينها وبين ما تحيل عليه، لولا فارق بسيط في هذا إذ يكون حسّيًا مادّيًا فيخلص الأمر للأيقونيّة ويكون تجريديًا ذهنيًا فيخلص الأمر للاستعارة دون أن يتخلّص تماما من الأيقونيّة.

الحركة الإشاريّة

هي حركة الجارحة الّتي تعيّن الأشياء في الفضاء بأنواعه. وهي أبرز الحركات بالجارحة ولذلك تجدها ملازمة للإشارة اللّغويّة حيث تجري لسانا الإشارة. وتجري الكثير من الأعضاء في إنجازها على تفاوت بينها في التّواتر وفق الظّروف المحيطة بالتّواصل فتكون أساسا من السّبّابة أو من اليد أو من الذّراع أو من الوجه أو من العينين وما إلى ذلك. والأساس في جميعها توجيه الجارحة أو العضو إلى موقع المشار إليه في الفضاء المباشر (قربا وبعدا وتوسّطا) أو المفترض ذهنا أو رسما وما إلى ذلك. ويجعل ماكنال الإشارة بالجارحة نوعين تجريديّة وحسّيّة. وهذا منقاس على الإشارة في عمومها، ولكنّه يذهب إلى أنّ "الإشارة التّجريديّة تنشئ المراجع الجديدة في الفضاء، والإشارة المادّيّة تجد المراجع فيه." (ماكنال 2005: 40).

الحركة الإيقاعيّة

تُعتبر الحركة إيقاعا عندما تشتغل اليد اشتغال القضيب عند قائد الفرقة السّمفونيّة أو الأركسترا، وبها يكون توقيت الحركة المدلول عليها أو توزيعها على فواصل زمانيّة. فكأنّ الزّمن شيء مسترسل يجري تقطيعه بالحركات المتتابعة من اليد تحدّد سرعتُها أبعاضَه والفواصلَ بينها، وفي ذلك يكون تنضيدها. يكون ذلك حسب اتّجاه الحركة من اليد أمام/ وراء، أو يمين/ يسار، أو فوق/ تحت، إلخ. وتصاحب جميعها إيقاع الكلام إن كان أو توحي به إن لم يكن. وتجري لتعيين نقطة ما في القول سواء تعلّق الأمر بشخص أو بحدث أو بغيرهما من العناصر المكوّنة لمضمون الخطاب أو القصّة، يكون ذلك بتعيين موقع زمانيّ في عالم الخطاب، فتكون معلما قد يحتاج إليه المتكلّم (المشير) أو السّامع (الرّائي) أو كلاهما. وتشتغل هذه الحركة اشتغال أداة التّسطير في الخطاب الإشاريّ.

حركة الجارحة أداة من أدوات التصوير الذهني

اللّغة أداة من أدوات التّصوير الذّهنيّ وهي لذلك لا تنفكّ منه. ويتجسّد التّصوير في حركات الجارحة الملازمة للنّشاط اللّغويّ ملازمة كونيّة بمعنى تتوفّر في جميع اللّغات وعند جميع الشّعوب، وهي عمليّة آليّة يأتيها المتكلّم دون وعي.

حركات الجارحة مزامنة للقول بمعنى بينهما تناسق وتناغم لما لهما من علاقة موحّدة بالمقام أو بالسّياق في بعديهما الفرديّ والجماعيّ. ويقتضي هذا التّزامن بين منظومتين تواصليّتين مختلفتين في طبيعة العناصر والانتظام، أن ينشأ بينهما توالف يجعل منهما نظاما ذا سمات خاصّة يؤدّي الواحد منهما فيه وظائفه في إطار التّكامل بينهما.

فإذا كانت حركة الجارحة جارية في الفضاء تعتمد أبعاده من حيث الاتّجاه والمدى فيه ونوع الحركة من حيث سرعتها وشدّتها وجميعها ينطلق من موقع الجسد في الفضاء وكان الكلام (اللغة) جاريا في الزّمان أساسا بحكم التّعاقب في أداء عناصرها على محور خطّيّ زمانيّ وكان ذا صلة بالفضاء المحيط تقلّ متانة ومباشرة من صلة الحركة بالجارحة به، مثّل كلاهما أداة من أدوات التّصوير الذّهنيّ. فالحركة بالجارحة تعبير عن مضامين يجري إسقاطها على تضاريس الفضاء المحيط بالمتخاطبين إسقاطا هندسيا يخضع لمقاييس السّلّم والأبعاد والقيس -إذا ما لزم الأمر- والكلام تعبير عن مضامين ذات إسقاط ذهنيّ صلته ضعيفة بالفضاء المحيط. فكلاهما بهذا مكمّل لقرينه من حيث يجري في الذّهن التّوليف بين الموردين (الإشاريّ البصريّ، واللّغويّ الرّمزيّ) ليستخلص منهما صورة موحّدة للمضمون، يكون على شاكلة الصّورة الّتي تستخلص من الكلام صرفا (دون إشارة تزامنه) أو من المحاكاة أو لغة الإشارة صرفا (دون لغة تزامنهما).

حركة الجارحة وأصل اللغة

حركة الجارحة عند الكفيف بالوراثة لا تختلف عن حركة الجارحة عند البصير، وهذا حجّة على انتمائها إلى أرضيّة واحدة مشتركة مع اللّغة. فقد تبيّن في الكثير من التّجارب (أيفرسون وقولدين-ميدو[414] 1997، 1998) أنّ الكفيف يعتمد حركات الجارحة اعتماد البصير عليها بنفس التّواتر تقريبا، ويكون ذلك أثناء الحديث بين الأفراد من مجموعة متجانسة (بين كفيف وكفيف) أو مختلطة (كفيف وبصير). وتتّخذ هذه الحقيقة أساسا يثبت به تجذّر الحركة بالجوارح في الأرضيّة العرفنيّة اللّغويّة عند الإنسان عموما.

خـاتمـة

حركة الجارحة تشكّل مادّيّ حركيّ حادث في الزّمان وفي الفضاء من عضو ذي وظيفة بيولوجيّة تتّخذ قيمة رمزيّة فتجري للتّعبير عن معنى أو مفهوم يكون له ما يناسبه من الرّموز اللّغويّة. والأساس في دلالة حركة الجوارح أنّها تصويريّة وتمثّل موردا من موارد الذّهن في التّرميز للمضامين العرفنيّة.

وتنزع الدّراسات في تحليل حركات الجوارح وفي تحديد خصائصها إلى المقارنة بين الحركة بالجارحة والعلامة اللّغويّة، ذلك أنّ التّلازم بينهما لا فكاك منه في الواقع التّواصليّ وفي الدّرس. فالتّزامن والتّرافد أو التّكامل بين النّوعين يجعل الفصل بينهما ممتنعا في السّلوك التّواصليّ والتّفاعل الاجتماعيّ العفويّ، وفيه تتوجّه الحركة بالجارحة تماما مثل توجّه العلامة اللّغويّة المنطوقة إلى سامع/راء. ولكنّ أغلب الخصائص المميّزة لحركة الجارحة تتحدّد بناء على ما لها وما ليس لها من خصائص العلامة اللّغويّة من حيث شموليّتها وتأليفيّتها وفوريّتها أساسا.

---

[414] Iverson & Goldin-Meadow (1997, 1998)

حركة الجارحة شمولية إذ لا يمكن أن تتحدد أبعاضها جارية في الزمان على أساس أبعاض المعنى المدلول بها عليه، وهو أمر متوفر في العلامة اللغوية. وهي حركة تأليفية[415] إذ يمكن أن ينقسم المعنى المدلول بها عليه إلى مقاطع متفاصلة انقسام الكلام إليها. وهي حركة فوريّة لحظيّة إذ لا تبني الحركة بحدوثها المجمل دفعة واحدة معناها على التدريج أو بطريقة سلسلية، وذلك بصرف النظر عن طولها أو مداها. فالمعنى فيها حاضر بحضورها محملة، وهذا خلافا لما يتوفر في الكلام.

هي حركة لاتوليفية[416] إذ لا تقبل التحليل إلى جزيئات تكونها على درجات من التوليف يكون بينها صعودا من البسيط إلى المركب، ولا يمكن التوليف بين حركتين متمايزتين لإحداث حركة مركبة ذات معنى مركب. وكلّ ما في الأمر أنّها تكون إمّا متتابعة أو متزامنة؛ وهي في الحالتين متباينة متمايزة. وإن كان - في بعض الحالات- المعنى المدلول عليه بهما مفردا، فهو نتاج لعمل تأليفيّ يجمع حركتين متزامنتين يؤدّيهما عضوان مختلفان، أو طورين مختلفين (أو أكثر) للحركة الواحدة، كأن تدلّ حركة اليد اليمنى وحركة اليد اليسرى بالكفّ منفتحا متّجها إلى أعلى تنزل الواحدة وترتفع في تناوب مع الأخرى دليلا على معنى المقارنة أو الموزانة - عملا ذهنيا- أو على وجود التعادل - حالا ثابتة- بين شيئين هما موضوع الحديث.

حركة الجارحة حركيّة ديناميّة بحكم ارتباطها بالمقام وبالسّياق الماثل في ذهن المتحاورين في جميع أبعادهما الفوريّة المباشرة والفرديّة أو الجماعيّة وما إليها. وإذ كانت كذلك وجب تناولها كذلك من حيث معناها، فهو يُبنى بناء آنيا بما يقوم عليه من عمليّات عرفنيّة آن-قوليّة.

---

415 synthetic
416 noncombinatoric

حركة الجارحة سياقية، بمعنى أنّ إنجازها أو تحقيقها وفهمها يرتبطان بسياق الحديث، ولعلّ في هذا يكمن الفرق بين لغة الإشارة ذات الرموز التّواضعيّة الثّابتة تُتعلّم وتتقن وحركةِ الجارحة ذات الرّموز المقاميّة السّياقيّة.

الفصل الثاني

الجسد متكلما بالجوارح

الإشارة اللّغوية تماما مثل سائر الإشارات، إنّما ترسم معناها بذاتها. (ميرلوبونتي 1945: 217)

مقدّمة

من الخصائص المشتركة بين بني البشر كون الحركة بالجارحة (اليد الواحدة أو كلتيهما) تكاد لا تخلو منها ثقافة أو شعب أو سياق. وإن توفّر الاختلاف بين الأمم وفق العادات الثّقافيّة فذلك لا يتمثّل إلاّ في نسبة الحركة بالجارحة وتواترها مزامنة للتّخاطب، ولعلّ أكثر الشّعوب المعروفة بذلك تلك الّتي تعيش على ضفاف البحر الأبيض المتوسّط. فتكون على هذا الحركة بالجارحة سمة كونيّة بشريّة ثابتة.

ومن المظاهر اللاّفتة في الحركة بالجارحة أنّ صاحبها لا يراها ولا يتابعها فهي موجّهة إلى الذّات المواجهة، وقد يكون ذلك مرتبطا بحالة التّواجه البصريّ (أوَ ليست العين مغرفة الحديث أو ملعقته؟). ولكنّ للفرد ميلا إلى الحركة بالجارحة حيثما كان منه كلام في أوضاع لا تَواجُه فيها كأن يكون في محادثة هاتفيّة أو يكون وحيدا مفردا وهو يخاطب نفسه في نوع من المونولوج أو الهذيان (عند المجاذيب مثلا) بل يمكن أن نتصوّر ذلك جاريا في مكان مظلم لا نور فيه. فالشّرط في جميع ذلك وجود وضع للكلام والتّخاطب.

ويبدو أنّ كثافة الحركة بالجارحة مرتبطة بنوع النّشاط العرفنيّ الجاري زمنها فهي تتأكّد وتتكثّف وتستمرّ عندما يتعلّق الأمر بحلّ مسألة من المسائل - ما كان منها فضائيّا- أساسا، وهي في العموم مرتبطة بنوع

الغرض التّواصليّ: فعندما ترى مسلكا لشخص غريب عن المكان يسأل الطّريق إلى موضع ما فيه، تجد أنّ حركات الجوارح تنتظم وفق زمن أو تدرّج تفرضه نقاط المسلك مرتّبةً في خارطة ذهنيّة تحفظها لذلك المكان، مسقطةً تضاريسها على الواقع بما فيه من العناصر القارّة الثّابتة (ركن شارع أو مغازة أو معلم ما من الشّجر وما إليه) أو من العناصر المتنقّلة تراها مفيدة في تحديد ما تشير إليه (سيّارة أو عربة رابضة، شخص واقف في موضع ما، إلخ).

وتتكثّف الحركة بالجارحة في مواقف لا يملك فيها الشّخص القدرة الكافية على التّعبير سواء أكان يتكلّم بلغته بالأمومة أم بلغة أخرى لا يتقنها جيّد الإتقان، فهو في الحالين يجد منفذا في الحركة بالجارحة ومنقذا.

دور الحركة بالجارحة في اشتغال الذّهن

لحركة الجارحة دور مهمّ في تيسير العمليّات الفكريّة، وفي ذلك ما تثبته الدّراسات النّفسيّة المخبريّة: أثبت راوشر وجماعته[417] (1996)، أنّ حركة الجارحة تسهّل الاهتداء المعجميّ، إذ طُلب - في عمل مخبريّ- من مجموعة من الأشخاص أن يصفوا جملة من الأوضاع تقوم على مضمون فضائيّ (مكانيّ)، وجعلت المجموعة قسمين: قسما أوّل يحرّم على أفراده اعتماد حركة الجارحة في ذلك الوصف، وقسما آخر يسمح له بذلك. فكان أن ظهر عجز الفريق الأوّل المحروم من حركة الجارحة بتعثّر في الكلام وبطء في دفقه وبوقف كثير في غير محلّه من بنية الجمل، فيكون الوقف عند مفاصلها الدّاخليّة عوضا عن المعهود الجاري بين مكوّناتها الكبرى وبين الجمل في الخطاب. ولكن عاد للمجموعة المحرومة من حركة الجارحة دفقها اللّغويّ العاديّ في وصف وضعيّات من قبيل آخر (غير فضائيّ)، فيتأكّد

[417] Rauscher, Krauss, and Chen 1996

بذلك أنّ حركة الجارحة تيسّر عمليّة الاهتداء المعجميّ عامّة وفي الخطاب المتضمّن للمفاهيم الفضائيّة أساسا.

ومن القضايا المطروحة في المباحث النّفسيّة العرفنيّة، عامّة، وفي مباحث العرفنة المجسدنة، على وجه الخصوص، موقع حركات الجارحة في اشتغال العرفنة. ومدار السّؤال بالتّحديد في كون حركات الجارحة جزءا من العرفنة أو ليست منها. ويذهب في ذلك كلارك[418] (2008) إلى أنّ نظام التّفكير الفضائيّ يعتمد حركة الجارحة لإنجاز عمليّاته جارية على الفضاء، من حيث مثّلت هذه الحركات عاملا منشّطا لتلك العمليّات وضامنا لنجاعتها. فحركات الجارحة تؤدّي عملا عرفنيّا من حيث كانت تمثيلا للعلاقات الفضائيّة ينتجها النّظام العرفنيّ ويستعملها في التّفكير الفضائيّ وما إليه بوجوه متنوّعة (شابيرو 2011: 178). فحركات الجارحة تمثّل توسيعا لأدوات التّمثيل المتوفّرة عند المتكلّم والسّامع، وهي تعكس المعلومات الّتي يجري تمثيلها من خلال الأشكال اللّغويّة من حيث تؤكّدها وتدعمها فتكون زيادة فيها وتقوية لها (غولدين – ميدو 2003: 186)[419].

حركة الجارحة في نظام النّورون المرآة

نكتفي ببعض الإشارات في هذه الفقرة لما يكون قد توفّر في ما مضى من تفاصيل تهمّ اشتغال النّورون المرآة في منظومات المرآة (انظر: "النّورون المرآة" في الفصلين الأوّل من الباب الأوّل، والأوّل من الباب الثّالث). وملخّص نظام المرآة أنّنا عندما ندرك ما يكون من سائر الأفراد من الأعمال والحركات والأصوات وما إليها، يحدث في جهازنا العصبيّ إنشاط لنفس المخطّطات الحركيّة الّتي نشطت عند من تصدر عنهم تلك المدركات. فتكون الحركة بالجارحة مجالا جوهريّا في اشتغال المنظومات المرآة من

[418] Clark 2008
[419] Goldin-Meadow 2003

حيث مثّلت الأساس الحركيّ والعمليّ الّذي به نتعايش كائنات اجتماعيّة فنتعامل بالتوقّع وبالتّعاطف وبقراءة النّوايا وباستباق الأعمال دفعا للمضرّة أو تحصيلا للفائدة. وحركات الجارحة، من هذا الباب، أساس مهمّ في حمل ذلك. لنتصوّر وضعيّة نعيشها جميعا، وخاصّة ما تعلّق منها بالمعلّمين والمتعلّمين، أو بما يكون في أماكن الاجتماعات الرّسميّة وما إليها، حيث يُمنع الكلام بشكل من الأشكال هو لاجتناب الغشّ في الامتحان مثلا، أو لاجتناب التّشويش علامة على قلّة الأدب والاحترام في الاجتماعات الرّسميّة. فيعمد الواحد منّا إلى ما يمكن أن نسمّيه بالنّطق الأبيض، بمعنى تحريك الشّفتين وما والاهما من جهاز النّطق وفق مخطّط تنجز به الكلمة المرادة دون أن يحدث لذلك الصّوتُ خشية من الأستاذ المراقب أو غير ذلك في مواضع أخرى. والشّرط في ذلك أن يرى المخاطَب (وهو في الامتحان، رفيق أو صديق يطلب إجابة عن سؤال من الامتحان فيكون إنقاذه واجبا بحكم التّضامن بين الطّلبة(!)) تلك الحركات في تسلسلها واسترسالها فينشأ في دماغه تمثيل عصبيّ حركيّ نطقيّ، هو ما يكون له لو همّ بنطق تلك الكلمة، فيكون الاهتداء إليها وكتابتها في ضوء ذلك المخطّط. وكم من جواب حصل عند صاحبه بهذه الطّريقة فوافق الصّواب لأنّه وافق التّمثيل الصّوتيّ النّطقيّ المناسب الّذي ينبغي أن يكون قد أرسله له رفيقه عن طريق الإشارة، وكم من جواب خالف الصّواب لأنّ تمثيله الصّوتيّ الحركيّ لم ينشأ عنده موافقا للتّمثيل المقصود. ونماذج هذا كثيرة بما يكون فيها من النّوادر في الأجوبة الّتي تضحك أحيانا.

ومنه ما يكون بتوسّط النّاقل البصريّ إذ يشير الشّخص بمخطّط كتابيّ للكلمة المراد تبليغها، في الفضاء، ولكنّه مخطّط معكوس أو مقلوب وفق ما تسمح به طبيعة الكلمة، وعلى الرّائي أن يميّز في ذلك المخطّط ما هو من الخطّ المعلوم وما ليس منه، فينشأ في ذهنه شكل الكلمة كتابيًا. وفي ذلك

تضاف درجة أخرى من لعبة المرايا، بأن يتمثّل المشير مخطّط الكلمة المعتاد ويقلبه أو يعكسه فيشير به كذلك حتّى يتمثّله المشار إليه على شاكلته المعتادة. وذاك ما يعرفه النّاس، ممّن يقودون السّيّارات، عندما تجد على واجهة بعض السّيّارات ذات الأولويّة المروريّة، كلمات من قبيل "إسعاف"، أو "شرطة"، أو "نجدة"، إلخ. مكتوبة بخطّ معكوس أو مقلوب، حتّى إذا ما نظر السّائق الّذي أمامها في الطّريق، خلفه من خلال المرآة العاكسة، قرأ بكلّ يسر الكلمة المكتوبة.

ومن هذه الوضعيّات ما يكون في حال الضّجيج الكثير الّذي يمتنع له التّواصل بالصّوت كأن تكون في معمل صناعيّ ذي آلات عظيمة معلومة، أو قريبا من بركان هادر، أو عند شلاّل عظيم من المياه لا ينقطع انصبابها. ومنها ما يكون جاريا في الطّبيعة مقتضيا من الكائنات الحيّة الاستعاضة عن التّواصل الصّوتيّ بالتّواصل الإشاريّ. فمن الضّفادع، وهي المعروفة بتواصلها عن طريق النّقيق في المطلق، أنواع تعيش في مواطن مائيّة دائمة الهدير، فتستعيض عن النّقيق بالإشارة من الأعضاء أو بنفخ الصّدر والحلق تبلغ منها الذّكور بها الرّسالة في حال التّزاوج وما إليه.

الكتابة بالجسد: الكوريغرافيا

رأينا في ما مضى بعض المظاهر المتعلّقة بالجسد المفرد في حركات الجوارح العليا منه (اليدان، الوجه والرّأس، إلخ) في العمل التّواصليّ يتحقّق مصاحبا للّغة مزامنا إيّاها أو لا مصاحبا لها نائبا عنها. ولا يمكن أن نهمل حركة الجوارح (العضليّة) من الجسد فردا مفردا أو جمعا متعدّدا في نوع من النّشاط الجماعيّ الاجتماعيّ في مظاهره المتنوّعة: ما كان منها عفويّا أو عاديّا أو منظّما. ومن المنظّم ما يكون محكوما بقواعد وطقوس يستوي بها فنّا قائما برأسه يُتعلّم ويُعلّم. وتطلق على كليهما أسماء عديدة بعضها عامّ

وبعضها تقنيّ مخصوص من قبيل رقص، أو شطح بما يتضمّنه الواحد من فروع كأن يكون الرّقص قديما كلاسيكيّا أو حديثا، أو يكون الشّطح طرائقيّا صوفيّا أو تعبّديّا طقوسيّا، أو يكون حرّا عفويّا أو موقّعا، أو يكون غزليّا أو إيحائيّا تصويريّا، وما إلى ذلك.

ومن سمات حركة الجسد أنّها جارية على محورين: محور مركزه الجسد ذاته وحوله تكون حركات الجوارح، ينقسم بمقتضاه فضاء الجسد قسمين عموديّا أو أفقيّا. ومحور مركزه نقطة أو موقع في المكان إزاء سائر المعالم ما كان منها جسديّا أو غير ذلك. هو مركز ثابت ومتحوّل في آن. ثابت في حال السّكون وفي حال الحركة الفرديّة أو الجماعيّة يكون فيه جسد الفرد مركزا لحركاته هو ومركزا لحركات سائر الأجساد في المجموعة، وهو مركز متحوّل متبدّل في مواقعه وفق حركة المجموعة في الزّمان.

والمهمّ أنّ الرّقص بأنواعه رسم بالجسد في مستويين: فرديّ وجماعيّ. فرديّ بما يأتيه الفرد من حركات إراديّة غير طبيعيّة مصحوبة بالموسيقى، ويأتيه عدد من الأفراد تنتظمهم أوركسترا، وجماع الحركات يمثّل لوحة حركيّة جسديّة. ومن نماذج ذلك ما برع فيه الصّينيّون وما جاورهم من الثّقافات، في استعراضاتهم خلال الحفلات حيث تتبدّل اللّوحة البشريّة مشكّلة رسوما متنوّعة حركيّة بعضها رموز وبعضها كتابة وبعضها مشاهد تسرّ النّاظرين.

وينقسم الرّقص أو الرّسم بالجسد إلى أنواع كبرى حسب أنماط المجتمعات، وحسب العصور، وحسب ما يتّصل بأعضاء الجسد بالمكان، وحسب شكل الحركة والتّنقّل في المكان، وما إلى ذلك من أنواع القسمة الّتي تتوفّر في فنّ الرّقص عند دارسيه ومؤرّخيه.

فمنه رقص جماعيّ من نماذجه شطحات الفرق الصوفيّة بمختلف انتماءاتها المذهبيّة، ومن سماته، اللّحمة الماديّة بين المشاركين، وأداؤهم لعمل واحد مشترك رتيب تكون به المجموعة جسدا واحدا وإن كان متعدّد الأفراد. وتكون فيه الغلبة للحركة الدائريّة لكونها – في ما يبدو- حركة تحتاج من الجهد إلى أقلّه، وإن كانت عند المتصوّفة رمزا لدوران الأفلاك ولعود الزّمن لا ينتهي يحاكيها الفرد فيحلّ في الكون وما فيه واحدا منه في اتّحاد به. فدوران المتصوّفة في رقصهم وشطحاتهم محاكاة للكون في دورانه الّذي لا ينتهي، وهو شكل من أشكال التّسبيح الحركيّ الّذي يعوّض التّسبيح بالقول، فالفرد في دورانه ينصهر في دوران الأفلاك ودوران الأرض. ومن هذا تجد تركيز الرّقص الحديث (رقص الصّالونات الرّاقية) على المكوّن الزّوجيّ (راقص وراقصة) سواء تعدّد الأفراد أو اكتفى فيه بالاثنين.

ومنه رقص بدائيّ فيه من الحرّيّة الحركيّة الكثير، تتناغم فيه مجموعة الرّاقصين في تشكيل الدّوائر تشكيلا عفويّا. وقد يتكرّر بفعل العادة، فيكون سبيلا يُتّبع أو يُتوارث، فتتلوّن القبائل المختلفة والشّعوب المتقاربة برقصة مخصوصة فيها بعض من أخرى.

فالرّقص تطوّر من تعبير عفويّ منظّم في المجتمعات البشريّة تتوفّر أدواته توفّرا طبيعيّا في الجسد وتلازمه، إلى مؤسّسة ومعرفة؛ بل اختصاص له نظريّاته ومدارسه النّظريّة والتّعليميّة وله تطبيقاته، وله روّاده. وهو في جميع ذلك متمركز في تشكيل الجسد وإعادة تشكيله في زمان وفي مكان معلومين، هما السّاحات أو المسارح أو الأستديوهات وما إليها. وتطوّر من رسم بالجسد يكون فيه الجسد الرّاقص في آن فاعلا ومنفعلا، أي راقصا ومشاهدا أو جمهورا ولذلك كان يجري في مناسبات اجتماعيّة جماعيّة عفويّة، إلى صناعة يكون فيها الرّاقص مفصولا عن المشاهد انفصال المقاعد وتباعدها عن فضاء الرّكح أو المنصّة في القاعات والسّاحات المعلومة.

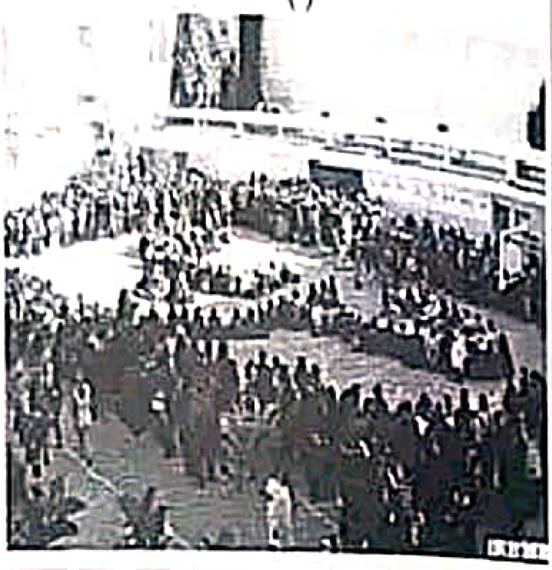
فحال، لذلك، الرّاقص من فرد "نكرة" ذائب في مجموعته يعود إلى تشاغل اليوميّ بعيد الحفلة، إلى "نجم" تتناقل أخباره وأساطيره إن اقتضى الأمر.

وتطوّرت حركات الجسد في الرّقص إلى أداة تخييليّة تمثّل الحركة فيه موردا من الموارد الرّمزيّة تكون بها العبارة عن المضامين العرفنيّة سواء ظهرت عند مصمّم الرّقصة أو عند الرّاقص، مصحوبة بالموسيقى توقّعيا أو لم تكن. وإذ يكون ذلك يذوب الجسد في مادّته ويختفي وتبقى حركته ماثلة يتابعها المشاهد باحثا في تأويلها وبانيا للمعنى من خلالها. فالمهمّ في جميع ذلك هو أبعاض الحركة جارية من الجسد الفرد أو من أجساد المجموعة، وجماعها الشّكل النّهائيّ الّذي تستوي له تلك الأبعاض كلاّ متكاملا قائما على خطاطة حركيّة ذات معنى. ولعلّ في هذا ما يتّصل بمفهوم ذوبان الجسد أو تفكّكه.

ومن النّماذج الّتي يكون فيها الجسد أداة مادّيّة للكتابة الفعليّة به تتشكّل حروفها ورموزها، حيث يذوب جسد الفرد في خطّ من الأجساد تتشكّل وفق مخطّط جماعيّ فيكون بأبعاضها الحرفُ يتلوه آخر وبعضُها نقاط لها، ويحول بذلك المعنى المدلول عليه بالحروف اللّغويّة شيئا تجسّده الأجساد من حيث هي حروف يُكتب بها ويُخطّ. فالجسد الّذي تكتب به كلمة ["حريّة"] - إبّان الثّورة التّونسيّة – (الصّورة (أ) من (1))، واحدا من مجموع الأجساد الّتي بها تكتب مثلا، إنّما هو هي، وهي هو، من حيث صنعها بمادّته وانغرست فيه، فهو يعيشها وهي مادّته وتنتفي بذلك المسافة الفاصلة بين الدالّ والمدلول ليكونا شيئا واحدا لا فكاك بين أبعاضه. ولعلّ في تنوّع لباس الأجساد المكتوب بها لونا وجنسا وسنّا وما إلى ذلك دليلا على الانصهار في تجنّد المفهوم دون ضياع الخصوصيّات بأنواعها. وكذا تذوب الحدود بين المكان وساكنه وبين المفهوم وعلامته فيتّحد الجسد بالمكان من حيث حلّ في رقعة منه محدودة بفضاء الكتابة، ومن حيث خطّ اسم البلاد فيه ومن حيث كان

نصّ العبارة المكتوبة بالأجساد صفة للبلاد في شعار [تونس حرّة] (الصّورة (ب) من (1)):

(1)



(أ)



(ب)

والمهمّ أن نثبت في جميع ما أوردنا وما لم نورد من النّماذج، أنّ الجسد، في المسيرات بأنواعها، قد حالَ من ناطق هاتف بالشّعارات إلى حامل ماديّ لها تكسوه فيتغطّى بها، لا فكاك في ذلك بينه وبينها فهي منه وهو منها. وجميع ذلك درجة أمضى في تمثّل المفاهيم بتجذّرها في التّجربة الجسديّة، وفي انغراس المعنى في الجسد كائنًا فيزيائيًا ماديًا وكائنًا ذهنيًا اجتماعيًا ثقافيًا.

موسيقى الجسد

يمكن الحديث عن موسيقى الجسد عندما يكون الجسد، بحركاته تؤدّيها عضلاته أداء ميكانيكيًا عضويًا فيزيولوجيًا، نوعا من الإيقاع تتحقّق به موسيقى موقّعة هادئة متمطّية متثنّية متعرّجة، أو قل تتجسّد به الموسيقى. يكون ذلك وإن لم يُخلق الجسد لأدائها ولم يكن لها ولا كانت له، ولكنّ الثّقافة والفنّ جعلاها له وجعلاه لها. وهذا ما كان وسيكون من الأعمال الموسيقيّة

العظيمة الخالدة بأنواعها ومن بوليرو رافال[420] واحداً منها. فقد ألّفه صاحبه سنة 1928 مستلهما إيّاه من رقصة شعبيّة تقليديّة من التّراث الأندلسي، فجعله جملا موسيقيّة بسيطة، تتعاود، وتتكرّر في انسياب لا يحمل جديدا، ما عدا الارتفاع في الوتيرة والسّرعة في الأداء والشّدّة في الإيقاع (يانكيليفيتش[421] 1956: 194). هكذا تصوّر رافال البوليرو لحنا وأداء، يقول: "ينبغي أن يؤدّى البوليرو في إيقاع واحد من البداية حتّى النّهاية، بأسلوب فيه الكثير من الشّكوى والأنين والرّتابة، على شاكلة ما يكون في الأغاني العربيّة الإسبانيّة" (رافال[422] 1989: 362).

لقطة من بوليرو (موريس بيجار) حيث تظهر الرّاقصة إليزابيث روس[423]



وهكذا كان أداء البوليرو في المجمل العامّ وفي بعض من أعمال موريس بيجار[424] واحدا من كثير، يتجسّد جميع ذلك في حركات الرّاقصين

[420] Boléro de Ravel
[421] Jankélévitch 1956
[422] Ravel 1989
[423] مأخوذ من: http://mouvement.over-blog.com/article-26485032.html
[424] Maurice Béjart

من أمثال إليزابيت روس[425] (انظر الصّورة أعلاه). ومن يشاهد هذا العمل يدرك فيه كيف يتّحد الجسد (الرّاقص) بالوتر العازف فكلاهما إيقاع ونوتة: تعنف الحركة في الرّقص لعنفوان الموسيقى وتهدأ لهدوئها، تترنّح لترنّحها، تتماوج لتماوجها، وتسكن بسكونها والعكس صحيح واحدا بواحد، وجميعها عود على بدء في تكرّر لا ينتهي. يكون ذلك من الرّاقص فردا ومن الرّاقصين مجموعة، يبدأ المقطع بالحركة تهمّ بالانطلاق ثمّ تتحرّر وتتمدّد إلى أقصى ما تصله الأعضاء ثمّ تنكفئ في هدوء ولطف وتهدأ فتهدأ الأوتار والعضلات في تناغم عجيب. وكان ينبغي أن يجتمع ذلك في مخيلة رسّام بالجسد وفي جسدِ راقص هو اللّون أو الوتر، لتنتج في النّهاية لوحةً بصريّة سمعيّة حركيّة تنصهر جميع المكوّنات فيها انصهارا واحدا في لوحة موسيقيّة سمفونيّة رائعة. ولتبيّن ذلك يمكن العود إلى هذا العمل في نسخه العديدة وهو متوفّر في الإنترنت على ذمّة من يبغيه، فمن يشاهد ويعاين خير دائما ممّن يسمع أو يقرأ.

العمل الجارحيّ

قياسا على "العمل اللّغويّ" في مفهوم الأعمال الواقعة بالقول، نصطنع مصطلح "العمل الجارحي"[426] للدّلالة على الأعمال الواقعة أو الموقعة بحركة الجارحة من أمر أو نهي أو شكر أو ذمّ وما إلى ذلك. فالعمل اللّغويّ منطلقه الإشارة بالجارحة ولا أحد يعتبر الحديث عن ذلك اكتشافا، ولكن عندما يهتدي أوستين ومن خلفه، إلى ذلك يعتبر اكتشافا وتوسيعا لآفاق البحث في الدّلالة اللّغويّة. ولعلّ هذا دليل على أنّ العمل الإيقاعيّ إنّما أصله الإشارة بالجارحة ثمّ يصحبها القول ثمّ يخلص الأمر للعمل يوقع باللّغة دون غيرها، ولذلك من الأعمال ما يوقَع بالإشارة مجرّدة من الكلام كما يأتي بيانه.

[425] Elisabeth Ross
[426] gesture act(s)

عمل القول: القول الحركة والحركة القول

بيّنا في ما مضى أنّ الحركة بالجارحة تمثّل موردا رمزيّا يكون به صوغ المضامين العرفنيّة نوعا من الصّوغ قد يوافق الصّوغ اللّغويّ وقد يقصر عنه في المرونة والاقتصاد وفي الشّمول. ونثبت هنا ما بينهما من التّكافؤ على أساس التّرجمة، بمعنى أنّ اللّغة والإشارة بالجارحة شيء واحد في التّصوّر من حيث كانتا منظومتين متلازمتين لدى النّوع البشريّ منذ كان.

ومن مظاهر ذلك ترجمة عمل الإشارة أي الحركة إلى فعل "قال"، حيث يعبّر الواحد منّا عن إشارة بالرّأس أو باليد بجملة تتضمّن فعل "قال" مصرّفا في الأزمنة المناسبة مسندا إلى فاعل هو العضو منه أو من سائر الأجساد من الأناسيّ أو الحيوان، ومدلوله تلك الحركة المحاكية من المتكلّم يأتيها لتفسير مضمون "قال". ولعلّ في ما أورد الجاحظ كفاية تفسير، يقول: "بينا معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحّان وحمار له يدور بالرّحى وفي عنقه جلجل إذ قال للطّحّان: لمَ جعلت في عنق هذا الحمار هذا الجلجل؟ قال: ربّما أدركتني سآمة أو نعسة، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنّه قد قام فصحت به. قال معاوية: أفرأيت إن قام ثمّ قال برأسه هكذا وهكذا- وجعل يحرّك رأسه يمنة ويسرة- ما يدريك أنت أنّه قائم؟ فقال الطّحّان: ومن لي بحمار يعقل مثل عقل الأمير!" (البيان والتّبيين 2: 261).

والمهمّ أن نسجّل أنّ حركة الجوارح تُحدث تقريبا جميع المعاني المتحقّقة بالأعمال اللّغويّة ولذلك يمكن اعتبارها عملا أو إنشاء جارحيّا قياسا على "لغويّ". فمن "الاستفهام" ما يكون بحركة اليد الواحدة أو اليدين كلتيهما في نصف دائرة أو بحركة الرّأس سريعة موقّعة. ومن "الأمر" ما يكون بحركات الجارحة عند من يستحثّ شخصا بالإسراع في العمل، فتكون حركة

اليد سريعة متعاودة حسب اتّجاه العمل المطلوب تنفيذه، فطلب الاقتراب مثلا على مهل يكون بإشارة واحدة أو متعدّدة وإن تعدّدت فالفاصل الزّمانيّ بين إعاضبها هو ما يحدّد إلحاح الأمر أو عدم إلحاحه، فإن كانت الإشارة بطيئة متأنّية كان طلبا محايدا وإن كانت سريعة متكرّرة ففيها حثّ أو ما إليه. وكذلك تكون الأعمال اللّغويّة المختلفة من إشارة الشّخص المشغول بشيء من عمل أو غيره، أو ممّن يمتنع عنه الكلام لكون الفم مشغولا بشيء من شرب أو أكل ومضغ أو لكون الذّهن مستغرقا في التّعبّد والصّلاة وما إليهما. ولذلك يأمر وينهى وينفي ويطلب الانتظار أو التّمهّل باليد ولا تنقطع صلاته. ومن الإشارة ما يكون أمرا أو نهيا في مقام الامتحان حيث وجب الحفاظ على الهدوء والصّمت، بالسّبابة منطبقة على الشّفتين انطباقا كلّيا وهي في الاتّجاه العموديّ إمّا مصحوبة بصوت "اشت اشت" أو غير مصحوبة به.

وممّا يتصاحب فيه العمل بالقول والعمل بحركة الجوارح، الأحوال الطّقوسيّة تجري فيها اليمين والالتزامات وما إليها. من ذلك أنّ الفقه الإسلاميّ يتضمّن أبوابا في منزلة حركة الجوارح في أداء الطّقوس من الشّهادة والصّلاة وما إليها. فهي شرط في بعضها؛ وهي في بعضها الآخر ليست بشرط، ما توفّر الكلام. ولكنّها نائبة عنه في حال غيابه لمانع خلقيّ لا يمكن تجاوزه. فمن المسائل في ذلك منزلة الذّبيحة من الأخرس: حلال هي أو حرام؟ إذ من شروط الذّبيحة، كما هو ثابت، أن يسمّي الذّابح عليها عند ما يهمّ بذبحها، فإن كان أخرس أشار برأسه متّجها إلى السّماء وتلك إشارة إلى التّسمية والنّيّة. فتكون ذبيحة الأخرس حلالا.

حركة الجارحة استعارة

يكون الحديث عن حركة الجارحة الاستعاريّة عندما يكون بين شكل الحركة وتنقّلها في الفضاء من جهة والحدث الّذي تدلّ عليه من جهة أخرى

تناسب ما، قد يُسمّى شبها أو مماثلة. وهذا الشّبه كائن في ظاهر الأمر، ولكن الواقع على خلاف ذلك، فيمكن أن نتصوّر أنّ المشير إنّما يتمثّل المفهوم المدلول عليه على أساس مفهوم أو شيء آخر. ولئن خصصنا حركة الجوارح الاستعاريّة بهذه الفقرة، فلا يعني ذلك أنّ منها ما يكون استعاريّا صرفا إذ الغالب في حركات الجوارح أن تتعدّد مظاهرها حيث يختلط فيها الأيقونيّ بالإشاريّ التّعيينيّ والإشاريّ التّعيينيّ بالاستعاريّ وما إلى ذلك.

وبتنوّع الحركات الاستعاريّة في التّعبير عن نفس المفاهيم أو عن المفاهيم المتقاربة بتنوّع الثّقافات تكون الحركة الاستعاريّة مخصوصة بثقافة دون أخرى، بمعنى أنّ المعنى الواحد يُتصوّر بطرق مختلفة حسب الثّقافات. فالحركة الّتي تصوّره أو تستحضره تكون مواضعة اجتماعيّة محدودة.

وممّا تختلف به الحركة الاستعاريّة عن العبارات اللّغويّة الاستعاريّة أنّ حركة الجارحة هنا تكون في ذاتها صورة للمعنى المدلول بها عليه، وليست عبارة عنه (ماكنال 2005: 98)، فتكون بذلك الحامل المادّيّ المباشر للمدلول. فالمدلول متجسّد في الحركة ذاتها وليس شيئا آخر منفصلا عنها. وقبل الخوض في نماذج من حركة الجوارح الاستعاريّة يحسن أن نورد بعض الأسس النّظريّة في اشتغال الاستعارة كما تبلورت في نظريّة "الاستعارة المفهوميّة (أو التّصوّريّة)".

نظريّة الاستعارة المفهوميّة: معالم نظريّة

نظريّة الاستعارة المفهوميّة[427] تسمية لجملة من الأفكار والمبادئ متعدّدة روافدها في إطار اللّسانيّات العرفنيّة. ولهذه النّظريّة مبرّرات عامّة تتّصل بطبيعة الفكر عامّة وبالاستعارة والمجاز خاصّة.

ومن أهمّ المبادئ النّظريّة فيها أنّ التّخيّل (المجاز، الاستعارة، المجاز

---

[427] Conceptual Metaphor Theory (CMT)

المرسل، إلخ) مكوّن مركزيّ من مكوّنات العقل وليس مكوّنا زائدا ينضاف إلى الحقيقة (انظر الزّناد: نظريّات لسانيّة عرفنيّة (139-158))، حيث بسطنا القول في الجوانب النظريّة مؤسّسة على نماذج من العربيّة). وإذ يكون ذلك تسقط المقابلة أو التّمييز ما بين الدّلالة الحرفيّة والدّلالة المجازيّة في الكلام، وينهافت ما قام عليها من المفاهيم والافتراضات. فالاستعارة، بهذا المفهوم، آليّة تنتظم الفكر في جميع أنشطته غالبة في الاستعمال اليوميّ العاديّ في العبارات اللّغويّة. فالاستعارة جزء من النّظام العرفنيّ[428] من حيث مثّلت أداة في تصوّر العالم وتمثيل الأشياء وتمثّلها في جميع مظاهرها. هي أداة مفهمة وتمثيل وتصوّر يعمّ كلّ مظاهر الفكر بما في ذلك المحسوسات والمجرّدات.

ويمثّل الإسقاط العابر للمجالات[429] في النّظام المفهوميّ (لايكوف 1992) أساسا لاشتغال الاستعارة، فتكون العبارات الاستعاريّة تحقّقا سطحيّا للعمليّات الّتي يكون بها الإسقاط المفهوميّ في الذّهن.

الاستعارة تمثّل لمجال على أساس مجال آخر

علاقات الإسقاط المفهوميّ هي ما به نتمثّل مجالا ما على أساس مجال آخر بتوسّط عدد من التّناسبات. وهي جملة التّناسبات الكائنة بين مجالين عنصرا بعنصر أو مكوّنا بمكوّن، يكون واحد منهما مجالا مصدرا[430] والآخر مجالا هدفا[431]، وليس من الضّروريّ أن يكونا مترابطين في المطلق. وهي تناسبات إبستيميّة إذ تتعلّق بالمعارف المتعلّقة بكليهما في الذّهن، فالعمل الاستعاريّ موطنه تلك التّناسبات. ويمكن أن نجمل الإسقاط الاستعاريّ من حيث مفهومه ومبادئه وأنواعه في عدد من النّقاط هي:

(1)- الإسقاط قوالب من التّناسبات الأنطولوجيّة،

---

[428] cognitive system
[429] cross-domain mapping(s)
[430] source domain
[431] target domain

(2)-الإسقاط كائن ما بين المستويات العليا في المقولات،

(3)-الإسقاط محكوم بمبدإ الثّبات الّذي يقوم على وجوب المحافظة على الأبعاد الطّوبولوجيّة وعلى أنّ الغلبة للمجال الهدف،

(4)- الإسقاط مفرد ومتعدّد تزامنيّ محكوم بسلّميّات الإرث.

الإسقاط قوالب من التّناسبات الأنطولوجيّة

يتّخذ لايكوف من توسّع الاستعارة ويسر الاهتداء إلى المعنى في الجديد الحادث منها أساسا آخر يدعم ما يذهب إليه من تأصّل الإسقاط المفهوميّ ما بين المجالات في الفكر، فهي قوالب قارّة من التّناسب الأنطولوجي[432] ما بين المجالات، وهذه القوالب قد تنطبق على مجال مصدر لبنية معرفيّة ما أو على مجال مصدر لوحدة معجميّة ما فتحدث الاستعارة، وقد لا تنطبق فلا تحدث الاستعارة.

الإسقاط كائن ما بين المستويات العليا من المقولات

تُستعمل المقولات العليا في الإسقاط المفهوميّ ما بين المجالات. ذلك أنّ مستوى المقولة الأعلى يتضمّن المعلومات العامّة الشّاملة بوجه يضمن إسقاطا أكثر ثراء من المجال المصدر على المجال الهدف بما يتضمّنه من معلومات عن المستويات الأساسيّة أو الدّنيا من المقولة.

مبدأ الثّبات

عمليّة الإسقاط محكومة بمبدإ الثّبات[433] وبقيد الغلبة للمجال الهدف، في آن. فمن شروط الإسقاط ما بين المجالات قيامه على التّناسب ما بين المجال المصدر والمجال الهدف، والشّرط في قيام هذا التّناسب هو الحفاظ على الأبعاد الطّوبولوجيّة في المجال المصدر، وهي الأبعاد الكبرى الأساسيّة الّتي

---

[432] fixed patterns of ontological correspondences
[433] Invariance principle

ينبني عليها ذلك المجال وتكوّن بنيته الخطاطيّة. فمبدأ الثبات تقييد لعمليّة الإسقاط فلا تكون عشوائيّة وذلك بشرط الحفاظ على خطاطة المجال الهدف. فالغلبة في الإسقاط تكون دائما للمجال الهدف (على حدّ عبارة لايكوف، 1992).

الإسقاط التّزامنيّ

الإسقاط الاستعاريّ تناسبات ثابتة يمكن أن تنشط، وبناء على ذلك لا تعتبر البنية الاستعاريّة وليدة تحويل آن-قوليّ[434] لمعنى حرفيّ إلى معنى مجازيّ. ويمكن أن تتضمّن العبارة الاستعاريّة الواحدة قسمين يجري فيهما إسقاطان استعاريّان مختلفان متزامنان[435]. فالإسقاط الاستعاريّ يمكن أن يتعدّد على أساس التّزامن بين أقسامه وعلى أساس التّرابط بينها.

سلميّة الإرث

تتعدّد الإسقاطات في العبارات الاستعاريّة وتتجدّد على أساس توسّع بعضها من بعض فتنتظمها "سلّميّة الإرث"[436]. هي ما ترث بمقتضاه الإسقاطات الدّنيا أبنيةَ الإسقاطات العليا. ففي قولنا "الحبّ رحلة" يرث الإسقاط فيها ما يكون في قولنا "الحياة رحلة" وهذه ترث إسقاطا من مستوى أعلى هو البنية الحدثيّة في المطلق. فهذه الاستعارات ثلاثيّة المستويات: ترث الاستعارة من المستوى الثّالث بنية الاستعارة من المستوى الثّاني، وهذه ترث بدورها بنية الاستعارة من المستوى الأوّل:

المستوى1: استعارة البنية الحدثيّة

المستوى2: الحياة رحلة

المستوى3: الحبّ رحلة، المهنة رحلة.

---

434 on-line

435 simultaneous mapping

436 inheritance hierarchy

وتتاسب درجةُ الانتشار في الاستعمال موقعَ الاستعارة في سلّميّة الإرث فما كان في أعلى المستويات كان أوسعها انتشارا وما كان في أدناها كان أقلّها. وبناء على هذا يذهب لايكوف إلى أنّ استعارة البنية الحدثيّة قد تكون كونيّة لكنّ استعارة: الحياة رحلة أو الحبّ رحلة أو المهنة رحلة، محدودة بالثّقافة.

الحركة الاستعاريّة بالجوارح

تقوم الحركات بالجارحة في صنف منها، بناء وفهما، على وجود تناسبات بين مجالات مختلفة يكون بين عناصرها الإسقاط ما بين المجالات. ومن التّناسبات الّتي تقوم في تأويل حركة الجارحة وبنائها ما يكون على أساس الإسقاط: بين الشّكل من حركة الجارحة والشّكل من المدلول عليه يكون تناسب على أساس إسقاط الشّكل على الشّكل[437]، وبين حركة الجارحة في الفضاء والحركة من المدلول عليه يكون تناسب على أساس إسقاط الحركة على الحركة[438]، وبين مسلك حركة الجارحة في الفضاء والشّكل من المدلول عليه يكون تناسب على أساس إسقاط المسلك على الشّكل[439] (ماندال[440] 1977، طوب[441] 2001).

الزّمن فضاءً

من نماذج الحركات الاستعاريّة ما يكون به التّعبير عن أبعاد الزّمان ماضيا ومستقبلا وحالا (حاضرا). وجميعها ذو صلة باستعارة الزّمان فضاءً[442] ومنها تكون الاستعارة "الماضي خلف الأنا"[443]، واستعارة "المستقبل

---

437 shape-for-shape mapping
438 motion-for-motion mapping
439 path-for-shape mapping
440 Mandel, 1977
441 Taub, 2001
442 TIME AS SPACE
443 PAST IS IN BACK OF EGO

أمام الأنا"[444]، واستعارة "الحاضر هنا"[445] (نيونياز وسويتسر[446] 2006).
وبعبارة أخرى يكون الماضي عند ظهر الأنا وخلفه لا يراه إذ لا عين للكائن عند القفا ترى ما وراءه فتبصره، فهو غائب. ولذلك يُعتبر الماضي غائبا؛ ويكون المستقبل عند الأمام مواجها للأنا وقدامه يراه إذ للكائن عينٌ عند مقدّم الرأس ترى ما يواجهه فتبصره، فهو ماثل هناك على مسافة تتقلّص شيئا فشيئا بحكم تنقّل الذّات إليه فاقترابه هو منها؛ ويكون الحاضر عند (موضع) الأنا غير منفصل عنه حالاً حيث حلّ جسده على أساس الوجود في حيّز واحد في زمن واحد يعيشه ويعي به. فهو يراه إذ للكائن عينٌ عند مقدّم الرّأس ترى حيث يقف بمعنى يستوي منتصبا، فيبصره عند قدميه، وإذ كان الزّمان ماثلا عند القدمين يمكن للأنا أن يدوسه ليشعر به ولذلك يشار بالإصبع إلى الفضاء الكائن عند القدمين إشارة مصاحبة للقول المعبّر عن الحاضر، فتتصوّر الذّات الزّمن الحاضر على أنّه موطئ القدم أو الرّقعة من الفضاء الّتي تدوسها قدماها فتحلّ فيها. فلا فاصل في الفضاء بينهما ولذلك يكون الشّعور بالحلول في موضع واحد. فالذّات والمفهوم حالاّن في حاوية واحدة لا فصال بينهما. فالمضيّ الزّمانيّ غياب حيث لا يُرى (خلف الظّهر) مولّيا متباعدا، والمستقبل الزّمانيّ حضور حيث يُرى (أمام العين) مقبلا، والحضور الزّمانيّ مكوث في مركز الفضاء حيث الذّات المدركة تعيش.

الفكرة مضمونا مادّيًا

من النّماذج الاستعاريّة الّتي تشير بها جوارحنا فنعيش بها، تصوّر الفكرة مضمونا أو محتوى في راحة اليد بالأصابع نصف مضمومة؛ حيث تكون اليد حاوية بأن تتّخذ شكلا منغلقا بالأصابع المضمومة تاركة فراغا في

---

[444] FUTURE IS IN FRONT OF EGO
[445] PRESENT IS HERE
[446] Núñez & Sweetser, 2006

ما بينها مناسبا لشيء ما ذي شكل بيضويّ، هو الشّيء الحالّ هناك، فكان مادّة لطيفة ممّا يسهل كسرها. وتتدرج هذه الاستعارة في مستوى مقولي أوسع هو الفكر مضمونا للدّماغ ولذلك يكون التّعبير في ثقافتنا عن ذلك لغويا بعدد من العبارات منها ما يلي:

(أ) - عندي فكرة (تصاحبها حركة الجارحة كما وصفناها)

(ب)- عنده فكرتان في رأسه يريد أن يتاجر بهما.

(ج) - عنده فكرة في رأسه لا يريد أن يتخلّى عنها.

(د) - الفكرة تسكن رأسه.

المستوى1: الدّماغ حاوية والذّهن مضمون

المستوى2: الفكر مادّة

المستوى3: في ذهني فكرة، جاءتني فكرة، عندي فكرة، الفكرة كائن حيّ يسكن المكان، إلخ.

ولعلّ تصوّر الفكر(ة) على أساس استعاريّ يكون ذا أنماط متنوّعة، من ذلك ما يعبّر به عنها في الأشرطة المرسومة أو الصّور المتحرّكة، من صورة بصريّة هي الشّمعة حينا أو الفانوس الكهربائيّ أحيانا، وهذا مرتبط بتصوّر الفكر(ة) على أساس النّور وذاك ما على أساسه نتصوّر العلم والمعرفة نورا يضيء. فهذه إشارة مقتضبة إذ يخرج بنا الخوض فيها عمّا نحن فيه.

العلاقات الاجتماعيّة هندسة

من نماذج الاستعارات الكائنة بحركة الجوارح ما يكون به التّعبير عن الصّداقة والعداوة على أساس علاقات هندسيّة فضائيّة. فالصّداقة توازٍ بين السّبّابتين اليمنى واليسرى والعداوة تقاطع بينهما. فمن المواقف الّتي نعيشها - في تونس مثلا- أنّ المتكلّم يستعمل حركة السّبّابتين من اليد اليمنى واليد

اليسرى للتّعبير في هيأة تواز بينهما وتساو وتلامس أفقيا، وفي حركة أفقيّة مزلاحيّة فيها تناوب بينهما في التقدّم والتّأخّر. وذلك مزامن لقوله متحدّثا عن شخص بكونه صديقا حميما له، مُعينا له، وما إلى ذلك من شبيه هذه المعاني. بل يمكن أن يكتفي بهذه الإشارة خبرا عن شخص يرد ذكره في بداية القول:

(أ)- فلان وفلان صديقان (الإشارة المذكورة متحقّقة بالجارحة مصاحبة للقول).

(ب)- فلان وفلان+ الإشارة المذكورة متحقّقة بالجارحة.

ومن المواقف المقابلة لما مضى، أن يشير الشّخص معبّرا عن العداوة أو الخلاف أو الصّراع، أو أثناء ذلك، بالسّبّابتين معقوفتين تتقاطعان بالخلاف تنغلق الواحدة منهما على الأخرى وتتجاذبان أو تتدافعان في اتّجاهين متقابلين. ويحدث أن يكتفي الشّخص المتكلّم بهذه الإشارة خبرا عن شخص يرد ذكره في بداية القول:

(أ)- فلان وفلان عدوّان (الإشارة المذكورة مصاحبة للقول).

(ب)- فلان وفلان+ (تحقيق الإشارة المذكورة إثر القول).

وفي الحالتين يكون تصوّر العلاقة الاجتماعيّة مطلقا على أساس هندسة فضائيّة قوامها التّوازي أو التّقاطع. وفي هذا يكون الإسقاط كما يلي: الصّداقة والعداوة علاقة بين شخصين هما السّبّابتان، والصّداقة تفاعل بين المتعالقين على أساس قوّة تكون لكلّ منهما، تتعادل القوّتان وتذهبان في اتّجاه واحد دون صدام فتلك صداقة تناسبها حركة التّوازي بين السّبّابتين، ويكون بين القوّتين تصادم أو تعارض فتكون الغلبة للواحدة مرّة وللأخرى مرّة أخرى ويمكن أن تتنافيا فلا غالب ولا مغلوب؛ تناسب ذلك حركة السّبّابتين منعقفتين متدافعتين أنواعا من التّدافع.

الكذب هواءً

من نماذج حركة الجارحة -في تونس في حدود ما نعلم- أن يشير الشّخص في سياق الحديث عن شخص آخر معبّرا عن كونه كذّابا أو عن كون كلامه كذبا، بالوسطى من اليد اليمنى أو اليسرى في حركة جيئة وذهاب معامدةً للخدّ الأيمن أو الأيسر، وقد انتفخ هواءً فتنفجر به الشّفتان عددا من المرّات على عدد الطّرقات من الوسطى. بصرف النّظر عن تصوّر الكذب أو الوهم على أساس الطّبل الفارغ الطنّان لا شيء فيه ما عدا الهواء (كما كان في قصّة الثّعلب والطّبل من كليلة ودمنة لابن المقفّع)، يمثّل الكلام الكاذب صوتا لا أثر له في الواقع ولا حقيقة تطابقه فيه. فالفم جهاز النّطق، به يتحقّق القول أصواتا لها مطابقة للواقع في حال الصّدق وليس لها ذلك في حال الكذب. فالكذب في هذه الحال مجرّد قول أي نفخ هواء.

الرّجحان ميزانا

من نماذج حركة الجارحة - في تونس في حدود ما نعلم- أن يجيب الشّخص عن سؤال أو عن رأي أو موقف بيده اليمنى مفتوحةً أصابعها والرّاحةُ (الكفّ) منها موجّهة إلى أسفل، مبسوطةً تمام البسط أو معقوفةً في انحناء طفيف، يحركها حركةً متمايلةً على محور وهميّ معبّرا بذلك عن عدد من المواقف الذّهنيّة له من موضوع ما: هو التّوسّط في المستوى بين مَعلَمين على سلّم قيميّ يمكن أن يكون مستوى بلغه تلميذ أو طالب في التّحصيل والدّراسة، أو حالَ بضاعة يعيّن موقعها رفعةً وانخفاضا من حيث درجة الجودة الصّناعيّة وما إلى ذلك. أو هو الشّكّ في تحقّق العمل أو في مطابقة مضمون القول للواقع أو في التّراجح بين الإثبات والنّفي، من ذلك أن يُسأل الواحد عن مجيء شخص فتكون منه تلك الإشارة تعبيرا عن احتمال ذلك سلبا وإيجابا، إثباتا ونفيا، وما إلى ذلك.

والمهمّ أنّ حركة الجارحة هذه، مقترنة بدلالة الرّجحان أو الوسطيّة، ذات أساس استعاريّ قوامه الميزان ذو الكفّتين تتحركان عموديًا على محور يتوسّط ذراعا تجمع بينهما، تكون الغلبة للواحد فيرجح الآخر أو يتوازنان بعد أن تتعدّد حركة الواحد منهما في صعود واستفال حتّى يبلغا التّوازن الفيزيائيّ في حال البيع والشّراء وفق المعايير في السّيناريو التّجاريّ المعلوم. يستعار جميع ذلك في حركة الجارحة ممثّلة في أصابع اليد مفترقة وفي حركتها المتمايلة ولكن دون غلبة أو قرار، تعبيرا عن التّراجح بين المواقف أو الآراء المتنافية أو الوسطيّة يتكافأ فيها الحسن والقبيح أو ما هو فوق النّقطة القيميّة التي تتوسّط درجتين أو ما هو دونها. فالطّالب المتوسّط من حصل على عشرة وهي نقطة وسطى فاصلة بين الصّفر والعشرين (في نظام التّقييم في المنظومة التّربويّة التّونسيّة)، والبضاعة المتوسّطة هي ما كان في قيمة بين الرّداءة المطلقة والجودة في أقصى درجاتها على سلّم الجودة في شتّى مظاهرها. فهذه الاستعارة تبين عن تصوّر الرّجحان على أساس الميزان، وهي استعارة متأصّلة في العرفنة البشريّة ثابتة في الكثير من الأنشطة الذّهنيّة، ولكنّها في جميع ما اطّلعنا عليه تنصبّ العناية بها على ما كان منها لغويًا بالأساس، وتُهمل تجليّاتها الجارحيّة إلاّ في ما ندر. وهي متجلّية في حركة الجارحة لغةً للجسد. ولعلّ هذا سبيل إلى إثبات تجسدن المفاهيم بناء على الأعضاء والجوارح أو على الجسد باختصار. وهذا أمر يخرج بنا للخوض فيه عمّا نحن فيه.

حركة الجارحة استعارةٌ فضائيّة معبّرة عن الزّمان

تجري في مختلف الثّقافات حركة الجوارح للتّعبير عن مفهوم الزّمان، وتعكس التّصورّ الاستعاريّ للزّمان على أساس الفضاء (المكان)، هو ما يطلق عليه في الكتابات العرفنيّة مفهوم: استعارة الزّمان فضاءً. فتكون حركة

الجارحة مدخلا لتبيّن ما به يكون تمثيل المفاهيم التّجريديّة -والزّمان واحد منها- وتصوّرها في الذّهن. ينضاف إلى ذلك البعد الثّقافيّ بتنوّع مكوّناته وفق الأطر العرفنيّة المؤمثلة.

فحركة الجوارح من هذه الزّاوية نوعان: حسّيّة وتجريديّة. الحسّيّة منها ما كانت به الإشارة مقترنة بمعناها اقترانا مباشرا من قبيل تعيين الأشياء في المكان أو الحركة جارية على أساس المحاكاة في مداها ومسارها. والتّجريديّة منها ما كانت به الإشارة مقترنة بتمثيل الشّيء (المفهوم) المعبّر عنه على أساس شيء (مفهوم) آخر.

وكلا النّوعين متوفّر في التّعبير عن الزّمان: فالحسّيّ منها ما كان التّعبير فيه عن القبليّة أو البعديّة مقترنا بالفضاء على أساس ترتيب ما: كأن يشير الواحد منّا إلى السّبق أو اللّحاق أو التّزامن انطلاقا من معلم محدّد في الفضاء الذّهنيّ أو الفضاء الحسّيّ فتكون الإشارة باليد على أساس ذلك. وهذا أمر معلوم نترك للقارئ استحضار الإشارات الّتي يأتيها وهو يعبّر عن وجوه التّرتّب تلك. والتّجريديّ منها ما يتّخذ عمادا يكون به التّعبير عن المفاهيم الزّمانيّة من قبيل الاستمرار أو المعاودة، دوريّة كانت أو غير دوريّة، منتظمة كانت أو غير منتظمة، وفي هذا يدخل الإيقاع؛ وأساسه زمانيّ ولكنّ تصويره بالجارحة فضائيّ.

بيان ذلك يكون من نماذج نعيشها في مستويين: يوميّ عاديّ بسيط وآخر من مجال الموسيقى (حركات قائد الفرقة السمفونيّة، مثلا):

حركة الجارحة المعبّرة عن الجيئة والذّهاب تتحقّق باليد في أوضاع متنوّعة فيها جيئة وذهاب في الفضاء، وأمّا سرعة الجيئة والذّهاب فمرتبطة بسرعة الحركة من اليد، وأمّا المدى الفاصل بين الطّرفين (منتهى الذّهاب ومنطلق المجيء) فيحدّدها المدى الفضائيّ الفاصل بين طرفي حركة اليد. وكذا الحركة الدّائريّة من اليد تحدّد شكل الحركة الحقيقيّة، واتّساع الدّائرة

منها يحدّد اتّساع الحركة المدلول عليها بها.

وأمّا حركات قائد الفرقة السّمفونيّة فمنطلقها رفع اليدين تمسك واحدة منهما بالقضيب في إشارة إلى الاستعداد لانطلاق العزف، وما والاها من الحركات إنّما يكون لتنظيم الإيقاع وتوزيعه. فالعزف منقاد بالإيقاع، والإيقاع منقاد بوتيرة تجسّمها حركة اليد في الفضاء. فتتوزّع الكمّيّة الموسيقيّة من حيث المدى والمعاودة في الزّمن في شكل حركة من واحدة من اليدين أو من كلتيهما، تكون في جيئة وذهاب، أفقيًا أو عموديًا، ومن حيث الكثافة وارتفاع النّغمة تكون في إشارة من اليد قويّة مرتعشة قد يهتزّ لها شعر قائد الفرقة كما هو معلوم. ولعلّهم يطيلون الشّعر لهذا الغرض وهم يعلمون أنّ الجمهور من ورائهم يشاهدهم فيدرك التّناغم بين نغمة يسمعها وحركة باليد يراها ترافقها رتعاشة في الرّأس والصّدر دليلها اهتزاز الشّعر وارتعاشه.

فالإيقاع كمّيّة صوتيّة موسيقيّة حادثة في الزّمان توزّعها حركة جارية في الفضاء. فتصوّر الزّمن الموسيقيّ، في هذه الحال، أساسه تصوّر فضائيّ والحركة المحقّقة لهذا فيزيائيًا، حركة استعاريّة. ومن هذا القبيل ما يكون من الواحد منّا يرفس الأرض بقدمه أو بقدميه موقّعا بها أو بهما في الفضاء (مكان الجلوس) ما يسمع من الصّوت أو الموسيقى الموقّعين. وأمثلة ذلك أكثر من أن تُحصى.

حركة الجارحة الاستعاريّة في المناويل العرفنيّة

ترتبط حركة الجوارح الاستعاريّة بالمعتقدات الثّقافيّة (المناويل الاستعاريّة المؤمثلة) ولذلك تتنوّع العبارات عن المفهوم الواحد حسب الثّقافات. ومن ذلك تمثُّل المعرفة (أو الفكر) يتنوّع بتنوّع الثّقافات ومناويل الاعتقاد وتصوّر الكون والحياة.

فالأمريكيّ، على سبيل المثال، يتمثّل المعرفة أو الفكرة على أنّها شيء يحلّ في اليد تكون مفتوحة الكفّ متّجها إلى فوق وتحدّد حركة الذّراع كاملا من حيث اتّجاهها معاني أخرى من قبيل لحاق الفكرة بسابقة أو بإضافتها إليها وما إلى ذلك (ماكنال 2005: 47).

وفي لغة التّوركانا[447] في المناطق الشّماليّة الغربيّة من كينيا، تُتمثّل المعرفة (المضمون المعرفيّ) على أنّها شيء تطلقه اليد في الهواء، وتحدث الحركة وفق التّدرّج التّالي: تنتف الأصابع شيئا من الجبين ثمّ تنغلق عليه وتنزل قليلا ثمّ ترتفع متفتّحة وتطلق ما بداخلها في الهواء. والصّورة الموالية تمثّل المقطع النّهائيّ من تلك الحركة (مقتطعة من شريط "طريق لورانغ"[448] (نقلا عن ماكنال 2005: 47)):



ونفس الأمر أو قريب منه يكون في ثقافتنا المتوسّطيّة حيث تُصوّر الأفكار بنفس الطّريقة تقريبا مع فويرقات طفيفة، كأن يجمع المشير أصابع اليد اليمنى في شكل كما لو كان ممسكا بشيء في يده في حجم بيضة أو كرة تنس، ثمّ يقرّبها من ناصيته اليمنى ويبعدها في جيئة وذهاب، دليلا على خروج الأفكار وتتابعها أو تسلسلها.

---

[447] Turkana
[448] *Lorang's Way* by MacDougall & MacDougall (1977)

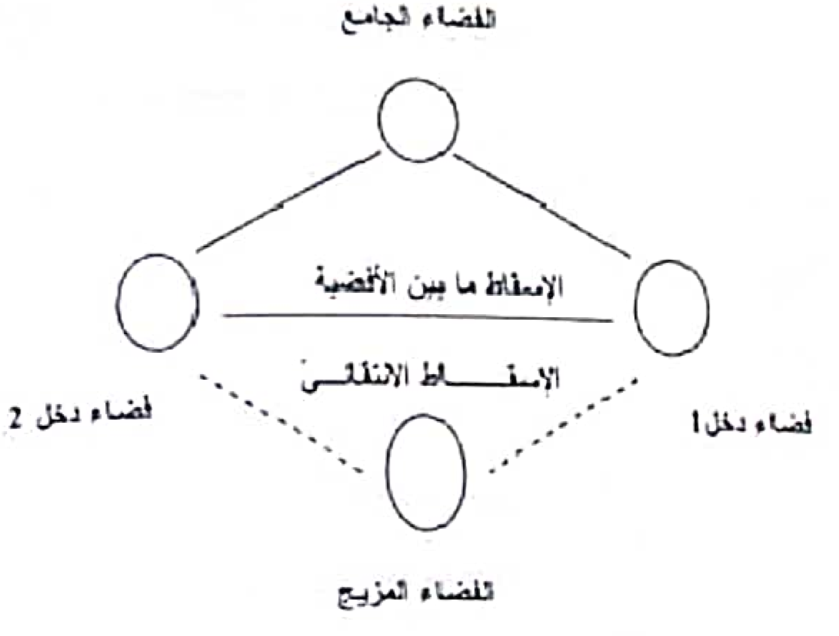
المزج[449] آليّة عرفنيّة بها يكون إنشاء المفاهيم الجديدة الحادثة انطلاقا من مفاهيم موجودة سلفا. هو آليّة ناشطة في جميع المظاهر ما كان منها فكريا رمزيا تجريديا أو ماديّا صناعيا عمليّا. ومدار نظرية المزج على تمثيل العمليات العرفنيّة الجارية آن القول والتّفكير، وهي عمليات مكوّنة لما يُعرف بشبكة المزج المفهومي[450]. وقوام ملكة المزج عدد من العناصر تضمّ عددا من الأفضية الذّهنيّة وعدد من العمليّات من قبيل الإسقاط ما بين الأفضية والإسقاط الانتقائي[451] والتّركيب والإكمال (الإتمام) والبلورة فالبنية النّاشئة.

الأفضية أربعة: فضاءان دخلان[452] وفضاء جامع[453] وفضاء مزيج[454].

يمثّل الواحد من الفضاءين الدّخلين (حدثين كانا أو واقعتين أو مفهومين) مصدرين للإسقاط يمتزجان في الفضاء المزيج، ويربط بينهما إطار خطاطيّ يجمع العناصر المشتركة بينهما يمثّله الفضاء الجامع. والمزج عمليّة يتطابق بمقتضاها الفضاءان الدّخلان تطابقا جزئيّا فينعكس قسم من عناصر كلّ منهما عن طريق الانتقاء في فضاء رابع هو الفضاء المزيج. فيكون للمزج عناصر وعمليّات يجملها التّمثيل الوارد بعد هذا (فوكونياي وتورنر1998: 137؛ فوكونياي 2001: 3) حيث يوافق الفضاءان الدّخلان الفضاء المصدر والفضاء الهدف في نظريّة الاستعارة المفهوميّة (لايكوف). أمّا الفضاء الجامع فيتضمّن البنية المفهوميّة المشتركة بين الفضاءين الدّخلين. والفضاء المزيج فضاء تندمج فيه مكوّنات مختلفة من الفضاءين الدّخلين لتنشأ فيه معان جديدة لم تتوفّر في الفضاءين الدّخلين:

---

[449] Blending, (conceptual integration)
[450] Network (Model) of Conceptual Integration
[451] selective projection
[452] input space(s)
[453] generic space
[454] Blended space



وينشط خلال المزج ثالوث من العمليّات، هي التّركيب[455] والإكمال[456] والبلورة[457]:

(أ)- التّركيب

يجري في المزج، التّركيب بين عناصر من الفضاءين الدّخلين فيحدث لذلك علاقات لم تكن موجودة في ذينك الفضاءين منفصلين. فتتمثّل عمليّة التّركيب في إسقاط مضامين من كلّ من الفضاءين الدّخلين إسقاطا رأسيّا في الفضاء المزيج. ويحدث أن ينصهر عنصران ينتمي الواحد منهما إلى فضاء دخل في عنصر واحد في الفضاء المزيج.

(ب)- الإكمال

تتمثّل عمليّة الإكمال في إكساء النّموذج التّصوّريّ الّذي ينشأ في الفضاء المزيج بالتّركيب، أبعادا ما بالعود إلى المعارف العامّة المحفوظة في الذّاكرة طويلة المدى. وتجري عمليّة الإكمال دون وعي (فوكونياي وتورنر

---

[455] composition
[456] completion
[457] elaboration

1998: 144). فعمليّة الانعكاس ما بين الفضاءين الدّخلين والفضاء المزيج الّتي يتمّ بها التّركيب وينشأ بها المزيج توافق نماذج معلومة عند النّاس على درجات، هي ما يسهّل عمليّة الإكمال، يكون ذلك مثلا بإقامة تصوّرات أو استنتاجات لا يفي بها مجرّد الإسقاط فتنشأ معان لا يحملها منطوق الفضاء المزيج.

(ج)- البلورة

تمثّل البلورة مواصلة للتّركيب والإكمال من حيث مثّلت مضيّا في تطوير المزيج تصوّرا وتخيّلا وتوسيعا. وهي بذلك تكشف عمّا يمكن أن يقود إليه المزيج من إنشاء معان جديدة لا تتوفّر في الفضاءين الدّخلين بل لا أثر لها فيهما.

ولئن كانت جميع الأبنية المزجيّة خاضعة للمبادئ والعمليّات المعروضة قبل هذا فإنّها متفاوتة في الجودة، وذلك في ضوء ما يسمّيه فوكونياي وترنر (1998: 162-163) مبادئ الأفضليّة[458] وهي الإدماج[459] وثبات التّعالق[460] وشدّة الاتّصال[461] وقابليّة التّفكيك[462] والتّبرير[463]:

(أ)-الإدماج

يجب أن يكون المزيج مندمج العناصر بوجه يكون له وحدة متكاملة تعالج معالجة كلّيّة.

(ب)- ثبات التّعالق

يكون لكلّ عنصر في الفضاء المزيج نفس العلاقات الّتي لنظيره من العناصر المكوّنة للفضاء الدّخل.

---

458 Optimality principles
459 integration
460 topology
461 web
462 unpacking
463 Good Reason

(ج)- شدّة الاتّصال

من الأفضل الحفاظ على الاتّصال مابين الفضاء المزيج وكلّ من الفضاءين الدّخلين، بوجه يسهل به الاهتداء إلى التّناسب بين المضامين في كليهما وذلك مباشرة ودون جهد إضافيّ ولا استدلال.

(د)- قابليّة التّفكيك

يتضمّن المزيج ما به يمكن أن يعاد بناء الفضاءين الدّخلين أحدهما أو كليهما وما بينهما من إسقاط والفضاء الجامع كذلك وشبكة العلاقات الرّابطة بينها جميعا، كلّ ذلك انطلاقا من المزيج ليس غير. وبعبارة أبسط يتضمّن المزيج ما به يمكن تفكيكه وتحليله إلى مكوّناته بعلاقاتها الّتي ورثها من كلّ من الفضاءين الدّخلين وما لم يرثها.

(هـ)- التّبرير

يكون لكلّ عنصر يتضمّنه الفضاء المزيج سبب أو مبرّر لوجوده بل يكون له معنى أو غاية أو سبيل به يكون تعليل وجوده فيه بوجه من الوجوه، ويمكن تلخيص ذلك في الإفادة[464] في مستويين من حيث تعلّقه بسائر العناصر الواردة في الأفضية الدّخل ومن حيث وظيفته في اشتغال الفضاء المزيج واستقامته.

ومن المظاهر المهمّة والمعقّدة كذلك في عمليّة المزج – على ما يرى تورنر (2000)- ما يكون فيها من تكثيف للعلاقات الأساسيّة[465] الّتي تعمّ جميع الأفضية بما فيها الأفضية الدّخل ومن تحويل لها. تتضمّن العلاقات الأساسيّة الزّمان والمكان والقياس والقصديّة والتّماثل وتطابق الهويّة وما إلى ذلك من المقولات العابرة للأفضية[466] الذّهنيّة والمنظّمة لها. فالفضاءان

[464] relevance
[465] vital relation(s)
[466] extra-spatial

التخللن تعمّهما علاقات عابرة للأفضية تتحوّل إلى علاقات داخل الفضاء[467] المزيج، وإذ تندمج هذه العلاقات بفعل المزج في الفضاء المزيج تجري عليها عمليّات تكثيف[468] وتحويل[469] في آن. يكون التّكثيف فيها بأن يعود المتفرّق لمختلف المتعدّد المتكرّر من العلاقات إلى علاقة واحدة.

حركة الجارحة المزجيّة: السّباب نموذجا

نماذج المزج في حركة الجوارح كثيرة منها حركة اليد تصوّر عمل رمي الكرة (انظر على سبيل المثال: بارلّ وسويتسر[470] 2004). ومنها ما يجري في حياتنا اليوميّة في تونس، دون أن يستوقف وعينا؛ فهو عمل مزجيّ نأتيه عفويّا أو دون شعور وتفكير. من ذلك ما نشاهده كلّ يوم في تونس العاصمة حيث تكتظّ الطّريق ويتشنّج النّاس في سيّاراتهم أو عرباتهم فيكون السّباب بينهم أنواعا منه الشّفويّ الكلاميّ، ومنه ما يكون بحركة الجوارح ولا كلام، ومنه ما يكون عضليّا فيسكت اللّسان وتنشغل الجوارح باللّطم والمصارعة (!).

فنماذج السّباب والشّتم الحادثة بحركة الجوارح كثيرة في هذه الحال، ومن الإشارات المتبادلة الرّائجة في قيادة العربات وعند الخطأ أن يشير الواحد بيديه معا مضمومة الأصابع طوليّا والإبهام مطبق فيهما بأن يجعلهما على مقدّم رأسه محرّكا إيّاهما في حركة جيئة وذهاب تتكرّر مرّتين أو ثلاثا، وقد يكتفي بعضهم بيد واحدة يشير بها بنفس الطّريقة. والمعنى الحاصل منها "أنت حمار." بمعنى "أنت غبيّ" أو "أنت لا تحسن القيادة".

فبناء المعنى في حركة الجارحة هنا وتأويله حركيّ آن– قوليّ أساسه الاستدلال بالرّبط بين أفضية ذهنيّة متعدّدة في عمليّات مزجيّة متراكبة

---

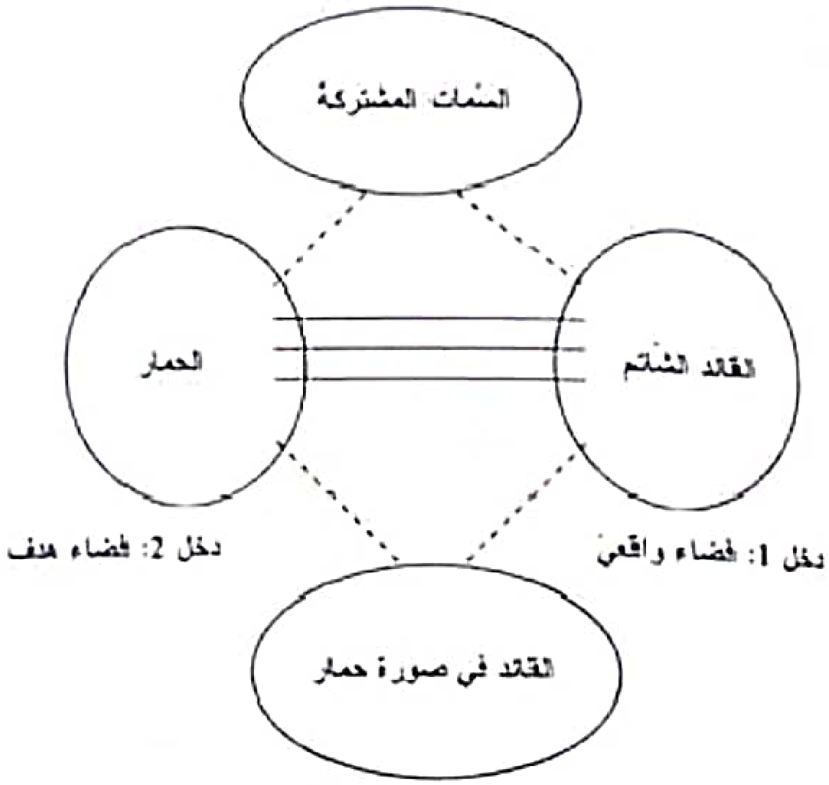
467 intra-spatial
468 compression
469 transformation
470 Parrill & Sweetser 2004

متداخلة متزامنة: موقع اليدين على مقدّم الرّأس يحيل إلى موقع شيء في الرّأس مطلقا. واستطالة الكفّين مضمومتين تحيل على شكل الأذنين الطّويلتين وهذا من خصائص الحمير. وحركة اليدين تدقّقان نوعا مخصوصا من الآذان هو آذان الحمير في حركتهما المعهودة المعلومة سمة من السّمات الطّرازيّة الممثّلة للحمير.

فالإشارة في ذاتها مركّزة على ما يحيل على صورة للأذنين الطّويلتين وفي ذلك تشتغل العلاقات المجازيّة حيث يؤخذ من فضاء الحيوان (أذن الحمار) ليستحضر الحيوان بكامله جسدا و"عقلا"، وهو في ثقافة تنعته بالبلاهة - والحال أنّه لا ينطبق عليه ذلك- وقد لا يفهمها من لا ينتمي إلى ثقافة معيّنة.

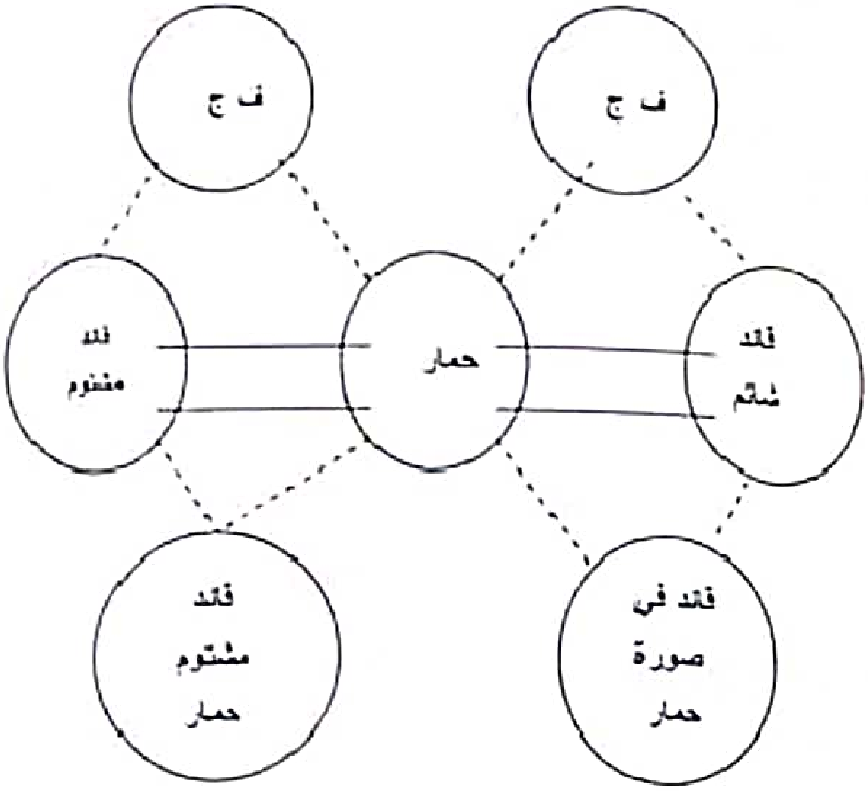
فيكون المزج ذا موردين هما فضاء السّياقة (قائد، عربة، إلخ) ومنه يؤخذ فضاء الرّأس بأذنيه، فهذا فضاء دخل أوّل، وفضاء الحيوان فيه تستحضر خطاطة الحمار من حيث أذناه شكلا وحركة وموقعا، وكلا الفضاءين يجتمع في فضاء جامع يتضمّن خصائص الثّدييّات من قبيل وجود الأذنين على الرّأس، والحاصل من المزج في الفضاء المزيج "الشّخص المعنيّ حمار" بمعنى "غبيّ" أي "لا يحسن قيادة العربة".

ولكنّ المهمّ أنّ المشير- أي محدث حركة الجارحة- وهو جسد حاضر في مقام ما – هو مقام قيادة السّيّارة- قد استحضر في ذهنه صورة طرازيّة للحمار من فضاء ذهنيّ دخل أوّل، وتجسّدها بمعنى لبسها عن طريق عمل الجارحة، من حيث جعل يديه على رأسه وأعطاهما الشّكل المعلوم، فقد جعل نفسه حمارا، وهذا فضاء دخل ثان. فيكون على هذا الشّخصُ المشير حمارا في الصّورة:



الفضاء المزيج (أ)

وإذ يكون المزيج قد تبلور في هذه الحال يكون المشير وقد تقمّص صورة الحمار فضاء دخلا هو مورد لمزيج آخر يكون المعنى الحاصل منه عند رائيه أنّ المشيرَ يشتمه بكونه حمارا أي غبيّا لا يحسن قيادة العربة. فالمزج بين فضاءين حدث في ذهن الشّاتم أوّلا: مزج بين فضاء الحمار وفضاء الشّاتم وعن طريق الانعكاس بتوسّط النّورون المرآة (انظر الفقرة المخصّصة لذلك من الفصل الأول في الباب الأول)، ينشأ مزيج بين جسد الشّاتم وجسد المشتوم فيندمجان في واحد، هو فضاء "قائد السّيّارة الغبي"، فيكون في المزيج معنى لا يتوفّر في جميع الأفضية الدّخل بما فيها تلك الواردة في المزج الأول والواردة في المزج الثّاني:



الفضاء المزيج (ب) الفضاء المزيج (أ)

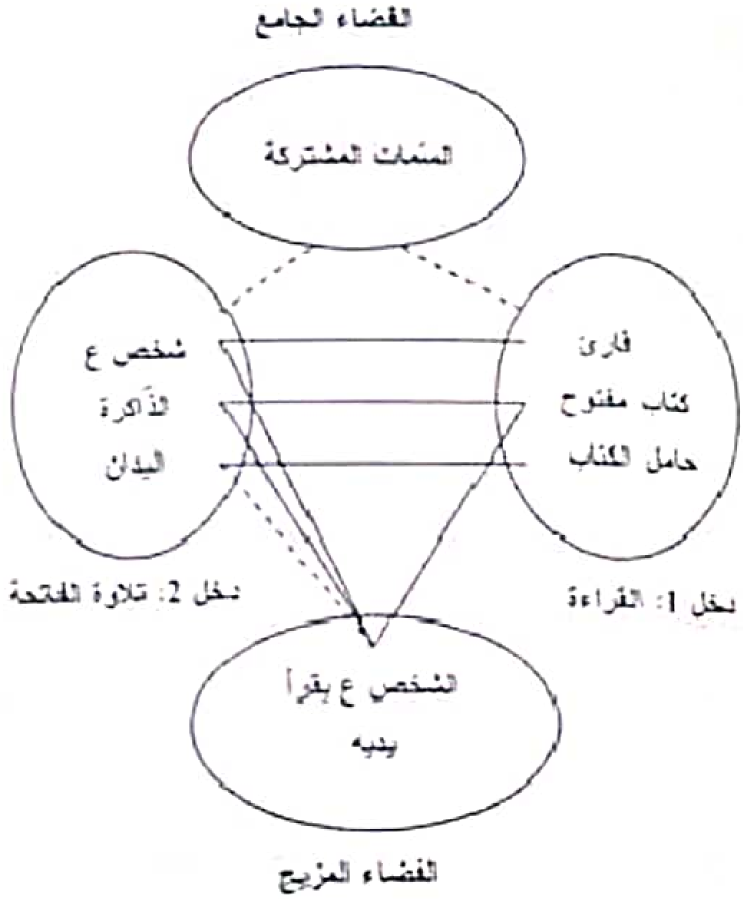
حركة الجارحة مزجا مجسدنا: تلاوة الفاتحة نموذجا

من حركات الجارحة ما يكون فيه المزج قائما على هيأة متكاملة لأعضاء الجوارح وللجسد كاملا يكون منها صورة موحية بعمل من الأعمال المركّبة. وذاك ما يطلق عليه المزج المجسدن. ولننطلق من هيأة معلومة عند الجميع في الكثير من الثّقافات ولكنّها متداولة بوجه مخصوص في ثقافتنا العربيّة الإسلاميّة، هي تلاوة الفاتحة. ومنها أنماط عديدة:

تلاوة الفاتحة تكون لفظا منطوقا مسموعا يصاحب جميع ذلك هيأة للكفّين مفتوحتين نصف الانفتاح تقابل فيه اليمنى اليسرى على شاكلة كتاب. فتكون الواحدة منهما دفّة من دفّتيه واقتراب أسفل الرّاحة منهما دليل على موطن الجمع بينهما في تسفير الكتاب وأعلاهما دليل على حدود الأوراق موزّعتين نوعا من التّوزيع ينقسم بمقتضاه الكتاب نصفين، ويكون تبعا لذلك سمك الكفّ الواحدة ممثّلا لحزمة الأوراق. ولا يهمّ إن كان النّظر موجّها

إليهما أو لم يكن، فمن النّاس من يفعل ذلك ومنهم من لا يفعل، وهم في جميع الأحوال يستحضرون نصّ الفاتحة من الذّاكرة، ولكنّهم يقرؤون من كتاب وهميّ تمثّله الرّاحتان، فيكون بذلك قد تجسّد الكتاب في اليدين فحالتا كتابا مادّته جارحة. فالجسد في هذه الحال قارئ من ذهنه ومن بعضه فهو في النّهاية يقرأ نفسه بنفسه ومن نفسه.

فالمزج، في هذه الحالة الجسديّة، جرى بين فضاءين دخليين أي هيأتين: أولاهما هيأة من يقرأ، جالسا، من كتاب وأمامه الكتاب، وهما في المنطلق هيأتان منفصلتان متباعدتان في الفضاء وفي التّصوّر: فالقارئ شخص جالس ينظر في شيء هو الكتاب، والكتاب شيء حقيقيّ مادّي مفتوح مستقرّ على حامل للكتاب المعلوم الّذي يعتمد في هيأة الجلوس المتوارثة من مجتمع يتلو القرآن جلوسا ويستعين القارئ بذلك الحامل الخشبيّ. ولذلك نرى في الأسواق أصنافا منها بل منها ما يعرضها صحبة الكتاب عموما، والمصحف خصوصا. وثانيتهما هيأة شخص معيّن يتلو الفاتحة من ذاكرته وليس معه كتاب مادّيّ، ولكنّه يستعيض بيديه يعوّض بهما ذلك الغياب. فيكون الحاصل في الفضاء الذّهنيّ المزيج: شخص قارئ في كتاب ولكنّهما متلاحمان، ولكنّ المزج حافظ على مسافة ما بين العين القارئة من صاحبها والكتاب ممثّلا في اليدين، هي المسافة الطّبيعيّة الحتميّة الّتي يفرضها الانفصال بين العين، وموقعها في الرّأس، واليدين، وموقعهما من الذّراعين في مستوى دون ذلك الموقع من الجسد الطّبيعيّ. تمثيل ذلك في ما يلي:



ومن نماذج المزج المجسدن بتوسّط الجوارح الكثير والكثير في الحياة اليوميّة العاديّة البسيطة. أوْ ليس المزج آليّة عرفنيّة طبيعيّة غير واعية تحكم جميع تصرّفاتنا؟ فمنها الإشارة إلى عمليّة المهاتفة الّتي تكون بمحاكاة اليد الممسكة بالهاتف (سمّاعة الهاتف القديم، الهاتف الجوّال بأكمله) تلاصق الأذن اليمنى في الأغلب، أو بقبضة اليد مضمومة تلاصق الأذن. ومن النّماذج في المزج المجسدن أن يحاكي الشّخص هيأة عازف على آلة موسيقيّة مثلا، ولتكن العود أو الكمان أو البيانو أو ما إلى ذلك. فالمزج هنا مركّب. واستقصاء سائر النّماذج بسيطها ومركّبها في حاجة إلى دراسة تقوم برأسها.

خاتمة

لعلّ من أبرز ما ثبت في هذا الفصل كون الإشارة ملازمة للّغة من حيث تكملها وتؤكدها بأن تيسّر عمل الذهن وتوفر له موارد رمزيّة مكمّلة، ومن حيث تعوّضها. وهذا كاف ليثبت به كون الإشارة بعدا تواصليّا ملازما للإنسان. هو ذاك في مستوى الفرد، وهو كذلك في التّفاعل الاجتماعيّ وفي تمثيل المفاهيم وتصويرها فرديّا و/أو جماعيّا، في آن، من حيث مثّلت موردا رمزيّا جسديّا في صوغ المضامين الذّهنيّة بطريقة إشاريّة بصريّة يكون المدلول فيها متجسّدا في الحركة ذاتها وليس شيئا آخر منفصلا عنها، يكون ذلك في مستوى الإشارة الكائنة من الجارحة المفردة أو المتعدّدة على أساس التّناسق والانسجام يستوي لهما الجسد كاملا حاملا إشاريّا حركيّا دالاّ على المعنى.

ومن الحقائق الّتي يمكن تقريرها بعد هذا، أنّ حركة الجوارح تحدث تقريبا جميع المعاني في المطلق، وجميع القيم الّتي تتأسّس عليها الأعمال اللّغويّة بفروعها المعلومة في الدّرس اللّغويّ. فحركات الجوارح في النّهاية جزء من حياتنا الّتي نعيش وبها نعيش، ومنها ما يجري في حياتنا اليوميّة دون أن يستوقف وعينا وفيه من الآليّات العرفنيّة ما يشتغل من خلف ستار الوعي ولكنّه عند التّأمّل كاشف عن آليّات عرفنيّة تشتغل على نمط واحد مهما كان المورد الرّمزيّ المعتمد في صوغها. وما تنوّع الحركات الاستعاريّة في التّعبير عن نفس المفاهيم أو عن المفاهيم المتقاربة بتنوّع الثّقافات إلاّ مظهر من مظاهر ارتباطها بمناويل عرفنيّة ثقافيّة يستمدّها الكائن من محيطه ومن تجربته ومن موروثه كائنا عابرا للتّاريخ.

الفصل الثالث

الجسد حاملا أيقونيّا

مقدّمة

إذا ما أمكننا أن نعتبر الجسد بما يأتي من حركات بجوارحه أداة من أدوات التّواصل الملازمة للذّات، لا يحتاج فيها إلى تعلّم ولا إلى اكتساب، بمعنى إنّ الذّات لا تستحضرها من موضع آخر بعيد أو منفصل عنها، فلا يمكن أن نغفل ما به يكون الجسد نفسه في كلّيّته حاملا تواصليّا سلبيّا - إن صحّت العبارة. فيكون الجسد على هذا محرّكا تواصليّا فاعلا بما يأتي من الحركات بالجارحة من حيث يصدرها إراديّا أو عفويّا حسب ما يكون لتلك الإشارات من درجة تواضعيّة ثقافيّة، ويكون كذلك حاملا تواصليّا سلبيّا بما يحمل من العلامات والرّسوم تُرى فتؤوّل فتفهم؛ وجميع ذلك في إطار ثقافيّ اجتماعيّ أساسه المواضعة صريحة كانت أو ضمنيّة صامتة. ولذلك تكون العناية في هذا الفصل بما يعتمد فيه الجسد حاملا لرمزيّة تصويريّة بصريّة مرئيّة قد تتجاوز المعروف من مفاهيم التّواصل اللّغويّ لتشمل تواصلا اجتماعيّا ثقافيّا واقتصاديّا تجاريّا يتمازج فيه السّلعيّ والجنسيّ والجماليّ والفنّيّ والرّمزيّ والإغرائيّ وما إلى ذلك وفق الثّقافات وقيمها.

أيقونيّة البشرة: الوشم نموذجا

لا عناية لنا في هذا المبحث بالمظهر التّقنيّ في عمل الوشم من حيث العناصر الأوّليّة ولا طريقة إعدادها ومقاديرها، ومن حيث أدوات الوشم وارتباطها في الأغلب ببيئة حامليه وصانعيه، ومن حيث تقنيات الوشم. ويكون التّركيز في بعده الرّمزيّ ليس غير، من حيث يمثّل فيه الجسد حاملا

لرمز ذي مدلول قد يتّصل بالبعد الفرديّ والجماعيّ أو الوجوديّ الكونيّ المطلق، هو ما به يكون الوشم منظومة رمزيّة تجريديّة تُبين عن علاقة الإنسان بالكون بتوسّط الجسد حاملا لذلك الوشم وكائنا مشتغلا في الكون. ولا يعني هذا أنّ المظاهر المطروحة من عنايتنا غير ذات بعد رمزيّ، فمن الثّابت أنّها كذلك إذ يجري تعليل اتّخاذ الأصباغ في الوشم من مادّة نباتيّة أو غيرها، بما لها في ذاتها من رمزيّة هي في الأغلب ثقافيّة إثنيّة على درجات مختلفة من الشّيوع بين المجتمعات وفق تقاربها على الوجوه المعلومة. فالوشم وما شابهه من خضاب (حنّاء، كحل، وما إليها) مرتبط في الكثير من المجتمعات بطقوس العبور[471]: الولادة، البلوغ، الحمل، الزّواج، الوضع أو الإنجاب، الموت، إلخ. والوشم في جميع ذلك تحصين رمزيّ للجسد بتكوين ترس أو درع حسّيّ رمزيّ يقي من الأرواح الشّريرة -على اختلاف مسمّياتها (الجنّ، العين، إلخ)- ومن الأمراض ومن الحسد.

يجري تقسيم طقس العبور، في الدّراسات الأنتربولوجيّة، إلى ثلاثة أطوار جريا على ما سنّه فان غنّاب[472]، إذ يقول في كتابه "طقوس العبور" (1909)، في ترجمته الإنجليزيّة (1960، 2004: 21):

> "أقترح أن نسمّي طقوس الانفصال عن عالم سابق، الطّقوس التّمهيديّة، وتلك الطّقوس الّتي تؤدّى خلال الطّور الانتقاليّ الطّقوسَ العتبيّة (أو الحدّيّة) ومراسمَ الاندماج في العالم الجديد طقوسا ختاميّة".

فأوّلها طور الانفصال[473] ويشتمل على طقوس رمزيّة تمهيديّة[474] بها يفارق الفرد (أو القوم) ما كان فيه من موقع اجتماعيّ، عمريّ أو مكانيّ ليحلّ في موقع جديد، وبعبارة أخرى يفارق الفرد ذاتا له كان فيها أو عليها

---

[471] rite(s) of passage, rite(s) de passage
[472] van Gennep (1873-1957), 2004
[473] separation
[474] preliminal rite(s)

ليحلّ في ذات جديدة أخرى. وثانيها طور الانتقال[475] ويشتمل على الطقوس العتبيّة أو الحدوديّة[476] وتمثّل حالة بين حالتين سابقة يكون الانتقال منها ولاحقة يكون الانتقال إليها، فتكون الذات قد فارقت تلك ولمّا تبلغ هذه. وثالثها طور الاندماج[477] ويشتمل على الطقوس المابعديّة[478] أي تلك التي بها يكون الانضمام أو الاندماج في الوضع الجديد وبها يكتمل العبور بحلول الذات في هويّتها الجديدة أو موقعها الجديد.

وكذا بعض القبائل والمجموعات تعتمد الوشم في طقس العبور من الطفولة إلى الشباب أو البلوغ رمزا على اكتمال القدرة عند الفرد رجلا كان أو امرأة. فمن لا يمرّ من الصبيان بتجربة الألم لا يعرف الألم فلا يكتسب القدرة على تحمله فلا يكون محاربا صلبا جلدا، وكذا من لا تعرف ذلك من الفتيات لا تكون أمّا قادرة على تحمّل الألم عند الحمل وعند الإنجاب.

الوشم في شمال إفريقيا

من غايات الوشم، طرد الأرواح الشرّيرة ودرء الأمراض ووقاية الأطفال كذلك من العين والحسد وتيسير المخاض وتكثير الإنجاب بزيادة الخصوبة؛ وحفظ الصغار وضمان حياتهم. وهو نوع من التعويذة الواقية من الجنّ. وتثبت بعض الدراسات أنّ موضع الوشم، عند البربر، يكون قريبا من الفتحات المختلفة الكائنة في الجسد (الفم، الأنف، إلخ) أو على كلّ ما يُعتقد أنه عرضة لأثر من قوى الشرّ. وكانت الفتاة، في بلاد الرّيف (المغرب) في سنوات 1920، إذا تهيّأت للزّواج وتمّ كلّ شيء توشم، والموشّمات نساء من ذوات التجربة مختصّات في ذلك الفنّ. ويمثّل الوشم عند الفتاة وهي تتهيّأ للزواج أمارة من أمارات مفارقة الطفولة لولوج حياة المرأة بما يكون لها من

[475] transitional stage
[476] liminal rite(s)/ threshold rite(s)
[477] incorporation rite(s)
[478] postliminal rite(s)

دخول دورة جديدة وطور اجتماعيّ جديد بحكم منزلة تكون لها بالزّواج في حياتها الجنسيّة وفي حياتها الأسريّة.

ومن الرّسْمات[479] في الوشم ما يكون مستمدّا من البيئة المحيطة أو ضاربا في أعماق العقائد القديمة، من قبيل أشكال الوشم على الوجه الجاري عند بربر تونس، ومنها رسمة النّخل في شكل سيالة رمزا للخصب، ومن الباحثين (كروتاك[480] 2010) من يعود بهذه الرّسمة إلى تانيت الآلهة القرطاجنيّة لشبه بين النّخل ورمز التّانيت (الرّسم (1)):

(1)- وشم بربريّ تونسيّ (نقلا عن: كروتاك (2010))



ولئن كان الوشم من خصائص النّساء عملا وحملا للزّينة أو لغيرها من الأغراض فقد يحمله الرّجل أثرا من آثار الصّبا. وإن كان على ندرة. ويرتبط ذلك بما يكون من مصير لإخوته قبله من حيث وفاتهم أو موتهم، ولذلك يعمد الأهل إلى وشم علامة على وجه الصبيّ الجديد حماية له من العين والحسد وتحصينا له من الجنّ البغيض وضمانا لبقائه على قيد الحياة.

[479] motif(s)
[480] Krutak 2010

ومن الرّسمات الجارية في الوشم: رسمة الصّليب أو القاطع والمقطوع. ويبدو أنّ رسمة الصّليب سابقة على العهود المسيحيّة في شمال إفريقيا، بل هي متوفّرة في بعض الأصقاع المتباعدة في العالم مكانا وزمانا، فهي حاضرة في شمال إفريقيا وفي البنجاب من الهند وفي النّقوش الفرعونيّة القديمة وفي بعض المواضع الأخرى وإن تبدّلت أدوارها من مجرّد أداة للزينة إلى أداة للعلاج. ومن تأويلاتها أنّ علامة الصّليب بما فيها من الاتّجاهات الأربعة وسيلة رمزيّة سحريّة في تفريق طاقة العين الضّارّة في جميع الجهات أو الاتّجاهات الّتي تأخذها الرّياح درءا لضررها على ما تنظر إليه (حامل الوشم).

ومنها الخمسة (اليد البشريّة) حيث تمثّل اليد بأصابعها الخمسة رمزا للعمل البشريّ ولقدرته على الخلق والابتكار والإنتاج ولسيطرته على الكون وعلى الأشياء. هي رمز يشير إلى يد فاطمة الزّهراء حامية حاملها، عند المسلمين، في بعض المواطن والجهات. ويتوفّر شكل الخمسة في الوشم وفي قطع المصوغ من الذّهب ومن الفضّة ومن سائرها. وتأخذ أشكالا عديدة فهي مفتوحة الأصابع أو مجتمعتها. وترسم على الجسد وعلى الجدران في مداخل البيوت وغيرها، وعلى ما كان عزيزا من الآلات والأدوات.

الوشم في المجتمعات غير القارنة

يجري الوشم في المجتمعات غير القارنة علامة مميّزة على انتماء حامله إلى القوم أو إلى المجموعة في الحياة وفي ما بعد الموت. ومن القبائل ما يحمل وشما عند المرأة مثلا أو الرّجل حتّى يهتدي إليها أو إليه في حياة ما بعد الدّنيا ولا يهيم كلاهما في المطلق الأزليّ.

واستُعمل الوشم، في حوض البحر الأبيض المتوسّط، علامة على تمييز العبد من الحرّ، وعلى تمييز المساجين والمجرمين من غيرهم. ويبدو أنّ ذلك أخذ في الانتشار أواسط القرن الثّالث. وكان العبد الموشوم عند اليونان وروما لا يستطيع أن يصير مواطنا أبدا، حتّى إذا ما كان قادرا على شراء حرّيّته. ولعلّ من آثار ذلك أن يتّخذ الوشم رمزا تشريفيّا عند القراصنة وعند المجرمين وما إلى ذلك. ومن ذلك أنّ الخلافة العثمانيّة كانت توشم جنودها في البوسنة حتّى لا يفرّ الواحد منهم إن أراد ذلك ويكون الاهتداء إليه يسيرا سهلا.

وقد اتّخذ الوشم دليلا على منزلة اجتماعيّة من حيث الانتماء أو من حيث المنزلة: رئيس القوم أو القبيلة ذو وشم مخصوص مختلف عن وشم الفرد العاديّ وما إلى ذلك (قبائل الأينو[481] اليابانيّة حيث تتميّز النّساء بحمل الوشم دون الرّجال، والمشترك بين النّساء وشم يحيط بالشّفتين العليا والسّفلى ثمّ يذهب مستدقّا في اتّجاه الخدّين (تقريبا على شكل الشّوارب المعروفة)، ويمكن أن يغمر الوشم برسومات متنوّعة متميّزة مميّزة كامل الجسد وخاصّة الذّراعين منه، وفي جميع ذلك تتميّز النّساء من طبقة الموسرين والشّرفاء بكثافة الوشم وتوزّعه على الكثير من مواطن الجسد، الذّراعين وما إليهما، مقارنة بنساء الفقراء أو من هم دونهم في المرتبة الاجتماعيّة (مونرو[482] 1963).

ومن المعتقدات المنتشرة أنّ الوشم حام لحامله من هجوم الحيوان الموشوم، فتكون صورة الحيوان الموشوم على الجسد رمزا يحمي حامله من أن يتعرّض للهجوم من ذلك الحيوان. ويعتبر كذلك الوشم بما يسبّبه من سيلان الدّم وخروجه، تحريرا للأرواح بأنواعها (الشّرّيرة والصّالحة) تفارق

---

[481] Ainu tribe(s)
[482] Munro 1963

الجسم، ولذلك (كان) يُعتقد أنّ له قدرة على المداواة وتخفيف الألم، فيجعل في مواضع الألم من الجسد.

ويمثّل الوشم رسما لقصّة الحياة في بعض القبائل البدائيّة في تاهيتي، وعند قبائل الماووري[483] (في زيلندا الجديدة)، ويعرف هذا النّوع باسم "موكو"[484]، حيث يرسم الوشم وفق عدد من الرّموز والتّوليفات في شكل شفرة مقروءة عند أهل القبيلة منزلة حامل الوشم الاجتماعيّة وانتماءه الأسريّ بداية من الأصل القبليّ الكبير وانتهاء بانتمائه إلى فرع من فروعها أو عائلة من عائلاتها، بل وقصّة بطولاته وإنجازاته وكذلك قابليّته للزّواج وما إلى ذلك. ويغمر وشم الموكو كامل صفحة الوجه، عند الرّجال، فإذا كان الرّجل محاربا أرهب عدوّه وأعجبت به النّساء وكان هو به فخورا. فالوشم "بطاقة هويّة" فرديّة لا يصحّ تقليدها أو انتحالها، هو بطاقة هويّة للفرد في مجموعته. وهو في العموم بطاقة الهويّة الّتي يتميّز بها ذلك الشّعب في العالم. ولعلّ في انتشار هذا الفنّ في العالم، عند الوشّامين المحترفين في بلاد الغرب خاصّة، بتقليد رسمات هذا الوشم، سرقةً لهويّة الماووري.

الوشم حجابا

يمثّل الوشم حجابا للمرأة الرّيفيّة في اليمن، فقد أجرت هان شونيغ، دراسة أنتروبولوجيّة ميدانيّة في بلاد اليمن (الجسد وطقوس العبور عند نساء اليمن)[485]، كانت لها العناية بالوشم والخضاب (الحنّاء) والصّبر (الصّبغ) في المجتمع اليمنيّ بفرعيه الكبيرين: الرّيفيّ والحضريّ. ومن النّتائج المهمّة في ذلك أنّ الوشم وما سايره من الوسم طقس عبور تفارق به الفتاة طور الطّفولة لتدخل طور المرأة؛ وأنّ الوشم في الرّيف تغطية للجسد، جسد الفتاة وقد

[483] Maori
[484] moko
[485] Schönig 2006

فارقت طفولتها فهي قادرة على الإنجاب، تماما مثل الحجاب القماشيّ أو النّقاب عند أهل الحضر. فالحجاب لا يُنزع أبدا إذا ما وُضع وكذلك للوشم أثر لا يمّحي إذا ما رُسم، وكلاهما أمارة على عبور من طور إلى آخر ليس بعده عود (هانْ شونيغ 2006: 174).

أيقونيّة اللباس: الشّعارات في المظاهرات نموذجا

من المظاهر الّتي يوظّف فيها الجسد من حيث هو حامل فيزيائيّ مادّيّ ما يكون في عروض الأزياء والمسارح والمهرجانات والكرنفالات وبرامج الأطفال وما إليها. من ذلك أنّ الجسد يجسّم بما يلبس من الأقنعة بأنواعها تمساحا أو تنّينا أو شيطانا ماردا أو ملاكا أو دينصورا. وهذا أمر متّسع ولذلك نركّز العناية في هذه الفقرة في توظيف الجسد في بعده المذكور للتّعبير عن مواقف إيديولوجيّة في المظاهرات أو التّجمّعات السّياسيّة وما إليها كالتّظاهرات الثّقافيّة أو الحزبيّة والنّقابيّة خلال اعتمال الثّورة التّونسيّة. فقد لفتت انتباهنا ظاهرة المزج في المسيرات بين المنطوق والمكتوب وبين المسموع والمرئيّ. فمن الشّعارات ما تطلقه الحناجر صوتا وتحمله اللاّفتات كتابة، ومنها ما يُكتب على الذّراع أو على صفحة الوجه. ومنها ما يكون قماشا يحمل رمز الرّاية (العلَم) يرتديه الجسد يتدثّر به.

الشّعارات المجسدنة

تكون العناية في هذه الفقرة بأعضاء الجسد حوامل للشّعارات وبأبعاد ذلك الرّمزيّة والعرفنيّة، هو ما نطلق عليه الشّعارات المجسدنة[486]. فالجسد - وقد عاد مفهوما عاملا في المنزع التّجريبيّ بعد أن غاب في المنزع الموضوعيّ- يمثّل أساسا لاعتبار النّظام المفهوميّ (التّصوّريّ)[487] وتمثيل

---

[486] embodied slogan(s)
[487] conceptual system

المفاهيم (التّصوّرات)[488] محكومين بطبيعة الجسد عند البشر من حيث تكوينه وتمثّله وتفاعله مع محيطه الاجتماعيّ الثّقافيّ والمادّيّ الفيزيائيّ. وهذا ما تقوم عليه نظريّة الجسدنة[489] أو نظريّة العرفنة المجسدنة[490]، في العرفنة عامّة وفي اللّسانيّات العرفنيّة خاصّة (لايكوف 1987، جونسون 1987)[491]. فالذّهن المعرفن يعيش في جسد مادّيّ (فاركلاف 1995)[492].

ومن يشهد المسيرات أو يتأمّل صورا منها يلاحظ أنّ الذّراع أو السّاعد يجري حاملا بصريّا للشّعارات من قبيل: [أعتقني] (الصّورة (أ)[493] من (2))، والوجه حاملا لعلم تونس مرسوما مطليّا عليه، مجسّدا لشعار مكتوب مصوغ بالفرنسيّة نصّه: [*Mon drapeau, c'est ma peau*] وترجمته العربيّة: ['علمي بشرتي.']، كما يتجلّى مجسدنا في الصّورة (ب) من (2)، حيث يحول العلم من صورة مثبتة على القماش أو غيره مرفوعة أو محمولة منفصلة عن الجسد إلى سمة أو قسمة من قسمات الوجه تكوّن هويّة الفرد، والوجه كما هو معلوم مدخل الشّخصيّة وقوامها.

ويكون الجسد بأكمله ملفوفا في قماش يحمل الشّعار أو راية البلاد (علم تونس) في هيأة لباس يكتنف بعض الأعضاء من قبيل الرّأس أو الصّدر أو المعصم؛ يضمّها ويزينها، أو يكتنف الجسد كاملا يلفّه ويزيّنه، فيستوي الجسد كاملا حاملا أيقونيّا متحرّكا تختفي أبعاده المادّيّة لتحلّ الأبعاد الرّمزيّة مضمون الشّعار محلّها (الصّورة (أ) من (3)). ومن اللّباس ما يكون مشحونا بطبيعة مادّته وخصائصه بالدّلالة على مضمون رمزيّ، إذ يعمد بعض النّاس إلى ارتداء كيس بلاستيكيّ أسود إيحاء بصورة "النّقاب" بجامع السّواد

---

[488] conceptual representation
[489] embodiment
[490] embodied cognition
[491] Lakoff 1987; Johnson 1987
[492] Fairclough, 1995
[493] Photo de Emir Ben Ayed

(الصّورة (ب) من (3))، حيث تُغمَر تضاريس الهويّة الفرديّة يكتنفها الغطاء دليلا على محوها بلباس من هذا القبيل.

(2)

(ب) "علمي بشرتي" — (أ) "اعتقي"



(3)

(ب) — (أ)



ايقونيّة الجسد: الجسد منحوتا ثقافيّا

تنحت الثّقافة الجسد فتتجلّى من خلاله مادّة وسلوكا، ويكون نتاجا لها على مستوياته المختلفة، فهي تنحته في كماله وتنحته في أبعاضه، وتنحته في وظائفه البيولوجيّة والاجتماعية وتنحته في أبعاده الرّمزيّة بالاستتباع. فتتعدّد أنماط الجسد بتعدّد الثّقافات في تصوّره مادّة خالصة أو حاملة للرّمز، وتتعدّد

تبعا لذلك أنماط تصويره رسما ونحتا وخطّا وقولية وفي جميعها نوع من الإشهار وإن لم يكن بالمفهوم الحديث. فمن المعلوم عن مختلف الثّقافات أنّ أهلها يطوّعون بعض الأعضاء من الجسد لتوافق مخطّطا يعتبر صنو الجمال أو دليلا على الانتماء الاجتماعيّ، من ذلك ما يعرف عن الفراعنة من ربط الجمجمة في الأطوار الأولى من العمر لتشكيلها على الهيأة المعلومة في تماثيلهم وتصاويرهم، وعن الصّينيّين من ربط للقدم عند المرأة يتقلّص به شكلها فيدقّ، وكذا النّساء الزّرافات وما إلى ذلك، ومنه ما كان متداولا في المجتمعات (التّونسيّ على الأقلّ) من قماطة الرّضيع ولفّ جسمه لفّا كاملا بأربطة قماشيّة يُعتقد أنّها معينة إيّاه على النّموّ مستقيما وهو الأساس في اتّخاذ هيأة الانتصاب، ويبدو أنّها اندثرت بفعل التّعلّم وتبدّل أنماط العيش.

ويوافق ذلك ما نعرفه اليوم من جراحةُ التّجميل وما إليها حيث ينحت الجسد نحتا بالجراحة الطّبّيّة لغايات جماليّة، وهو معلوم. وهذه عادة ضاربة في أعماق التّاريخ وإن لغايات عمليّة. فقد أورد الجاحظ: "قال أبو الحسن المدائنيّ: وسألت مباركا الزّنجيّ الفاشكار، ولا أعلم زنجيّا بلغ في الفشكرة مبلغه، فقلت: لمَ تنزع الزّنج ثناياها؟ ولمَ يحدّد ناس منهم أسنانهم؟ فقال: أمّا أصحاب التّحديد فللقتال والنّهش، ولأنّهم يأكلون لحوم النّاس، ومتى حارب ملك ملكا فأخذه أسيرا أو قتيلا أكله، وكذلك إذا قاتل بعضهم بعضا أكل الغالب منهم المغلوب. وأمّا أصحاب القلع فإنّهم قالوا: نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادمُ أفواهنا مقادمَ أفواه الغنم، فكم تظنّهم -أكرمك الله- فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثّنايا" (البيان والتّبيين 1: 60).

ويوافق ذلك مظاهر التّعامل في عصرنا مع الجسد بدانة ونحافة، فيكفي أن تحدّد المواصفات المعلومة في انتخاب ملكة الجمال على مستويات مختلفة محلّيّا وعالميّا، لتنتشر تلك المواصفات فتتبّعها جميع الفتيات وقد حالت نماذج الملكات، ملكات الجمال، مخطّطات في الجمال تحتذى، ويتأكّد جميع

ذلك بعارضات الأزياء بما في عروضهنّ من الإغراء والنّجوميّة.

ويوافق ذلك مظاهر التّعامل مع جسد المرأة وجسد الرّجل، في كلّيته، وللواحد منهما وظائف بعضها بيولوجيّ ولكنّ أغلبها ثقافيّ من حيث تنعكس من خلال عدسة العصر، فجسد المرأة يصوّر - وقد كانت أمّا وآلهة- في العصور القديمة على أنّها مرضع أساسا تغيب منها الملامح وتندثر ما عدا الثّدي وبداية الحزام، دليلا على الخصب وعلى كونها واهبة الحياة، ويصوّر جسد الرّجل - قائدا أو إلاها- في أبهى مظاهر القوّة العضليّة، وهي مظاهر ماثلة في عصرنا في أشكال كثيرة. ولكن تصنعها أدوات أخرى من قبيل السّينما والأشرطة المصوّرة في مخيّلة مرتاديها أو قارئيها.

ويوافق ذلك ما يكون به التّركيز من الجسد على نقطة بعينها أو مكوّن دون آخر، والبشرة هنا والشّعر بعدان طاغيان لونا وشكلا. فالبشرة ممّا يستوجب الحماية للحفاظ على نضارته وممّا يلوّن بالتّعرّض إلى الشّمس ليفارق بياضه ويكتسب سحنة برونزيّة وراءها ما وراءها من الرّسائل البصريّة، بل إنّ لون البؤبؤ يبدّل بالعدسات اللاّصقة ومنه ما يوافق لباسا ترتديه صاحبتها يومها. وكذا الشّعر، وهو تاج المرأة، وقد كان قديما مكمن القوّة عند شمشوم الجبّار، بما يكتنفه من الأشكال والتّصافيف.

وفي جميع ذلك يجري الجسد في الإشهار موضوعا وأداة في كلّ ما يتّصل بسياق الثّورة التّجاريّة، فينتهي به المطاف إلى أن يكون بضاعة تباع وتشترى. ففي إشهار مستلزماته بأنواعها وفي الإشهار بواسطته وفي تجمّله بها يكون الجسد في ذاته بضاعة وما يستهلكه بضاعة. وإذ يكون مستهلك تلك البضاعة فهو يشتريها ليحقّق رواجا اجتماعيّا ثقافيّا بأن يكتسب بها صورة "جميلة" مقبولة قد تكون سبيلا إلى النّجاح بأنواعه، مهنيّا كان أو اجتماعيّا في معناه الواسع. وتنغلق الدّورة بأن ينصهر مفهوم الجسد فيندثر أو يكاد في التّصوّر وفي الوعي. فـ"كلّما كبر عدد أفراد الجمهور كان إهمال

الإنسان (الفرد) أكبر. لكن إذا شعر الإنسان، الّذي يطغى عليه شعوره بالضآلة والعجز، أنّ حياته قد فقدت معناها- وهذا المعنى، بعد كلّ شيء، ليس بالرّفاه العامّ ومستويات المعيشة الرّفيعة- عندئذ يكون في طريقه إلى عبوديّة الدّولة، ويصبح تابعا لها بدون أن يدري ذلك." (يونغ 1996: 20). وعلى هذا، يمكن أن نعتبر إشهار الجسد وتبويئه المنزلة الأولى مرتبة تالية لمرتبة سلب الفرد كلّ ما يمكن أن يعتمد عليه. فالدّولة -كما يقرّر ذلك يونغ (1996: 23 و31)- لكي تجعل من الإنسان (الفرد) وظيفة فيها، يتعيّن عليها أن تسلبه اعتماده على أيّ شيء آخر سواها وأن تحرمه من الأسس الميتافيزيقيّة لوجوده. فالدّولة قد سلبت الفرد جميع ذلك وعوّضته بأسس جسديّة يكون بها موجودا حيث هو وبما هو ليس غير. وقياسا على هذا يمكن أن نعتبر إشهار الجسد- من منظورنا- آليّة اقتصاديّة واجتماعيّة سياسيّة تتحدّد للجسد بها وظيفة أخرى في الدّولة لا تتجاوزه هي وظيفته الجسديّة، فالفرد لا يعول إلاّ على جسده: قوّة عاملة تباع بمقابل ماليّ هو الأجر أو المرتّب، وبضاعة حاملة أو محمولة. فيكون الجسد على هذا عارضا ومعروضا، بائعا ومبيعا، مستهلكا ومستهلكا، في آن، ولعلّ في ذلك سعادته بالمعنى الفلسفيّ.

خاتمة

يتّخذ الجسد في مختلف الثّقافات والعصور حاملا أيقونيا في جميع أبعاده وأبعاضه، يجري ذلك في العموم على ثلاثة مستويات: مستوى المعروض منه مباشرة على العالم الخارجيّ وهو غشاء الجلدة أو البشرة فكان أن اتُّخذت حاملا رمزيا، يمثّل أرضيّة للوشم بأنواعه يتّخذها الجسد درعا واقية من جميع الشّرور في حال يغيب اللّباس، ويتّخذها رمزا على الانتماء في المطلق، عرقيّا كان أو إثنيا أو طبقيا، كما يتّخذها ملخّصا لتجاربه

الماضية تصحبه في خطوط بادية عليه لا ينزعها ولا تنزع منه فهي هويّته، تبقى ببقائه وتهترئ باهترائه ثمّ تتلاشى بتلاشيه. ومستوى اللّباس أو القناع بما يكتنفه من الأقنعة بأنواعها تتجسّد بها الأشياء الّتي ليست إيّاه ولبس إيّاها في المسرح والسّينما، أو تتجسّد فيه ويحلّ فيها كما يجري في المظاهرات والمسيرات وكلّ نشاط ذي بعد رمزيّ. فمستوى بنية الجسد كاملة من حيث تحتها الثّقافة أنواعا من النّحت منها ما يكيّف بعض أعضائه وفق ناموس اجتماعيّ ومنها ما يكيّفها جملة وفق رمز من رموزه المتبدّلة تبدّل الموضات والأذواق والمعايير. وهي درجة تجد لها المنتهى والحدّ في التّشيّؤ وفي تلاشي هويّة الفرد كيانا وتجربة وفكرا فيعامل معاملة الشّيء رقما من جملة أرقام.

خاتمة الباب الرّابع

من ميزات الجسد أنّه ناطق بنواطقه مستقص لطاقات العبارة فيها تستغلّ لجوارحه متفرقة ومجتمعة في التّعبير، بل مستغلّ في جميع ذلك لكلّ ما به كان جسدا. وهو في جميع ذلك مندرج في أشكال مؤسّسيّة من قبيل الاقتصاد والتّجارة فالإشهار وما إليها، منشئ لها فاعلا وخاضع لها منفعلا بها. ولجميع ذلك أمكننا الحديث عن لغة له مخصوصة به، هي لغة الجسد.

فمنها حركة الجارحة ومن خصائصها أن تستعمل الفضاء استعمالا فوريّا مباشرا إذ تجري فيه وتتشكّل وفق معالمه بل يتكيّف تحقّق خطاطاتها وفقه بأبعاده المختلفة، فحركة الجارحة تمثّل نوعا من اللّحمة بين القول وسياقه الواسع، مقاميّا فوريّا كان أو اجتماعيّا أو ثقافيّا إيديولوجيّا. وحركة الجارحة مورد رمزيّ من جملة موارد تتوفّر للعرفنة لصياغة مضامينها بأنواعها. وفي حركات الجارحة الخصوصيّ الثّقافيّ والعامّ المشترك، تتبدّل فيها بتبدّل المجتمعات وتغيّرها، فكلّ مجموعة بشريّة "تتواضع" على حركة بعينها للدّلالة على معنى بعينه، وإذ تختلف المواضعات قد يكون من حركات الجوارح الحسن في ثقافة ولكنّه يعتبر قبحا أو شتما أو سبابا في ثقافة أخرى. وهذا مثار لعدد من القضايا منها كيف تُكتسب مهارة الحركة من الجوارح من حيث كانت سبيلا من سبل التّواصل؟ وكيف يجري التّنسيق أو التّفاعل بينها وبين اللّغة، بوجه يصيران له ملكة واحدة ذات مظهرين متكاملين أو مختلفين (وفق زاوية التّناول).

ثبت المصطلحات

في ما يلي ثبت في أبرز المصطلحات الواردة في البحث بمقابلاتها الأجنبيّة (الفرنسيّة والإنجليزيّة)، مرتّبة وفق المدخل العربيّ:

الإبصار الظّهريّ (نظام)	système visuel dorsal
إثارة مغنطيسيّة عبر الجمجمة	transcranial magnetic stimulation (TMS)
أثر / آثار	trace(s)
إجرائيّة	empiricism
أجسادية	corporéité
أجنوزيا	agnosia
أجنوزيا لغويّة	speech agnosia(s)
احتماليّ	probabilistic (probabiliste)
أخدود صدغيّ علويّ	superior temporal sulcus (STS)
أخدود القمر	lunate sulcus, affenspalte, simian sulcus
إدراك	perception
إدراكيّ	perceptual
إدماج	integration
استجابة	response
استجابة (استجابات) حشويّة حركيّة	visceromotor response(s)
استرجاع	feedback
إسقاط	projection, mapping
إسقاط المحور العصبيّ	projection(s) axonale(s)
إسقاطيّ	projective
إسناد إلى المفعول	passivization
إشارات رمزيّة تواضعيّة	emblem(s)

gesture(s)	إشارة الجوارح
principe d'indexicalité	الإشارية (مبدأ)
canonical neuron	اعتيادي (نورون)
relevance	إفادة
optimality	أفضلية
extraction (site)	اقتلاع (موقع)
completion	إكمال
speech automatism(s)	الآلية (الآليات) كلامية
instruction(s)	أمر، أوامر / تعليمة، تعليمات
motor-evoked potential (MEP)	إمكان حركي مثار
speech production	إنتاج الكلام
anthropoidea	أنثروبويدي
selective	انتقائي
transitional	انتقالي (طور) (طقس)
grammaticalization	إنحاء
incorporation	اندماج
Australopithecus afarensis	الإنسان الأوسترالوبيتكي الأفاري
activation	إنشاط
activate and check	إنشاط وفحص
spreading activation	إنشاط انتشاري
autism	انطوائية (انطواء نفسي)
separation	انفصال
on-line	آن-لايني
crash	انهيار
access	اهتداء
primary	أولي
iconicité	أيقونية
principe d'iconicité	الأيقونية (مبدأ)

gesticulation	إيماء
well of knowledge	بئر المعرفة
elaboration	بلورة
Pidgin(s)	بيدجينة (بيدجينات)
Tarsioidea	تارسيويدي
indexation	تأشير
synthetic	تأليفي
motivation	تبرير
sériel, serial	تابعـ(ـي)
assembling	تجميع/ تركيب
pre-specification	تحديد ماقبلي
phenotype(s)	تحقق(ـات) ظاهريـ(ـة)
command (c-command, etc.)	تحكم
transformation(s)	تحويل (تحويلات)
synthesis (Fr : synthèse)	تخليق (البروتينات)
domestication	تدجين
conceptual association	ترابط مفهومي
associative	ترابطي
principe de l'ordre linéaire	الترتيب الخطي (مبدأ)
promotion; advancement	ترقية (المفعول)
composition	تركيب
commitment	التزام
genetic pre-wiring	تشبيك جيني ماقبلي
laryngeal/basicranial morphology	تشكل حنجري /ماتحت جمجمي
reduplication	تضعيف
congruence	تطابق
evolutionary	تطوري
gene expression	تعبيرة جينية

tuning	تعديل
learning, apprentissage	تعلّم
dendrite(s)	تغصّن (تغصّنات)
code-switching	تغيير السّنن
pairing	تقارن ثنائيّ (زوجيّ)
brain imaging technique	تقنية (تقنيات) تصوير الدماغ
compression	تكثيف
recursion, recursivity	تكرارية
repetition	تكرير
triplication	تكرير ثلاثيّ
replication, duplication	تكرير ثنائيّ (تضعيف)
quadruplication	تكرير رباعيّ
phylogenetic perspective	تكوينيّ
euphemism	تلطيف
superior temporal gyrus	تلفيفة صدغيّة عليا
conceptual representation	تمثيل مفاهيم (تصورات)
anthropocentricity	تمركز على الإنسان، مركزيّة الإنسان
preliminal	تمهيديّ
ontological correspondence	تناسب أنطولوجيّ
meshing	تنسيق
nurture	تنشئة، تربية
oratorical use	توظيف خطابيّ
prediction, anticipation	توقّع، استباق
rostral stream	تيار سهميّ منقاريّ
tertiary	ثالثيّ، ثلاثيّ
secondary	ثانويّ
invariance principle	الثّبات (مبدأ)
Symbolic Culture	ثقافة رمزيّة

Mythic Culture	ثقافة أسطورية
Mimetic Culture	ثقافة المحاكاة
Episodic Culture	ثقافة حدثية
bipedalism	ثنائي الساق/ الانتصاب
generic space	جامع (فضاء)
archiracine, archiroot	جذر جامع
insula	جزيرة
island(s)	جزيرة (جزر)
embodiment	جسدنة (نظرية)
corps	جسم، جسد
sentential	جملي
frontal-temporal-parietal region	جهة جبهية صدغية جدارية
Grammar gene(s)	جينات النحو
génome(s)	جينوم
barrier(s	حاجز (حواجز)
response buffer	حافظة الاستجابة
deoxyribonucleic acid (DNA)	حامض ديوكسيريبونووي (حدن)
apraxia	حبسة حركية
speech apraxia(s)	حبسة كلامية
mitochondrie(s)	حبة (حبيبات) خيطية
frontier(s)	حد (حدود)
speech-linked gesture(s	حركة جارحية مرتبطة بالكلام
intransitive movement(s)	حركة (حركات) غير متعدية
dynamic	حركي
système de la motricité volontaire	الحركية الإرادية (نظام)
bande de cortex cerebral	حزام القشرة الدماغية
rostral cingulate	حزام منقاري
government	حكم، عمل

amino acid	حمض (حمض أميني)
computational system	حوسبيّ (نظام)
extralinguistic	خارج اللغة
cytoarchitectonic map	خارطة الهندسة الخلويّة التكتونيّة
discursive	خطابيّ
linearity	خطّيّة
discourse linearity	خطّيّة الخطاب
macrolinearity	خطّيّة كبرى
middle linearity	خطّيّة وسطى
text(ual) linearity	خطّيّة النصّ، خطّيّة نصّيّة
microlinearity	خطّيّة صغرى
subject demotion	خفض الفاعل
cellulaire(s)	خلويّ
endogenous	داخليّ المنشأ
conceptual integration	دمج مفهوميّ، دمج تصوّريّ
external memory	ذاكرة خارجيّة
mind/brain	ذهن/دماغ
Primates	رئيسات
epanalepse	ردّ الصدور على الأعجاز
electroencephalograph (EEG)	رسم كهربيّ للدماغ
motif(s)	رسمة (رسمات) الوشم
symbol(s)	رمز (رموز)
symbolism	رمزيّة
principe de symbolicité	الرّمزيّة (مبدأ)
pantomime	سرد إيمائيّ
inheritance hierarchy	سلّميّة الإرث
grammatical feature(s)	سمة (سمات) نحويّة
microcircuit(s)	شبكة (شبكات) صغرى

Network (Model) of Conceptual Integration	شبكة (منوال) مزج مفهوميّ
web	شدّة الاتّصال
motor format	شكل حركيّ
global	شموليّ
Homo Faber	صانع (إنسان)
nature/nurture	طبيعة /تنشئة (تربية)
peripheral system(s)	طرفيّ (نظام)
mutation	طفرة
rite(s)	طقس (طقوس)
totem	طوطم
cross-domain	عابر للمجالات
Homo Sapiens	عارف (إنسان)
chômeur; chômage	عاطل
passage	عبور
threshold	عتبة إثارة
liminal rite(s)/ threshold rite(s	عتبيّ، حدوديّ
mother (node)	عجرة أمّ
daughter (node)	عجرة بنت
cognize, cognition, cognitive, cognizer	عرفن، عرفنة، عرفنيّ، معرفن
cognitive system	عرفنيّ (نظام)
verbal dyspraxia	عسر التّناسق الحركيّ النّطقيّ
dyslexia	عسر القراءة
vigesimal system	عشرينيّ (نظام)
Upper Paleolithic	العصر الباليوليتي العلويّ
Hyoid bone, os Hyoïde	عظم هيويديّ
Relational Grammar	علائقيّ (نحو)
vital relation(s)	علاقة (علاقات) أساسيّة

intra-spatial relations	علاقة (علاقات) داخل فضائية
neurology	علم الأعصاب
Neurogenetics	علم الأعصاب الجيني (علم الجينات العصبيّ)
ecological psychology	علم النفس البيئيّ
developmental psychology	علم النفس النمائيّ
genetics	علم الوراثة
gesture act(s)	عمل جارحيّ
feature blindness	عمى السمات
glia, glie, cellule(s) gliale(s)	غراء (خلايا غرائية)
unmarked	غير موسومة
unicity	فرادة / تفرّد
indexical hypothesis	فرضية إشارية
left temporal lobe	فصّ صدغيّ أيسر
ventral temporal lobe	فصّ صدغيّ جوفيّ
schizophrenia	فصام (انفصام نفسيّ)
inferior parietal lobule	فصيص صدغيّ سفليّ
input space(s)	فضاء (أفضية) دخل
nativism	فطريّة
speech-comprehension system	فهم الكلام (أو محلّل)
instantaneous	فوريّ، لحظيّ
supra-segmental	فوق-قطعيّ
Fox P2 (Forkhead box protein P2)	فوكس بـ2
unpacking	قابلية التفكيك
patterns	قالب (قوالب)
neocortex	قشرة جديدة
ventral premotor cortex	قشرة ما قبل الحركيّة الجوفيّة
underlying grammar	كامن (نحو)

Creole(s	كرولية (كروليات)
chromosome(s)	كروموزوم(ـات)
principe de quantité	الكمّيّة (مبدأ)
noncombinatoric	لاتوليفيّ
primary auditory cortex	لحاء سمعيّ أوليّ (أو أصليّ)
Biolinguistics	لسانيات بيولوجية
Homo Ludens	لعبيّ (إنسان)
sign language(s)	لغة الإشارة
Logogen system	اللّوغونات (نظام)
Logogen Theory	اللّوغونات (نظريّة)
myelinated fiber(s)	ليف ميلينيّ، ألياف ميلينيّة
Lemuroidea	ليموررويدي
postliminal rite(s)	مابعديّ
principle	مبدأ
simultaneous	متزامن
conceptualizer	متصوِّر
multi-cellular	متعدّد الخلايا
recurring	متكرّر
parallel	متواز، مواز
domain	مجال
embodied	مجسدَن
latéralisé (lateralized)	مجنَّب
mimesis	محاكاة
onomatopée	محاكاة (صوتيّة) لغويّة
tabou	محرَّم/ تحريم
local, local(ized)	محلّي
axone(s)	محور عصبيّ
microplanning	مخطَّط أصغر

macroplanning	مخطط أكبر
anthropocentricity	مركزية الإنسان
blending	مزج
blended space	مزيج (فضاء)
principe de la distance	المسافة (مبدأ)
synapse(s)	مشتبك عصبي
Human Genome Project	مشروع الجينوم البشري
source	مصدر
internal(ized) grammar	مضمر، داخلي (نحو)
congruent	مطابق
plasticity	مطاطية
Natural Language Processing (NLP)	معالجة اللغة الطبيعية
formulator	معبّر
lexical	معجمي
Paradox of Language Acquisition	معضلة الاكتساب اللغوي
conceptual	مفهومي، تصوري
communicative intention	مقصد تواصلي
articulator	مقطّع
utterance	ملفوظ، عبارة
Homo Erectus	منتصب (إنسان)
Broca's area	منطقة بروكا
Wernicke's area	منطقة فرنيكي
mirror system(s)	منظومة مرآة
modular	منظومي
body-part model	منوال أعضاء الجسد
anthropomorphic model	منوال الشكل البشري
zoomorphic model	منوال الشكل الحيواني
distribué, distributed	موزّع، متوزّع

marked	موسوم
emergentism	نشوئية / انبثاقية
système	نظام
système de sytèmes	نظام أنظمة، نظام من الأنظمة
Computational theories of lexical access	نظريات حوسبية في الاهتداء المعجميّ
Conceptual Metaphor Theory (CMT)	نظرية الاستعارة المفهومية
motor theory of speech perception	النّظرية الحركيّة في إدراك الكلام
dynamical systems theory	النُّظم الحركيّة (نظريّة)
move(ment)	نقل
mode	نمط
language phenotype	النّمط الظّاهر للّغة
modal	نمطيّ
noyau	نواة
nucleotide(s)	نوتد، نواتيد
mirror neuron	نورون مرآة
warts	نورونات غير طبيعيّة (ثآليل)
molecule	هباءة
molecular	هبائيّ
landing (site)	هبوط (موقع)
hybride	هجين
target domain	هدف
cyto-architectonique	هندسة تكتونيّة خلويّة
organism's *niche*	وسط الكائن/ بيئة
mark, marking	وسم
gnostic-praxic function	وظيفة غنوصيّة-عمليّة

المراجع العربيّة

ابن السّرّاج، أبو بكر محمّد بن سهل النّحويّ البغداديّ (316هـ). الأصول في النّحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط3، 1996.

ابن عبّاد، المعتمد (488 هـ). ديوان المعتمد بن عبّاد ملك إشبيليّة، جمعه وحقّقه: أحمد أحمد بدويّ وحامد عبد المجيد؛ وراجعه: طه حسين. المطبعة الأميريّة بالقاهرة، 1951.

ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم (213-276 هـ). أدب الكاتب، تحقيق: محمّد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة.

ابن يعيش، موفّق الدّين (643 هـ). شرح المفصّل، إدارة الطباعة المنيريّة، مصر.

الأستراباذيّ. رضيّ الدّين (570 هـ). شرح الرّضيّ لكافية ابن الحاجب، (المجلّد1: تحقيق حسن بن محمّد الحفظي، المجلّد 2: تحقيق يحيى بشير مصري)، جامعة الإمام محمّد سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1996.

تشاندلر، دانيال. [2002، 2007]. أسس السّيميائيّة، ترجمة طلال وهبة، المنظّمة العربيّة للتّرجمة. 2008.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (155 هـ- 255 هـ). كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده. 1965.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (155 هـ- 255 هـ). البيان والتبيين (ج1)، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة. 1998.

الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان. 1982.

حاتم، عماد. 1982. فقه اللّغة وتاريخ الكتابة، طرابلس (ليبيا): المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان،. الطبعة الأولى.

حجاج، كلود. [1993]. بناة اللّغة، ترجمة الأزهر الزّنّاد، المركز الوطنيّ للتّرجمة، ط1، تونس2010.

دي سوسور، فردينان. [1916]. علم اللّغة العامّ، ترجمة يونيل يوسف عزيز، دار آفاق عربيّة، بغداد، 1985.

ريستاك، ريتشارد. [2003]. المخّ الجديد: كيف يعيد العصر الجديد صياغة العقل؟ ترجمة: عزّة هاشم أحمد، الهيأة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 2010.

ريكور، بول. [2000]. الذّاكرة، التّاريخ، النّسيان، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط1، 2009.

الزّنّاد، الأزهر. 1998. المعجم في اللّغة العربيّة: تولّده وعلاقته بالتّركيب، أطروحة دكتورا الدولة، كلّية الآداب بمنّوبة.

الزّنّاد، الأزهر. 2003. الاشتراك بين المعجم والنّحو: المنوال الاحتماليّ في تولّد المعجم وانتظامه، مجلّة المعجميّة، عدد 18-19، 213-246.

الزّنّاد، الأزهر. 2005. الإشارات النّحويّة: بحث في تولّد الأدوات والمقولات النّحويّة من الأصول الأحاديّة الإشاريّة في اللّغة العربيّة، منشورات كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات، منّوبة، تونس.

الزّنّاد، الأزهر. 2007. حفريّات تاريخيّة في المعجم الذّهنيّ العربيّ، مادّة (ص ف ر) نموذجا، حوليّات الجامعة التّونسيّة، منشورات كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات بمنّوبة، عدد 52، 99-140.

الزّنّاد، الأزهر. 2010. فصول في الدّلالة ما بين المعجم والنّحو، تونس: محمد علي الحامّي؛ بيروت: الدّار العربيّة للعلوم، الجزائر: منشورات الاختلاف.

الزّنّاد، الأزهر. 2010. نظريّات لسانيّة عرفنيّة، تونس: محمد علي الحامّي؛ بيروت: الدّار العربيّة للعلوم، الجزائر: منشورات الاختلاف.

السكّاكي، أبو يعقوب (626 هـ). مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 2. 1987.

عبد الحميد جابر، جابر وكفافي، علاء الدّين. 1988-1996. معجم علم النّفس والطّبّ النّفسيّ (إنجليزيّ-عربيّ)، (8 أجزاء). القاهرة: دار النّهضة العربيّة.

العسكري، أبو هلال (395 هـ). كتاب الصّناعتين: الكتابة والشّعر، الأستانة، الطبعة 1، 1320 هـ.

العسكريّ، أبو هلال (395 هـ). الفروق اللّغويّة، تحقيق محمّد إبراهيم سليم، دار العلم والثّقافة، مصر، 1997.

الفراهيديّ، الخليل بن أحمد (175هـ). كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرّائيّ، مكتبة الهلال.

فوكو، ميشال. [1984]. تاريخ الجنسانيّة: استعمال المتع، ترجمة محمّد هشام، الدّار البيضاء: أفريقيا الشّرق. 2004.

كايوا، روجيه. [1950]. الإنسان والمقدّس، ترجمة: سميرة ريشا، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، 2010.

لوسركل، جان جاك. [1990]. عنف اللّغة، ترجمة وتقديم محمّد بدوي، الدار العربيّة للعلوم والمركز الثّقافيّ العربيّ. 2005.

المبرِّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد (210-285هـ). كتاب المقتضب، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ط 3. 1994.

المقري، إسماعيل بن أبي بكر (تـ837 هـ). مجموع المقري، مطبعة نخبة الأخبار، 1305 هـ.

هوستينغا، يوهان. [1938]. ديناميكيّة اللّعب في الحضارات والثّقافات الإنسانيّة، ترجمة: صديق محمّد جوهر، هيئة أبوظبي للثّقافة والتّراث - كلمة، الطبعة 1، 2012.

اليازجيّ، ناصيف. 1885. كتاب مجمع البحرين، المطبعة الأدبيّة، بيروت، الطبعة الرابعة.

يونغ، كارل قوستاف. [1958] التّنقيب في أغوار النّفس. ترجمة: نهاد خياطة، 1996، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان.

Allan, Keith. 1995. "The anthropocentricity of the English word(s) *back*". *Cognitive Linguistics* 6: 11–31.

Anderson, Elaine S. 1978. "Lexical Universals of Body-Part Terminology", in Joseph H. Greenberg, Charles A. Ferguson and Moravesik, Edith A. (eds.), *Universals of Human Language*, Volume 3: Word Structure, 335-368, Stanford University Press.

Asher, R.E., Simpson, J.M. (eds.), 1994. *The Encyclopedia of Language and Lingrustics*. Elsevier, Oxford.

Bailey, J. A., Yavor, A. M., Viggiano, L., Misceo, D., Horvath, J. E., Archidiacono, N., et al. 2002. Human-specific duplication and mosaic transcripts: the recent paralogous structure of chromosome 22. *American Journal of Human Genetics, 70*(1), 83–100.

Benoist, J. and Cathebras, P. 1993. The Body: from an immateriality to another. *Social Sciences and Medicine*, 36.7, 857-865.

Benveniste, E. 1974. *Problèmes de linguistique générale* (2). Gallimard.

Bod, R.; Hay, J. & Jannedy, S. (eds.). 2003. *Probabilistic Linguistics*. Cambridge: MIT Press.

Boeckx, Cedric & Grohmann, Kleanthes K. 2007. The *Biolinguistics* Manifesto. *Biolinguistics* 1: 001–008. ISSN 1450–3417 http://www.biolinguistics.eu

Boswel, F. 2006. Bible Translation into Lesser-Known Languages, in *Encyclopaedia of Language and Linguistics*, Amsterdam: Elsevier, 756-763.

Botha, Rudi P. 1988. *Form and meaning in word formation: a study of Afrikaans reduplication*. Cambridge: Cambridge University Press.

Brodmann, K. 1908. Beitrage zur histologishen Lokalisation der Grosshirnrinde: VI. Die Cortex gliederung der Menschen. *J. Psychol. Neurol., 10*, 231-246,

Brodmann, K. 1909. *Vergleichende Lokalisationlehre der Grosshimrinde in ihren Prinzipien dargestellt auf Grund des Zellenbaues*. Leipzig: Barth.

Buccino, G.; Vogt, S.; Ritzl, A.; Fink, G. R.; Zilles, K.; Freund, H.-J.; & Rizzolatti, G. 2004. Neural circuits underlying imitation learning of hand actions: An event-related fMRI study. *Neuron* 42, 323–334.

Capasso, Luigi; Michetti, Elisabetta; and D'Anastasio, Ruggero. 2008. A Homo Erectus Hyoid Bone: Possible Implications for the Origin of the Human Capability for Speech. *Coll. Antropol.* 32.4: 1007–1011.

Cavalli-Sforza, L. L. 1997. 'Genes, peoples, and languages,' *Proceedings of the National Academy of Sciences*, U. S. A. 94/15: 7719–24.

Chomsky, N. 1957. *Syntactic Structures*. The Hague: Mouton.

Chomsky, N. 1975 [1955]. *The Logical Structure of Linguistic Theory*. Chicago: University of Chicago Press.

Chomsky, N. 1980. *Rules and Representations*. New York: Columbia University Press.

Chomsky, N. 1986. *Knowledge of Language: its Nature, Origin and Use*. New York: Praeger.

Chomsky, N. 2000. *New Horizons in the Study of Language and Mind. Cambridge University Press.*

Chomsky, N. 2007. Of Minds and Language, *Biolinguistics* 1: 009–027, http://www.biolinguistics.eu

Christiansen, M. 1994. *Infinite languages, finite minds: connectionism, learning and linguistic structures*. Unpublished Ph.D. dissertation, University of Edinburgh.

Clark, A. 1997. *Being There: Putting Brain, Body and World Together Again*. Cambridge: MIT Press.

Clark, A. 2008. *Supersizing the Mind: Embodiment, Action, and Cognitive Extension*. Oxford: Oxford University Press.

Clayton, D. F. 2000. The genomic action potential. *Neurobiology of Learning and Memory*, *74*(3), 185–216.

Code, Chris. 2005. Syllables in the brain: evidence from brain damage in: Hartsuiker, Robert J; Bastiaanse Roelien; Postam, Albert and Wijnen, Frank. (eds.). *Phonological Encoding and Monitoring in Normal and Pathological Speech*. New York: Psychology Press. 119-136.

Corballis, Michael C. 2002. *From Hand to Mouth: The Origins of Language*. Princeton: Princeton University Press.

Damasio, Antonio. 2010. *L'autre moi-même: les nouvelles cartes du cerveau, de la conscience et des émotions*. [Original: Self

Comes to Mind. Constructing the Conscious Brain, Pantheon Books. 2010]. Traduit de l'Anglais par Jean-Luc Fidel. 2010. Odile Jacob.

Davidson, I. and W. Noble. 1992. 'Why the first colonisation of the Australian region is the earliest evidence of modern human behaviour,' *Archaeology in Oceania* 27: 135–42.

de Sousa, A. A.; Sherwood, C. C.; Mohlberg, H.; Amunts, K.; Schleicher, A.; MacLeod, C. E.; Hof, P. R., Frahm, H.; and Zilles, K. 2010. Hominoid visual brain structure volumes and the position of the lunate sulcus. *Journal of Human Evolution* 58. 281–292.

Deacon, T. 1997. *The Symbolic Species*. New York: W. Norton and Co.

Delacour, Jean. 1998. *Une introduction aux neurosciences cognitives*. De Bock & Larcier.

Delbecque, Nicole (ed.). 2002. *Linguistique Cognitive: comprendre comment fonctionne le langage*, (traduit et adapté de: René Dirven and Marjolein, Verspoor (eds.), 1998. *Cognitive Exploration of Language and Linguistics*, Bruxelles: De Boeck.

Deleuze, G. & Guattari, F. 1980. «28 novembre 1947. Comment se faire un corps sans organes?», *Mille plateaux. Capitalisme et schizophrénie 2*, Paris: Minuit.

DeRenzi, E. 1989. "Apraxia" in Boller F & Grafman J (eds.), *Handbook of Neuropsychology*. Amsterdam: Elsevier, 245-263.

Di Sciullo, Anna Maria ; Piattelli-Palmarini, Massimo ; Wexler, Kenneth; Berwick, Robert C., Boeckx, Cedric; Jenkins , Lyle; Uriagereka, Juan ; Stromswold, Karin; Lai-Shen Cheng, Lisa; Harley, Heidi ; Wedel, Andrew; McGilvray, James, van Gelderen, Elly ; & Bever, Thomas G. 2009. The Biological Nature of Human Language. *Biolinguistics*, www.er.uqam.ca/nobel/asymet/pdf/BNHL.pd

Dirven, René and Verspoor, Marjolein (eds.), 1998. *Cognitive Exploration of Language and Linguistics*. Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Company.

Donald, Merlin 1993. *Origins of the Human Mind: Three stages in the evolution of culture and cognition*. Harvard University Press.

Efron, David. 1941. *Gesture and Environment*. Morningside Heights, NY: King's Crown Press.

Ellis, N. C. 1998. 'Emergentism, connectionism and language learning,' *Language Learning* 48: 631–664.

ELL *Encyclopedia of Language and Linguistics*, 2005: 103, (Afrikaans).

Fabbri-Destro, Maddalena and Rizzolatti, Giacomo. 2008. Mirror Neurons and Mirror Systems in Monkeys and Humans. *Physiology* 23: 171-179.

Fadiga L, Craighero L, Buccino G & Rizzolatti G. 2002. 'Speech listening specifically modulates the excitability of tongue muscles: a TMS study.' *European Journal of Neuroscience* 15, 399-402.

Fairclough, N. 1995. *Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language*. London: Longman.

Fauconnier, Gilles and Turner, Mark. 1998. Conceptual Integration Networks, *Cognitive Science*, Vol. 22 (2): 133-187.

Fauconnier, Gilles. 2001. Conceptual Integration, Emergence and Development of Embodied Cognition (EDEC 2001).

Firth R. 1975 (1973). *Symbols: Public and Private*. Ithaca: Cornell University Press.

Fisher SE, Lai CS & Monaco AP. 2003. Deciphering the genetic basis of speech and language disorders. *Annual Review of Neuroscience*, 26: 57-80.

Fisher, Simon E. & Scharf, Constance. 2009. FOXP2 as a molecular window into speech and language. *Trends in Genetics*, 25(4): 166-177.

Fisher, Simon E. 2006. Tangled webs: Tracing the connections between genes and cognition. *Cognition* 101, 270-297.

Fodor, J. A. 2001 [1983]. *Modularity of mind*. Cambridge, MA: MIT Press.

Fónagy, Ivan. 1983. *La vive voix: Essais de psycho-phonétique*. Paris: Payot.

Forster, Kenneth I., 1989. Basic Issues in Lexical Processing, in Marslen-Wilson, William (ed.). *Lexical Representation and Process*. Cambridge, Mass: MIT Press., 1989, 75-109.

Freud, Sigmund. 1912. *Totem et tabou. Interprétation par la psychanalyse de la vie sociale des peuples primitifs*. (traduit de l'Allemand par S. Jankélévitch.)

Gallese, V.; Fadiga, L.; Fogassi, L. & Rizzolatti, G. 1996. Action recognition in the premotor cortex. *Brain* 119: 593-609.

Gallese, Vittorio. 2009. Motor abstraction: a neuroscientific account of how action goals and intentions are mapped and understood. *Psychological Research*, 73: 486–498.

Geschwind, Norman &. Galaburda, A. M. 1985. Cerebral lateralization: Biological mechanisms, associations, and pathology: II. An hypothesis and a program for research. *Archives of Neurology*, 42: 521-552.

Gibson, J. J. 1979. *The Ecological Approach to Visual Perception.* Boston: Houghton-Mifflin.

Glenberg, A. and Kaschak, M. 2002. "Grounding Language in Action," *Psychonomic Bulletin & Review* 9: 558–565.

Glenberg, A. and Robertson, D. 2000. "Symbol Grounding and Meaning: A Comparison of High-Dimensional and Embodied Theories of Meaning," *Journal of Memory and Language* 43: 379–401.

Glenberg, A., Havas, D., Becker, R., and Rinck, M. 2005. "Grounding Language in Bodily States: The Case for Emotion," in R. Zwaan and D. Pecher (eds.) *The Grounding of Cognition: The Role of Perception and Action in Memory, Language, and Thinking.* Cambridge: Cambridge University Press, pp. 115–128.

Glezerman, Tatyana B. and Balkoski, Victoria I. 2002. *Language, Thought and the Brain*, Kluwer Academic Publishers. New York, Boston, Dordrecht, London, Moscow.

Goldin-Meadow, S. 2003. *Hearing Gesture: How Our Hands Help Us Think.* Cambridge: Harvard University Press.

Gomez, Miguel Casas. 2009. Towards a new approach to the linguistic definition of euphemism. Language Sciences 31, 725-739.

Gopnik, M. 1990. Feature-blind grammar and dysphasia. *Nature*, 344, 715.

Gopnik, M., & Crago, M. B. 1991. Familial aggregation of a developmental language disorder. *Cognition*, 39, 1–50.

Grant, S. G. 2003. Systems biology in neuroscience: bridging genes to cognition. *Current Opinion in Neurobiology.* 13, 577–582.

Greenberg, Joseph H.. 1978. "Generalizations about Numeral Systems", in Joseph H. Greenberg, Charles A. Ferguson and Moravcsik, Edith A. (eds.), *Universals of Human Language,* Volume 3: Word Structure, 249-295, Stanford University Press.

Gupta, Prahlad and Mozer, Michael C. 1993. Exploring the Nature and Development of Phonological Representations. *Proceedings of the Fifteenth Annual Conference of the Cognitive Science Society.* Lawrence Erlbaum: Hillsdale, New Jersey.

Hartsuiker, Robert J; Bastiaanse Roelien; Postam, Albert and Wijnen, Frank. (eds.). 2005. *Phonological Encoding and Monitoring in Normal and Pathological Speech*. New York: Psychology Press.
Hauser, M. and W. T. Fitch. 2003. 'What are the uniquely human components of the language faculty?' in M.H. Christiansen and S.Kirby (eds): *Language Evolution*. Oxford: Oxford University Press.
Heine, B. 1997. *Cognitive Foundations of Grammar*, Oxford: Oxford University Press.
Heine, Bernd, and Reh, Mechthild. 1984. *Grammaticalization and Reanalysis in African Languages*. Hamburg: Helmut Buske.
Heine, Bernd; Claudi, Ulrike and Hünnemeyer. 1991. *Grammaticalization: A conceptual framework*. Chicago: University of Chicago Press.
Holloway, R. L.; Clarke, R. J.; and Tobias, P. V. 2004. Human Palaeontology and Prehistory: Posterior lunate sulcus in *Australopithecus africanus*: was Dart right?. C. R. Palevol 3. 287–293.
Hopkins, W. D., & De Waal, F. B. M.. 1995. Behavioral laterality in captive bonobos (*Pan paniscus*). *International Journal of Primatology*. 2, 261-276.
Hopkins, W. D., Russell, J. L., Freeman, H., Buehler, N., Reynolds, E., & Schapiro, S. J. 2005. The distribution and development of handedness for manual gestures in captive chimpanzees (*Pantroglodytes*). *Psychological Science*, 6, 487-493.
Hopper, Paul J., and Traugott, Elisabeth C. 2003. *Grammaticalization*. Cambrige: Cambrige University Press.[1993]
Hublin, Jean-Jacques; Gunz, P.; Neubauer, S.; and Maureille, B. 2010. *Brain development after birth differs between Neanderthals and modern humans*: doi:10.1016/j.cub.2010.10.018.
Iverson, Jana M., & Goldin-Meadow, Susan. 1997. What's communication got to do with it? Gesture in congenitally blind children. *Developmental Psychology* 33: 453–467.
Iverson, Jana M., & Goldin-Meadow, Susan. 1998.Why people gesture when they speak. *Nature* 396: 228.
Jackendoff, Ray. 1997. *The Architecture of Language Faculty*. Cambridge, Mass: MIT Press.
Jackendoff. R. 2002. *Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution*. Oxford: Oxford University Press.

James, William. 1890. *The Principles of Psychology*, vol. 2. London: McMillan & Co.

Jankélévitch, Vladimir. [1956], 1995. *Ravel* , 3éd., Paris: Seuil.

Johnson, M. 1987. *The body in the mind. The bodily basis of meaning, imagination, and reason*. Chicago: University of Chicago Press.

Keller, T.A; Carpenter, P. A. and Just, M. A. 2003. Brain imaging of tongue-twister sentence comprehension: twisting the tongue and the brain. *Brain and Language*. 84, 189-203.

Kendon, Adam. 1972. Some relationships between body motion and speech. In A. Siegman & B. Pope (eds.), *Studies in Dyadic Communication*, p p. 177–210. NewYork: Pergamon Press.

Kendon, Adam. 1988. How gestures can become like words. In F. Poyatos (ed.), *Cross-Cultural Perspectives in Nonverbal Communication*, pp. 131–141. Toronto: Hogrefe.

Kendon, Adam. 1995. Gestures as illocutionary and discourse structure markers in southern Italian conversation. *Journal of Pragmatics* 23: 247–279.

Kirby, S. 2002. 'Natural language from artificial life,' *Artificial Life* 8/2: 185–215.

Klein, R. 1999. *The Human Career: Human Biological and Cultural Origins*. Chicago: University of Chicago Press.

Kohler E., Keysers C., Umilta M. A., Fogassi L., Gallese V. & Rizzolatti G. 2002. 'Hearing sounds, understanding actions: action representation in mirror neurons.' *Science* 297, 846–848.

Kosslyn, Stephen M. 2005. Mental Images and the Brain. *Cognitive Neuropsychology*. 22(3/4). 333-347.

Krutak. Lars. 2010. *Tattooing in North Africa, The Middle East and Balkans.*
http://www.vanishingtattoo.com/north_africa_tattoo_history.htm
http://www.vanishingtattoo.com/north_africa_tattoo_history_4.htm

Lai, C. S. L., Fisher, S.E., Hurst, J.A., Vargha-Khadem, F., & Monaco, A.P. 2001. A novel forkhead-domain gene is mutated in a severe speech and language disorder. *Nature*, 413, 519–523.

Lai, C. S. L., Gerrelli, D., Monaco, A. P., Fisher, S. E., & Copp, A. J. 2003. FOXP2 expression during brain development coincides with adult sites of pathology in a severe speech and language disorder. *Brain*, 126, 2455–2462.

Lakoff, G. 1987. *Women, Fire and Dangerous Things: What Categories Reveal About the Mind*. Chicago: University of

Chicago Press.
Lascarides, A. & Stone, M. 2009. A Formal Semantic Analysis of Gesture, *Journal of Semantics* 26: 393-449. Oxford University Press.
Lehmann, C. 2004. Theory and method in grammaticalization. *Zeitschrift für Germanistische Linguistik* 32: 2 ; 152-187. http://www.uni-erfurt.de/sprachwissenschaft/ personal/lehmann/
Lenneberg, E. H. 1967. *Biological foundations of language*. New York: Wiley.
Leroi-Gourhan, André. 1964. *Gesture and speech*, translated from French by Anna Bostock Berger, (1993), Cambridge: MIT.
Levelt, Willem J. M. 1989. *Speaking, from Intention to Articulation*, Cambridge, Mass: MIT Press.
Levinson, Stephen C. 2003. *Space in Language and Cognition: Explorations in Cognitive Diversity*, Cambridge University Press.
Liberman, AM & Mattingly, IG. 1985. The motor theory of speech perception revised. *Cognition* 21: 1–36.
Liberman, AM & Whalen, DH. 2000. On the relation of speech to language. *Trends Cogn Sci* 4: 187–196.
Liberman, AM; Cooper, FS; Shankweiler, DP; & Studdert-Kennedy, M. 1967. Perception of the speech code. *Psychol Rev* 74: 431–461.
Liebenthal, Einat; Binder, Jeffrey R.; Spitzer, Stephanie M.; Possing, Edward T. and Medler, David A. 2005. "Neural Substrates of Phonemic Perception". *Cerebral Cortex*, October 2005; 15: 1621-1631. Oxford University Press.
Lipiński, Edward. 1997. *Semitic languages: outline of a comparative grammar*. Peeters Publishers.
MacDermot, K. D., Bonora, E., Sykes, N., Coupe, A. M., Lai, C. S. L., Vernes, S. C., et al. 2005. Identification of FOXP2 truncation as a novel cause of developmental speech and language deficits. *American Journal of Human Genetics*, 76, 1074–1080.
Mandel, Mark. 1977. Iconic devices in American Sign Language. In Lynn A. Friedman (Ed.), *On the other hand: New perspectives in American Sign Language*, pp. 57–107. London: Academic Press.
Marcus, G. F. 2006. Cognitive architecture and descent with modifcation. *Cognition* 101, 443–465.

Marr, D. 1982. *Vision*. San Francisco: Freeman.

McCandliss, B. D., Cohen, L., & Dehaene, S. 2003. The visual word form area: expertise for reading in the fusiform gyrus. *Trends in Cognitive Sciences*, 7(7), 293–299.

McNeill, David. 2005. *Gesture and Thought*. Chicago: The University of Chicago Press.

Meader, Clarence L. & Muyskens, John H. 1950. *Handbook of Biolinguistics*. Toledo: H.C. Weller.

Meguerditchian, A. 2009. *Latéralité et communication gestuelle chez le babouin et le chimpanzé : à la recherche des précurseurs du langage*. Thèse de doctorat (sous la direction de Jacques Vauclair, Université d'Aix-Marseille, Aix en Provence.

Merleau-Ponty, Maurice. 1945. *Phénoménologie de la perception*. Gallimard.

Moro-Abadia, Oscar and González Morales, Manuel R. 2005. L'analogie et la représentation de l'art primitif à la fin du XIXè siècle (Analogy and representation of primitive art at the end of the nineteenth century). *L'anthropologie* 109. 703-721.

Morton, J., & Long, J. 1976. Effect of word transitional probability on phoneme identification. *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior*, 15, 43-52.

Morton, J. 1969. Interaction of information in word recognition. *Psychological Review*, 76, 165-178.

Morton, J. 1979. Word recognition. In J. Morton & J.D. Marshall (eds.), *Psycholinguistics 2: Structures and processes*. 107-156. Cambridge, Mass: MIT Press.

Morton, J. 1982. Disintegrating the lexicon: An information processing approach. In J. Mehler, E. Walker, & M. Garrett (Eds.). *On mental representation*. Hillsdale, N.J.: Erlbaum.

Müller, Cornelia. 2000. *Lectures on Gesture*. University of Chicago.

Munro, Neil Gordon. 1963. *Ainu Creed and Cult*. New York: Columbia University Press

Nishitani, Nobuyuki; Schürmann, Martin; Amunts, Katrin and Hari, Riitta. 2005. Broca's Region: From Action to Language. *Physiology* 20: 60-69.

Núñez, R. E. & Sweetser, E. 2006. With the future behind them: Convergent evidence from Aymara language and gesture in the crosslinguistic comparison of spatial construals of time. *Cognitive Science*, 30, 1-49.

Onfray, Michel. 2007. *In defense of Ateism*, translated from the French by Jeremy Leggatt, Canada: Viking. (2005. Editions Grasset & Fasquelle).

Parrill, Fey, & Sweetser, Eve. 2004. What we mean by meaning: Conceptual integration in gesture analysis and transcription. *Gesture* 4: 197–219.

Peirce, Charles S. 1960 [1931]. Division of signs. In C. Hartshorne & P. Weiss (eds.), *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, vol. 1. *Principles of Philosophy, Elements of Logic*. Cambridge: Harvard University Press.

Perlmutter, David M. and Rosen, Carol G (eds.). 1984. Studies in Relational Grammar 2. Chicago: University of Chicago Press.

Perrin, Julie. 2006. Les corporeités dispersives du champ chorégraphique: Odile Duboc, Maria Donata d'Urso, Julie Nioche, in: Actes du colloque international *Projections: des organes hors du corps* (13-14 octobre 2006). http://www.epistemocritique.org/IMG/pdf/Projections Perrin.pdf

Petitot-Cocorda, Jean. 1985. Morphogenèse du Sens, I. Pour un schématisme de la structure. Paris: PUF.

Piattelli-Palmarini, Massimo (ed.). 1980. *Language and Learning: The Debate between Jean Piaget and Noam Chomsky*. London: Routledge & Kegan Paul.

Piattelli-Palmarini, Massimo. 1974. A debate on bio-linguistics. *Centre Royaumont pour une science de l'homme report*. [Conference held at Endicott House, Dedham, Massachusetts, 20-21 May, 1974.]

Pinker, S. 1994. *The language instinct*. London: Allen Lane.

Pinker, S. 2002. *The blank slate*. New York: Viking.

Pinker, S. and Bloom, P. 1990. Natural language and natural selection. *Behavioral and Brain Sciences* 13: 707–84.

Quintilian, Marcus Fabius. 1977. *Institutio Oratoria, Classici della Nuova Italia*. Firenze: La Nuova Italia.

Quintilian, Marcus Fabius. Institutio Oratio, XI, Chapt 3 (On Gestures).

http:///cer.stanford.edu/archive/2009.02.23.QuintilianonGestures

Radden, G. & Panther, K-U. (eds.). 2004. *Studies in Linguistic Motivation*. Berlin: Mouton de Gruyter.

Radford, Andrew. 2004. *Minimalist Syntax*. Cambridge: Cambridge University Press.

Ramus, Franck. 2006. Genes, brain and cognition: A roadmap for the cognitive scientist. *Cognition* 101: 247-269.

Rauscher, F., Krauss, R., and Chen, Y. 1996. "Gesture, Speech, and Lexical Access: The Role of Lexical Movements in Speech Perception." *Psychological Science* 7: 226–231.

Ravel, Maurice. 1989. *Lettres, écrits, entretiens*, réunis, présentés et annotés par Arbie Orenstein, traduction de Dennis Collins, Paris: Flammarion.

Schegloff, Emanuel A. 1984. On some gestures' relation to talk. In J. M. Atkinson & J. Heritage (eds.), *Structures of Social Action*, pp. 266–298. Cambridge: Cambridge University Press.

Schlosser, G., & Wagner, G. P. 2004. *Modularity in development and evolution*. Chicago: University of Chicago Press.

Schmidt, P. Wilhelm S.V.D. 1926. *Die sprachfamilien und sparachenkreize der Erde*. Hiedelberg: Winter.

Schönig, Hanne. 2006. Le corps et les rites de passage chez les femmes du Yemen. *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, 113-114, 167-178.

Schwartz, R. J., & Olson, E. N. 1999. Building the heart piece by piece: modularity of cis-elements regulating Nkx2-5 transcription. *Development*, *126*(19), 4187–4192.

Selnes, O. 2006. Apraxia, Handedness and Language Laterality, in *Encyclopaedia of Language and Linguistics*, Amsterdam: Elsevier. 420-423.

Senghas, A., Kita, S. and Ozyurek, A.. 2004. 'Children creating core properties of language: evidence from an emerging sign language in Nicaragua,' *Science* 305: 1779–82.

Shafer, D. D. 1993. Patterns of hand preference in gorillas and children. In J.P. Ward, W.D. Hopkins (Eds.), *Primate laterality: Current behavioral evidence of primate asymmetries* (pp. 267-283). New York: Springer-Verlag.

Shafer, D. D. 1997. Hand preference behaviors shared by two groups of captive bonobos. *Primates*, *38*, 303-313.

Shapiro, Lawrence A. 2011. *Embodied Cognition*. London and New York: Routledge.

Stampe, David. 1976. Cardinal number systems. In S. Mufwene, C. Walker, & S. Steever, eds., *Papers from the Twelfth Regional Meeting of the Chicago Linguistic Society*, 594–609. Chicago: Chicago Linguistic Society.

Svorou, Soteria. 1994. *The grammar of space*. Amsterdam: John Benjamins.
Taub, Sarah F. 2001. *Language from the body: Iconicity and metaphor in American Sign Language*. Cambridge, MA: Cambridge University Press.
Tavangar, Manoochehr & Amouzadeh, Mohammad. 2006. Deictic Projection: An Inquiry Into The Future-Oriented Past Tense In Persian. *Studia Linguistica* 60 (1). 97-120.
Tesak, Juergen & Code, Chris. 2008. *Milestones in the History of Aphasia: Theories and Protagonists*, New York: Routledge.
Thelen, E., Schöner, G., Scheier, C., and Smith, L. 2001. "The Dynamics of Embodiment: A Field Theory of Infant Perseverative Reaching," *Behavioral and Brain Sciences* 24: 1–86.
Tinbergen, Nikolaas. 1963. On the aims and methods of ethology. *Zeitschrift für Tierpsychologie* 20(4), 410-433.
Turner, Mark. 2000. Conférences au Collège de France: 3. *La Perspicacité et la Mémoire*. (Paris, 20 juin 2000) http:// turner.stanford.edu
Ullmann, S. 1962. *Semantics: an introduction to the science of meaning*. Oxford. Blackwell.
Ullmann, S. 1966."*Semantic Universals*", in: J. Greenberg (ed.). Universals in Language, Cambridge. MA. MIT Press, pp 217-62.
van Gennep, Arnold. 2004. *The Rites of Passage* (1909). translated by Gabrielle L. Caffee and Monika B. Vizedom (first published 1960). Routledge.
Van Huyssteen, Gerhard B. 2004. Motivating the composition of Afrikaans reduplications: a cognitive grammar analysis. In: Radden, G & Panther, K-U. (eds.). 2004. *Studies in Linguistic Motivation*. Berlin: Mouton de Gruyter. pp. 269–292.
Varela, F., Thompson, E., and Rosch, E. 1991. *The Embodied Mind: Cognitive Science and Human Experience*. Cambridge: MIT Press.
Vauclair, J. 2004. Lateralization of communicative signals in nonhuman primates and the hypothesis of the gestural origin of language. *Interaction Studies. Social Behaviour and Communication in Biological and Artificial Systems*, 5, 363-384.
Vauclair, J., Meguerditchian, A., & Hopkins, W. D. 2005. Hand preferences for unimanual and coordinated bimanual tasks in

baboons (*Papio anubis*). *Cognitive Brain Research*, 25, 210-216.

Vernes S. C., Newbury D. F, Abrahams B. S, Winchester L, Nicod J, Groszer M, Alarcón M, Oliver PL, Davies KE, Geschwind DH, Monaco AP & Fisher SE. 2008. A functional genetic link between distinct developmental language disorders. *New England Journal of Medecine*, 359(22): 2337–2345.

Wagner, K.; Reggia, J. A; Uriagereka, J. and Wilkinson, G. S. 2003. 'Progress in the simulation of emergent communication and language.' *Adaptive Behavior* 11 1: 37–69.

Wang, W. S.-Y; Ke, J.-Y and Minett, J. W. 2004. 'Computer modeling of language evolution' in C.-R. Huang and W. Lenders (eds.): *Computer Linguistics and Beyond: Perspectives at the Beginning of the 21st Century*. Taipei: Language and Linguistics, Academia Sinica.

Watkins, KE; Strafella, AP & Paus, T. 2003. Seeing and hearing speech excites the motor system involved in speech production. *Neuropsychologia* 41: 989-994.

Welté, Anne-Catherine and Lambert, Georges-Noël. 2005. Aux origines de la spiritualité: la notion de transcendance au Paléolithique (At the source of the spirituality and the transcendence notion). *L'anthropologie* 109. 723-741.

Wexler, M., Kosslyn, Stephen M. and Berthoz, Alain. 1988. Motor processes in mental rotation. *Cognition*, 68. 77-94.

Whorf, B. 1956. *Language, Thought and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf*. J. Carroll (ed.). Cambridge: MIT Press.

الفـــهـــرس

Achevé d'imprimer sur les presses de
Imprimerie Reliure d'Art
Tél : 74 432 030 Fax : 74 432 076
Dépôt légal : 1ère trimestre 2017

هذا الكتــاب

بحث في اللّغة والجسد:

بحث في ما به تتشكّل اللّغة ملكةً في الدّماغ

(اللّغة في الجسد)،

وفي ما به يكون تصوّر الجسد واشتغاله في الذّهن والتّعبير عنه في اللّغة

(الجسد في اللّغة)،

وفي ما به تتجسّد اللّغة وتتحقّق في بعديها الفيزيائيّ والدّلاليّ

(جسد اللّغة)،

وفي ما به يكون الجسد أداةً للتّعبير في مختلف المنظومات الرّمزيّة

(لغة الجسد).

هو بحث في ما به الإنسان إنسان: جسدا كائنا في التّاريخ يبني الثّقافة والحضارة والرّمز ولذلك كانت العناية بالجسد كائنا مادّيا واجتماعيا ثقافيا رمزيّا وباللّغة نظاما رمزيّا ذهنيّا ينتجه الدّماغ فاعلا في محيطه منفعلا به.

ت د م ك : 978-9973-37-904-7 الثمن: 20 دينارا